

نوايا وحروب
العميد الدكتور سعد العبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

العميد الدكتور
سعد العبيدي

نوايا وحروب

نظرة نفسية لوقائع حروب ، ومعارك دامت أكثر من ثلاثين عاما

إهداء

إلى الذين يفتشون عن الحقيقة وسط أكوام الضلالة
أملًا في أن يجدوها داخل أسوار العراق

تقديم

كثيرة هي الحروب التي خبرها العراق عبر تاريخ يمتد في عمق الحضارة الإنسانية سبعة آلاف سنة أو ما يزيد . وكثيرة تفاسير تلك الحروب التي أرجعها البعض إلى عوامل الجغرافية حيث الأرض المنخفضة لما جوارها من أراض تدفع من في الأعلى على التوجه إلى هذه الأرض السواد ، وحيث الأرض الخصبة ، والنهرين الغزيين يغريان من في الصحراء إلى التوجه صوب سوادها المعطاء . وأرجعها البعض إلى موقع العراق وسطا بين القارات ، حتى بات ممرا لمن يقصد الغرب مرورا يعني الحرب على من في الطريق ، أو مسلكا إلى الشرق يستدعي الحرب على القرييين من حافاته . وأرجعها البعض الآخر إلى عوامل التحضر التي عاشها أهل العراق عبر مراحل التاريخ التي دفعت من أقل تحضرا ، وأكثر همجية إلى تدمير هذه الحضارة حقدا ، أو رغبة في تشبعها لأهلها المتخلفين .

وفرق أخرى من المفسرين لم تستثن الدين ، والسياسة من توجهاتهم للتفسير . وهي جميعها صحيحة تنطبق على غالبية حروب أهل العراق ، أو على بعض منها ، لكنها ومن زوايا الحاضر ، وأبعاد العيش وسطها ، والتدقيق في نواياها لا نجد صلة جامعة بين عموم تفسيراتها تدفع إلى تعميمها على حروب الحكومة الحالية التي لم تتوقف منذ أربع ، وثلاثين سنة مستمرة .

لأنها حروب في أغلبها كانت مجرد نوايا ، وأفكار عند القائد الأعلى ، وتقديرات للحزب الحاكم ، أهدافها ليست ثابتة تتبدل وتتغير تبعا لتبدل النوايا والأفكار ، أعدائها الجميع حتى أبطالها الذين يحشرون في زاوية الأعداء ليكونوا هدفا لها عندما تقتضي الضرورة .

وهذا من بين الأسباب التي دفعت إلى التفتيش عن تفسير قريب من الواقع لتلك الحروب الخارجية والداخلية التي بدأت منذ عام 1968 ، وأحصيت لها أربعة عشر حربا يمكن أن توصف بالحرب على وفق معايير الأطراف المشاركة فيها ، ونتائجها ونوايا القيام بها ، وشدة خسائرها ، على الرغم من أن البندقية ، والمدفع لم تكن أدواتها جميعا ، وإن العلنية لم تكن صفتها جميعا والحجة في ذلك أن الحرب بمفهومها العام في وقتنا الراهن لا تعني فقط استخدام سلاح ناري للقتل ، أو شامل للتدمير .

فهناك أدوات للقتل غير البندقية . وهناك وسائل للتدمير غير المدفع ، والطائرة . وهناك متغيرات لفرض الإرادة غير الجيوش .

إن التوجه إلى عرض ، وتفسير تلك الحروب المتداخلة من وجهة نظر نفسية يمكن أن يقرب القارئ إلى الواقع الذي يعيشه العراقيون فعلا خاصة إذا ما دعم بالشواهد ، والقصص الحقيقية لمجرباتها ، التي أخذت من يوميات اعتاد فيها الكاتب توثيق غالبية الأحداث ، ومن خبرة العيش في أجوائها وظيفها ، وسياسيا لست وعشرين سنة كافية من الناحية العملية لتناول حروبها التي جرت في الظل ، أو تلك التي شنت في العلن .

تناول بأسلوب يقترب من السرد التاريخي لوقائع محددة تساعد القارئ على إدراك الحقيقة رغم عدم التقيد بالمنهج التاريخي في كتابتها .

وعرض لبعض مشاهداتها يقترب من العرض العسكري رغم أن الغاية لم تكن كتابة معارك بالأسلوب العسكري .

ومحاولة لتسليط الضوء على كثير من وقائعها من وجهة نظر نفسية رغم أن الأساس لم يكن كتابا منهجيا في علم النفس .

لكنها سعي للمزج بين تلك المحاولات ، والأساليب لعرض ما جرى بأسلوب فيه قدرا من التحليل يسهل على القارئ تناول وقائع تلك الحروب .

وفيه من الأمثلة الواقعية ، والشواهد الحقيقية وضعت هوامش أسفل الصفحات لتقرب صورة الحرب ونواياها أمام القارئ بشكل معقول¹.

إنها محاولة لعرض وتفسير مرحلة تاريخية مر بها العراق ، وما زال محشورا فيها

كلفت شعبه ملايين القتلى ، ومثلهم من الجرحى ، والمعاقين ، والمشردين على بقاع العالم ، وملاييرات الدولارات ، وعودة إلى الماضي المتخلف .

مرحلة تستحق المتابعة ، والتفسير ، وإن كتب عنها الكثير .

¹. للأمانة العلمية أن جميع الوقائع المذكورة ، والأشخاص المنوه عنهم والتواريخ المشار إليها حقيقية ، باستثناء اسم المقدم سمير الزبيدي والرائد محمد عبد القادر ، اللذان ورد اسميهما لما يتعلق بحرب الخليج الثانية حيث لم تكن كما هي في الواقع لأنهما موجودان في داخل العراق ، وذكر حادثتهما المثيرة كما وردت سيكلفهم غالبا من الناحية الأمنية.

وتستحق أن يطلع عليها جميع العراقيين ليعرفوا دوافعها أملا في أن لا يقعوا ثانية في دائرة الحروب .
وتستحق كذلك أن يدركها غير العراقيين ليأخذوا منها العبر في أن لا يكونوا ضحايا حروب في غفلة من الزمن مثلما كان العراقيون .

الفصل الأول لماذا الحرب

إن الحكومة في العراق قد خططت مسبقاً لصيغة تستطيع من خلالها تعبئة الجيش، والمجتمع العراقي للحرب بسرعة فائقة، وبقدرة حشد بشري كبيرة بالمقارنة مع عدد السكان.

الحرب أحد معالم الصراع

يعيش الإنسان ومنذ أولى بداياته على كرتنا الأرضية صراعاً بدأه أولاً مع نفسه أي في داخله ، صراعاً بين :

الخير والشر كما كان شائعاً في عصور ما قبل علم النفس .
وبين رغبة غريزية يود تحقيقها ، والضوابط والمفاهيم السائدة التي يرى الآخرون القريبين منه ضرورة عدم تجاوزها .

وهكذا أشكال متعددة من الصراع في جوانب مختلفة من جهازه النفسي امتدت من داخله إلى الآخرين صراعاً :

بين فرد وآخر أو مجموعة وأخرى تطور مع الزمن ليصل إلى صراع دول ، وشعوب ، ومجتمعات متحالفة تارة ، ومتنافرة تارة أخرى ، وكأنه سمة من سمات الحياة عدها البعض من المتخصصين مسألة غريزية ، أو بايولوجية موروثية ، وعدها البعض الآخر خاصية نفسية تنتقل بالاكْتساب، أو عن طريق الموروث الحضاري كانت من بين الدوافع الأساسية لإنتاج الحروب عبر الزمن كما يراها العديد من الفلاسفة ، وتؤكدُها غالبية المدارس النفسية .

والحرب بكل الأوجه التي ينظرها أولئك الفلاسفة عبر التاريخ ، ويؤكدُها النُفُسانيين في العصر الحديث هي أحد أوجه الصراع ، أو ذلك الوجه الذي يعبر عن استخدام القوة لتحقيق أهداف محددة باتت السياسة أهمها بعد أن عرف الإنسان الدولة والحكومة والتجمعات البشرية .

وهي أي الحرب وأياً كانت أهدافها السياسية وغير السياسية إن وجدت ، فإن النظرة إلي نتائجها عادة ما تكون مختلفة تبعاً لمجال المعنيين بوصفها ، أو تخصصهم لدراستها .
إذ يرى فيها السياسيون على سبيل المثال أداة من أدوات السياسة لفرض إرادة طرف على الطرف المقابل لم تستطع الوسائل الأخرى (غير الحربية) تحقيقها لأن الرابح في الحرب يملئ عادة شروطه أي فرض إرادته على الخاسر ، والأخير لا خيارات في جعبته سوى القبول بتلك الشروط دون أدنى شك ، وإن تيسرت له فرصة للمناورة فتقليل الخسارة أعلى ما يستطيع السعي إليه .

ويرى فيها البعض من علماء الطبيعة حقيقة لديمومة التوازن البشري على الكرة الأرضية . إذ تسبب الحروب خسائر بالأرواح ، وتقلل نسب الإنجاب ، وهذه من وجهة نظر هؤلاء العلماء تعد عوامل مهمة لتنظيم عدد سكان الدولة ، والإقليم ، والقارة ، ومن ثم العالم حسب القدرة المحددة ، للاستيعاب ، والعيش بشكل متوازن .

بينما يعتقد علماء التحليل النفسي ، ومريديه :
أنها مسرب من مسارب العدوان الموجود أصلا في النفس البشرية ، ضروري لديمومة استقرارها أي النفس البشرية واستمرار توازنها بقدر سوي .
وإن حدوثها على مستوى الدولة ، أو مجموعة الدول وإن غطي بالأغراض السياسية ، فإن بدايتها الإنسان الفرد تحت ضغط العدوان .

مؤكدین وجهة نظرهم هذه كون غالبية قادة الحروب والساعين إليها هم بمواصفات ، وخصائص نفسية يغلب عليها الميل إلى العنف والعدوان ، الذي يكون موجودا في داخلهم بأشكال تقترب من الغريزية مثل (هتلر ، موسيليني ، صدام وغيرهم الكثيرين) .

العسكر والحرب

أما العسكر بين السياسيين، وعلماء الطبيعة ، والنفسانيين فقد وجدوا أنفسهم أداة لتنفيذ الأوامر بهدف تحقيق غاية محددة صنفها سياسيا بفرض الإرادة التي تتأتى عادة من دوافع ذاتية للفرد الحاكم ، والجماعة الحاكمة ، أو ذات الصلة المباشرة بالأهداف الوطنية للأمة (في حالات الدفاع) .

وهذه وجهة نظر يقدمها العسكريون المهنيون بشكل مجرد عندما يؤكدون أن دورهم في الحروب لا يتعدى الجوانب الفنية باتجاه التهيؤ الدائم لخوضها هجوما لفرض إرادة الحكومة التي أمرت بالهجوم ، أو دفاعا للحيلولة دون فرض أخرى لخصم لهم في الميدان . وهي مع ذلك وجهة نظر لم يرها الآخرون المهتمون بشؤونهم مناسبة لتعميمها رؤية لدور العسكر في الحروب على طول الخط وفي جميع الحالات ، وهناك على حد زعمهم حروبا يسببها العسكر عندما يحكمون البلاد حكما عسكريا مباشرا ، وهم ليسوا قلة في عالم اليوم وما سبقه عبر مراحل التاريخ غير البعيدة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن البعض من علماء النفس ، والاجتماع يرون أن موقف العسكر لم ينته عند حدود تنفيذ أوامر السياسيين لتحقيق أهداف محددة فقط ، بل يتعداه في بعض الأحيان إلى إغوائهم أي السياسيين ولو بشكل غير مباشر لخوض البعض من الحروب عندما يوحوا لهم أن قوتهم العسكرية باتت تفوق من حيث القدرة ، والكفاءة خصومهم الآخرين في دائرة الصراع الموجود بشكل واضح ، أو غير مكشوف ، وإغواء من هذا النوع يدفع السياسيين باتخاذ قرار الحرب الذي ينفذه العسكريون الذين سعوا إليه عن طريق الإيحاء والتوريط .

وعموما تلك وجهات نظر موجودة جميعها على أرض الواقع ، تدعم وجودها أحداث التاريخ القديم والحديث جيدا، إذ قيل قديما:

. أن المجتمع الإسبارطي على سبيل المثال مجتمع حرب ، وقادة إسبارطة يعدون شعبهم للحرب في كل مراحل النمو التي تبدأ من قرارهم الإبقاء على الطفل الوليد إن كان سليما ، ومن ثم إدخال الصبية والشباب في برامج تأهيل عسكرية تجعل منهم محاربين كما تريد الدولة ، ويصبحون هم أداة سحب الدولة إلى الحرب.

.وأشير قبيل منتصف القرن الماضي أن الحزب النازي في ألمانيا يميل إلى استخدام الحرب وسيلة لتحقيق أهدافه قبل التفكير بغيرها من الوسائل المتاحة ، فطلب من الجيش بعد أن تولى أمر السياسة إكمال استعداداته ، ومن ثم الهجوم على جيرانه ومن بعدهم البعيدون منه .

وقيل أيضا أن هتلر يعتقد أن الحرب ليست وسيلة لتحقيق أهداف حزبه النازي في التوسع وبسط النفوذ ، بل وكذلك مجالا للتخلص من أنواع أخرى للبشر صنفها درجات لا تستحق العيش بالتساوي مع ذوي الدرجات العليا من الألمان ، والقرييين إليهم من الأوربيين.

العراق الحالي والحرب

لو تركنا أحداث القرن الماضي وما قبلها في عموم المعمورة وتحولنا إلى أمثلة قريبة من واقعنا المعاش :

مكانيا حيث العراق بلاد ما بين النهرين التي تمتد جذوره في أعماق التاريخ آلاف السنين . وزمانيا حيث العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي التي يعيش غالبية المعنيين بأحداثها حتى وقتنا الراهن ، ويتذكر الباقون على قيد الحياة عراقيين وغير عراقيين جسامة تأثيراتها التي ما زالت كثير من جوانبها قائمة تصلح عمليا ، وعلميا أن تقدم معطيات لتفسير طبيعة الحروب التي اندفع النظام الحاكم لحزب البعث العربي الاشتراكي في خوضها ، حروبا مستمرة انتهى البعض منها ، وبقي البعض الآخر قائما من وجهة النظر العسكرية والاجتماعية حتى وقتنا الراهن ، حيث يمهد تحليل دوافعها ، وأسبابها ، وملابساتها الطريق للإجابة على سؤال طالما شغل بال العراقيين ، والعرب وربما الكثيرين من سكة المعمورة قوامه :

لماذا كل هذه الحروب التي لم يحقق أي منها الأهداف (السياسية) المعلنة لقيامها؟ ومثل هكذا سؤال يخص حروب العراق الحديثة تتطلب الإجابة القريبة من الواقع عن بعض خفاياها عدم التوقف عند النظرة الفلسفية رغم الحاجة إليها، وكذلك عدم الخوض في التفسيرات الطبيعية رغم أهميتها ، والسعي إلى التركيز فقط على الرؤية السياسية والعوامل الذاتية (النفسية) فيها ، لأنهما العاملان الأكثر وضوحا في تلك الحروب ، ولأن التقائهما معا كان الأكثر فاعلية في إنتاج غالبيتها داخلية كانت أم خارجية منذ استلامهم السلطة عام 1968 وحتى الزمن الحالي ، خاصة وإنهم وعلى لسان صدام حسين في لقاء له مع ضباط للاستخبارات العسكرية بعد حرب الخليج الثانية مباشرة قد عبر عن صيغتها بدقة عندما أشار إلى أن الحرب (مصدر التوثيق ، والتخليد التاريخي الأكثر أهمية وعظمة) .

كل التطورات الحضارية لا تأخذ ركنا أساسيا من أركان التاريخ مقارنة بما يمكن أن تحتله الحروب .

المهم أن يكتب التاريخ للقائد حروبا كبرى ، وأن يبقى سالما لمواصلة ، واستئناف أهدافه.

لا قيمة للخسائر المادية ، والبشرية في مقابل الدخول إلى التاريخ) .
لكن رؤى الحزب للحرب قد سبقت صدام حسين ، وربما تولدت مع بدايات تأسيسه
حزبا ثوريا في ظروف الأربعينات من القرن الماضي ، أو يكون بعضها رغبات وميول
موجودة أصلا في عقول مؤسسيه قبل إعلانهم مشروعه أمام الجماهير العربية التي
أضناها التعامل الخطأ مع كل قضاياها المصيرية .

أو بعض منها اكتساب لرؤى سادت المنطقة عن ضرورات الأخذ بمنطق القوة في التعامل
مع العمل السياسي بكل أشكاله ، يرى سعد البزاز في كتابه رماد الحروب فيها وسيلة
لممارسة الحروب (إن الاستسلام لمنطق القوة في ممارسة العمل السياسي هو وضع ناتج
عن تراكمات اجتماعية ونفسية غير سوية ولدت في عصر الانقلابات العسكرية التي
سمحت بأن يكون هناك دور سياسي للدبابة التي تزحف في فجر يوم للاستيلاء على
الحكم ، كما ترعرعت في الاتجاه نفسه العقلية الانقلابية للأحزاب الثورية التي تبيح
استخدام القوة لإزاحة الخصوم وصولا إلى السلطة ، فترتب تلقائيا دورا للقوة في إخضاع
ارادات الآخرين ، وتنفي حق الرأي الآخر وتستسهل القوة وسيلة لبلوغ الأهداف في أقصر
وقت افتراضي . وكان طبيعيا أن يتحول الاستسلام للقوة واستسهال استخدام العنف
والقسوة داخل البلاد إلى وسيلة في ممارسة الحرب للأغراض الخارجية والداخلية) .

إنها عوامل ذاتية تفاعلت مع الظروف الحيطية فأنتجت حروب النظام المتعددة يتطلب
فهمها ، وتفسير دوافع الاستمرار بها أن تكون البداية إشارات ، ولو بسيطة إلى بعض
أحداث العام 1963 عندما استلم حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة لأول مرة عن
طريق العسكر بانقلاب 8 شباط ، وتوجهه لتنفيذ عديد من الإجراءات أكثرها قساوة
وقسرية :

ذبح الشيوعيين في حرب شبه أهلية شملت الأحياء المهمة في بغداد ، وانتقلت إلى باقي
المحافظات العراقية ، أعقبتها إجراءات عزلهم اجتماعيا ، وفصلهم من وظائفهم ،
والتسفيه بأفكارهم .

التوجه إلى الكورد في الشمال (كوردستان العراق) لخوض حرب شاملة على كل محاورها
التقليدية ، والبدء بخطوات التعريب والتهجير لم يستطع إكمالها في أقل من سنة كانت
فترة حكمه آنذاك ، لكنها تؤشر توجهها أعيدت معظم خطواته بعد العام 1968 حيث قاد
فيه الحزب المذكور انقلابا على الرئيس عبد الرحمن عارف بتعاون المسؤولين عن أمنه

بطريقة وجد نفسه فيها مجردا من كل قواعده الأساسية في الصمود فاستسلم للأمر الواقع دون إبداء أية مقاومة ، رغم أن الذي قيل فيما بعد أن الرئيس عبد الرحمن عارف قد تلقى ساعة الشروع بالتنفيذ مكالمة هاتفية من دولة كبرى تنصحه بالتنحي عن الحكم للانقلابيين حقنا للدماء وسعيا للحفاظ على شكل نظام الحكم الجمهوري للعراق المهدد بالانتقال إلى الشيوعيين بسبب ضعف إدارته أي الرئيس ، لكن مثل هكذا أقاويل لم يؤيدها الرئيس عبد الرحمن عارف ، ولم يؤكد لها طرف من القيادة العليا في الحكومة البعثية آنذاك . وعموما فقد شكل الانقلاب منعطفا مهما في التاريخ الحديث للعراق ، والمنطقة العربية القريبة ، وحتى البعيدة عنه بدرجة غير قليلة .

عسكرة الحزب خطوة باتجاه الحرب

أن الملاحظ في جوانب تلك الأحداث والمثير للدهشة في ذات الوقت أن ميشيل عفلق الأمين العام للحزب آنذاك قد دفع بدايتها أي سني الستينات بعدد من العسكريين حديثي الانتماء للحزب إلى مصاف القيادة القطرية في العراق مثل اللواء أحمد حسن البكر التكريتي ، واللواء الطيار الركن حردان عبد الغفار التكريتي ومن بعدهم اللواء طاهر يحيى التكريتي وآخرين بالإضافة إلى آخرين كان انتمائهم قبل عدة سنين مثل الفريق الركن صالح مهدي عماش ، حتى اتسمت تشكيلة القيادة القطرية في حينها بالسمة العسكرية ، وعلى العكس من إصراره عدم تصعيد العسكريين والمناورة بشتى الطرق المتاحة للحيلولة دون وصولهم إلى عضوية القيادة القطرية في سوريا التي كانت في تلك الحقبة الزمنية تخضع هي أيضا إلى نفوذه التنظيمي .

وتلك كانت أولى بدايات العسكرة للحزب في العراق التي قادت إلى انقلاب 1968 المشار إليه بتحالف العسكر البعثيين مع العقيد الركن إبراهيم عبد الرحمن الداود آمر لواء الحرس الجمهوري ، والمقدم الركن عبد الرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية وكالة.

تحالف تمخض عن التشكيل الأول للحكومة بعد الانقلاب بثقله العسكري الواضح بدءا من رئيس الجمهورية اللواء أحمد حسن البكر مروراً برئيس الوزراء المقدم الركن عبد الرزاق النايف ، وانتهاء بأكثر من ثمانية وزراء ونواب لرئيس الجمهورية من العسكريين بالرتب العالية رغم إعلان الانقلابيين أن ثورتهم بيضاء ناصعة .

إلا أن هذه العسكرية ، أو بالمعنى الأدق الطريقة التقليدية للعسكرة لم ترق لجناح قوي في الحزب الحاكم بعد عام 1968 يقوده صدام حسين الذي لا يأتى العسكر في أعلى سلم القيادة مسترشدا بتجربة الحزب عام 1963 حيث ساهم البعض من الضباط البعثيين (حردان عبد الغفار ، وطاهر يحيى وآخرين) آنذاك بمعاونة عبد السلام محمد عارف للانقلاب على الحزب وتغيير نظام الحكم من ناحية ، ولتخطيطه بعيد المدى في السيطرة على الحكم الذي قد يحول العسكر دون تنفيذه بدقة من ناحية أخرى ، ومسترشدا كذلك بخطة مستوحاة من كتاب مايلىز كوبلاند (لعبة الأمم ص30) حول الدعائم التي تستند عليها سلطة الانقلاب والتي تشير بوضوح إلى كيفية التعامل مع العسكر :

(في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم ، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذات أهمية مسلم بها جدلا ، فمن أكثر الأمور أهمية :

توفر جهازا فعالا جدا للمخابرات ضد التآمر في داخل القوات المسلحة . إدخال التحسينات على أسلحة ، ومعدات ، وتدريب القوات المسلحة .

كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء لكي تكون أحسن المرتبات في الدولة . كل ذلك لكي يصبح ذلك الجيش باختصار جيشا مواليا) .

العسكر بعيدا عن سلطة القرار

إن ذاك الاسترشاد بآراء مايلز وغيره مع الخصائص النفسية لصدام حسين دفعاه إلى الضغط على أحمد حسن البكر بغية التخلص من نفوذ العسكر الموجودين في القيادة القطرية ، أي إبعادهم عن المفاصل العليا لإصدار القرار خطوة أولى لمشروع أكبر وبعيد المدى وبطرق شتى بينها:

.الساق تهم التآمر كما جرى بالنسبة إلى اللواء المظلي عبد الكريم مصطفى نصرة .
.التكليف بمهام دبلوماسية في الخارج كما هو الحال بالنسبة إلى صالح مهدي عماش ،
ومن ثم التخلص منه لاحقا حيث توفي بعد مقابلة خاصة مع صدام حسين بعدة أيام قيل أنه قد أسقي فيها سما خاصا .
.الاغتيال في حالة تعذر السيطرة كما حصل لکردان عبد الغفار ، والفريق حماد شهاب ،
والفريق الركن عدنان خير الله .

إلا أن التخلص من نفوذ العسكر في القيادة لا يعني الاستغناء عن العسكرية التي بدأها الحزب بداية تجربته في الحكم ، وأعدّها صدام أمرا أكثر من ضروريا للسيطرة ، وتحقيق الأهداف كما مبين في إشاراته عنها في اجتماع خاص بضباط من الاستخبارات العسكرية لمناقشة إعادة تنظيم وهيكله بعض قطعات الجيش العراقي بعد الحرب مع إيران كانت أهم العبارات ذات الصلة بهذا الموضوع فيه هي :

(أريدكم أن تتذكروا دائما أن مشروعنا عسكري ، وهذا شيء يجب أن يستهويكم لأنكم عسكريون .

كنت أتوقع أنكم ستقفون في الضد من أي مقترح لتقليص القوات .
إن الشعب العراقي قد اعتاد على العسكرية) .

من هذا يتبين إن الوقوف بالضد من ثقل العسكر في القيادة العليا ، ومراكز القرار هي ليست بالضرورة وقوفا بالضد من مشروع العسكرية ، بل هي في الواقع تغييرا لطبيعة إدارة الدولة ، والمجتمع بحيث يكون فيها العسكر منفذون جيدون للأوامر دون أن يسهموا في التخطيط لإصدارها ، ووفقا لآلية مدروسة ومحكمة تعتمد معادلة من طرفين :
أولها تبعية الجيش .

وثانيها عسكرة الحزب ، والمجتمع العراقي .

على أن عملية التبعيث التي تم التخطيط لها بعناية فائقة لا تسمح آلية تنفيذها بوصول العسكر المهنيين إلى سلم القيادة الأعلى في الحزب ، أي القيادة القطرية عدا بعض الاستثناءات القليلة والمحسوبة بدقة متناهية مثل :

الفريق الركن عدنان خير الله صهر البكر وأبن خال صدام حسين².
اللواء عبد الرحمن الدوري الذي شغل منصب مدير الأمن العام³.
العقيد نوري فيصل شاهر ، ضابط إداري مغمور ليست له أية طموحات عسكرية ، أو سياسية أبعد من دائرة السلطة⁴.

الرائد خضر الدوري الذي ترك الجيش منتصف السبعينات ليعمل مديرا لمكتب ميشيل عفلق في القيادة القطرية ، ومن ثم معاوناً لمدير المخابرات العامة⁵.
تأسيساً على تلك النوايا تم حرف الجيش تدريجياً عن أهدافه الاستراتيجية من خلال قيادته المدنية وتهيئته إلى مرحلة التبعيث بنفس الوقت الذي تجري فيه الاستعدادات لعسكرة الحزب والمجتمع .

الجيش أداة الحزب الحاكم

كانت تلك التوجهات الحكومية للتعامل مع العسكر مؤثرة ، وإن كانت تبدو متناقضة في الظاهر إلا إنها من الناحية العملية متجانسة تصب نتائجها سوية في بوتقة واحدة تؤمن غاية الحكومة في :
السيطرة والاستمرار في الحكم.

² . قتل في حادث طائرة سمنية بأمر من صدام وياشرف حسين كامل لأسباب عدها البعض ذات صلة بنوايا احتلال الكويت ، وعدها البعض الآخر مسألة تتعلق بإمكانات عدنان وشعبيته المقبولة في القوات المسلحة العراقية كضابط محترف يمكن وضعه في مصاف البديل عن صدام في العقل العراقي ، وربما في نوايا الآخرين بالخارج في حالة حدوث الأزمات .

³ . توفي بمرض السرطان نتيجة لجرعات من السموم المعدة للمسؤولين بشكل خاص ، قيل في حينها بسبب تقصير للتعامل مع المنتفضين.

⁴ . شغل منصب مدير الأمن العام في الثمانينات ، وبقي يتنقل في المناصب وبعض الوزارات حتى أجلس في بيته دون مهام.

⁵ . حزبي منصف نزيه حجز في منزله لفترة من الوقت بعد إخراجه من عضوية القيادة القطرية بسبب عقد قران كريمته لشاب عراقي يقيم في الخارج .

تكوين اتجاه ، وسلوك عسكري على مستوى الحزب ، والشارع العراقي مكيف لتنفيذ الأوامر، أي عسكريته بصورة شبه مستمرة.

تهيئة الجيش ، والقوات المسلحة العراقية لأن تكون أداة طيعة بيد الحزب .
وتلك كانت مزاجية غير اعتيادية بين التبعية ، والعسكرة صاحبها كثير من الإجراءات في الإطار العسكري لم يتنبه لها العراقيون ولا قادة الجيش المعنيون مع بداية السيطرة على الحكم عام 1968 مثل :

.إحالة رئيس أركان الجيش ، وثمانية ضباط من قادة الفرق ومدراء الصنوف على التقاعد في أيلول بعد الانقلاب ، وتسليم مناصبهم إلى ضباط بعثيين ، أو محسوبين على الحزب آنذاك .

. قبول أكثر من ألفي بعثي في كلية الضباط الاحتياط بدورها الخاصة الأولى، والثانية للدراسة ستة أشهر ومنحهم رتبة نائب ضابط تلميذ حربي ، ومن ثم ملازم في الجيش ، وغالبيتهم لم يحصل على شهادة الثانوية العامة ليتوزعوا بعد تخرجهم على المفاصل العسكرية المهمة مثل الاستخبارات العسكرية ، والتوجيه السياسي ، والحرس الجمهوري، وعديد من وحدات الدروع المهمة .

. في نفس الوقت شرع الحزب بإصدار قوائم إخراج الضباط غير الحزبيين من الجيش ، وتعيين الشباب منهم في وظائف مدنية غير حساسة مثل النقل ، والمواصلات ، وإحالة ذوي الرتب الكبيرة على التقاعد خاصة الذين يشك بولائهم ، وكذلك الضباط المحسوبين على التيارات القومية واليسارية .

. بالإضافة إلى منح رتب عسكرية لبعض ضباط الصف ، والجنود ، والمدنيين الحزبيين لترجيح كفة الحزب على مستوى الجيش والقوات المسلحة.

وبموازات تلك الإجراءات تم الشروع بتشكيل خلايا للتنظيم الحزبي في داخل فروع المؤسسة العسكرية ، وبشكل علني لتتكون بعد أقل من سنة من الانقلاب سلطة للمنظمة الحزبية في الوحدة ، واللواء ، والفرقة تناظر سلطة الأمر والقائد ، بل وتتفوق عليها من حيث الصلاحيات الخاصة بالجوانب التالية :

نقل الضباط ، وضباط الصف ، والجنود من وإلى الوحدات ، والقيادات ، ومؤسسات المقر العام .

إبداء الرأي طرفاً في ترقية الضباط إلى الرتبة التي تلي ، وكذلك الحال بالنسبة إلى ضباط الصف .

اقترح الإحالة على التقاعد .

وبالتدريج وجد هرم للتنظيم الحزبي في الجيش يوازي ، أو يناظر الهرم العسكري التقليدي ، إذ تكونت على سبيل المثال:

. منظمة حزبية على مستوى الفوج ، والكتيبة .

. فرقة حزبية على مستوى اللواء .

. شعبة حزبية على مستوى الفرقة .

. فرع للحزب على مستوى الفيلق .

. ومكتب عسكري على مستوى القوات المسلحة ذلك المستوى التنظيمي العسكري الذي يمتلك كل الصلاحيات في شؤون العسكر.... يقوده ، أو أمينه بلغة الحزب رئيس الدولة القائد العام للقوات المسلحة أمين سر القطر.

وهذا التنظيم الهرمي ، وأساليب التعامل ، أو الآلية العامة للإدارة والتعبئة جعلت الجيش العراقي مجرد خلية حزبية من خلايا حزب البعث ، ووضعت قوة عسكرية مهيمنة في يد واحدة قادرة أن تأمره بالاتجاه الذي تخطط هي لتنفيذه دون اعتراض من قادته البعثيين وفقاً لفلسفة الانضباط الحزبي (نفذ ثم ناقش) إذ أن وزير الدفاع على سبيل المثال قد انتقلت صلاحياته المهمة إلى المكتب العسكري ، وإن رئيس أركان الجيش قد تحولت صلاحياته إلى الوزير ثم إلى المكتب العسكري بالتتابع ، ليتحول هذين المفصلين المهمين في الهرم العسكري إلى مجرد ضباط ركن ينسقون ما مطلوب من الصنوف ، والقيادات ، ومن ثم يقدمونه إلى المكتب العسكري للموافقة عليه .

وفي هذه الآلية لم تتحدد سلطة الوزير ، ورئيس الأركان ، وقادة الفرق ومدراء الصنوف فقط ، بل وانتهت كذلك سلطة مجلس الدفاع الأعلى الذي كان مفصلاً من مفاصل الهرم العسكري المهمة في تحديد سياسة الجيش ورسم تحركه ومهامه التعبوية ، والسوقية (الاستراتيجية) لتقتصر جل أعماله في الفترة الأخيرة على المناقشة الدورية لجدول ترقية الضباط القادة الذي يتطلب إستحصال موافقة المكتب العسكري على ترقيةهم ومن ثم رئيس الجمهورية بالنسبة للضباط من رتبة عميد فما فوق .

وهذه الخطوات ، وغيرها الكثير هيأت الجيش العراقي لقبول وتنفيذ الأوامر من قيادته المدنية العليا ووضعت في دائرة مغلقة مع الحزب لا يستطيع أن يرى ما في خارجها ، ولا أن يدرك ما يحدث من حولها فتحول بالنتيجة إلى تابع يعمل آليا بطريقة تختلف عن حال الجيوش الأخرى في العالم ، ولا تنسجم مع تاريخه السابق لحكم البعثيين .

الدفع باتجاه تنفيذ أمر الحرب

كانت تلك خطوات مدروسة أشار إليها العديد من مؤرخي الجيش وقادته المهنيون في بحوثهم وحواراتهم الخاصة مجمعين على :

أن العسكر العراقي قد تم تقييد وعيهم بقصد الحيلولة دون تمكنهم من إدراك الخطأ ومن ثم حصرهم فقط في إطار التنفيذ الحتمي لأوامر القيادة العليا أي رئيس الدولة ، والمسؤول الأول في الحزب .

كل تلك الخطوات ، والإجراءات الطارئة على الجيش ، والقوات المسلحة بقصد تهيتهم لتنفيذ أمر الحرب دون أية عقبات قد تؤدي إلى دوران العسكر إلى الخلف ، أي الانقلاب على الحكم رافقتها إجراءات أخرى تصب بنفس الاتجاه ، رغم أن وقائعها توجي على العكس من ذلك تماماً منها على سبيل المثال :

إلغاء خاصية الاعتداد بالروح العسكرية في داخل الضابط العراقي من خلال الإذلال المتعمد له ولضابط الصف ، والإكثار من توجيه العقوبة والإهانة المقصودة لأتفه الأمور، وفي مجالها يتذكر العسكر جيداً أن الجيش العراقي لم يشهد قبل حكم البعثيين على سبيل المقارنة أي ميل لإهانة الضابط ، أو تجريحه في السر والعلن ، وإن اقتضت الضرورة محاسبته وهي حالات فردية قليلة يعود الأمر ، أو القائد إلى قانون العقوبات ، ويأمر على وفق صلاحياته تشكيل مجلس تحقيقي يحدد ماهية الخطأ وشكل العقوبة المقترحة ضمن صلاحيات الأمر / القائد ، أو خارج صلاحيتهما لتحال إلى المحكمة العسكرية .

كما يلزم قانون العقوبات العسكري بعدم جواز توقيف ، أو حجز الضابط دون وجود دليل مادي على جريمة يسبب بقاءه طليقا التأثير على معالمها ، وعموما لا يتم ذلك ، أي التوقيف على سبيل إكمال إجراءات التحقيق دون موافقة تحريرية لرئيس أركان الجيش . لقد تبدلت كل تلك الصيغ بعد تولي البعثيين الحكم وخاصة بعد عام 1979 إذ بات الضابط يشتم ويهان أمام جنوده .

يضرب قائد الفيلق ، والفرقة بسياط الحماية أمام الزملاء ، والرفاق المدنيين . يهدد الضابط المشكوك بولائه بجلب زوجته ، أو ابنته للاعتداء عليها بحضوره من قبل الجنود الموجودين .

يتهم الضابط بالجبن ، والخيانة على مرأى ومسمع جنوده ، والزملاء .

يمنح جندي لا يقرأ الخط رتبة ملازم في الجيش ، وتخفض رتبة لواء قائد في صفوف الجيش إلى جندي في أحد حضائر المشاة .

وغيرها كثير من الممارسات التي أخلت برضا الضابط العراقي عن نفسه ، وعن دوره المشرف في الدفاع عن بلده ، وشوهت صورته عند جنوده وفي ذاكرة العراقيين ، ودفعته أن يكون منفذا آليا لما يطلب منه تحاشيا لمزيد من الذل والهوان .

وفي هذا المجال لو ألقينا نظرة بسيطة على موضوع العقوبة وطريقة توجيهها وقارنا وقائعها مع المرحلة الزمنية التي سبقت حكم البعث نرى :

قد تمر سنة ، أو أكثر منها دون أن تشهد المؤسسة العسكرية معاقبة ضابط بقطع راتب على سبيل المثال ، وإن حدث فلا تتكرر إلا نادرا .

لم يكن للاستخبارات العسكرية سجن ، أو معتقل للضباط ، أو ضباط الصف والجنود .

إن تم استدعاء ضابط للاستخبارات لأغراض التحقيق في أمور سياسية ، يتم حجزه في غرفة تهيأ لهذا الغرض فيها كل مستلزمات العيش الطبيعي .

لقد تغير كل شيء في مرحلة حكم البعث خاصة في العشرين سنة الأخيرة أي بعد استلام صدام حسين الحكم عام 1979 وفيها :

بات حجز الضابط ، وتوقيفه دون الحاجة لاستحصال موافقة رئيس الأركان ، وباتت الإحالة إلى المحاكم العسكرية أمرا طبيعيا .

تحولت الاستخبارات العسكرية من مديرية بأربعة شعب تتبع دائرة العمليات إلى مديرية عامة بأربعة معاونيات ، وكل معاونية من عدة شعب ، وخصصت لها ميزانية ضخمة لا علاقة لها بميزانية الجيش ، كما منحت صلاحيات واسعة تصل حد الإعدام ، والإخفاء العمدي .

شيد في مقر الاستخبارات العسكرية سجن من قبل اليوغسلاف بمواصفات وقدرة على الضغوط غير مسبقة .

أقيم في كل قاطع فيلق ، وفرقة سجن ، أو أكثر .

فتح أبناء الرئيس والأقرباء سجون خاصة بهم .

سُنّت قوانين وضوابط لا علاقة لها بأصول الخدمة العسكرية سلب فرضها بالقوة الروح العسكرية ، وجعل الضابط ترس يدور في ماكينة النظام دون وعي بطبيعة الدوران .

الاعتداء على الضباط من قبل مراتب الأمن ، والاستخبارات ، وتعذيبه بشتى وسائل التعذيب بشكل اعتيادي .

تغيب الضباط من وحدته ، أو في أثناء الإجازة الدورية دون أي تحسب . وبالمحصلة النهائية يجد أي متابع لموضوع عقوبة الضباط أنه من الصعوبة إيجاد جدول عقوبات في أضاير الضباط دون إشارات بالحبر الأحمر تبين معاقبته لخطأ قد يكون غير موجود أصلاً.

الإخلال بمهنية الجيش

مع حالات الإذلال المذكورة ، وأفول الاعتداد بالروح العسكرية المبينة في أعلاه كانت هناك توجهات حثيثة من قبل قيادة الحزب ، والحكومة للقضاء على روح الجماعة كأحد معايير العمل العسكري المهني في الجيش وفي مجالها حاول المعنيون فيها تفتيت الجماعة ، وإنهاء الميل إلى التآلف ، والرغبة بالتكافل الاجتماعي في داخل النفس العسكرية ، وجعل (لأسباب أمنية) كل عسكري من منتسبي الجيش العراقي يتجه بالاتجاه الذي يبتعد فيه عن زميل له في الحاضرة ، والفصيل ، والسرية وهم في الطريق العسكري ، ليلتقيا فقط في الاجتماع الحزبي رفاق على الدرب السياسي الذي يفضي إلى تدمير الروح العسكرية العراقية التي تعز بالخدمة العسكرية المهنية وتحاول الدفاع عن طبيعتها ولو بالقوة .

والأكثر من الإذلال والتفتيت التي أخلت بمعايير العسكرية العراقية اتجهت الحكومة إلى تدمير الروح الوطنية عند العسكر ، وذلك من خلال شراء الذمم عن طريق الإثابة ، والتكريم غير المبرر من ناحية ، وربط الفعل المقبول بتعظيم القائد ، والإشادة بالقيادة المدنية من ناحية أخرى ، وبطريقة جعلت العسكر في نهاية المطاف مشروع دائم لقبول الحرب ، والموت البطيء في ساحتها دون محاولة الاعتراض على حدوثها ، أو حتى التنبيه على خطأ القيام بها ولو بشكل غير مباشر إلا في بعض الحالات الفردية التي دفع أصحابها حياتهم ثمناً لذلك ، فكانوا من خيرة ضباط الجيش العراقي وأعظمهم تاريخاً وأصاله .

وفي هذا المجال بدأت الخطوات الأولى بزيادة الرواتب بفروق كبيرة عن الأقران في الجهاز المدني حتى أضطر البكر على سبيل المثال إلى إرسال مدير الميزانية العامة في وزارة المالية قبل منتصف السبعينات إلى الوحدات الأمامية في الشمال ليتعايش مع ظروف العسكر لأنه كان من بين المعترضين على زيادة رواتب الجيش لأسباب تتعلق بالميزانية والتضخم ،

وليس لأمر أخرى سياسية ، أو اجتماعية ، مما أضطره إلى تفسير الرسالة تهديدا مبطنا ، والموافقة على الزيادة الكبيرة قبل إكمال فترة التعايش .

ومن بعد ذلك بدأت الحكومة بمنح العسكر قروض دون فوائد ، ومنح مالية لا تسترد لتشييد الدور، ووزعت على الكثير منهم المزارع في أجود الأراضي الحكومية ، ومن ثم سيارات صالون خاصة ، حتى أعتقد العراقيون والجهاز الحزبي البعثي آنذاك أن العسكر العراقي شكلوا فئة خاصة أخلت بالتوازن الطبقي شبه المعقول في البيئة العراقية ، ولمستوى آثار تساؤلات البعض في الندوات ، والمؤتمرات القطرية ليحصل أحد أعضاء الفروع عام 1979 جواب لسؤال عن هذه المكافآت ، والعطاءات الممنوحة للعسكر في الوقت الذي ما زالت فيه العديد من شرائح الشعب تعاني بعض المصاعب الاقتصادية ، فكان الرد من قبل صدام حسين في اجتماع للكادر الحزبي المتقدم بعد توليه السلطة مباشرة :

(اتركوا العسكر نحن نعد لهم مفاجئات ليس في حسابكم ، وهي مفاجئات يستحقون عليها كل هذه المكافآت).

إن تلك الهبات والاثابات لم يكن القصد منها تحسين مستوى العيش الذي بدأ يتراجع لاحقا بسبب نسب التضخم وتعدد أوجه الصرف والاستهلاك ، ولم يكن القصد منها دعم الاستقرار النفسي ، والأمن الاقتصادي للضابط لأن السيارة التي أعطيت له ثمنها لحياته في معركة مقبلة يمكن أن تسحب منه في أي وقت يشاء الحزب ، والقائد سحبها . والبيت الذي شيد بدعم من الحكومة وبقروضها الطائلة وإن كان حق له مكتسب منذ بداية تأسيس الجيش العراقي مهدد صاحبه في أن يطرد منه ، أو يتهدم على رؤوس أبناءه متى أرادت الحكومة والقائد ذلك .

والممتلكات المنقولة ، وغير المنقولة مرهون المحافظة عليها والاستفادة من عوائدها بالتنفيذ الحرفي لأوامر الموت الصادرة من الحزب والقائد في ظروف التوتر ، وعدم الاستقرار ، والحروب المتعددة .

وبالتالي أصبحت كل تلك الاثابات مصدر قلق للضابط أكثر منها مجالا للمتعة كما هون شأنها في المجتمعات الأخرى ، وكذلك عند الناس العاديين .

وهذه الإجراءات وأخرى غيرها بطبيعة الحال لم تجعل العسكر أداة طيعة بيد الحكومة فقط بل ودفعت الجيش قيادة وهيئات ركن إلى :

قبول الأوامر والتوجيهات دون مناقشة عواقبها ، وكذلك دون التدخل ببعض جوانبها غير المنطقية .

هيئتهم كذلك لقبول تدخل القيادة المدنية في شؤونهم ، أو بمعنى أدق قيادتهم من قبل الجهاز المدني مباشرة على المستوى الأعلى المتمثل بالقيادة القطرية التي تخلصت من نفوذ العكس في داخلها ، أو على المستوى المهني من خلال المكتب العسكري الذي طعمت عضوية قيادته بالمدنيين منذ بداية الانقلاب عام 1968 مثل محمد فاضل وأحمد السامرائي ، أو أشباه المدنيين من ضباط الصف الذين تركوا الخدمة العسكرية بعد الانقلاب مباشرة مثل العريف علي حسن المجيد ، والنائب الضابط كامل ياسين ، والنائب الضابط الحربي طه الجزراوي، والنائب الضابط محمد العزاوي ، وآخرين غيرهم.

الانضباط الحزبي بديلا عن الضبط العسكري

لم يتوقف الحزب والقائد العام في مجال التبعييث وتهيئة الجيش لقبول صيغة الحروب، وخوضها بالطريقة التي يريدها عند تلك الإجراءات بل وسار بعيدا في طريق النوايا إلى تحديد شكل القبول في الكلية العسكرية ، وكلية الضباط الاحتياط ، وكذلك الترشيح للدراسة في كلية الأركان ، وجامعة البكر للدراسات العسكرية العليا على أسس حزبية ، وإقليمية، وطائفية لإضافة متغير آخر إلى التبعييث هو تكررة الجيش لضمان أعلى مستوى ولاء ، وأعلى درجة لتنفيذ أوامر الحرب في الوقت المحدد .

ومع تلك الإجراءات كانت هناك تغذية فكرية مقننة لمنتسبي الجيش ، والقوات المسلحة من الضباط ، وضباط الصف ، والجنود بمواضيع ذات طابع قومي متطرف ، وميل لتحقيق الأهداف بالقوة ، وإحلال الاعتداد بالحزب ، والقيادة بدلا من الاعتزاز بالنفس ، والروح العسكرية .

وفي هذا المجال المعقد سارعت الحكومة إلى تغيير صفة التوجيه المعنوي إلى التوجيه السياسي . وأبدلت مهامه من رفع معنويات المنتسبين في السلم ، والحرب إلى تغيير النهج الفكري للمنتسبين ، وبما ينسجم وأهداف الحزب .

ووسعت من مستوى تنظيمه من شعبة في مديرية التدريب العسكري مع بداية السبعينات إلى دائرة للتوجيه السياسي ترتبط فنيا بوزير الدفاع ، وعمليا بالقائد العام للقوات المسلحة ، وثقافيا بالمكتب العسكري مع بداية الثمانينات .

وهذه الإجراءات بتقادم الزمن كونت عسكريا :
فيه الانضباط الحزبي يفوق كثيرا الانضباط العسكري .
لدى منتسبيه الاستعداد لتنفيذ أوامر القيادة المدنية أكثر من الاستعداد لتنفيذ المهام الوطنية.
عند قاداته رغبة باللجوء إلى الحرب وسيلة وحيدة لتحقيق أهداف الحزب ، والقائد العام.
سياقات عملهم في مجالات التدريب ، والتسليح ، والتجهيز تصب باتجاه الابتعاد عن استراتيجية الدفاع عن العراق ، والتركيز فقط على الهجوم لتحقيق غايات ، ونوايا الحزب، والحكومة.
وبمثل هذه الخطوات المدروسة جيدا أكمل الحزب الحاكم وبدرجة متقدمة تبعية الجيش العراقي وضمن تنفيذ الشق الأول من المعادلة بمستوى بات الانضباط الحزبي في مجاله يفوق كثيرا الضبط العسكري .

عسكرة الحزب خطوة إلى الحرب

إن طرف المعادلة الأول الخاص بالتبعيث الذي أعد الجيش فكريا لخوض حروب الحزب ، والحاكم ، لم ينفصل العمل في مجالها عن الطرف الثاني للمعادلة الخاص بعسكرة الحزب ، والمجتمع العراقي وإعدادهما عسكريا لدعم الفعل العسكري للجيش ، وللتوازن مع قوته بما يحول دون نجاحه في القيام بأية محاولة للتمرد على الحكومة بتغيير النظام ، أو على أوامر حربها بعدم التنفيذ ، وتوصلت بعد خبرات طويلة إلى أن الصيغة الأسلم : هي التفاعل بين طرفي المعادلة ، أو تبادل الأدوار فيما بين أطرافها بما يؤمن إنجاز فعل الحرب بحشد جهد كل القوى من ناحية ، وتوازن مسؤولياتها في حماية النظام من ناحية أخرى .

وجانب العسكرة الخاص بالحزب ، والمجتمع بدأت خطواته متسقة هي أيضا مع السنين الأولى للانقلاب وكانت في الحزب على سبيل المثال تكوين جناحه العسكري الذي سمي في حينه بالجيش الشعبي ، وبدأت الحكومة برنامجا مكثفا لتسليحه ، وتدريبه ، وتشكيل تنظيماته ، وقياداته ، ومقراته لتكون تركيبته مزيجا بين الجيش في إدارة المهام وتنفيذ الأوامر ، وبين الميليشيا السياسية في التفرغ لتنفيذها .

وأخذت توسع قاعدته تدريجيا ليخرج من دائرة الحزب بمستوى الأنصار ، والأعضاء إلى المؤيدين ، والأصدقاء ومن ثم إلى المستقلين ليصل موجوده أي أعداد منتسبيه في نهاية السبعينات إلى مستويات توازي تلك الأعداد المنتسبة إلى القوات المسلحة العراقية ، أو تقترب منها بعض الشيء .

وباكتمال صورته تنظيما ، وتسليحا ، وتدريبيا ضمنت الحكومة : وجود قوة رادعة يحسب لها الجيش حساب جاد عند التفكير بالثورة على الأوضاع لقدرتها على المقاومة ، والرد السريع .
قوة مضافة ذات امكانات مادية لدعم الجيش في حروبه الداخلية ، والخارجية .

والاهم من هذا ، وذاك نقلت من خلاله إلى الجهاز الحزبي بعض خصائص العسكر ، وسبل تعاملهم ، وانضباطهم إلى الجهاز الحزبي الذي تحولت لغة التعامل في داخله إلى لغة العسكر فبات النصير ينظر إلى مسئوله العضو ليس رفيقا في الحزب بل أمرا مباشرا له ، وتحولت صيغ التعامل الديمقراطي التي أكد عليها الفكر النظري للحزب إلى المركزية الديمقراطية الأقرب إلى طبيعة العسكر في تنفيذ الأوامر دون مناقشتها.

تعبئة الحرب

تلك إجراءات صاحبها توسع في تشكيل وحدات جديدة خاصة من الفرق المدرعة ، حتى قفز تعداد الفرق من الأربعة قبل عام 1968 إلى ستة فرق مع بداية السبعينات وإلى إثنا عشر فرقة في نهايتها أي مع بدأ الحرب العراقية الإيرانية .

كذلك توجهت الدولة إلى التسليح بشكل غير اعتيادي إذ أحيت أولا برامج الصواريخ التي كان قد بدأها عبد الكريم قاسم بعد عام 1958 عندما تعاقد مع الاتحاد السوفيتي آنذاك لشراء صواريخ أرض / أرض عدها لأغراض الردع مع إيران ، وقام عبد السلام عارف من بعده بإهدائها إلى مصر ، إلا أن الحكومة الجديدة وفي نفس عام استلامها الحكم توجهت صوب الاتحاد السوفيتي لشراء صواريخ نوع (لونا) وشكلت لها أول لواء للصواريخ برقم 225 جعلت ارتباطه المباشر بمديرية المدفعية ، ثم تعاقدت بعد ذلك مع البرازيل لشراء صواريخ (أس تروس) من النوع الذي تبلغ مدياته مائة وخمسين كيلومترا ، وشكلت لواء الصواريخ 226 ، ومن بعدها بفترة أدخلت أنواع أخرى أكثر تطورا ، وأبعد مدى مثل صواريخ سكود .

وباكتمال هذه الصورة مع بداية الثمانينات للقرن الماضي قوي جيش الحزب، وتعسكر حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، وبعسكرته تكون هرما من حيث التنظيم وسلسلة اصدار، وتنفيذ الأوامر يشبه ذلك الهرم العسكري، وبذا حصلت الحكومة على :
هرمين بأبعاد متعددة تلتقي ، أو تتوحد قمتيهما عند رئيس الدولة ، القائد العام للقوات المسلحة أمين سر القطر .

أما ما يتعلق بعسكرة المجتمع العراقي وتهيأته للحرب فإن خطواته بدأت بشكل بسيط وتدرجي يصعب إدراكها من الجهاز الإداري للدولة وكذلك من عموم العراقيين ، وكانت قد تأسست أولا على قاعدة الانضباط الإداري الذي ادعى الحزب الحاجة الماسة لتطبيقه على عموم مفاصل الإدارة الحكومية في النقلة الحضارية التي أوحى بقيادتها في العراق الحديث مثل :

الالتزام الدقيق بالحضور إلى الدوام الرسمي والانصراف منه ، ومحاسبة المخالف بشدة .
فرض ضوابط الدفاع المدني في التواجد بعد الدوام الرسمي ، وتنظيم جداول للخفارات اليومية .

تطعيم بعض الدوائر المهمة بالعسكر من الضباط الاختصاصيين ، والإداريين خاصة في قطاع الصناعة والمواصلات .

اختيار دقيق للمدراء العامين ، ومدراء الشعب ، والأقسام من بين الحزبيين الذي خدموا في الجيش الشعبي .

الربط بين المستوى الحزبي ، والوظيفي في التعيين بالدوائر الحكومية حتى بات غالبية المدراء العامين . باستثناء بعض الاختصاصيين . من أعضاء الفروع .

ومدراء الشعب والأقسام من أعضاء قيادات الشعب والفرق بالحزب .

إرسال موظفي الدولة إلى المعاشية في الوحدات ، والتطوع في قواطع الجيش الشعبي .

تطبيق بعض القوانين العسكرية على الجهاز المدني في ظروف التوتر ، والاستنفار التي تزيد فترات الزمنية في حكم البعث عن فترات الهدوء ، والاستقرار كثيرا .

ومن خلال تلك الإجراءات وغيرها تكون:

هرم إداري بأبعاد متعددة يلتقي وهرمي العسكر ، والحزب في أعلى قمته عند رئيس الدولة ، القائد العام للقوات المسلحة أمين سر القطر .

إن النظرة إلى الأهرام الثلاثة من زوايا مختلفة تبين دون أدنى شك :

. أن الحكومة في العراق قد خططت مسبقا لهذه الصيغة التي تستطيع من خلالها تعبئة الجيش ، والمجتمع العراقي للحرب بسرعة فائقة وبقدرة حشد بشري كبيرة جدا بالمقارنة مع عدد السكان ، وهذا ما تؤكد وقائع الحرب مع إيران كأحد نتائج تلك السياسة .

إذ إن الحكومة استطاعت أن تتجاوز إبان تلك الحرب القياسات الدولية في تشكيل قواتها العسكرية ، حيث تبين تلك القياسات أن المعتاد لكل مليون فرد من السكان يمكن تشكيل فرقة عسكرية ، وإذا ما كان متوسط عدد سكان العراق أيام تلك الحرب بحدود ستة عشر مليون نسمة فإن المعتاد هو تشكيل ستة عشر فرقة عسكرية في أحسن الأحوال في حين استطاعت الحكومة في نهاية الحرب تشكيل ما يزيد عن ستين فرقة عسكرية لعموم قواتها المسلحة باستثناء الجيش الشعبي ، وخلايا الحزب التي تعاون في بعض المجالات العسكرية .

. إن المجتمع العراقي أضحى جيشا من الناحية الفنية بعد أن خدم غالبية الذكور بعد الثامنة عشر الخدمة العسكرية ، أو تدريبوا تدريباً عسكرياً .

وفي الختام يمكن القول أن جيشا بهذه الضخامة تصبح له استحقاقات على الدولة ، وتكون له ضغوطا على أجهزتها ، وبالتالي يصبح الحل الوحيد لتلبيتها هو خوض الحرب ، والتهيؤ لأخرى بشكل متواصل ، تلبية لسياسة الحزب في البحث المستمر عن عدو يتمكن من خلال التهويل به تسخين وتثوير الأوضاع والمواقف في الوقت الذي تستدعي رغباته ومشاريعه التسخين والتثوير ، وتسجيل الانتصارات نقاط في عقول العراقيين .

الفصل الثاني

التحرك عند الحدود الشرقية

في خضم التطورات تيقن قادة الحزب أن السيطرة باتت شبه مطلقة على الداخل ، وإن الوقت قد حان للانتقال خطوات إلى الأمام لتنفيذ النوايا أبعد من أسوار العراق.

انقلاب القصر

لقد وقف الكثير من العراقيين وقفة تعجب يوم 17 تموز 1968 عندما سمعوا أن ثورة بيضاء قادها البعثيون من أجل العراق ومستقبله الأفضل ، وهم العارفين جيدا أن لا فسحة للون الأبيض في سجل البعثيين حكما كانوا ، أم محكومين يسعون إلى الحكم⁶. ووقف كثيرون وقفة تأمل واستغراب يوم تلمسوا في إعلام الانقلابيين رغبة للتسامح ، وميلا للتواد والتآخي ، وهم يعودون بذاكرتهم إلى الورا سائلين بعضهم من العارفين كيف يتصرف الانقلابيين البعثيين بروح التسامح ؟ وهم خبروا القمع ، والقتل ، والتعذيب المفرط يوم حكموا العراق عشرة أشهر عام 1963.

وتوجس كثير من السياسيين العراقيين خيفة من تأكيد الانقلابيين غير المعهود على قومية العراق ، ووطنيته ، وبياض ثورته ، وهم يدركون جيدا أن البعث أكثر الحركات السياسية إيمانيا بالغاية لتبرير الوسيلة .

لكنهم جميعا وبعد أن ارتفعت مستويات تعجبهم ، واستغرابهم ، وتوجسهم في وتأثر تفكيرهم ، وأصبحت من الشدة مستوى ضاغطا ، عادوا إلى العقل ثانية ، وإلى العارفين ببواطن الأمور ليفتشوا عن إجابات مقنعة، فلم يجدوا منها سوى تعليقات ثبتت الأحداث اللاحقة عدم دقتها إذ :

عزى البعض ذلك إلى تحالف البعث مع شخصيات عراقية مستقلة لتنفيذ فكرة الانقلاب الأمر الذي أضفى على سلوك الحزبيين المنفذين لخطة الانقلاب نوعا من الهدوء وعدم الرغبة في القتل ، والانتقام .

⁶. كان لدى الحزب قبل عام 1968 جهازه الصدامي الذي يطلق عليه تسمية (حنين)من شخصياته التي تسلمت مسؤوليات ما بعد الانقلاب صدام حسين ، ناظم كزار ، سعدون شاكر ، وآخرين غيرهم في الصفوف الثانية ، انتهى أغلبهم في محاولة ناظم كزار لقلب نظام الحكم عام 1973 . وكان هذا الجهاز يكلف بعمليات الاغتيال المنظم لأعداء الحزب السياسيين ، والشخصيات الحكومية التي تحول دون تنفيذ مآربه ، كذلك الحماية الخاصة لأوكار الحزب وأنشطته التنظيمية ، وإثارة الفوضى في الانتخابات الطلابية والمهنية التي لم يستطع الحزب تحقيق تقدم في مجالها.

وعزاه آخرون إلى استفادة البعث من فشل تجربته آنذاك ، وميله لتغيير نهج تعامله مع العراقيين .

بينما أشار آخرون إلى عدم وجود عدااء بين عبد الرحمن عارف وأجهزته الأمنية مع البعثيين ، بل وعلى العكس من ذلك كان الحزب يتمتع بحرية جيدة للعمل ، والتحرك رغم وجوده على الساحة السياسية بشكل غير رسمي ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للانتقام بالمقارنة مع القوائم التي أعدها الحزب للتصفية الفورية في انقلابه على عبد الكريم قاسم عام 1963، كذلك لم يدافع الرئيس عبد الرحمن عن نظامه ، وفضل الاستسلام دون مقاومة ، وهذا كذلك أمر لا يدع مجالاً لاستخدام العنف في وقت يحتاج فيه الحزب تحسين سمعته التي ساءت من قبل .

هذا وفي الوقت الذي كانت تثار فيه علامات التعجب ، والاستغراب من قبل المثقفين ، والسياسيين غير البعثيين ، كانت هناك مشاعر مماثلة لها في صفوف الجهاز الحزبي تولدت لديها أكثر من علامة استفهام على سلوك قيادتهم ، وابتعادها عن المبدئية التي كانت تنادي بها على الدوام .

وأولى علامات الاستفهام قبولها مشاركة اللواء الطيار الركن حردان عبد الغفار التكريتي وهو المتهم بالتآمر على الحزب مع عبد السلام عارف لتغيير نظام الحكم عام 1963 ، وكان رد القيادة سريعاً :

إن الرفيق حردان قد أعترف بخطئه ، وأصدر كتاباً في بيروت بعنوان (خنت عقيدتي) عد في حينه باباً للتكفير عن خطئه .

وثاني تلك العلامات ما يتعلق بالتحالف في الطريق لتنفيذ الانقلاب مع عسكريين غير بعثيين محسوبين على الصف المعادي للحزب ، لكن قيادته هذه المرة لم تستعجل الإجابة ، ليس لأنها لا تمتلك القدرة على التضليل ، والمناورة في صياغة الإجابات ، ولكن لأسباب أخرى أهمها :

النوايا المبيتة للتخلص من الحلفاء المعنيين ، وبوقت قريب لا يسمح بإثارته موضوعاً للنقاش في ظروف حرجة قد تؤدي إثارته إلى تنبهم وتحسبهم للوقوف بالضد من تلك النوايا .

الرغبة المفرطة للتفرد بالحكم ، والهيمنة المطلقة على المجتمع العراقي ، وكذلك السيطرة الكاملة على مقاليد الأمور في الدولة ، وتمشيتها بالاتجاهات التي تراها مناسبة

لاستمرار وجودها وتحقيق أهدافها ، الأمر الذي جعلها منشغلة تماما في تحقيقه ، وتأجيل السجلات الجانبية التي لا تخدم هذا الاتجاه .

خطة تنفيذ الانقلاب

بدأ التحول من النوايا المترسبة داخل الذاكرة القريبة إلى فعل التنفيذ عمليا بعد ثلاثة عشر يوما فقط ، وفي جلسة خاصة لأعلى هيئة قيادية بعثية ضمت أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، وصدام حسين فقط تقرر فيها فك التحالف مع الطرف غير البعثي الذي قاد الانقلاب معهم سوية والذي أثرت حوله تساؤلات الحزبيين الذين لم يتعودوا العمل مع غيرهم في الساحة السياسية ، وبدأت الخطوة الأولى انقلابا مدبرا على رجلي الانقلاب :

العقيد الركن إبراهيم عبد الرحمن الداود أمر لواء الحرس الجمهوري في حكومة عبد الرحمن عارف السابقة ، الذي منح رتبة لواء وعين وزيرا للدفاع في الوزارة الأولى بعد الانقلاب حسب خطة التقاسم المتفق عليه للمناصب والسلطات قبل التنفيذ .
المقدم الركن عبد الرزاق الناييف مدير الاستخبارات العسكرية وكالة ، الذي حصل على منصب رئيس الوزراء على وفق ذات الخطة .

هذان الرجلان اللذان تجاوزا على مهنتيهما حيث الواجب الرسمي للأول حماية أمن النظام ، وكذلك الثاني تأمين المعلومات اللازمة لدعم أمن النظام ، وتحالفا مع البعثيين الانقلابيين ، وكان لتحالفهم واشتراكهم في التخطيط ، والتنفيذ الدور الحاسم في النجاح ، والسيطرة على الحكم دون رعي اطلاقا واحدة نظرا لما يشغله المذكورين من مناصب ذات تأثير في إنجاح ، أو إفشال أي عمل بالضد من الحكومة ، إذ هيئ المنصب الذي يشغله الأول في أن يكون دوره حاسما من خلال تنفيذه واجب :

. الأمر بفتح أبواب القصر الجمهوري أمام حلفائه الانقلابيين .

. تقييد أسلحة حراس القصر بالضد من المهاجمين .

. دخول مبنى الإذاعة والتلفزيون ، والتحرك فيه بحرية .

. إتاحة الفرصة إلى المقدم سعدون غيدان آمر كتيبة دبابات الحرس في القصر الجمهوري

بإدخال المهاجمين العسكر مثل :

اللواء أحمد حسن البكر .

اللواء الطيار الركن حردان عبد الغفار .

الفريق الركن صالح مهدي عماش .
وآخرين برتب صغيرة بينهم صدام حسين الذي تقلد رتبة ملازم أثناء الهجوم
والسماح لهم بالتواجد في مقر الكتيبة ومن ثم السيطرة على دباباتها ، وتحريكها في محيط
القصر ، وخارجه إلى النقاط المهمة .
ونجاح عمل بهذا المستوى في تلك الأيام كفيل بإرغام الرئيس والحكومة للتنازل والتنجي
جانبا .

ويشغل الثاني مديرا للاستخبارات العسكرية وكالة ، ودوره في الانقلاب تنفيذ الآتي :
. حجب المعلومات ذات الصلة بتحريك الانقلابيين عن الدولة .
. التغطية المعلوماتية لتحركهم من أوكارهم الحزبية في بغداد ليلة الانقلاب وما قبلها ،
وتضليل مديرية الأمن العامة .
. السيطرة على وزارة الدفاع .

ومثل هكذا عمل عند توفره لأية مجموعة ، وإن كانت صغيرة في ظروف الحكم السابقة
كفيل بنجاحها للوصول إلى أهدافها بكامل أسلحتها ومعداتنا دون ما أية خسارة .
لكن الأمر عند البعثيين ، أو شكل تعاملهم مع الواقع لا يحسب بعوائد الإنجاز التي
تحققت ، ولا بالفضل الذي أسدي لتحقيق النتائج المرجوة ، وإنما بمقدار الخطر الذي
يشكله الموجود في الموقف على الأهداف القريبة والبعيدة ، وكذلك بالنوايا المبيتة ضده.
وهكذا اتخذ القرار في الاجتماع المذكور ، وتم تنفيذه انقلابا داخل القصر يوم 30 / 7 /
1968 خطط لتنفيذ خطواته صدام حسين وأشرف عليها البكر وبأسلوب يقترب
جدا من أساليب المافيات :

إذ أستدعي عبد الرزاق النايف رئيس الوزراء إلى القصر الجمهوري لعقد اجتماع مع رئيس
الجمهورية ، ودخل بعد وصوله مكتب الرئيس ، ليقحمه البكر في حديث عام عن أحوال
العراق ، ومشاريع وزارته في تحسين الظروف العامة للبلد حديث لم يستغرق سوى
دقائق معدودات قطعه صدام حسين بدخوله ماسكا مسدسا صوبه إلى رأس المعني أي
رئيس الوزراء طالبا منه التوجه فورا إلى مطار المثنى دون نقاش . ونادى في ذات الوقت
رفاقه الواقفين خلف الباب مصدرا الأوامر (إلى المطار) .

كان كل شيء معد بدقة بعيدا عن أنظار جهاز الاستخبارات الذي كان يديره الناييف ، وما زال فيه العديد من الضباط المحسوبين عليه ، وبعيدا عن وزارة الدفاع ، ورئاسة أركان الجيش التي لم يجر تبقيت هيئات ركنها بعد .

لقد فهم الناييف كل ملابسات الموقف بسرعة ، ولم يعد أمامه من فرص سوى التوجه بالمسير بين أربعة من الرفاق البعثيين إلى السيارة التي كانت تنتظر أمام الباب الداخلية للقصر دون أن يطفئ سائقها المحرك متوجها إلى مطار المثنى حيث تنتظر طائرة عسكرية نوع أنتينوف ، قد هيا طياروها البعثيون خطة طيران إلى المغرب ، واستحصلوا الموافقات اللازمة لذلك قبل وصول الناييف إليهم بعدة ساعات دون أن يعلموا طبيعة مهمتهم .

وفي الطائرة أبلغ الناييف من قبل ضباط رافقوا رحلته أنه قد تعين سفيرا للعراق في المغرب، منصبا لم يلتحق به عمليا حيث سافر إلى لندن من هناك ، وبدأ العمل مع قوى سياسية عراقية معارضة بالضد من النظام ، واغتيل أمام أحد فنادقها وهو يهيم بالخروج منه بعد اجتماع له مع معارضين عراقيين .

والأمر لم يختلف كثيرا بالنسبة إلى ابراهيم الداود وزير الدفاع الذي أرسل قبل يوم 30 تموز موعد التنفيذ إلى الأردن بواجب تفقد القوات العراقية المشاركة في الجبهة الشرقية ، حيث أعدت له مأدبة غداء في اليوم المذكور بعد إتمامها ، ابلغ من قبل اللواء الركن حسن مصطفى النقيب قائد تلك القوات آنذاك بشكل ودي أمر تعيينه سفيرا في أحد الدول الأوربية ، وضرورة مغادرته للالتحاق مباشرة من عمان ، في حين ذكرت مصادر أخرى أنه قد أبلغ بالأمر بصيغة التهديد ، وسلم له جواز سفر دبلوماسي ، وثم إيصاله إلى مطار الملكة عالية في عمان ليتجه منه إلى إسبانيا ، ومن بعد ذلك بقليل أحيل على التقاعد ، وتمت ملاحقته مخابراتيا ليستقر في السعودية حتى يومنا هذا دون نشاط ملموس بالضد من النظام .

إن النجاح منقطع النظير في القضاء على الطرف الحليف الداود والناييف بعد ثلاثة عشر يوما من الانقلاب كان الرد العملي لتساؤل الحزبين عندما أعلن في وسائل الإعلام أن المذكورين من الرجعيين المتآمرين المرتبطين بالأجنبي . عندها فهم البعثيون أن التحالف كان تكتيكا تعبويا قبلوه ببساطة ثمنا للوصول إلى سدة الحكم .

التقرب من خط الحدود

كان الانقلاب المذكور داخل أروقة القصر الجمهوري والتخلص من الحلفاء غير البعثيين فرصة أمام الحزب الحاكم للتحرك في مجال الجيش بحرية كاملة حتى فتحت الأبواب له مشرعة ليعمل بكل طاقته من أجل زيادة ولاء المؤسسة العسكرية للحكومة الجديدة . وكانت الخطوات متلاحقة لم تنته عند تنحية الداوود والنايف من سدة الحكم ، إذ سبقتها خطوة شملت رئيس أركان الجيش اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاري ، الذي نصب العقيد حماد شهاب آمر اللواء المدرع العاشر الذي شارك في الانقلاب بدلا عنه بعد منحه رتبة لواء ، ومن ثم ترقيته في غضون أسبوعين إلى رتبة فريق ، وتعيينه وزيرا للدفاع ، وأجري تعديل وزاري ضمن فيه الحزب كل المناصب ، وسيطر الضباط الحزبيين على المفاصل المهمة في مديريات ، ودوائر وزارة الدفاع خاصة الاستخبارات العسكرية ، وديوان الوزارة . ومنح ناظم كزار رتبة لواء وعين مديرا للأمن العام ، ونجح الحكم في أول اختبار تحدي عام 1969 في كشف حركة انقلاب بالضد منه كان مخطط لها بشكل جيد⁷.

نوايا التحرك خارج أسوار الحدود

في خضم تلك التطورات تيقن قادة الحزب أن السيطرة باتت شبه مطلقة على الداخل ، وإن الوقت قد حان للانتقال خطوات إلى الأمام لتنفيذ النوايا التي تدور في العقل عن مخططات أبعد من أسوار العراق ، وجرى التحرك بكل الاتجاهات بهدف : أن يكون لحكومة العراق البعثية دورا في المنطقة الإقليمية الممتدة جنوبا باتجاه الخليج العربي ، وغربا باتجاه سوريا ، الأردن ولبنان، وقليلًا باتجاه الشرق وبما ينسجم وفكر الحزب الحاكم ، وتوجهاته القومية في الوحدة والحرية والاشتراكية شعارات أعلنها على الملأ وسعى إلى التمسك بها ضرورة حتمية . ودور مهم مثل هذا لا يتحقق بطبيعة الحال ولو بحدوده الدنيا دون وجود قوة عسكرية قادرة على التوازن مع بعض الأطراف

⁷ . حركة العميد الركن عبد الغني الراوي

المهمة مثل إيران ، والتفوق على أخرى في النطاق الإقليمي العربي ، وتلك القوة لا يمكن أن تكون فاعلة في عملية التوازن ، والتفوق بقدر مقبول إلا من خلال :

. إتمام عملية التسييس المعدة للجيش ليكون أداة منفذة لأوامر القيادة القطرية للحزب بشكل حربي ، وقد نجح الحزب في سلسلة أعماله المتتالية بجعله خلية حزبية بعد فترة قليلة من توليه السلطة .

. زيادة حجمه أي الجيش بشكل متكافئ مع أطراف الصراع في المنطقة وبمستوى يصلح للتلويح باستخدامه قوة ردع فاعلة ، وهنا بدأت الحكومة بتشكيل وحدات وقيادات جديدة أضافتها إلى قوة الجيش دون حساب التعداد العام للسكان ، والإمكانيات الاقتصادية لتغطية كلف إنشائها ، حيث أكملت تشكيل فرقة المشاة الخامسة وحددت موقعها في البصرة القريب من إيران.

ومن بعدها عام 1969 شكلت الفرقة المدرعة السادسة ومقرها منصورية الجبل المواجه لإيران .

بالإضافة إلى كتائب مدفعية ميدان وأخرى ذاتية الحركة.

كذلك التعاقد مع الاتحاد السوفيتي لشراء زوارق صواريخ للبحرية تعمل في المياه المشتركة مع إيران وكاسحات للألغام . وطائرات قتال حديثة تضاهي ما موجود عند إيران قادرة على الوصول إلى بعض أهدافها المهمة في العمق الإيراني إذا ما تطلب الموقف ذلك .

. تغيير طبيعة المهام العسكرية بما يخدم استراتيجية الدفاع عن الحدود بكفاءة، وبسط النفوذ داخلها بشدة . إذ أن المعروف ورغم عدم وجود عقيدة عسكرية عراقية منذ بداية تأسيس الجيش العراقي وحتى وقتنا الراهن فإن تهيئته من الناحية التسليحية ، والتنظيمية ، والتدريبية منذ عام 1921 وحتى 1968 كانت مكيفة بضوء معايير الدولة العراقية في جعل قوته العسكرية تعتمد في الأساس على مفهوم الدفاع ، والتحرك سريعا (في أضيق الحدود) للتدخل في الوضع الداخلي والسعي لحسم الاضطرابات الناتجة عن ملابساته بالقوة . وهذين المعيارين وبمقارنتهما مع عدد سكان العراق والإمكانيات الاقتصادية للدولة من ناحية ، وتحديدات التحرك على الساحة الإقليمية من ناحية أخرى دفعت الدولة العراقية إبان الحكم الملكي وما بعده قليلا في الجمهورية الأولى عبد الكريم قاسم ،

والثانية عبد السلام عارف ، وإلى حد ما الثالثة عبد الرحمن عارف أن تعبئ الجيش العراقي على أساس :

. أن تكون هناك قوة عسكرية جبلية في الشمال (الفرقة الثانية) .
تأخذ على عاتقها مسؤولية التعامل مع الكورد في منطقة كوردستان العراق .
. قوة مدرعة في الوسط (الفرقة المدرعة الثالثة) .
قادرة على التحرك في الساحة العراقية ، ولها الإمكانية الكافية للوصول غربا عند الضرورة .
. قوة مشاة في الجنوب (الفرقة الأولى) .
تأخذ على عاتقها مهام التعامل مع العشائر العراقية الجنوبية ، والتحرك باتجاه الجنوب الغربي ، والشرقي عند الضرورة .
. قوة جوية تنتشر في ثلاث مناطق رئيسية من العراق كقواعد انطلاق تغطي مهام القوات البرية المذكورة هي :

الشعبية في الجنوب .

الحبانية في الوسط .

كركوك في الشمال .

وتلك القدرات العسكرية الإجمالية زادها الحكم الجمهوري تباعا فرقة المشاة الرابعة وحدد لها موقعا في الموصل لحسابات تتعلق بتركيا من ناحية ، وكوردستان من ناحية أخرى ، وأضاف لقوتها الجوية بعض الأسراب لطائرات الميغ 15 و17 و19 التي تم التعاقد على شرائها من روسيا بعد عام 1958 مباشرة .

إلا أن الحكومة الجديدة بعد عام 1968 ولأهدافها الخاصة غيرت من الأساليب المتبعة للتعامل مع المعايير ، وأبدلت المهام العامة للجيش بضوء أولوياتها غير المعلنة آنذاك إذ: سلحت خلايا الحزب للتعامل مع الداخل قوة دعم وتعزيز أمنية .

ومع ذلك لم تقلل من فاعلية الجيش ودوره في التحرك الداخلي عند الضرورة⁸.

⁸ استخدمت الحكومة الجيش عامل ردع وفرض سلطة الدولة مع أول حالة توتر داخلية في الجنوب عام 1969 حيث حركت لواء المشاة الخامس عشر في منطقة الديوانية ، والرميثة جنوب وسط العراق لقمع عشائر بدأت بإثارة بعض الاضطرابات ، ونشرت لواء المشاة الرابع عشر في الناصرية لذات الغرض .

شكلت الجيش الشعبي عنصرا فاعلا في الداخل وقدرة لتقديم الدعم ، والإسناد للجيش النظامي عند الحاجة .

شكلت في منطقة كوردستان الأفواج الخفيفة من بين المتطوعين الكورد العاملين في صفوفها ، وكذلك العشائر العربية القريبة من المنطقة ، لأغراض مقاتلة التمرد الكوردي دعما للجيش الذي أخذ على عاتقه هذه المهمة منذ بداية الحركة الكوردية .

التحرك الإيراني لصياغة الحدث

إن خطوات الحكومة في العسكرية ودعم الجيش وتوسيعه مع التشكيلات شبه العسكرية، وقوات الحدود كانت مرصودة من قبل إيران الشاه بشكل دقيق وتقييمها من قبل خبراءه عوامل :

تهديد بالضد من الأهداف الاستراتيجية لإيران على المدى البعيد .
إعاقة لتحقيق أهدافها القريبة في البقاء قوية في منطقة قلقة غير مستقرة .
مما دفعه أي الشاه إلى الدخول على الخط بسرعة غير مسبقة لتكوين موقف ، أو صياغة حدث كما يعبر عنه السياسيون يمهد إلى إثارة قدر من التوتر يؤدي بالنتيجة إلى :
إعاقة خطط الحكومة العراقية في تقوية وتوسيع الجيش لإبقاء هامش التفوق الإيراني حاسما.

. استثمار حالة القلق ، وعدم الاستقرار لدى الحكومة العراقية في مرحلة الانتقال بعد العام 1968 ، والضغط على تشكيلتها للحصول على مكاسب استراتيجية يضعها الشاه في أعلى أولويات تعامله مع العراق ، ويعزز وضعه شرطي المنطقة كما أريد له ذلك وكما أراد هو لنفسه أن يكون.

وعلى هذا الأساس بدأ تحركه لصياغة الحدث بعدة اتجاهات أقلقته الحكومة العراقية قلقا كان مسببا لعدم توازنها عسكريا مع القوات المسلحة الإيرانية الطرف المقابل في الصراع الذي بدأ يتجه إلى احتمالات استخدام القوة بدرجة ليست قليلة .

ميزان القوى العسكري قريبا من الحدود

إن النظرة الأولية على ما يمتلكه الجيش الإيراني من قدرات تسليحية ، وإمكانيات فنية ، ومستويات تدريبية ، ومقارنتها بما لدى العراق آنذاك تبين أن هناك خلافا لصالح إيران بمستويات كبيرة تغطي جميع فروع القوات التي بدأ الشاه تعزيزها وإعادة تنظيمها مع بداية السبعينات وأكمل تشكيلها ، وتسليحها قبيل انتهاء حكمه بقليل وهي إجمالاً بحدود:

. 450 طائرة قتال حديثة بينها 78 طائرة أف 14 توم كات مجهزة بمنظومة صواريخ جو/جو فينكس بعيدة المدى .

. أقل قليلاً من ألفي (2000) دبابة بريطانية الصنع (تشيفتن) و (MK5B) و (M60A1 الأمريكية .

. ألف (1000) طائرة سمنية مجهزة للنقل والإخلاء بينها طائرات من نوع كوبرا مزودة بصواريخ ضد الدبابات ، ورشاشات ثقيلة ضد المشاة .

. وعلى مستوى القوات البحرية كانت هناك اثنا عشر زورقا للصواريخ نوع كومبتنانت الفرنسية ، المجهزة بصواريخ هاربون مضادة للسفن أمريكية الصنع مع عدد من المدمرات ، والفرقاطات .

. خمسون ألفاً من قوات الجندرية القريبة من الحدود .

. وعلى المستوى المخبراتي فإن جهاز السافاك كان جهازاً للمخابرات من أكفأ الأجهزة المخبراتية في المنطقة ، يعتمد في عمله على تمويل مالي عالي المستوى وعلى كوادر تخصصية جرى تدريبها ، وإعدادها في أمريكا ، وبعض الدول الغربية ، بالإضافة إلى جهاز الاستخبارات العسكرية المعروف في الجيش : جي 2 (G 2) والمدعوم جيداً من قبل الدولة .

. وفي المجال الاستخباري الاستراتيجي فقد اتفقت إيران على إنشاء أكبر مشروع للمراقبة والتجسس يدعى مشروع (ايبكس IBEX) يحتوي على منشآت أرضية ، وجوية للمراقبة يخضع العراق حتى منطقة الحبانية (مائة كيلومتر غرب بغداد) للمراقبة المستمرة .

. أما قوته البرية الضاربة فكانت حتى أواخر عهده :

الفرقة المدرعة السادسة عشر في قزوين .

الفرقة المدرعة الحادية والثمانين في كرمشاه .
الفرقة المدرعة الثامنة والثمانين في زاهدان .
الفرقة المدرعة الثانية والتسعين في الأحواز .
فرقة المشاة الأولى .

فرقة المشاة الثامنة والعشرين في سنندج .
فرقة المشاة الرابعة والستين في الرضائية .
فرقة المشاة السابعة والسبعين في مشهد .
لواء القوات الخاصة الثالث والعشرين .

اللواء المظلي الخامس والخمسين .
لواء المشاة الرابع والثمانين .
اللواء المدرع السابع والثلاثين .
فرقة حرس إمبراطوري .

خمسة مجموعات مدفعية ميدان .

بينما لا يمتلك العراق من الطائرات المقاتلة إلا بقايا الهنتر الإنجليزية والميغ 19 وقليل من الميغ 21 الروسية التي كانت سائدة كطائرة قتال تعبوي وإسناد قريب . والتي لا يضاهي تسليحها الطائرات الموجودة في القوة الجوية الإيرانية في ذلك الزمن خاصة أف 14 المزودة بأنظمة لمعالجة ستة أهداف جوية على مسافة تصل إلى 120 كم في وقت واحد .

.ومن الدبابات عددا يقل عن 800 دبابة من النوع الروسي غير الحديث ، (تي 34 و54 و55) التي يتواجد بحدود مائة منها آنذاك في الأردن لأغراض الجبهة الشرقية .
.كما إن غالبية طائراته السمتية من نوع مي 4 ، وقليل جدا مي 8 الروسية معدة جميعها للنقل ، والتنقل ، والإخلاء في بعض الحالات الخاصة ، ولم تجهز بالأسلحة ومنظومات إطلاق الصواريخ المضادة للأفراد والدبابات كما هو الحال بالنسبة للطائرات السمتية الإيرانية .

.كذلك لا يمكن مقارنة الأسلحة البحرية العراقية بالإيرانية التي تتفوق في كل الأنواع حيث لم تكن البحرية العراقية آنذاك قد تعدت كثيرا مرحلة الانتقال من القوة النهرية التي تحتكم فقط على زوارق دورية ذات غاطس ملائم للعمل في الأنهر والأهوار ، وزوارق

طورييد قديمة الصنع ، ولم تكن قد تهيأت إلى مرحلة البحرية بسفنها وزوارقها الملائمة للعمل في الخليج ، رغم تركيز الحكومة الجديدة على مسألة تطويرها بعد أن حولتها إلى قيادة وأسندت مسئوليتها إلى الضابط البحري السوري العميد عبدو ديري ، وتعاقدتها مع الاتحاد السوفيتي لشراء سفينة إنزال ، وزوارق صواريخ ، ومقاومة الغواصات، وزوارق طورييد ، وزوارق دورية ، وبطريات صواريخ أرض سطح ، وكذلك كاسحات ألغام .

. وعلى المستوى المخبراتي لم يكن قد أكتمل تشكيل المخابرات العامة في العراق التي بدأت الحكومة أولى خطوات تشكيلها هيئات تحقيقية بعد عام 1968 أعقبتها بصيغة مكتب العلاقات العامة الذي يديره صدام حسين مباشرة، ويعاونه في الواجهة سعدون شاكر ، وتحددت واجباته المعلنة حماية أمن النظام دون الخوض بمسألة جمع المعلومات الاستراتيجية ، والتعبوية التي تقع مسئوليتها في تلك الفترة على مديرية الاستخبارات العسكرية التي كانت قدراتها الخارجية آنذاك محدودة تلي حاجة الدولة ، والجيش في التعامل مع الواقع المحلي والإقليمي بقدر بسيط ، رغم أن هناك جهودا لها باتجاه إيران حتى قبل مجيء البعثيين كانت تعد جيدة بمقاييس ، وإمكانات تلك الفترة الزمنية من تاريخ العراق .

. أما القوات البرية الرئيسة فكانت حتى منتصف السبعينات :

فرقة المشاة الأولى في الديوانية .

فرقة المشاة الثانية في كركوك .

الفرقة المدرعة الثالثة في الرمادي .

فرقة المشاة الرابعة في الموصل .

الفرقة الآلية الخامسة في البصرة .

الفرقة المدرعة السادسة في منصورية الجبل (بعقوبة) .

كتيبة دبابات مجحفلة مع فرق المشاة ، والمشاة الآلي .

كتيبة مدفعية ميدان مع فرق المشاة ، والمشاة الآلي ، وكتيبة ذاتية الحركة مع الفرق المدرعة .

لواء صواريخ (لونا) في المحاويل .

لكن تلك القوات منفتح معظمها في منطقة كردستان للتعامل مع الحركة الكوردية دفاعا ، أو هجوما .

الدفع باتجاه الصدام المسلح

إن شاه إيران الذي لم ينتظر اكتمال الاستعدادات العراقية في الدفاع والتوازن سارع للتقرب أكثر فأكثر من نقطة صياغة حدث يفضي إلى التصادم عسكرياً ، وكانت البداية دعم وتغطية تحركات إنقلاب عسكري على الحكم عام 1969 كتب عنه السيد أحمد الحبوبى كتابه (ليلة الهرير في قصر النهاية) مشيراً إلى أن العناصر الرئيسية لذلك الانقلاب هم : العميد الركن عبد الغني الراوي ، والشيخ طالب السهيل ، والمرجع الشيعي مهدي الحكيم ، ورئيس الوزراء السابق عبد الرزاق النايف ، وسعد صالح جبر ، والملا مصطفى البارزاني الذي أقتنع للمساهمة في العملية ، وعديد من الضباط المستمرين في الخدمة ، نجحوا في جذب دعم الشاه وتأييده للتنفيذ .

كما إن الشاه الذي وجد نفسه بالواجهة مع الحكومة البعثية لم يتوقف عند نوايا الدعم المباشر للتحرك الذي لم يكتب له النجاح بالضد منها ، بل وسار أكثر إلى الأمام حيث الدعم المباشر والقوي للحركة الكردية في الشمال بغية الضغط على الحكومة المركزية ، وإضعاف مواقفها في التعامل مع الداخل والخارج على حد سواء . إذ أمر جيشه بتزويد الحركة تباعاً بقذائف راير ومدافع عيار 155 ملم نجم عنه تحولاً ملموساً في طبيعة القتال بين القوات الحكومية ، والبيشمركة الكردية التي نجحت في أوائل آذار 1969 بشن هجوم على منشآت النفط في كركوك لأول مرة أرجعت الحكومة نجاحه إلى الإسناد المدفعي الإيراني الذي توفر لهم في ساحة المعركة محدثاً دماراً شديداً لتلك المنشآت التي تعطل بعضها ، وتوقف ضخ النفط لعشرة أيام ، مما زاد من احتمالات التقرب أكثر فأكثر من بؤرة التفجير لصراع عسكري الطابع بين البلدين بعد أن أصبحت مصادر النفط التي يعتمد عليها العراق في تقوية موقفه ، وتعزيز قدراته العسكرية مهددة بشكل شبه مستمر .

وبعد أن أثبتت وقائع هذا الهجوم أن الدفاع عن تلك الأهداف الحيوية تجاه هجمات أخرى مماثلة من قبل الكورد في المستقبل بات صعباً من الناحية العملية بعد التدخل الإيراني المباشر تضاعف في العقل الحكومي العراقي التوجس من الشاه ، والرغبة في تفادي توجهاته بأي ثمن ، زادها خطورة قيامه أي الشاه باستثارة الرواسب القديمة في الذاكرة الشعبية لكلا البلدين حيث التعبئة النفسية الشاملة لشعبه ، وقواته المسلحة بالضد من الحكم في العراق ، وتوجهه بعد حوالي شهر من ذلك الهجوم أي في نيسان نفس العام إلى إلغاء اتفاقية سعد آباد الموقعة عام 1937 من طرف واحد مدعياً حق

دولته في الملاحة الحرة في شط العرب بعدّها مياه دولية رغم إن أسطوله البحري التجاري عمليا لم يلتزم بنود تلك الاتفاقية منذ ما يقارب ثلاث سنوات بقي رافضا خلالها الاستعانة بالإدلاء العراقيين ، أو دفع الرسوم الخاصة بمرور البواخر العائدة له كما نصت عليه بنود الاتفاقية المذكورة .

الأمر الذي دفع الحكومة العراقية إلى تفسير إجراءه هذا في الإلغاء ، وتقديم المساعدات العسكرية ، والمالية إلى الحركة الكردية ، ومن قبلها دعم محاولة الانقلاب على إنها تهديد مباشر لاستقرار نظامها الذي لم يكتمل استقراره من الناحية العملية حتى ذلك الوقت .

المناورة أحد الأسلحة المتاحة

معالم قلق ، وتوتر في الجانب الحكومي العراقي ، تصاعدت شدتها كثيرا حتى عام 1970 بسببها اندفعت الحكومة لأن تستقرأ الموقف جيدا ، وتتجه لعدد من الخطوات في السر ، والعلن للتعامل مع التجاوز الإيراني ، دون أن تتمكن من إخفاء توترها الذي كان بينا في الخطاب الانفعالي الذي ألقاه رئيس الجمهورية القائد العام للقوات المسلحة أمين سر القطر أحمد حسن البكر في تلك الأيام الصعبة مبديا فيه الامتعاض من خطوة الشاه ، ومتوعدا في ذات الوقت بالرد المناسب في الوقت المناسب .

وعلى وجه العموم اندفعت الحكومة باتجاهين رئيسيين :
الأول يتأسس على نشر قوات من فرقة المشاة الأولى على الحدود بين البلدين بامتدادات شط العرب جنوب البصرة من كوت الزين حتى الفاو.

واللواء التاسع عشر في النفط خانة جنوب خانقين ، وأخرى شماله في قورة تو، وكذلك في بدرة التابعة إلى الكوت ، مع الاحتفاظ باحتياطي مدرع في القاطع الأوسط ، وفي البصرة .
كذلك الإيعاز إلى القوة الجوية لتنفيذ دوريات جوية مسلحة في المنطقة الممتدة من الفاو جنوبا حتى قورة تو شمالا بالإضافة إلى الجهد الجوي لقاعدة كركوك المخصص للمنطقة الشمالية بدءا من تلك المنطقة أي قورة تو ، وامتدادا نحو الشمال نقطة التقاء الحدود العراقية الإيرانية التركية .

أما الاتجاه الثاني الذي يترافق مع انفتاح القوات هو محاولة تهدئة الموقف على جبهة كردستان إذ بدأت بالتنويه لمنح الكورد حكما ذاتيا ، استنادا إلى مقررات الحزب لعام 1966 حول المسألة الكردية عندما كان الحزب يخطط لاستلام الحكم.

كما أعلنت عن الاستعداد لمنحهم بعض الحقوق الثقافية ، واللغوية ، وهذا تنويه أو إعلان يشير إلى أن الحكومة :

قد تيقنت من استحالة حسم الموقف لصالحها مع الطرف الكوردي في الوقت الذي تعيش فيه تحت طائلة التهديد الإيراني .

كما يشير أيضا على أنها مقتنعة أن الاستمرار في مقاتلة الكورد قتالا طويلا الأمد ، ومكلف من الناحية المادية سيعطل مشاريعها في تقوية الجيش ، وإعادة بناءه عقائديا .

وفوق هذا وذاك أنها أدركت أن القتال في مثل تلك الظروف قد يفضي إلى احتمالات تقويته لمواقف الضباط غير البعثيين الذين ما زالوا يخدمون في الجيش ، والذين يشكل وجودهم مصدرا كامنا للمعارضة المسلحة مع أول فرصة متاحة قد توفرها ظروف عدم الاستقرار.

وفي واقع الحال نجحت الحكومة في استراتيجية التهدة بالتخلص من نوايا الإيرانيين عندما تفاوضت مع الكورد ومن ثم أصدرت بيان 11 آذار 1970 وشكلت لجان مشتركة من البعثيين الحكوميين والكورد البيشمركة انغمست في التفاصيل المعقدة لحوالي أربعة سنوات كانت كافية لقطع الكورد علاقاتهم مع إيران ، أو تخفيفها بأدنى الحدود غير المجدية لأغراض الدعم ، والإسناد وبها فوتت الفرصة كاملة على الشاه في تنفيذ خطته لزيادة تأزم الموقف في غير صالح الحكومة العراقية .

ومع تلك المفاوضات غير المجدية بين الفنيين من كلا الطرفين ، وعدم التلاقي بين السياسيين استطاعت الحكومة أن تحقق أهدافها في المناورة على خطط الشاه ، والحيلولة دون تنفيذه هجوما شاملا على حدودها الشرقية تدرك جيدا أنها غير قادرة على مقاومته في ظروفها غير المتوازنة .

هذا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن العراق في تلك الفترة الزمنية لم يتمكن من أن يحشد قوات كافية للدفاع تجاه ذلك الهجوم المحتمل لأن حوالي سبعة عشر ألفا من قواته ، وبحدود مائة دبابة من أحدث دروعه موجودة في الأردن سيؤدي سحبها لأغراض التوازن مع إيران حرجا لقيادة الحزب التي تفتش عن فرصة التعريف بوطنيتها وقوميتها ، وخير تعريف هو الذي يتعلق بفلسطين المنفتحة تلك القطعات قرب ساحتها لأغراض قومية ، وهي فرصة يصعب المجازفة بتقويضها ، أو ضمان تكرارها في المستقبل بعيدا كان الأمد أم قريب.

التصادم عبر خط الحدود

لكن التهدة ورغم فاعليتها في تعطيل الخطط الاستراتيجية للشاه لفترة لم تزد على السنتين كانت مناسبة للحكومة العراقية في التهيؤ والاستعداد حيث اكتمال تشكيل بعض الوحدات المدرعة ، وكتائب المدفعية ذاتية الحركة ، وتحويل فرقة المشاة الخامسة إلى فرقة آلية بعد أن بدأ تنفيذ العقود المبرمة مع الاتحاد السوفيتي في مجال التسليح ، والتدريب بشكل فاعل .

لكن معالم التوتر بقيت مغطاة بطبقة خفيفة من الرماد إذ لم يحصل الشاه على اعتراف من العراق بأحقية في المرور بشط العرب ، وتعديل الحدود في مناطقه إلى خط الثالوك كما يريد ، وسرعان ما عادت معالم التوتر ثانية على طرفي الحدود بميل أكبر على التحدي من قبل العراق الذي شعر أن توازن قواته مع الإيرانيين ، وإن لم يتعادل قد أقرب من المعقول إذا ما أضيف له عوامل أخرى مثل :

قدرة الحزب الجيدة على تعبئة المتطوعين من البعثيين والمستقلين .

حشد قوات الجيش الشعبي لدعم الجيش تعبويًا .

الاستفادة من البعد القومي إذا ما تم تعريب الصراع مسعا من قبل الحزب كان موضوعا في الاعتبار.

وبذا تطور الموقف باتجاه الأزمة، وبشدة أكثر من مجمل الأحداث التي تكررت في السنوات السابقة لينتج عنه صداما مسلحا موقعيا قاتلت فيه قوات خاصة عراقية بكفاءة عالية سميت في حينها انتهاكات في جانبي الحدود خاصة في القاطع الأوسط حيث تكبد الطرفان في أول مواجهة مسلحة محدودة إلى حد ما أكثر من مائة إصابة طلبوا على إثرها مراقبين من الأمم المتحدة .

وفي هذا الصراع غير المتوازن حاول البعض التدخل لاحتواء الموقف وإيجاد نوع من التسوية خاصة الاتحاد السوفيتي لكنه فشل في تحقيقها لموقف الشاه من طبيعة حكمهم، وتاريخه المليء بالتحسس من الشيوعية ، وربما لعدم وجود الحماس الكافي لدى السوفيت لاتمام هذه المهمة التي ستؤثر على كم الأسلحة المطلوب بيعها إلى العراق الساعي إلى التوازن بأسرع وقت ممكن وبأي ثمن كان .

إلا إن الملك حسين كان الأوفر حضا في جمع ممثلين عن البلدين تطورت بالتدريج إلى لقاءات منظمة على المستوى الوزاري في تركيا تمخضت عن اتفاقية لعب فيها الرئيس الجزائري هواري بو مدين دورا حاسما وقعت في الجزائر عام 1975 وسميت باسمها . وتحققت فيها غالبية الأهداف والمطامح التي أرادها الإيرانيون .

وقفة لالتقاط الأنفاس

لقد حقق الشاه نواياه التي أراد لها أن تتحقق في تحركه السابق بالضد من حكومة البعث في بغداد وبتحقيقها أدار ظهره إلى الكورد ، وحول آلية ضغطه التي كانت مسيطرة على الحكومة العراقية منها إلى الحركة الكوردية حيث التهديد العلني بالإنضمام إلى القوات العراقية في الحرب ضدهم إذا لم يلتزموا بفقرات الاتفاقية ، ويمثلوا لبنودها ، فكانت النتيجة :

بالنسبة للكورد

. خسارة آنية كبيرة لحركتهم المسلحة .
. خروج قادتها ورموزها خارج ساحة القتال الفعلية.
. فقدانهم السيطرة على كوردستان العراق بشكل شبه كامل .

بالنسبة للحكومة العراقية

. فرصة جيدة لالتقاط الأنفاس وإعادة الحسابات ، والتهيؤ لصفحات أخرى من المعركة ذاتها مع الإيرانيين وغيرهم في المستقبل .
. إعادة تكييف عوائد النفط ، والاقتصاد لتنفيذ بعض الخطط المؤجل تنفيذها في مجال الجيش ، والأجهزة الأمنية ، وباقي الأجهزة الضابطة في المجتمع .
. تفرغ من جانبها لتسوية المشكلة الكوردية على وفق شروطها الخاصة .

بالنسبة إلى الشاه

. تحقيق كامل أهدافه في اقتسام شط العرب ، وإعادة ترسيم الحدود في خط الثالوك .
. تعزيز وضعه في منطقة الخليج العربي شرطي قادر على تحقيق الأهداف المطلوبة بالقوة.

لكن هذه الاتفاقية التي وقعت في أعقاب التوتر القائم بين البلدين وفي ضل الاعتراف الحكومي العراقي بعدم وجود توازن مع الخصم رغم التهويل لها والتأكيد على إيجابياتها من قبل أجهزة الحزب ، والإعلام العراقي الذي حاول تصويرها نصرا عراقيا تحقق بعيدا عن استنزاف الدم العراقي ، والأموال العراقية بينت تطورات الأحداث بعد خمس سنوات من الشروع العملي في تنفيذها :

أن توقيعها كان اضطراريا من قبل الحكومة تحت ضغط التخلص من توجهات الشاه ،
وضرورات القضاء على الحركة الكردية .
إن سريانها شكل نقطة وخز للضمير البعثي بقيت عالقة في عقل الحكومة لتلك الفترة
الزمنية ، وكانت من بين الأسباب التي أعادت الصراع بين الطرفين إلى مستوى الحرب
الشاملة عام 1980 في صفحة تعد الثانية من الناحية العسكرية والسياسية .
لكنها ومع ذلك لم تكن النقطة الوحيدة التي أثقلت الضمير البعثي بالوخز والتأنيب ، ولم
تكن الأخيرة سببا لسحبه إلى المزيد من الحروب .
بل كانت وفق كل المعايير نقطة توقف لالتقاط الأنفاس .

الفصل الثالث

الصراع الصامت في جبال كردستان

تمكنت الأجهزة الاستخبارية في حربها الصامتة من ضرب الشعب العراقي الكوردي في أكثر من مكان ضربات كانت أكثر إيلا ما من رصاص البنادق ، وقنابل المدفعية ، وقصف الطائرات

القضية الكردية في المنظور الحكومي

أكد حزب البعث في مؤتمر له عام 1966 ضرورة منح الكورد حقوقهم القومية في ظل عراق عربي ، اشتراكي ، حر، ومن بعد ذلك بسنتين استلم قادته الحكم وكونوا قاعدة للتعامل مع القضية الكردية تقوم على أساس المراوغة ، واستثمار الفرص لتحقيق الغايات بعيدا عن الالتزام بالتعهدات المسبقة .

لأن للبعثيين أساليبهم ورؤياهم الخاصة في النظر إلى الواقع الذي يعيشونه : محكومون يمنون الأقران بمستقبل أفضل عندما يأتون إلى الحكم .

حكام يتبعون العنف بأقصى صورته تحت ضرورات ضبط المجتمع ، والمراوغة بكل تفاصيلها إذا ما واجهوا تهديدا لحكمهم من الخارج ، واللعب جيدا بالألفاظ ، والاتكاء على بالمبادئ مؤقتا في التهدة وكسب الود ، والتعاطف ، وفي داخلهم استعداد تام للالتفاف على تلك المبادئ بشتى الحجج ، والتبريرات . فهم على وفقها اشتراكيون يديرون المقهى الشعبي في المنطقة ، ومحل البقالة في الزقاق عندما تقتضي الضرورة ، وتراهم رأسماليون أكثر مغالاة بتطبيقات الرأسمالية من عديد من الدول الأوروبية عندما يفسح لهم المجال . وهم بسببها وطنيون تقشعر أبدانهم لسماع غيرهم قد ارتكب عنفا ضد شعبه ، وتجدهم سفاحين لشعبهم عندما يشعرون وقوفه بالضد من وجودهم⁹.

تلك أساليب أصبحت بمرور الوقت خصائص لا يتحدد تطبيقها على قضية دون أخرى ، أو منطقة دون سواها ، وإنما تعميم لكل مساحة العراق والمنطقة ، ولكل قضايا التماس بين الحكومة والأطراف المقابلة لها شعبا عراقيا كان أم أجنبيا حكومة عربية شقية كانت أم أخرى أجنبية .

⁹ . في الأحداث التي دارت في حلب بسوريا في سبعينات القرن الماضي بين الإخوان المسلمين والحكومة السورية ، ظهر صدام حسين على شاشة التلفزيون العراقي منتقدا بعبارة المشهورة (كيف يمكن أن يسمى الحاكم نفسه وطنيا عندما يقوم بضرب شعبه بالمدفعية) وبعد أقل من خمسة عشر سنة من ذلك التاريخ أمر صدام بضرب الشعب العراقي الكوردي في حلبجة بالسلح الكيماوي ومن بعدها في عام 1991 أمر بضرب مدن الوسط العراقي والجنوب بالمدفعية الثقيلة ، والدبابات ، والصواريخ ، والطائرات . فهدم مناطق بأكملها ، وأزال قرى من الخارطة ، وهجر مئات الآلاف من العراقيين إلى مناطق أخرى داخل العراق وخارجه .

حتى وصف البعض هذا الحكم بالعدالة الشديدة في استخدام العنف ، وتوزيع البؤس على الآخرين .
ومع ذلك فإن عدالته المذكورة ليست مطلقة كما يراها كثير من الواقفين بالصفوف المواجهة له ، لأنها :
ارتبطت في الأصل مع صيغ النوايا غير السليمة التي أخذت حيزا ليس قليلا من تفكير القادة البعثيين .
تأسست في التفسير على المغالاة بالتبرير آلية نفسية دفاعية احتلت المساحة الأوسع في عقول الحكام البعثيين .
هذا وبدافع النوايا المبيتة ، وسهولة التبرير ، وخطأ التعامل والتقدير لم يهدئ الوضع في العراق ، ولم يشهد أهله فترة استقرار إلا في أوقات قليلة قد لا تتجاوز الشهور في سلسلة السنين التي زادت عن ثلث قرن حكموا فيها العراق .

التوجه صوب الشمال

يملك البعثيون في العراق خبرة ناقصة في إدارة القضية الكردية والتعامل مع متغيراتها ، تكونت في ظروف حكمهم العراق عام 1963 التي حققوا فيها بعض المكاسب العسكرية على الأرض الوعرة ، وأسهموا في ابتعاد الشعب الكردي عن المركز وتوجسه من البعثيين الذي عادوا إلى الحكم ثانية عام 1968 بنوايا أكثر ضبابية حاولوا على أساسها تهدئة الموقف ، والترقب تارة ، ومن ثم تسخينه تارة أخرى ، رغم إن التهدئة كانت غالبية على توجه الحكومة ، وكذلك على ردود فعل المقاتلين الكورد المتحصنين في الجبال لحسابات خاصة بكل منهما :

إذ تسعى الحكومة على سبيل المثال لتجاوز التأثيرات المباشرة للقتال على استقرار الحكم لفترة تستطيع بعدها التحرك بقوة.

وفي نفس الوقت تميل القيادة الكردية إلى التوقف عن القتال لإعطاء فرصة كافية يمكن من خلالها تبيان نوايا الحكام الجدد في التعامل مع قضيتهم على ضوء المبادئ المعلنة لهم في السابق.

وباستثناء فترة محدودة نشطت فيها الحركة الكردية حيث المواجهة المسلحة عام 1969 والقتال على غالبية المحاور عام 1974 لاعتبارات إقليمية كانت هناك أشبه بالهدنة المؤقتة المشوبة بالتوتر في عموم ساحة القتال ، كانت خلالها القوات الحكومية : تفرض سيطرتها الكاملة على كافة المدن (أربيل ، السليمانية ، دهوك) . تفرض سيطرتها المقبولة على غالبية الأقضية والنواحي .

تتبادل السيطرة مع البيشمركة في عديد من القرى البعيدة عن المركز وعن الطرق الرئيسية بوجه الخصوص .

وكانت ابانها قوات البيشمركة تسيطر على كثير من قمم الجبال ، والطرق الفرعية . تفرض سيطرتها على نقاط مهمة من الطرق الرئيسية في الليل بوجه خاص . تتحكم في جميع القرى النائية ليلا ونهارا .

محاور القتال الساخنة

لقد استمر التواجد ، والنشاط ، والتصادم على ما هو عليه للفترة الممتدة من عام 1968 حتى عام 1975 موعد توقيع اتفاقية الجزائر في محاور القتال الرئيسية التالية :

. محور أربيل . شقلاوة . كلي على بك . راوندوز حاج عمران :
تقيم قوات الجيش مقرات لها بمستوى اللواء والفوج والكتيبة ، وتنفتح لمستوى السرية
والفصيل لأغراض المراقبة ، وتدعم بالدبابات ومدفعية الميدان ، وكانت مقراتها الرئيسية
في هذا المحور تتركز في صلاح الدين ، وشقلاوة ، وسهل حرير، وحوض راوندوز . ديانا
ولها ربايا ثابتة ومتحركة على الجبال والمرتفعات التي تتحكم بالطريق الرئيس في هذا
المحور آخرها كانت تلك التي وزعت على جبل زوزك ، وظهر السمكة ، وعلى سفح جبل
هندرين المواجه إلى قضاء راوندوز .

في حين تسيطر البيشمركة في هذا المحور على المنطقة من قمة جبل هندرين داخل حتى
ناحية حاج عمران وإلى الحدود الإيرانية . وهي المنطقة الأكثر حصانة لدفاعات الملا
مصطفى البارزني خاصة في كلاله التي يتواجد فيها مركز قيادته للحزب الديمقراطي
الكرديستاني وإذاعته المحلية وقدماته الإدارية.
. محور السليمانية . سيد صادق . حلبجة :

تنفتح بعض وحدات الجيش في السهول القريبة من سيد صادق بينما تتمركز قوات
البيشمركة في المنطقة من خارجه إلى حلبجة وحتى الحدود الإيرانية، وهذه منطقة تبادل
فيها الطرفان السيطرة على مراكزها أكثر من مرة .
. محور السليمانية . أزمـر . جوارته . ماوت .

كانت قوات الجيش في هذا المحور تسيطر على جبل أزمـر المشرف على محافظة
السليمانية عدا بعض الفترات القليلة التي استطاعت فيه قوات البيشمركة الوصول إليه
والبقاء فترة محدودة ، والنفوذ إلى داخل المدينة لتنفيذ بعض العمليات الخاصة .
في الوقت الذي تحكم البيشمركة سيطرتها على ما تبقى من المحور حتى الحدود الإيرانية
في تلك الفترة الزمنية.

. محور دوكان . سورداس . بنكرت .

تتواجد قوات الجيش في منطقة دوكان وبعض الجبال المحيطة بها .
بينما تسيطر قوات البيشمركة على ما تبقى من المنطقة حتى الحدود الإيرانية.
. محور السليمانية . قرة داغ . سنكاو .

كانت قوات البيشمركة تسيطر على جبل قرة داغ ، وكذلك سنكاو في أغلب الأحيان ، رغم تعرضها إلى ضغط مستمر من قوات الجيش لمعظم فترات الحرب ، والمواجهة المسلحة بين الطرفين .

. محور رانية . سنكسر . قلعة دزة .

تتواجد قوات الجيش في مراكز رانية ، وسنكسر بينما يتمركز البيشمركة في قلعة دزة ، والمرتفعات الموجودة في المنطقة المحيطة بمعظم الفترات التي شهدت مواجهة مسلحة .

. محور دهوك . زاوية . عمادية .

يتواجد الجيش في مدينة دهوك ومراكز أقضية زاوية ، والعمادية بينما تسيطر البيشمركة على المناطق المحيطة والمرتفعة .

. محور دربندخان حلبجة . بمو .

للجيش تواجد في دربندخان بينما تسيطر البيشمركة على منطقة بمو وكافة المرتفعات المحيطة بها.

. محور باليسان . بتواتة . جوار قرنة .

يسيطر الجيش على الطريق العام والربايا المشرفة عليه ، في حين تسيطر البيشمركة على غالبية المنطقة في هذا المحور.

. محور زاخو . كاني ماسي . باطوفة .

يسيطر الجيش على مراكز هذه المناطق لكن البيشمركة تبادلو السيطرة معه عليها أكثر من مرة .

. هناك محاور أخرى تعد فرعية وذات تأثير جانبي على عموم ساحة الحركات تمتد إلى

بعض المناطق القريبة من خانقين ، وكويسنجق ، وعقرة ، وميركسور ، وزاخو..... تكون فيها السيطرة لقوات الجيش في المراكز بينما تفرض قوات البيشمركة سيطرتها على المناطق المحيطة بين الحين والآخر تبعا لتطورات القتال ، والظروف المحيطة.

وعموما فإن شكل القتال في الشمال ورغم الثبات النسبي لمحاوره التقليدية إلا إنه يؤدي في كثير من الأحيان إلى :

أن يتبادل الجانبان أي الجيش والبيشمركة النفوذ ، والسيطرة على كثير من المناطق الريفية ، والطرق الخارجية التي يسيّر فيها الجيش من بداية الضياء الأول وحتى نهاية

الضياء الأخير دوريات راكبة في العجلات أغلب الأحيان وفي ناقلات الأشخاص المدرعة بعض الأحيان .

ويتبادل الطرفان كذلك السيطرة على عديد من الأماكن والنقاط المهمة تبعا إلى الليل والنهار ، إذ تنشط في كثير من الليالي المظلمة والممطرة حركة البيشمركة على الطرق ، وفي القرى ، والقصبات ، وتقرب بعض الأحيان إلى الأحياء السكنية داخل المدن الكبيرة ، في حين تتعرض إلى ضغط الجيش في النهار الذي يؤدي إلى إجبارها على الانسحاب تاركة إلى الجيش التحرك فيها بسهولة .

الحكم الذاتي صيغة حكومية

إن ظروف المنطقة الجغرافية المعقدة ، والنشاط الليلي للكورد دفع الجيش إلى العمل بأسلوب الدفاع الموقعي بطريقة يهيئ فيها مواضع لمقرات الألوية ولمستوى فوج/ كتيبة في مناطق تمثل عقد مواصلات مهمة يحيطها بأسيجة من الأسلاك ، وأحيانا من السواتر الترابية والحجرية ، ويضع في أركانها نقاط (حصينة) للمراباة والحراسة . مع توزيع الوحدات الفرعية بمستوى سرية في بعض الأحيان ، وفصيل في معظم الأحيان على ربايا مشرفة للدفاع عن المقرات الأعلى ، أو لحماية الطرق ، والمدن ، والتجمعات السكانية المهمة ، مع القيام ببعض الدوريات ، والكمان الليلية التي يحسن المقاتلون الكورد أساليب التملص من مواجهتها .

إن الحالة العامة التي اتسمت بالتهادن بين حكومة المركز في بغداد ، والحركة الكردية في كردستان بعد انقلاب عام 1968 وما تخللها من فترات قتال متقطعة ، أو صدامات محدودة بشكل قصدي مخطط له ، أو عارض غير مسيطر عليه ، وحالة الترقب القلق طويل الأمد لم تكن ملائمة تماما للحكومة رغم ميلها في الأيام الأولى للحكم إلى التهذئة كما ورد ذكره في أعلاه بسبب رغبتها في تجاوز مسألة الاستنزاف الحاصل لجزء كبير من ميزانية الدولة التي يحاول الحزب استثمار بعض جوانبها لإقامة مشاريع شعبية تساعد على تحسين صورته ، وتقوية دعائم وجوده في الحكم ، بالإضافة إلى أن إبقاء الجيش في حالة الدفاع الثابت والمراباة أعالي الجبال يعني استرخاء لعموم المنتسبين ، وإصابة محمولة بمرض الخنادق كما يقول العسكر، ذلك الحال الذي يضعف المعنويات ، ويؤثر سلبا على القدرة العسكرية في المديات المستقبلية مما يتنافى مع خططها أي الحكومة لتبعيث الجيش وتهيئته قوة حسم فاعلة لأغراض القمع في الداخل ، والتلويح بقوته إقليميا لأغراض الضغط ، والتهديد ، والاستعراض في الخارج.

وتأسيسا على هذه الحقائق بدء الحزب والحكومة بالمناورة التي كانت خطواتها واضحة من خلال التطورات ذات الصلة ببيان 11 آذار عام 1970 الذي وفرت أجواء صدوره : فرصة كافية لضرب الشيوعيين والتخلص من أنشطتهم التي يمكن أن تعيق المسيرة كما كان يعبر عنها البعثيين آنذاك .

فسح المجال إلى عودة الحكومة للتعامل مع موضوع المشكلة الكردية من الباب التي تمهد لهم فرض السيطرة بالقوة ، وتؤمن لهم المصالح الآنية والمستقبلية .
لقد أصدرت الحكومة البيان المذكور وحددت فقراته طبيعة الحكم الذاتي ، وشكل الحقوق القومية للكورد ، وسارع الإعلام إلى تضخيمه إنجازا وطنيا في عقول العراقيين ، وتحركت الدبلوماسية تأكيده خطوة عصرية لتجاوز الماضي والتمهيد لحياة أفضل لجميع العراقيين ، وأمرت أجهزتها بتنفيذ :

طبع الكتب المدرسية باللغة الكردية .
إضافة مواد إلى الدستور المؤقت تقر الحقوق الكردية .
إقرار اللغة الكردية لغة رسمية في منطقة الحكم الذاتي .
وباشرت القيادة الكردية من جانبها خطوات التهيئة لتطبيق معنى البيان منها : حل قوات البيشمركة .

فتح مقرات لفروع أحزابها الرئيسية في مدن كوردستان وفي بغداد .
السعي إلى العمل السياسي العلني .
عقد الاجتماعات المشتركة مع ممثلين عن الحكومة للتنسيق ، وتذليل الصعاب ، والمشاكل التي تظهر من خلال التطبيق العملي لبنود وفقرات البيان .
عقد مؤتمر عام للحزب الديمقراطي الكردستاني في نويردان تموز نفس العام حضره محمد سليمان عضو القيادة القومية لحزب البعث ممثل عنها¹⁰ .

نوايا وأد الاتفاق

أصدرت الحكومة من جانبها البيان ، وضمن البسطاء ، وأصحاب الأمل البعيد بأن عصرا جديدا دخله العراق لا قتال فيه مع الأخوة ، ولا أحقاد بين الأهل في الوطن الواحد ، إلا أن مثل هذه الضنون لا مكان لها على الأرض العراقية طالما بقيت النوايا غير السليمة متجذرة في عقول الحكام إذ لم يمض من الوقت إلا القليل لتبدأ التصدعات في واجهة العلاقة بين الطرفين بسبب :
عدم جدية الحكومة تنفيذ كل بنود البيان وفقراته .

¹⁰ . محمد سليمان من السودان قتل في حادث تحطم طائرة عسكرية على الأرض السعودية مع عراقيين آخرين أثناء زهابهم من العراق إلى السودان لتأييد انقلاب حدث فيها على الرئيس النميري أشترك فيه البعثيين عام 1972 .

إبقاء بعض القضايا الشائكة عالقة دون حل مثل :

. مسألة كركوك المدينة التي يسكنها خليط من العرب ، والكورد ، والتركمان التي أراد الكورد جعلها عاصمة للحكم الذاتي ، وأصرت الحكومة على فرض أربيل بدلا عنها ، وعدها التركمان تجاوزا على حقهم فيها أغلبية ساكنيها قبل تنفيذ خطط التعريب الحكومية .

. عدم قيام الحكومة بإجراء إحصاء سكاني للأقضية ، والنواحي حول كركوك الغنية بالنفط تلك المناطق التي يسكن بعضها غالبية كوردية كما متفق عليه في داخل الاجتماعات الحاصلة بين اللجان التي تمثل الطرفين .

. رفض الحكومة الاستجابة للقيادة الكوردية في تعيين مرشحها لمنصب نائب رئيس الجمهورية السيد حبيب كريم في أيلول عام 1970.

وفي نفس المجال ترى مصادر كوردية أن الفشل في تطبيق بنود 11 آذار لا تتوقف عند تلك المشاكل التي لم يجد لها الطرفان حلا مناسباً ، وأضافت أخرى تعتقد أنها لا تقل أهمية مثل :

. عدم تنفيذ إجراءات الإحصاء .

. التحريك القسري للسكان الكورد من بعض القرى المنعزلة ، وتجميعهم في مناطق سكنية قريبة من الطرق وخطوط المواصلات لتسهيل عوامل السيطرة عليهم .

. سوء النوايا الموجودة في عقول المسؤولين الحكوميين التي دفعتهم لأن يعيقوا المسيرة للمستوى الذي أصبحت فيه المسائل التي لم ينشأ فيها خلاف كبير بين الطرفين لم يحدث فيها إلا تقدم قليل مثل اللغة ، والتعليم ، والصحة .

. إن الوزراء الخمسة الذين تم تعيينهم كممثلين عن الكورد مطوقين بالموظفين البعثيين ، ولم تكن لهم في الواقع صلاحيات هامة لاتخاذ القرارات ذات الصلة بوزاراتهم .

. عدم وجود دليل على الالتزام النشط من جانب الحكومة لتغيير حالة الحرمان التي عانت منها المناطق الكوردية من نواحي الاقتصاد ، والتعليم ، والبنية الأساسية .

العودة إلى الجبل

كان التناقض في نوايا الطرفين كبيرا ، والاختلاف في وجهات نظرهما واسعا الأمر الذي انعكس على سبل التعامل مع واقع البيان ، ودفع إلى تعزيز مساعي الخرق المتعمد لهدنة القتال خاصة من الجانب الحكومي ، وإن حُسِبَ بعضها على التوجه الشخصي بعيدا عن التخطيط المركزي للحكومة إذ وبينما ينشغل المتفاوضون ، واللجان المشكلة من الطرفين لتسوية بعض النقاط المهمة جرت محاولة لإغتيال الملا مصطفى في مقره عام 1971 من قبل وفد ديني برئاسة الشيخ الأعظمي تم تفخيخ أجهزة يحملها لتسجيل اللقاء المتفق عليه دون علمه ، وأعضاء الوفد من علماء الدين بقصد التخلص منهم ، واغتيال القائد الكوردي ، تلك العملية التي أعد لها مدير الأمن العام آنذاك ناظم كزار بشكل جيد، وباركتها أطراف مهمة من الحكومة مثل صدام حسين رئيس لجنة شؤون الشمال .

ومن بعدها انفجرت أحداث عنيفة بين الحكومة وقوى الكورد في مدينة السليمانية ، وقضاء سنجار عندما أجبر عدة آلاف من اليزيديين على ترك منازلهم في محاولة من النظام لإعادة التوزيع الداخلي للسكان ، حيث استخدمت طائرات القوة الجوية لقصف القرى في المنطقة فظهرت بوضوح ملامح صدام مسلح خارج أطر الهدنة غير المستقرة .

لقد دفعت تلك الأحداث الجانبين إلى الشك ، والترقب ، وعدم الاطمئنان ، وهم في حالة التوتر هذه أعطت الحكومة الملا مصطفى خمسة عشر يوما لينظم فيها إلى الجبهة الوطنية ، والقومية التقدمية مع الشيوعيين ، أو البقاء خارجها مع الصف المعادي للثورة في بغداد ، لكنه وبدلا من الانضمام طرح عدة مطالب تقع من وجهة نظره ضمن استحقاقات بيان آزار مثل :

مد منطقة الحكم الذاتي التي افترضتها الحكومة إلى مناطق أخرى بينها كركوك. تحديد نسبة مئوية من عائدات النفط لإعمار وإدارة منطقة الحكم الذاتي ، وبما يتناسب وتمثيل الكورد في العدد الكلي لسكان العراق.

وكانت تلك هي القشة التي قضت على الأمل في تجنب ويلات قتال جديد في أعالي الجبال، إذ بسببها شعرت الحكومة بالغضب الذي تضاعف في داخلها بسبب فشلها في ضم عددا جيدا موثوقا ومعروفا من الساسة الكورد إلى صفوفها.

اتساع رقعة القتال

لقد تأكد بعد عمليات الشد والجذب لتنفيذ أكبر قدر من بنود بيان آذار من قبل القيادة الكوردية ، والتملص من تنفيذ أكبر قدر منها من قبل الحكومة أن الاقتراب إلى الحلول الوسط بنوايا حسنة أمرا مستحيلا ، عندها لم يجد البيشمركة أمامهم من حل سوى الضغط على حكومة المركز بمعاودة القتال فتركوا المدن ومراكز التجمع السكاني ، وصعدوا إلى الجبال مع بداية عام 1974 لتبدأ جولة جديدة من الصراع كانت مفردات كفة ميزانها عند الكورد :

حشد بحدود الخمسين إلى الستين ألفا من مقاتلي البيشمركة على عموم محاور القتال التقليدية .

ترك عديد من الضباط ، وضباط الصف ، والجنود الكورد الخدمة في الجيش والالتحاق بالحركة الكوردية .

إسناد مدفعي مباشر من القوات الإيرانية .

وكانت مفردات كفته عند الحكومة :

تسعون ألفا من الجنود المنتسبين إلى وحدات عسكرية نظامية .

ألف ومائتي دبابة ، وعربة قتال مدرعة .

مائة طائرة مقاتلة وقاصفة تعمل من قاعدتي كركوك ، والموصل الجويتين القريبتين من كوردستان.

التحاق عدة مواليد إلى خدمة الاحتياط مع تطورات القتال واشتداده .

وشرع الجيش بالهجوم خاصة في منطقة راوندوز ، وبدأ الكورد يوسعون من عمليات حرب العصابات حتى شهر آذار 1974 الذي توقف فيه القتال ، وتبين أن الجيش قد خسر بحدود :

ألف وستمئة وأربعين قتيلا .

سبعة آلاف وتسعمائة وثلاثة جريح بدرجات مختلفة .

وأقل من هذا العدد بالنسبة للكورد الذين لا تتوفر إحصاءات دقيقة عن خسائرهم التي يكتمونها من جانبهم حفاظا على معنويات مقاتليهم ، وتغالي الحكومة في مضاعفتها خفضا لمعنويات أولئك المقاتلين ، وتعزيزا لمعنويات مقاتليها خاصة مع اعتياد المغالاة بذكر الخسائر لبعض الأمرين في الجيش العراقي إبان تلك الفترة وما بعدها في جميع

الحروب التي خاضوها ، لأسباب ذاتية يرى فيها أولئك الأمرين أن مضاعفة أعداد الخسائر في المواقف التي ترسل إلى مراجعهم تضمن لهم الحصول على التقدير والتكريم المادي والمعنوي ، حتى باتت بقعة الدم التي يتركها جريح من خصمهم في القتال على صخرة في أرض المعركة تمثيلاً لعشرات القتلى تدرج أعدادهم على شكل أرقام في موقف الخسائر ، ومثلها مئات القتلى في حالة العثور على جثة قتيل عجز الرفاق عن إخلائه في حال الانسحاب .

وبنفس الطريقة تذكر الخسائر الخاصة بالأسلحة والأعتدة للطرف المقابل لهم في المعركة فتكون حفنة إطلاقات لبندقية البرنو على سبيل المثال كدس عتاد للأسلحة الخفيفة ، وعدد قليل من قنابر الهاون كدس آخر لعتاد المدفعية والأسلحة الثقيلة . وتلك مبالغات شعر بها بعض القادة العسكريين المهنيين من غير المتحيزين في تلك الفترة فاستحصلوا على إثرها أمراً من أحمد حسن البكر بعدم الحاجة إلى ذكر العدد التقريبي للخسائر البشرية والمادية، وبدلاً من أن يلتزم أولئك الأمرين غير الدقيقين سارع البعض منهم إلى ابتداع صيغ أكثر إثارة عندما يذكرون في موقف الخسائر عبارات عاطفية مثل : تناثرت أشلاء العدو لتملاً ساحة المعركة . غطت دماء أفراد العدو أرض المعركة .

لقد ترك العدو وهو ينسحب مذعوراً أكداس لا تحصى من الأعتدة ، والأسلحة بمختلف العيارات .

0000الخ من عبارات توجي إلى القارئ في الموقع الأعلى أو حتى القارئ المحايد أن خسائر الطرف المقابل آلاف القتلى ، بل ويزيد عن ذلك بكثير حتى علق ضابط قدير في جلسة خاصة جرى فيها نقاش لتقدير الخسائر إثر معارك عام 1974 قائلاً (أن الاعتماد على الأرقام التي يذكرها الآمرون في موقف الخسائر يعني أن الكورد قد انتهوا جميعاً من على الأرض منذ فترة) . وعموماً فإن خسائر الكورد التقريبية لتلك المرحلة من القتال التي استخدمت فيها الأسلحة التقليدية لا تصل إلى مستوى خسائر الجيش ، لأنهم لا يقبلون في أسلوبهم للقتال المواجهة المباشرة مع الجيش إلا نادراً ، كذلك يعتمدون الإغارة على الربايا والمعسكرات ، ومهاجمة القوافل العسكرية وغيرها أعمال قتل لا تؤدي إلى كثير من الخسائر للطرف القائم بها في أشد حالات القتال ضراوة ، لكن هذا القتال تسبب

وبحسب مصادر دولية في تشريد بحدود (115) الف كوردي باتجاه إيران كنتيجة جانبية لتطوراتها .

هذا وإن الحكومة التي فرضت تعتيما على القتال في تلك الفترة حاولت أن تلقي تبعاته على الكورد أنفسهم إذ أشار أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية في خطاب له أمام الجمهور في أحد المناسبات قائلا (يمكن القول بأن معظم بنود الاتفاق قد نفذت فيما يختص بحزب البعث العربي الاشتراكي ، أو النظام الثوري ، وللأسف شهدت تلك الفترة جوانب سلبية ، وأزمات حادة ، وأخطاء أضرت بالوحدة الوطنية ، وأعاقت إلى حد ما الحل السلمي ، والديمقراطي للمشكلة الكردية).

إعادة ترتيب التحالف

إن النظرة المنطقية إلى سير الأحداث التي جرت بعد العام 1968 وحتى عام 1975 تبين أنه ليست الحكومة فقط كانت غير راضية عن حال الصراع بينها وبين الكورد الذي يخيم عليه التوتر ، والقلق وتخلله نوبات قتال متفرقة ، بل وكذلك كان الكورد الذين لا يلائمهم عمليا ذلك الحال الذي يرون فيه :

إعاقة عمدية لإمكانية تحقيق أهدافهم الاستراتيجية .
إن ملابساته ، ونقاط التقاطع الكثيرة في طريقه تعطي الحجة إلى الحكومة بعدم تنمية المنطقة ، والحيلولة دون تطويرها .

إن انشغال عشرات الآلاف من الكورد أعالي الجبال وفي الوديان بواجبات المراقبة ، والرصد ، والإغارة ، والدفاع عن الهجمات العسكرية يؤدي إلى عدم الاستفادة من جهدهم للبناء ، والتعمير، وعدم استفادتهم كأشخاص لتأهيل الحال وتكوين المستقبل اجتماعيا ، واقتصاديا .

هذا وإذا ما أضيفت نتائج هذا الواقع إلى حالة عدم الثقة التي تولدت لدى القيادة الكوردية في تعامل البعثيين المدمر بالمقارنة مع تعامل الحكومات التي سبقتهم والتي لم تتجاوز في قتالها إشراك شرطة القوة السيارة ، وقليل من وحدات الجيش في زمن عبد الكريم قاسم ، ولم تصل في المعركة حدود المساس بالمدنيين ، أو تهجير القرى زمن عبد الرحمن عارف منها يمكن القول :

أن الحكومة غير جادة في نواياها منح الكورد حقوقهم .
وإنها لجأت إلى صيغة الحكم الذاتي إجراء مؤقت بقصد الاحتواء الشامل للقضية تمهيدا للإجهاز عليها تماما مع أول فرصة سانحة .

وإن الكورد من جانبهم غير راضين عن الوضع القائم ، وغير مقتنعين بالسير مع البعث إلى نهاية الطريق .

وتلك حقائق وضعها القادة الكورد أمامهم في مسألة التقييم الفعلي لما يتعلق ببيان 11 آذار وما بعده ، وأدركوا من خلالها أن نوايا الحكومة لا تعدوا مراوغة آنية لكسب الوقت ، وسعي لإفراغ القضية من محتوياتها السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية ، ورغبة في إملاء الشروط سوف لن يتنازل عنها البعث بسبب نظرتة العنصرية المتطرفة .

وهي ذات الحقائق التي أدرك البارزاني على ضوءها جوانب الموقف وبات على أساسها غير مقتنع بحسن النوايا ، وبإجراءات السلطة خاصة بعد تفرد صدام حسين رئاسة لجنة شؤون الشمال وحصوله كافة الصلاحيات للتعامل مع الواقع تبعا لرؤياه الشخصية ، الأمر الذي اندفع فيه إلى المناورة هو أيضا باستثمار عداوة إيران المتزايدة إلى حكومة البعث في بغداد ورغبتها في القيام بدور الشرطي المنضبط للمنطقة بعد انسحاب الإنجليز من الخليج العربي عام 1971 ، فابتعد عن بغداد تدريجيا ، واقترب من طهران التي يرى في الاقتراب منها :

أمان أكثر من تلك التأكيدات غير الكافية التي انتزعها من حكومة البعث بجهود مضنية .
ويتلمس من الابتعاد عنها :

هامش أوسع لفك القيد ، والتخلص من الغموض لما يتعلق منه بالعاملين الإقليميين والدولي على حد سواء ، خاصة بعدما أدرك قاداته أن الخلافات والتناقضات الدولية ، والإقليمية باتت تلقي بضلالها على حركتهم وعموم المنطقة بشكل ملموس ، وإن هناك سهاما بدأت تمتد ، ودوائر تتداخل ، واحتكاكات تتكرر تمهيدا لإفراغ مقصود للقوة في مكان ما ، وتعزيزا لمعالمها أي القوة في مكان آخر.

وذاك ما فهمه معظم القادة الكورد ، والسياسيين البارزين في حركتهم وعبروا عنه بطرق مختلفة ، وبينهم السياسي الكوردي المعروف محمود عثمان¹¹، الذي أشار قبل فترة قصيرة من اشتعال أعمال القتال الشديد عام 1974 بعبارات واضحة في لقاء أجرته الصحافة معه قائلا :

(في قيادة مجلس الثورة ليس لنا شيء ، في الجيش ليس لنا مراكز هامة ، وكذلك في جهاز الأمن ، والمخابرات لا نملك شيئا ، وليس لنا شيء في وزارة البترول ، ولا في وزارة الداخلية ، أو الخارجية ، ليس لنا شيء في الحقيقة ، ليس لنا مناصب هامة ، ليس للكورد دور في القرارات المتعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية ، كل شيء يتم من خلال حزب البعث ، ليس لنا اشتراك في النظام ، وكل ما لدينا إننا نشترك على المستوى الإداري) .

¹¹ . سياسي كوردي مستقل يقيم في لندن عاصر حقبة طويلة من القضية الكوردية وعمل في مجالها لمعظم حياته .

فكانت تلك حالة من عدم الرضا وتبادل لمعالم الشك ، وعدم الاطمئنان تجسد تناقضا بين موقفين ، وتفاوتا بين نيتين سحب الجانبان إلى التوجه لاستخدام كل ما متيسر من وسائل المناورة ، وتسجيل النقاط في ذاكرة الطرف المقابل .

وهي بالنسبة للجانب الحكومي آنذاك كانت تعتمد تقديم الوعود سعيا لتهدئة الموقف على جبهة القتال بهدف الحصول على فسحة زمنية تقوى فيها بالمستوى الذي يتيح لها المجال تطوير الجيش ، وتهيئته ليكون قادرا على حسم الصراع عسكريا ، وبذا كانت تمنى الكرد بمنحهم الحقوق القومية على أساس

تصور البعث لحل مشاكل الأمة لتعطي لنفسها نوعا من المصداقية تكسب ثقة الطرف المقابل على اعتبار أنها تتحرك وفقا لرؤيا الحزب الحاكم قبل استلامه الحكم ، ومن خلالها وسبل الاتصال والتوسط مع القيادة الكردية أنضجت فكرة الحكم الذاتي المنوه عنه في أعلاه ، وأعلنته ساريا للمفعول من جانبها في نية غير سليمة بالتعامل مع مفردات القضية وملابساتها المعقدة .

الشاه محورا للتحالف

إن الجانب الكوردي المتمثل بقيادة الملا مصطفى البارزاني الأكثر سيطرة على الجهد الكوردي المقاتل آنذاك توصل وبسبب تلك التناقضات ، والرغبة في الحصول على أوراق لعب ملائمة للتفاوض مع حكومة المركز في المستقبل إلى قناعة تامة باعتماد استراتيجية التحالف مع جميع الأطراف ذات الصلة بالشأن الإقليمي الراغبة به ، أو التقرب من العراق دون أي تحفظ .

وكانت ظروف التقاطع بين الشاه ، والبعثيين آنذاك التي تطورت إلى صدام مسلح محدود على جانبي الحدود ، وإلى تهديد جاد بإشعال حرب فعلية قد شجعت جميعها القائد الكوردي إلى التقرب من طهران مسافة أسفرت عن موافقة الشاه على تقديم دعم إداري ، ومالي ، وكذلك عسكري للحركة الكوردية في الشمال العراقي ، وهي خطوة من جانب آخر قد فتحت الطريق أمامه للاتصال ، والتنسيق مع جهات دولية أخرى كانت مستعدة لتقديم الدعم العسكري والمعلوماتي والمالي بينها إسرائيل .

وبالتدريج تطور الدعم الإيراني مع تطورات شكل الصراع بين العراق ، والشاه ليصل إلى تزويد المقاتلين الكورد بمدافع ميدان متوسطة ، وثقيلة العيار، وأنواع من الأسلحة المتوسطة والخفيفة ، وأجهزة رصد واتصال ساهمت في العودة إلى القتال العنيف عام

1975 الذي لم يتوقف فيه شاه إيران عند حدود تزويد حلفاءه بالأسلحة والمعدات ، بل تجاوزه كثيرا للاشتراك المباشر بالحرب من خلال إسناد مدفعي تقدمه كتائب مدفعية الميدان الإيرانية لقوات البيشمركة التي تقاثل الجيش قريبا من الحدود .

فكان إسنادا ، ودعما تسبب في أن يخسر الجيش العراقي في قتاله مع الكورد خسارة بشرية جسيمة لأول مرة في معركة كانت على جبل هندرين بطريقة أشعرت القادة العسكريين ، والسياسيين في حينها بشديد الألم .

وعموما فإن القتال في تلك السنة لم يغير الموقف كثيرا ، ولم تتغير أساليب المواجهة التي اعتمدت على الإغارة ، ونصب الكمائن على الطرق والممرات ، إلا في قليل من الحالات التي قبل فيها الكورد الدفاع المستكن كما كان لهم في سهل حرير ف خسروا معركته بسرعة غير متوقعة نتيجة حتمية لتفوق قوة النار الموجودة لدى الجيش .

إلا إن إيران وفي دعمها للكورد كانت تعي الحدود التي يفترض عدم تجاوزها أي التحكم بمنافذه ، ولمستويات لا تسمح بترجيح كفتهم في قتال القوات الحكومية لأن ذلك يؤثر سلبا على سياقات تعاملها مع الكورد الإيرانيين الذين يتواجد منهم بحدود سبعة ملايين على أراضيها المجاورة لكوردستان العراق يمكن أن يؤسسوا على ما يحصل عليه كورد العراق مطالب من دولتهم إيران ، وهذا ما لا يريد الوصول إليه الشاه ، والآخرين في المنطقة غير المستقرة .

إن موقف الشاه من بغداد ، وحدود تعامله مع الكورد في التحالف المذكور معهم حقائق كانت تعيها الحكومة العراقية بشكل جيد ، وتعي أن خسائر الحرب أخذت تتضاعف بمرور الوقت ، وإن الإنفاق عليها يتزايد باطراد في ظروف اقتصادية للبلد غير مواتية ، إذ تشير الأرقام أن ما أنفق عليها عام 1972 كان (102) مليون دينار ، وهو رقم تضاعف ليصل إلى (236) مليون دينار عام 1974 ، وإلى (356) مليون عام 1975¹² .

وتعي أيضا تفاصيل الخسائر البشرية التي تضاعفت هي الأخرى في جانب قواتها المسلحة مع تطور شدة القتال .

الأمر الذي دفعها وبسبب حسابات خطأ على المستوى الداخلي إلى التوجه المباشر نحو إيران العامل الإقليمي الأكثر فاعلية ، وتأثيرا على مجريات القتال قبل التفاهم مع الكورد

¹² . يعادل الدينار العراقي في سوق الصرف الرسمي آنذاك بحدود ثلاث دولارات وثلاثة بال عشرة من الدولار.

أبناء البلد في محاولة لتقديم الحلول الجذرية إلى مشكلة تشترك وإياهم في طبيعتها ، وكان تحركها بنية الاحتواء الكامل للحركة ، ومن بعده فرض الحلول التي تراها ملائمة من وجهة نظرها لإنهاء ذلك الصراع الذي يمثل حسب رأيها عقبة في الطريق لتحقيق الأهداف الخاصة بعيدا عن المنطقة .

وعلى أساس تصوراتها هذه استجابت للوساطات الدائرة بينها من جهة والشاه من جهة أخرى ، ووافقت في نهاية المطاف على تلبية شروطه في التنازل عن حق العراق في مياه شط العرب ، وإعادة رسم الحدود بين البلدين في مجراه على أساس خط الثالوك الذي يعني مشاركة إيران في كل ما يتعلق بشط العرب من رسوم ودلالة وغيرها ، مع تعديل بسيط في بعض مناطق الحدود الأخرى في الوسط والتي لا يعني تعديلها شيئا بالنسبة للعراق من الناحية الاستراتيجية ، وتوجت مسيرة الوساطة ، والتفاوض بتوقيع اتفاقية الجزائر (المنوه عنها) من قبل صدام حسين المسؤول المباشر عن ملف المشكلة الكردية في الحكومة العراقية ، ومن الجانب الإيراني الشاه الذي يفكر بنوايا تحقيق الأهداف الإيرانية البعيدة لعشرات السنين .

تلك الاتفاقية التي صورتها الحكومة العراقية انتصارا من أكبر الانتصارات الحديثة في الصراع مع الأعداء ، كانت وفي ضوء النوايا لغما موقوتا عاد صدام لتفجيريه مع أول شعور له بالقوة دون تردد ، إذ نوه عن ذلك بصراحة في لقاء له مع مجموعة من الضباط في آذار عام 1991 قائلا :

(بتفكك الدولة العباسية بدأت أسباب القوة بالعودة إلى إيران فكان لابد من إركاعها بصفعة جديدة ، فكانت قادسيتمكم) .

وفي عبارة أخرى من نفس اللقاء أردف قائلا :

(لظروف القاهرة اضطررنا إلى إبرام اتفاقية الجزائر التي أعطتهم حق التصرف في المصب الجنوبي لشط العرب ، وكان ثمن ذلك ضرب التآمر شمال العراق ، وعندما وجدنا الفرصة مناسبة رأيتم ما حصل وكيف حصل تفصيلا) .

الحسم على قمم الجبال

لقد رأى الشاه في تعامله الجديد مع حكومة بغداد نجاحا لاستراتيجيته في الصراع مع العراق وفرصة لإعادة التوازنات المحلية ، والإقليمية مع الكورد سارع على ضوئها بقطع أواصر التحالف الذي أقيم معهم كضمن لسحب العراق إلى موقف التنازل معلنا ضرورة التزامهم ببنود الاتفاقية بشكل حرفي ، وتوجه إلى إصدار الأوامر قبل انتهاء ثمان وأربعون ساعة على الاتفاق بسحب مدافعه من ساحة المعركة ، الذي أثر على توازنهم العسكري وديمومة قتالهم مع الجيش الذي كانوا يتكئون في قسم كبير منه على إيران الشاه ، وبسببه:

. تلقى الكورد ضربة شديدة في ميدان القتال بعد أن كشفت أجنتهم ، وتوقف الإسناد المدفعي الفاعل لمقاتليهم .

. أغلقت كافة المنافذ التي كانت مفتوحة لقيادتهم في التعامل مع الخارج الداعم سياسيا ، وإداريا ، وعسكريا ، وماليا بشكل مفاجئ لم تستطع خلاله تهيئة البدائل اللازمة أصوليا .
. تكون وضعها جديدا على ساحة القتال الضيقة وجد فيه البيشمركة أنفسهم في اليوم الثاني للاتفاق بين فكي كماشة :

يمثل طرفها الأول قوات الحكومة العراقية التي تنوي إبادتهم تماما .
ويمثل طرفها الثاني الشاه الإيراني حليف الأمس الذي لن يذرف الدمع على إبادتهم بعد أن تحقق له ما كان ينوي من التحالف معها .

لقد أصيب الجميع بصدمة نفسية ، لم تمر بها الحركة الكوردية عبر تاريخ قتالها الطويل مع حكومة المركز ، وتفككت تشكيلاتهم العسكرية ، وصممت مقراتهم الميدانية ، عندها لم يجد قادتهم الذين وضعوا في موقف الحرج سوى ترك الساحة ، والمغادرة إلى خارج المنطقة برمتها ، ولم يجد المقاتلين الآخرين فرصة للبقاء أعلى قمم الجبال ، وفي وديانها ، فتوجهوا آلافا يحملون أسلحتهم إلى مراكز التسليم التي تعطيهم صكا بعودة المواطنة العراقية (من وجهة نظر الحزب الحاكم) لقاء كل قطعة سلاح يسلمها المقاتل الكوردي الذي يئن تحت وطأة الإحباط بعد أن اكتشف أن عشرات السنين من القتال بعيدا عن الحياة الاعتيادية لم تقربه منها ، وإن قضيته ما زالت رهنا بمواقف الآخرين ، وإنه الخاسر الوحيد في معادلة الصراع الدامي مع الحكومة ودول الجوار

حصيلة أوجه الصراع

لقد أدارت الحكومة في بغداد صراعها في الشمال ، وقريبا من حدودها سياسيا ، وعسكريا ، واستخباريا بشكل يقترب من الصمت ، والتعتيم في أغلب الأحيان بدءً من 1968 وحتى عام 1975 .

وكانت قد حققت في جانبها :

. فرض الحكم الذاتي على منطقة كردستان العراق بالطريقة التي تلائمها خاصة في ما يتعلق بتحديد المناطق الكردية الخاضعة له ، وإحصاءات السكان، واختيار الأشخاص الذين يتوافقون مع خططها لتمثيل الكورد في الحكومة المركزية .

. التحرك بحرية في عموم منطقة كردستان ، والسعي لإعادة تأهيلها عسكريا وحزبيا ، وأمنيا بما يصب باتجاه تقوية سيطرة الحكومة على شؤونها .

. تنفيذ بعض المشاريع السياحية التي تمهد لسحب شعب المنطقة من الجبال إلى المدن ، والسعي لتغيير اتجاهاتهم من الرغبة في القتال إلى حب المتعة ، والحياة .

. إيقاف النزف المادي جراء الحرب ، والاستفادة من مضاعفة عائدات النفط لأغراض تقوية نفوذ الحكومة ، وإعادة تنظيم الجيش عقائديا ، وفنيا .

. لقد أعطى المزيج من التطور في عوائد النفط ، وانتهاء القتال بالصورة المذكورة ، أو توقفه في غير صالح الكورد آنذاك دفعة لم يسبق لها مثيل لثقة حزب البعث في قدراته التي أسهمت في بدأ تحركه بطريقة أكثر تنظيما من أجل إقامة نظام سياسي يكون له فيه السيطرة الكاملة ، والوحيدة على عموم المجتمع العراقي ، وبينه الكورد في الشمال .

. استثمار ظروف الخسارة المعنوية للكورد ، ومحاولة إقران فعلهم في القتال بالتعامل مع الأجنبي إيرانيا كان أم غير إيراني ، وبذا أطلقت الحكومة على نتيجة المعركة عبارة (انهيار الجيب العميل) في حين اختلف الأكراد بتسميتها تبعا لتوجهاتهم الفكرية ، وتشخيصاتهم الميدانية لأسبابها، رغم اعترافهم جميعا بكونها نكسة لحركتهم ، وأساسا لإعادة تقييم عموم مسيرتهم .

. إن الخسارة الأكثر جسامة بالنسبة للعراق هي قيام الحكومة بالتنازل التكتيكي عن حقوق العراق اكتسبت بمعاهدة دولية عام 1937 بينه وبين إيران ، وهو تنازل لم يحسم في عقل الحكومة ذاتها، وبقي راسخا في الذاكرة القريبة سرعان ما طفى على السطح في أول

فرصة اعتقدتها الحكومة سانحة للتخلص من وجوده في أعماقها ، فأعلنت عن إلغاء تلك الاتفاقية بعد خمس سنوات من توقيعها بعد القضاء على الشاه ، وتسببت في إشعال حرب عدت كارثة على العراق ، وإيران على حد سواء ، انتهت بعد ثمان سنوات دون أن تحسم عوامل الصراع بين البلدين ، أو تنهي الموضوع الخاص بالاتفاقية .

أما بالنسبة إلى الجانب الكوردي فكانت النتيجة :

. خسارة الغطاء السياسي ، والإداري ، والعسكري الداعم للحركة الكوردية وديمومة وجودها طرفا قويا في الصراع مع الحكومة إبان تلك الفترة الزمنية .

. فقدان الأرض التي كانت تقف عليها الحركة بجدارة منذ اتساع مساحة الصراع بينها ، والحكومة المركزية منذ عشرات السنين .

. صدمة معنوية كبيرة دفعت بتوجه القيادة السياسية ، والعسكرية للحركة إلى خارج العراق ، واضطرار مقاتليها إلى ترك مواقعهم في الجبال والعودة إلى المدينة سعيا لحياة أكثر استقرارا .

. زيادة التباعد بين الطرفين الرئيسيين للحركة الكردية الحزب الديمقراطي الكردستاني ، والاتحاد الوطني الكردستاني .

. التوقف عن القتال ، والنشاط الميداني الداعم للمطالب الكوردية ، الأمر الذي فسح فيه المجال لكورد الحكومة في التحرك بالساحة ، وعقد الصفقات الخاصة معها لتحقيق مطامح شخصية على حساب الأهداف القومية لأبناء قومهم .

المعركة الاستخبارية الصامتة

كانت المعركة في كوردستان العراق تعتمد منذ بداياتها حرب العصابات ، وحرب من هذا النوع تكون المعلومات فيها عاملا هاما لتأمين النجاح :

للطرف المتمرد (الثائر) الذي يحاول بكل جهده إلى جمع المعلومات الصحيحة (الاستخبارات) عن الثغرات الأنسب في جسم الخصم أملا في تكبيده أكبر قدر من الخسارة التي تقنعه بعدم إمكانية القضاء على ثورته بوسائل القتال الجارية ، والتفكير بالاستجابة إلى تلبية القدر المقبول من مطالبه .

وكذلك للطرف العسكري الحكومي الذي يسعى حثيثا إلى جمع المعلومات الدقيقة (الاستخبارات) عن نوايا ، وأهداف ، وتحركات ، وأساليب حركة التمرد بمواجهته ، وموقف السكان المحليين منها والمتعاونين معها ، ووسائل دعم أفرادها ، وتموينهم ، وسبل التأثير سلبا على قدراتهم ، وغيرها من الاستخبارات الملائمة للقضاء على التمرد ، أو الحد من نشاطه دون التسليم بمطالبه التي تراها الحكومة تجاوزا على هيبتها وإخلالا بسلطتها .

وعلى هذا الأساس كانت المعلومات وسبل جمعها ، والتضليل في مجالها معركة أدارها طرفي الصراع بشكل صامت تطورت في الجانب الحكومي بتطور إمكانات الاستخبارات العسكرية ، والأجهزة الأمنية الأخرى التي بدأت نهاية الستينات عملا من مسؤولية الاستخبارات العسكرية يتمثل ميدانيا بتشكيل مركزا للاستخبارات في مدينة السليمانية ، تحددت واجباته بعملية جمع المعلومات عن الحركة الكوردية ، ومتابعة أنشطة القبائل ، والشخصيات الكوردية ، وإدارة شبكة وكلاء بعدد محدود داخل المدن الرئيسية، واستمر هذا المركز يرفد مديريته والقطعات العسكرية العاملة في المنطقة بالمعلومات الأولية وبمستوى محدود حتى منتصف السبعينات الذي شهد تغيرا في هيكلية العمل الاستخباري في عموم المنطقة الشمالية حيث القرار على تشكيل منظومة استخبارات المنطقة الشمالية :

من مقر لها في كركوك ومراكز تابعة لها في السليمانية ، وأربيل ، وفي مرحلة لاحقة فتح مراكز أخرى في دهوك وبعض الأقضية .

وكان العمل الاستخباري الخاص بالصراع الجاري في كردستان العراق يدار من قسم الشمال في الشعبة الأولى بمديرية الاستخبارات العسكرية الذي تشكل في منتصف الستينات بإدارة ضابط ركن القسم ومساعد له ، ليتحول مع نهاية السبعينات إلى شعبة بأقسام متعددة ، ترتبط بها فنيا منظومة الاستخبارات الشمالية ، وتنسق أعمالها مع منظومة استخبارات المنطقة الشرقية في مدينة بعقوبة التي تأسست إبان الحرب مع إيران وخصص جزء من جهدها لتغطية النشاط الكوردي في مناطق خانقين ، وجلولاء ، وكلا ، ومناطق أخرى ترتبط بمحافظة ديالى إداريا .

إن العمل الاستخباري الخاص بالحركة الكوردية لم يكن حكرا على الاستخبارات العسكرية العامة ، إذ وبعد أن حققت الحكومة قفزات في دعمها وتعزيزها الأجهزة الأمنية بعد منتصف السبعينات فقد أسست مديرية المخابرات الشمالية (مقرها الموصل) لتحديد مسؤولية عملها بمنطقة كردستان العراق ، وكذلك أنشأت شعبة القوميات والأقليات في المعاونة الخامسة (مكافحة التجسس) في رئاسة المخابرات تنسق عملها مع المديرية المذكورة ، وشعب المعلومات المختصة بالمنطقة في الدوائر الأمنية الأخرى . هذا وما ينطبق على المخابرات يسري كذلك على مديرية الأمن العامة التي فتحت لها مديرية أمن في السليمانية بعد عام 1973 ومن ثم مديريات أخرى في جميع المحافظات الكوردية لاحقا .

يضاف إلى ذلك الجهد الاستخباري العملياتي لهيئات ركن الاستخبارات في الفيلق الذي يدير عمليات القتال في المنطقة ، وهيئة ركن الاستخبارات في الفرقة ، وضابط ركن الثالث استخبارات اللواء .

حتى أصبحت شبكة من العمل الاستخباري واسعة تغطي كل أنشطة الحياة في المنطقة ، تنسق أعمالها جميعا لجنة شؤون الشمال التي ترتبط بمجلس قيادة الثورة ، وأعضائها مدراء الأجهزة الأمنية جميعا .

إن تلك الأجهزة الاستخبارية المتعددة عملت في المنطقة الشمالية بنشاط عالي المستوى أثناء القتال ، وكذلك في الفترات التي شهدت توقفا له ، وعملها لم يكن محددا بجمع وتحليل المعلومات التي أمدت الحكومة ، والقوات العسكرية بما يلائمها من استخبارات لازمة لإدامة زخم القتال ، وتسهيل إدارة المنطقة ، بل وأخذت على عاتقها كذلك جانبا

من العمل يرقى إلى مصافي الحرب بنواياها غير السليمة ، ونتائجها غير الإنسانية ، تؤيد طبيعة المهام التي أوكلت لها ذلك. بينها على سبيل التوضيح :
السعي إلى تجنيد رؤساء العشائر الكوردية ، ووجهاء المناطق للعمل في صف الحكومة ، وربطهم بشبكة الوكلاء تبعاً لمراكزهم الاجتماعية .
المرتبة الأولى تقام لهم علاقات مع مسؤولين متنفذين في الدولة ، ومدراء الأجهزة الأمنية يستطيعون فيها الاتصال ، والتواصل معهم في الوقت الذي يشاءون ، كما تحدد لهم رواتب ومخصصات عالية ، ووسائل نقل ، وحمايات خاصة .
المرتبة الثانية تتحدد علاقاتهم بمدراء شعب ، ومنظومات الاستخبارات ، ومديريات الأمن والمخابرات في المحافظات الشمالية .
لهم حق الاتصال ، وطلب العون ، والمساعدة في الوقت الذي يروه مناسباً . وتحدد لهم رواتب ومخصصات مجزية ، ووسائل نقل لبعضهم تبعاً لدوره ، والمهام المطلوبة منه .
المرتبة الثالثة أولئك الأقل منزلة من الناحية الاجتماعية والإدارية .
يتوزعون على ضباط الأقسام في الدوائر الأمنية ، وعلى مراكز الاستخبارات ، وهيئات ركن الاستخبارات في القيادات العسكرية ، وعلى سجلات الوكلاء والمتعاونين .
يعملون لقاء أجر يتفق عليه مع بدايات عملية التجنيد ، كما يحصلون على مكافآت خاصة عند تكليفهم ببعض المهام ، وفي حالات قيامهم بمبادرات ذاتية .
هذا وإن عملية التجنيد وتوثيق العلاقات ، وإسناد المناصب كأحد أعمدة الحرب الاستخبارية لم تكن بقصد جمع وتدقيق المعلومات فحسب ، وإنما لأهداف أخرى مضافة مثل :
التحرك لشراء الذمم .
العمل على تعزيز مشاعر التبعية إلى سلطة الدولة لعموم المتنفذين اجتماعياً وإدارياً .
ترسيخ الإحساس بالدونية في نفوس المعنّين بقصد دفعهم إلى تنفيذ المهام غير الإنسانية وسط أهلهم وذويهم .

. دفع وتشجيع الكورد خاصة أبناء العشائر للتطوع إلى القتال في جانب الحكومة ، وإدارة تنظيمااتهم (الأفواج الخفيفة) عن طريق الترغيب بالمكاسب المادية ، والوجاهة السلطوية¹³.

. تنفيذ عمليات التصفية المنظمة ، والاغتيال للشخصيات الكوردية النشطة في صفوف التنظيمات المعارضة ، أو تلك الراضية للتعامل مع أجهزة الحكومة عن طريق منتسبيها المحترفين ، أو العملاء المأجورين من أبناء المنطقة .

. إدارة عمليات التغيير السلوكي المقنن لأبناء المنطقة ، أي تحويله تدريجيا من الميل لممارسة القتال إلى الرغبة في العيش بعيدا عن القتال ، وذلك بدعم المتعاونين لغرض فتح وتوسيع أماكن اللهو ، وتشجيع بعض مفردات السياحة (المنوه عنها) وتنشيط عمليات تجارية خاصة مع المركز ، وغيرها .

. العمل على زرع بذور الفرقة ، والشقاق بين الأحزاب ، والحركات ، والشخصيات الكوردية ، من خلال التضليل ، والتسميم السياسي ، وتعبير المعلومات المثيرة ، ونشر الأخبار الملفقة ، وتقريب البعض ، واستبعاد البعض الآخر ، وافتعال الأحداث ، وإصاق التهم ، وغيرها أعمال تثير البغض والكراهية في النفوس ، وتفضي إلى التباعد وعدم الالتقاء .

. تعزيز مفهوم العشائرية في المنطقة ، والسعي لدعم الزعامات فيها بهدف تقوية المراكز العليا في العشيرة والقبيلة ، وتوسيع هامش العظمة وأهمية الدور

في داخل النفوس ، إلى المستوى الذي يرى فيه الواحد أنه الأكبر في المنطقة..... شعور يعمل المعنيين بالأجهزة الاستخبارية تثبيته عند أكبر عدد ممكن من رؤساء العشائر ، والوجهاء سعيا إلى دفعهم باتجاه العزلة ، والتنافر .

. التنسيق مع المؤسسات الحكومية ، والتنظيمات الحزبية لتوسيع حملة التبعيث ، والتعريب المقننة للمنطقة ، واستخدام أسلوب الإثابة لمن يتقدم باتجاه الغاية المذكورة ، والعقاب القاسي لمن يبتعد عنها ، أو يحول دون تحقيقها .

¹³ . تقديم مثل هؤلاء المتعاونين في مناطقهم بصورة المسؤولين عن النظام ، ومنحهم نفوذ واسع في العمل ، والتعامل مع الغير ، ومع مؤسسات الدولة كذلك تنسيق عملهم القتالي ، وتحركاتهم مع القوات العسكرية العاملة في المنطقة .

. إشاعة القلق والخوف من الحكومة بشكل عام ، وأجهزتها الأمنية بشكل خاص ، لتكوين عامل ردع نفسي ذاتي يحول دون تقدم الكوردي خطوات تجمعها مع البيشمركة والأحزاب السياسية المعارضة في إطار العمل والتعاون .

. تشجيع البعض من الكورد لتكوين تنظيمات وهيكل سياسية مظهرها وطني كوردي ، وداخلها ولاءات للحكومة وأجهزتها الأمنية ، ومهامها المنافسة السياسية ، والتسقيط السياسي ، والإيحاء المضاد للعمل بالسياسة .

..... الخ من الأعمال ، والأساليب التي برعت بها الأجهزة الأمنية ، وغطت بخطواتها عموم المنطقة بعد أن :

رصدت لها الحكومة ملايين الدنانير ميزانية تكاد تكون مفتوحة خاصة في نهاية السبعينات ، وبداية الثمانينات .

زودتها بالأجهزة اللازمة للاتصال حديثة العهد وفاعلة ، وبالمعدات الملائمة لتنفيذ المهام ، وكذلك بالآليات الكافية لتغطية الحاجة .

دربت ضباطها ومنتسبيها في دورات خاصة داخل العراق وخارجه ، ووطورت من إمكانياتهم لإدارة العمل الاستخباري بالشكل الذي تراه وتريده الحكومة . وبذا برعت من خلالها هذه الأجهزة المتعددة في حربها الاستخبارية وتمكنت من ضرب الشعب العراقي الكوردي في أكثر من مكان ضربات كانت أكثر إيلا من رصاص البنادق ، وقنابل المدفعية ، وقصف الطائرات ، وبمعركة صامتة لم تنته حتى مع شمول المنطقة بالحماية الدولية إثر حرب الخليج الثانية عام 1991 ، رغم خفوت أوارها .

أخيرا توقف القتال عسكريا بين الجيش العراقي ، والبيشمركة بعد قرار الحماية الدولية ، وبتوقفه فعليا انتهى فصل من فصول الصراع الدامي على قمم جبال كوردستان العراق ترجع بداياته إلى السنين الأولى لتأسيس الدولة العراقية الحديثة عام 1921 التي لم تتضح في جوانبها العلاقة بين سلطة الدولة العربية في المركز ، والكورد في الشمال .

ولم تتبلور من خلالها طبيعة الحقوق والواجبات لأبناء القومية الثانية بعد العرب في تركيبة المجتمع العراقي متعددة القوميات ، والمذاهب ، والديانات .

لكن انتهاء هذا الفصل بتدخل دولي لم يبلغ فصولها اللاحقة لأنه تدخل قد اقتصر على فرض حل خارجي لبعض جوانبها ، وأبقى جوانب أخرى سائبة تمتلك الحكومة قسم من

خيوطها ، فكان تحركها لدخول محافظتي أربيل والسليمانية ، وتدمير قواعد العرب والكورد المعارضين لسلطتها عام 1996 على سبيل المثال واحد من تلك الفصول . ولم يقدم حلا مقنعا ، وملائما تماما للكورد طرفها المباشر يرضى عنه العرب والتركمان ، والآشورين المسلمين والمسيحيين من الشعب العراقي الذين يتحسسون ضرورة تكوين علاقة متكافئة مع الكورد كفيلة بإقامة مجتمعا دستوريا ديمقراطيا يتمتع فيه الجميع بحقوقهم ، ويؤدي فيه الجميع واجباتهم دفاعا عن العراق وخدمة لمصالحه الوطنية . ويتعدون فيه عن أنواع العراك صاخبا كان مع الجيش ، أو صامتا مع الأجهزة الاستخبارية مساع قد يحققها العراقيون غير الحكوميين ، ولو بعد حين .

الفصل الرابع حرب تشرين المشاركة، والنوايا

إن العرب يمكن أن يؤدوا فعل الحرب ، والسياسة بكفاءة مقبولة
إذا ما حسنت نواياهم ، وتوحدوا في الطريق إلى تحقيق أهدافهم .

الحرب الرابعة

بدأت الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل في 6 تشرين الأول عام 1973 إذا ما أضفنا إلى تسلسلاتها تلك التي حدثت عام 1948 و1956 و1967 ، وبدأ ضجيج معاركها : اجتياز القطعات السورية ، والمصرية خطوط وقف إطلاق النار التي رُسمت ، أو تثبتت في الحرب التي سبقتها ، مع إعلام مكثف ، وبيانات متصاعدة من الجانبين العربيين مصر وسوريا ، ودعوات لباقي العرب القريبين من الجبهة ، والبعيدين عنها لتقديم الدعم ، والإسناد ، واتجاه من الإسرائيليين لطلب العون المباشر من الأمريكان .

لكن هذه الحرب لم تكن مثل تلك التي حدثت قبلها في جانب المبادء أحد المبادئ الرئيسية للحرب التي احتكرتها إسرائيل في جميع حروبها السابقة ، وتفوقت بسببها وأمر أخرى على العرب بشكل حاسم حيث التحول هذه المرة إلى جانب الجيشين العربيين في صفحة الشروع ، عندما بادروا فيها وهم المجاورون للدولة العبرية ، والأكثر تأثراً بالصراع الدائر بينها وبين عموم العرب على أراضيهم ، والأرض الفلسطينية بالقرار لشن الحرب اعتماداً على الجهد الخاص .

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر عندما اجتازت خطوط التماس الطائرات القاصفة والمقاتلة للجيشين المذكورين ، وسرب من الطائرات العراقية نوع هنتر الإنجليزية كانت قد وضعت على الجبهة المصرية قبل أكثر من عام اجتازت تلك الطائرات وفي خرائط طواقمها أهداف في العمق الإسرائيلي . وباجتيازها : بدأت المدفعية الثقيلة ، والمتوسطة قصفا مركزاً على مواضع الإسرائيليين الأمامية لتمهد إلى قطعات الصولة عبور قناة السويس من جهة الغرب ، وخطوط وقف إطلاق النار في الجولان من جهة الشرق .

أعلنت أجهزة الإعلام المصرية ، والسورية نبأ الحرب . أكدت أجهزة الإعلام الإسرائيلية صدق وقوعها .

سارع العرب الآخرون كعادتهم إلى التفاعل معها بطرق شتى بينها:

- . طلب البعض قبول تطوعهم في صفوف جيوشها تنفيذاً لواجب الجهاد .
- . نادى البعض أن يتجاوز العرب خلافاتهم ، ويدخلوا المعركة بكل قواهم .

.التحق البعض الآخر بالمنظمات الفلسطينية سعيا منهم لتنفيذ واجب الكفاح المسلح في أرض المعركة ، والعمق الإسرائيلي خلف خطوط القتال .

الحرب في الذاكرة العراقية

لقد بدأ العرب الحرب هذه المرة ، وخرجت الجماهير المحبطة من نتائج حروب سابقة إلى الشوارع معبرة عن دعوات لحكوماتها في دعم السوريين والمصريين ، وبدأ التحرك الرسمي للملوك ، والرؤساء العرب مع الساعات الأولى لإعلانها عن طريق وسائل الإعلام ، وكان الشعب العراقي مثل كل مرة متحمس للاشتراك بمعاركها مندفع لدعم الأخوة على الرغم من تلقيه تثقيف مكثف من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم كون الأنظمة العربية جميعها غير جادة في مواجهة إسرائيل ، أو خوض الحرب معها دفاعا عن الحق العربي ، بل وبعض منها متآمرة ، وإنه أي الحزب في العراق يتحمل وحده مسؤولية التحرير ، لأنه الوحيد من بين الأحزاب ، والحركات ، والحكومات العربية الذي يضع قضية فلسطين ، ومسألة تحريرها من الاغتصاب أساسا ، أو جوهر لنضاله المستمر في بعث الأمة العربية ، ولم يستثن من تعميمه هذا المصريين ، والسوريين الذي يتهم كل توجهاتهم السابقة بأنها لا تعدو :

رغبة في تحريك الملف الخاص بالصراع .

الدفع باتجاه استصدار قرار من مجلس الأمن يضاف إلى القرارين 242 و 338 يؤمن ولو قدرا قليلا من المكاسب لهما بصفة خاصة ، يحتاجانها في تعاملهما مع شعبيهما من جهة ، ومع العرب والعالم الآخر من جهة أخرى .

كان ذاك تصورا قدمته القيادة القطرية للحزب في العراق في كراس أصدرته عام 1972 بعنوان (المنطقة ماذا ؟ وإلى أين ؟) وكان في مجمله اسقاطات لرأي الحكومة ، وقيادة الحزب في التقليل من جهد العرب خاصة المصريين ، والسوريين المعنيين أكثر من غيرهم بطبيعة الصراع الذي تجاوزت آثاره ، وتأثيراته حدود فلسطين لتشمل أراض مصرية كانت مساحة سيناء من بينها ، وأخرى سورية شملت هضبة الجولان ذات الأهمية الاستراتيجية .

وهو تصور كان راسخا في ذاكرة القيادة لواقع الحال قبل حدوث الحرب لم يختلف عنه فيما بعد وقوعها :

إذ أكد طارق عزيز المسؤول عن الدبلوماسية العراقية ، وعضو مكتب الثقافة القومي في اجتماع له مع صدام حسين ، والقيادة القطرية للحزب بعد الحرب مباشرة قائلا .

(إن حالة الانكسار والإحباط تمت بعد عام 1967 000 وطبعا بعد عام 1973 0000 وهي حرب تحريك كما أسميناها ، وليست حرب تحرير استخدمت نتائجها البسيطة لمزيد من التنازلات للإمبريالية ، والصهيونية) .

وبضوء تصور الحزب هذا عن طبيعة الصراع ، ونوايا أطرافه من العرب الآخرين أكد بالمحصلة عدم أحقية الأحزاب العربية الأخرى في منافسته على قيادة نضال الأمة في فلسطين .

وحق من هذا النوع انعكست آثاره بطبيعة الحال على نوايا ، وتوجهات الحكم في العراق الذي نادى قاداته بشكل معلن عدم جواز انفراد الحكومات العربية دونه بحرب في الساحة الفلسطينية محور نضال الأمة ، أو بالمعنى الأصح ذلك النضال الذي يمكن أن يطبع الداخلين في ساحته بطابع الوطنية دون النباش في الماضي ، والتفتيش في الدفاتر والسجلات .

ويبدو أن هذا التصور لطبيعة الدور ، وشكل المساهمة بات حقيقة حكمت سلوك البعثيين العراقيين ، وأثارت تحسس الآخرين سواء السوريين الذين ينتمون فكريا وأيديولوجيا إلى نفس الحزب الذي انشقت قياداته لجناحين ، وبقيت أهدافه وأفكاره سائدة عند كليهما ، أو سواء للمصريين الذين يحملون في ذاكرتهم أفكارا مشوشة عن الحزب منذ الأيام الأولى التي طرحت فيها فكرة الوحدة بين سوريا ، والعراق ، ومصر بداية ستينات القرن الماضي إبان حكم جمال عبد الناصر ، وهي تصورات امتدت إلى السادات الذي اتهمه البعث علانية بالعمالة في خضم الصراع على زعامة الأمة العربية ، ذلك الأمر الذي انشغلوا بمجرياتة ، والتدبير إليه أكثر من انشغالهم بالتحرير الفعلي للأرض الفلسطينية .

استبعاد العراق من الإعداد للحرب

كانت التصورات المذكورة قد كونت بعض الاعتقادات غير الإيجابية زادت من سعة التباعد ، وعدم الثقة بالقيادة العراقية آنذاك ، ودفعت بالمتحالفين السوريين والمصريين إلى استبعاد إشراك العراق طرفا في الإعداد لها ، والمشاركة في صفحتها الأولى ، وعدم إخباره باحتمالات وقوعها ، وهذا ما أكدته الحكومة العراقية يوم تهيأت للمشاركة بها معلنة :

أنها قد علمت وقوع الحرب من المذيع ، وستبادر إلى الاشتراك بها على هذا الأساس . لكن هذا إدعاء لا يؤيد صحته السوريون الذين يؤكدون إبلاغهم العراق بالحرب عن طريق مبعوث حزبي رفيع المستوى قبل أسبوع من بدأها دون أن يحيطوه علما بساعة الصفر بحجة المحافظة على عامل المباغته كأحد مبادئ الحرب الضرورية مع عدو مثل إسرائيل.

ومع ذلك فإن هذا الموضوع الحساس الذي يصعب إثباته علميا يمكن الاستدلال على عدم علم العراق المسبق بوقوع الحرب من خلال بعض المؤشرات بينها :
الطريقة المضطربة لتنقل القطعات العراقية المنوي إشراكها في الحرب على محور بغداد دمشق ، إذ تنقلت بعض دروعها مثلا على ناقلات الدبابات ، وأخرى وصلت الحدود على السرف ، وتعطلت بعضها على الطريق ، بشكل يوحي أن قرار تحريكها دون أية استعدادات مسبقة .

برقية الأمر الإنذاري إلى الفرقة المدرعة الثالثة للتهيؤ إلى الحركة باتجاه الحدود العراقية السورية كانت قد صدرت بعد أربعة ساعات من بدء الحرب . ومعها تأكيدات هاتفية من أعلى المسؤولين بضرورة التنفيذ الفوري ، وبلغة توحي أنهم قد تفاجئوا بحدوثها . عدم وجود خطط واضحة لتنقل ألوية الفرقة ، وعدم تنفيذ تمارين التنقل بهذا المستوى من قبل ، كذلك شيوع العديد من الأخطاء في التنفيذ تشير جميعها عدم وجود تحسب مسبق ، أو نوايا للقيام به .

لكن تلك المؤشرات يصعب الاستناد عليها أدلة حاسمة في هذا الموضوع المثير للجدل ، إذ أن البعض من الضباط الذين تناولوا موضوعها في النقاش ما بعد الحرب مباشرة أشاروا إلى تفسيرات أخرى لدعوى الحكومتين السورية ، والعراقية بينها :

يحتمل أن تكون الحكومة العراقية قد فسرت المعلومة التي عبرها السوريون بطريقة متقنة حول الحرب قبل أسبوع من بدأها كما يدعون مجرد نوايا لا صحة لها بضوء مشاعر عدم الثقة السائدة بين الطرفين ، وبالتالي لم تنهت ، أو تأمر بالتهيب ولو في مجال إحصار ناقلات الدبابات من جهد الدولة لدعم موقف العسكر غير الكافي في هذا المجال ، بدلا من الاضطرار إلى إصدار أوامرها في نفس يوم الحرب إلى الدوائر المدنية بوضع العجلات الناقلة للمعدات الثقيلة التي تصلح لنقل الدبابات بإمرة وزارة الدفاع ذلك الأمر الذي احتاج تطبيقه عدة أيام رغم تأكيدات الحكومة على سرعة التنفيذ .

ويحتمل من زاوية أخرى أن بعثي العراق لم يصدقوا بعثوا سورية في شنههم الحرب على إسرائيل رغم إخبارهم بنواياها ، وحسبوها مناورة جعلتهم بعيدون عن أية استعدادات مسبقة للمشاركة بها .

ويحتمل كذلك أن القيادة العراقية ، وإن صدقت ما قاله المسؤول الحزبي السوري قبل أسبوع من وقوعها لم يكن في نيتها دخول الحرب بالطريقة التي أرادت سوريا ومصر وجود للقطعات العراقية بإمرة سوريا صاحبة الأرض والشأن ، وهذا ما لا يرتضيه الحكام في بغداد الذين يعارضون ، أو يعارض بعضهم عمليا دخول الحرب ، أو التعاون في شأنها بصيغ يمكن أن تفضي إلى تقديم الدعم إلى الجناح المناوئ لهم بقيادة حافظ الأسد ، وهم فئة قليلة في القيادة العراقية بينهم صدام حسين تعبر عن نواياها بطريقة مغلفة فيها كثير من التمني بالقضاء على حكم حافظ الأسد ، ولو بالسلاح الإسرائيلي .

وهذه الاعتقادات والنوايا والتكهنات يؤكدتها التبليغ الذي نقله النقيب الركن نوزاد من مقر الفرقة المدرعة الثالثة إلى آمر اللواء المدرع الثاني عشر المقدم الركن سليم شاكر الإمام ، وباقي الآمرين بعد دخولهم الأرض السورية مباشرة عن لسان قائد الفرقة العميد الركن محمد فتحي مفاده :

(يجب تفادي قيام السوريين بزجهم في معارك مهلكة ، وينبغي أن لا ينفذوا سوى أمر قائد الفرقة) .

إلا أن الحكومة التي تجيد فن المناورة .

وتحسن تأمين الغاية لتبرير الوسيلة أعلنت أنها سوف لن تتوقف عند الخلافات السابقة .

ولن تقبل حرمانها المشاركة في النضال من اجل التحرير .

وستتجاوز مسألة إشراكها في اتخاذ قرار الحرب ، وضرورة إخبارها مسبقا بخطط القيام بها التي شكلت لها عقدة في التعامل السياسي اللاحق مع السوريين طيلة فترة التعاون ، والتنسيق العسكري على أرض المعركة ، ودفعتها إلى أخذها من بين الحجج التي تم الارتكاز عليها في اتخاذ قرار الانسحاب بعد وقف إطلاق النار لاحقا.

قرار المشاركة في الحرب

كان اليوم الأول للحرب معارك شرسة على الجبهتين المصرية والسورية ، وكانت وقائعها وكما يشير الإعلام العربي ، وقليل جدا من الإعلام الأجنبي ، وبعض مصادر الاستخبارات أنها تدور لصالح الطرف العربي الذي حقق المباغطة بمستوى أذهل الإسرائيليين ، وأثار استغراب الأميركيين حلفائهم الرئيسيين ، وتسبب في إصابتهم بصدمة لم يستطيعوا الاستفاقة منها حتى نهاية اليوم الأول من القتال .

وكانت أجهزة الإعلام العربي التي تحسن جميعها التهويل ، والتضخيم تضخ ما يترشح عن جبهة القتال :

بيانات عسكرية عن نجاحات الجيشين العربيين في تأمين المباغطة ، وقدرتهما الفائقة في كسب الصفحة الأولى من الحرب .

نداءات للمباركة فيها قدرا من المبالغة لخسائر العدو كان العقل العربي محتاجا إليها إثر إحساسه بالخسارة المروعة في حرب 1967 .

وبواسطتهما استجاب العموم إلى تفاصيل الحرب بانفعال عال المستوى في جميع الدول العربية بينها العراق الذي تميزت استجابة مواطنيه بالشدة العالية ، والرغبة الملحة في التوجه إلى ساحة الحرب ، وبمستوى لم يبق لنوايا النظام مجالا للتأثير في ظروف اختلطت فيها المشاعر ، والأحاسيس ، وبات العمل يصب باتجاه المشاركة الحتمية في الحرب التي اتخذ القرار السياسي في المشاركة بها دون تأخير .

ومع ذلك وأي كانت النوايا الموجودة في العقل العراقي الحاكم سواء ما يتعلق منها بالرغبة في المساهمة لكسب محتمل في معركة وقعت فعلا مع الإسرائيليين ، وتفويت الفرصة على الأخوة الأعداء أي السوريين في احتكار النصر .

أو سواء ما له صلة بالاستجابة لمشاعر ورغبات الإنسان العراقي ، والشارع العربي الذي تحرك طوعا ليعبر عن رغبته واستعداده المشاركة في الجهد القتالي عن طريق الجيش ، أو مع العمل الفدائي داخل الساحة الفلسطينية .

أو سواء ما يتعلق بنوايا أخرى لم يشأ أن يفصح عنها كبار المسؤولين بينها استثمار فرصة التواجد العسكري العراقي الشرعي على الأرض السورية قريبا من دمشق يمكن أن يشجع

بعثيين مؤيدين لخطها آنذاك للتحرك باتجاه تغيير نظام حكم الأسد ، يكونون ساعتها قادرين على دعمه ميدانيا¹⁴.

لم يكن هناك مجالا كافيا لتبادل التهم ، ولم يكن هناك متسع من الوقت يمكن تبديده لإثبات صحة النوايا ، والفرصة لم تكن متاحة تماما لإستعراض الوطنية والقومية ، والقتال قد بدأ على الجبهتين السورية والمصرية ، عندها لم يجد أحمد حسن البكر خيارا سوى دعوة القيادة القطرية ، ومجلس قيادة الثورة للانعقاد فورا في مكتبه بالقصر الجمهوري ، ليناقشوا الموقف مناقشة أفضت سريعا إلى قرار المشاركة بالحرب على الجبهة السورية ، مع الاحتفاظ بخصوصية واستقلالية القطعات العراقية جهد الإمكان . عندها رفع رئيس أركان الجيش الفريق الركن عبد الجبار شنشل الذي كان حاضرا الاجتماع سماعة الهاتف من مكتب الرئيس ليطلب من أمين سره إصدار الأمر الإنذاري بحركة الفرقة المدرعة الثالثة¹⁵ في غضون ست ساعات ، وأن يعد الأمر لتوقيعه حال وصوله مقر وزارة الدفاع بعد قليل ، وأن يبلغ صيغته إلى قائد الفرقة المذكورة هاتفيا . لقد تحرك رئيس أركان الجيش كرجل حرب محترف دون الالتفات إلى النوايا الحقيقية في عقل حكومته من دخول الحرب التي دار حولها الجدل بين البعثيين العراقيين وخصومهم الكثرين ، ولم يلتفت العسكر العراقي إلى كل تلك التحليلات ، ولم يرد في مخيلة الضباط أية نوايا سوى المشاركة بالحرب إلى جنب إخوانهم السوريين .

ساعات التهيؤ للحرب

لقد تبلغت الفرقة المدرعة شفويا قبل وصول برقية الأمر الإنذاري ، وبدأ ضباطها ، وهيئات ركنها العمل على التنفيذ ، حيث صدرت ذات الأوامر إلى

¹⁴ . لقد تعددت التكهنات بصدد نوايا النظام الحاكم من دخول الحرب بهذه السرعة رغم مواقفه السلبية من نظام الحكم في سوريا ، وإن كانت الأخيرة ذات الصلة بالتأمر على الحكم السوري هي الأكثر ترجيحاً لو تم النظر إليها من زاوية الخصائص النفسية لمن يدير شؤون الحزب ، والدولة العراقية آنذاك أحمد حسن البكر ، وصدام حسين .

¹⁵ . هناك قطعات عراقية غير الفرقة الثالثة ، أمرت بالتحرك ، ووصلت إلى جبهة القتال ، لكننا وبهدف إلقاء الضوء على طبيعة التهيؤ ، والتحرك ، والمشاركة في القتال سوف يتم أخذ هذه الفرقة التي عبرت ألويتها الحدود إلى سوريا أولا كمثال للإستدلال والتوضيح ، وسوف يتم التركيز على اللواء المدرع الثاني عشر من ألويتها ، لأنه أول من حقق تماسا مع القوات الإسرائيلية ، حيث تعطي حركته تصورا قريبا من الواقع عن طبيعة اشتراك الجيش العراقي بالمعركة ، وكذلك عن نوايا الحكومة في موضوع استخدامه .

مستوى الكتائب ، والأفواج ، وتحرك ضباطها ، وتشكيلاتها ، والوحدات وكذلك هيئات الركن بعد استلام الأمر الإنذاري بالساعة 1800 يوم 6 تشرين في كل الاتجاهات لإكمال النواقص في التجهيزات ، والتأكد من صلاحية بعض الأسلحة ، والمعدات ، والاتصال ببعض الضباط المجازين للالتحاق إلى وحداتهم خاصة ضباط الركن ، وآمري الوحدات الذي التحق البعض منهم حتى قبل الاتصال الهاتفي معهم عند سماع أخبار الحرب عن طريق وسائل الإعلام. وشهدت وحدات الجيش العراقي الأخرى على وجه العموم كثيرا من التحرك ، والنقاش بين المنتسبين بجميع الرتب .

وتجمع الضباط في ثكناتهم جماعات للاستماع إلى وقائع الحرب ، ومتابعة صفحاتها ، وكانت بياناتها إجمالا تنعش المعنويات ، وتزيد من الرغبة في المشاركة عند الجميع ، وبدأ الإعلام العراقي الموجه مركزيا يعيد نشر تلك البيانات ، ويضيف إليها كثيرا من مفردات التوجيه السياسي للحزب في محاولة التنشيط المبرمج للمشاعر ، والأفكار الموجودة عند العسكر العراقي عن فلسطين ، والأرض المغتصبة ، وضرورات القتال ، ومساهمات الحزب في المعارك التي دارت منذ العام 1948 .

في ظروف هذا الشد ، والشحن الانفعالي بدأت الفرقة استعداداتها دون أن يعلق الضباط وهم في أعلى درجات المعنويات على استحالة التحرك في ستة ساعات والفرقة لا تمتلك ، ولا ناقلة دبابات بعد أن جعلت الحكومة ، ولأسباب أمنية تنظيم سرايا النقلية الخاصة بنقل الدبابات ليس من نظام معركة الفرق المدرعة واقتصرت ارتباطها بالمقر العام ، وجعلت تواجدتها في معسكر طارق عشرون كيلومترا عن بغداد في أبي غريب لأنها ترى أن وجود الدبابة ، وقربها المقطورة التي تنقلها يمكن أن يكون فكرة عن استخدامهما للتقرب من بغداد وقلب نظام الحكم .

وعموما انتظرت وحدات الفرقة حتى الساعة 0700 من اليوم الثاني 7 تشرين وصول أول ناقلة دبابات من المعسكر المذكور ، ومن بعدها بثلاث أيام بدأت تصل تباعا حاملات المعدات الثقيلة (المدنية) حيث أمرت الدولة بمنشور خاص من مجلس قيادة الثورة وضعها بإمرة وزارة الدفاع .

بعد الساعة 700. بدأ الآمرون تحميل دباباتهم ، وأكمل التحميل في اللواء المدرع الثاني عشر ناقص كتيبة دبابات (لعدم كفاية الناقلات) مع ساعات الصباح الأولى ليوم 8 تشرين الأول ، وشرع بالحركة من منطقة تكريت بالساعة 0600 ، وبتأخيره القسري لأكثر

من أربع وعشرين ساعة سجل اللواء وغيره من الوحدات المدرعة للفرقة أول تجاوز على الأمر الإنذاري للحكومة أرجعها أمر اللواء إلى تأخر وصول الناقلات ، وهبوب عاصفة رملية في المنطقة أخرت من ساعة الشروع بالحركة .

وهذا تجاوز اعتادته القيادة العراقية ، وتعود الكثير من ضباط الركن العاملين في مراكزها العليا إتباع توقّيات غير منطقية للتعامل مع صيغته لتخليص أنفسهم من المسؤولية ، وإلقاء تبعاتها وضغوطها على الآخرين في التسلسل القيادي الأدنى لتنتقل إلى الأقل درجة حتى مستوى الوحدة الفرعية (السرية / البطرية) التي يضطر فيها الأمر إلى إصدار أوامره بتوقّيات غير مقتنعة أن جنوده قادرين على تنفيذها بسبب عدم منطقيتها .

كما تلجأ إليها القيادة العليا أحيانا لقناعتها أن في آلية التنفيذ بطئ تقليدي ناتج عن ضعف الاستجابة ، وعدم كفاية التدريب ، وبالتالي تضع توقّيات تخرج فيها المنفذين بالضغط عليهم للإسراع بالتنفيذ مع القبول بالتجاوز القليل خاصة وإنها مقتنعة بحدوثه في جميع الأحوال ، وهذه معالم سلوك من قبل القيادة العسكرية العراقية آنذاك تكونت بسبب توجهات القيادة السياسية العليا في التعامل مع هكذا مواضيع أخل في محصلته بمعايير تنفيذ الأوامر في عموم الجيش العراقي إبان حكم البعثيين ، رغم اتسامه بخاصية الضبط في الفترات التي سبقتهم .

التوظيف الدعائي للمشاركة

ومع ذاك الحرج وعوامل التأخير شرع اللواء المدرع الثاني عشر بالحركة من منطقة تكريت بالساعة 600 يوم 8 تشرين ، وشرع اللواء المدرع السادس ، ولواء المشاة الآلي الثامن في نفس ذلك اليوم من منطقة الرمادي ، بعد يومين من وقوع الحرب .

لقد تحرك اللواء الثاني عشر ، ومع بداية تحركه أبلغ أمره أن يكون مروره في بغداد لأسباب قيل في حينها تتعلق بالدعم المعنوي اللازم لمنتسبي اللواء ، لكن واقع الأمر لم يكن كذلك :

لأن الضباط العراقيين ، وضباط الصف والجنود في مثل هذه الظروف الانفعالية لا يحتاجون مزيدا من الشحن المعنوي وهم كانوا بالفعل في أعلى درجات الاستعداد من الناحية النفسية في تلك الساعات .

ثم إن هناك تشكيلات ، ووحدات أخرى غير هذا اللواء كانت قد تحركت من مناطق أخرى ، دون التطرق إلى ضرورات رفع معنويات منتسبيها ، ولو بزيارتها من قبل أحد المسؤولين العسكريين ، أو السياسيين .

لكن العارفين بأساليب القيادة العراقية يؤكدون أن أمر المرور عبر بغداد يتعلق بالدعاية السياسية للحزب الحاكم كأحد النوايا الخاصة بالمشاركة في الحرب على المستويين : الداخلي حيث الاستثمار الضروري لظروف الحرب إشارات إلى الجمهور العراقي أن القيادة أخذت في اعتبارها المشاركة رغباته الملحة ، وهي إشارات أريد لها أن تترك أثرا في العقل العراقي بوطنية ، وقومية الحزب الذي يتحرك سريعا في مثل هكذا أحداث مصيرية .

. الخارجي حيث الرغبة بتعبير رسالة إلى العرب ، وغيرهم مفادها أن الحكومة العراقية قد استجابت لموضوع تحرير الأرض المقدسة رغم عدم إشراكها في مستلزمات التحرير ، وإنها تصرفت هكذا تبعا لفكر الحزب وتوجهاته القومية .

وتأسيسا على ذلك نظمت مسيرة اللواء من البوابة الشمالية لبغداد ثم إلى الشارع الموازي للكاظمية مروراً في حي علي الصالح حيث ينتظر : رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر .

شibli العيسمي الأمين العام المساعد للحزب .

عبد المجيد الرافي عضو القيادة القومية ، أمين سر قيادة قطر لبنان .

عزة الدوري عضو القيادة القطرية .

وآخرين من كبار المسؤولين غاب عنهم صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة بشكل ملفت للنظر .

وقفوا جميعاً أمام دار البكر القديمة التي أهداها إلى الحزب لتكون متحفه الرسمي ، وكانت تظاهرة استعراضية مثيرة غطى التلفزيون العراقي تفاصيلها بدقة ، لتضيف مزيداً من التأخير إلى حركة اللواء التي حدثت أصلاً بسبب موضوع الناقلات .

كان رئيس أركان الجيش أول من التقى اللواء في مفرق الكاظمية لحثه على الاستعجال بالمسير خاصة وإنه يتعرض إلى ضغوط من قبل القيادة السياسية للدولة في هذا المجال مبدئياً قلقه في ذات الوقت كون موافقة السوريين على دخول القوات العراقية لم تصل القيادة العراقية حتى ذلك الوقت ، لكنه عاد ليعدل من لهجته بشكل لا يكون فيه الكلام

عامل إحباط يؤخر تنقل اللواء في الطريق الطويل إلى سوريا مشيرا إلى أن الموقف غير المستقر سوف لن يدع مجالا للشك في أن السوريين سوف لن يكتفون بالموافقة فقط ، بل وبالترحيب لأي جهد عسكري يدعم موقفهم الذي يزداد حرجا على جبهة القتال التي بدأ التحول في مجرياتها من الجانب العربي إلى الجانب الإسرائيلي بشكل تدريجي ملموس . كان التوديع من قبل رئيس الجمهورية يحمل في طياته أكثر من رسالة أريد لها أن تؤكد وبما لا يقبل الشك مساهمة العراق في الحرب الدائرة ، وجديته في خوض معاركها حتى أن البكر شخصيا قد نبه آمر اللواء عن التأخير الذي حصل مبديا تعاطفه غير المعهود مع السوريين الذين لم يتبق لهم إلا القليل من الدبابات ، لكن إجابة آمر اللواء الخاصة بالتأخير ، وإشارته إلى ترك أحد كتائب الدبابات في معسكرها تنتظر وصول المزيد من الناقلات لتتحرك لاحقا قد فوت الفرصة على الرئيس أن يسترسل في الشرح عن الالتزام القومي في ظروف الشدة ، لكنه وبعد التوديع المتلفز أصدر أوامره لبعض الوحدات المدرعة أن تتنقل باتجاه الحدود السورية على السرف حسما لموضوع الوقت الذي يزداد حرجا ، وهذا كان من بين أهم الدروس الخاصة بهذه الحرب التي تم الاستفادة منها لاحقا ليؤسس العراق أضخم أسطول لنقل الدبابات من سرايا نقلية عديدة ، وزعها على مناطق العراق له إمكانية نقل غالبية الجهد العراقي المدرع بفترة زمنية قصيرة نسبيا ، وكان لها الأثر الكبير في دعم المناورة بالقطعات المدرعة ، والآلية في الحرب التي دارت مع إيران لاحقا.

التنقل دون تدخل الإسرائيليين

لقد ترك اللواء بغداد متجها إلى الغرب لكن تأخيرا اضطراريا آخر في مسيرته المطلوب إنجازها بسرعة قد حصل في منطقة الوزار حيث الاستلام الحتمي لعتاد الخط الأول ، والثاني الذي لم يستلمه من نقاط العتاد ، ومراكزها في منطقتة قبل التحرك لأن ذلك ممنوع بحسب الأوامر العليا للقيادة السياسية بالنسبة للوحدات العسكرية التي تمر قريبا من بغداد ، الأمر الذي جعل اللواء في أن يتوقف لذلك الغرض ثم يعاود تحركه باتجاه قاعدة الوليد الجوية القريبة من الحدود السورية العراقية حيث وصلت طلائعه القاعدة بعد ظهر يوم 9 تشرين ، وكانت القاعدة في أتم الاستعداد للتعامل مع ظروف الحرب خاصة ما يتعلق بالإغارة المتوقعة للإسرائيليين ، واحتمالات تدخلهم لإعاقة تنقل

القطعات كما حصل في تجارب سابقة إبان حرب حزيران 1967. وكانت أي القاعدة في واقع الحال أشبه بمركز للحركات إذ يتواجد فيها :

اللواء الركن إسماعيل تايه النعيمي الذي عين ممثلاً لرئيس أركان الجيش العراقي مع القيادة العسكرية السورية ، وكضابط ارتباط أقدم بين القيادتين . العميد الركن محمد فتحي قائد الفرقة الثالثة . العميد الركن عدنان الجبوري مدير الحركات العسكرية. العميد الركن فاروق الحريري المسؤول عن خطوط المواصلات .

يعمل الجميع لتسهيل المشاركة في وصول القطعات العراقية إلى ساحة الحرب كما مخطط لها .

لقد تمتع اللواء بقسط من الراحة ليلة كاملة تحرك بعدها ثانية بالساعة 01000 يوم الأربعاء 10 تشرين بقوة قتال مجموعها سبع وستون دبابة معقبا حركة اللواء المدرع السادس ، واللواء الآلي الثامن من نفس الفرقة اللذان تحركا قبله بحوالي 24 ساعة . كما أبلغ آمر اللواء مثل الأمرين الذين سبقوه بأن تكون نقطة الدخول إلى سوريا في أبي الشامات حيث وصلت موافقة القيادة السورية التي تنتظر بفارغ الصبر وصول القطعات العراقية أراضيها لحراجة موقفهم بعد أن تضاعفت خسائهم من الدبابات إثر دخول صواريخ تاو الأمريكية المعركة ولمستوى لم يتبق لديهم أي السورين منها ما يكفي لإدارة معارك دفاعية ، أو القتال لأغراض التعويق .

لقد بدأت وقائع الحرب تتحول لصالح الإسرائيليين بشكل ملموس في اليوم الرابع 10 تشرين الذي وصلت فيه طلائع الفرقة المدرعة الثالثة بلواءها السادس والثامن ناقص كتيبة الدبابات الثالثة لقرب معسكراتهما الدائمة في الحبانية من محور التنقل إلى الأراضي السورية ، ومن بعدهما بيوم واحد ومع ساعات الغروب وصل اللواء الثاني عشر مشارف دمشق حيث تنقلت كل وحدات الفرقة تنقلا هادئا دون تدخل الإسرائيلي ، على العكس مما كان متوقعا ويبدو أن ذلك لا يعود إلى جهل الإسرائيليين بتنقل قطعات عراقية على هذا المحور الحيوي ، وقد أعلن في وسائل الإعلام ذلك التنقل ، والرغبة بتقديم الدعم العسكري ، والإسناد المعنوي إلى السورين ، لكنه يعود وبالدرجة الأولى لمصاعب على الجبهة كان الإسرائيليون يريدون حسمها قبل تشتت الجهد الجوي بواجبات إعاقه ، وتأخير وصول القوات العراقية التي تنقل على الطريق العام بكثافة غير طبيعية .

العبور إلى الجبهة

لقد وصلت طلائع القوات العراقية أبو الشامات السورية والملفت للنظر من وجهة نظر آمري الأولوية ، خاصة الثاني عشر أن المؤشرات الأولية في نقطة الحدود هذه تشير إلى : عدم معرفة الأركان العامة السورية بقدوم تلك القطعات . عدم وجود ضباط ارتباط تقتضي طبيعة المعركة ، ونوع الدعم وجودهم آنذاك مع أول دخول للحدود .

غياب مفارز الانضباط العسكري التي يفترض وجودها للضبط والدلالة ، خاصة وإن الأرض التي سيدخلها اللواء هي جديدة بالنسبة له ، والموقف العسكري فيها يتغير في كل ساعة وأقل منها أحيانا .

كما إن القليل من العسكر الموجودين على الحدود كما يشير ضباط اللواء لا يملكون أية معلومات مفيدة لأغراض التنقل ، والمسير بشكل مقبول في ظروف الحرب ، الأمر الذي جعل أمر اللواء يذهب بنفسه إلى آمرية الانضباط العسكري أي الشرطة العسكرية (حسب التسمية السورية) داخل العاصمة دمشق ، ويلتقي ضابطا برتبة رائد كان موجودا في مقره قيل في حينه أنه رئيس أركان الشرطة العسكرية بين أي الرائد أن كل الأوامر التي لديه هي الذهاب المباشر إلى الجبهة .

إلا إن الرتل العسكري للواء ، وحال خروجه من شوارع دمشق المكتظة بالسابلة باتجاه الطريق الذي يربط دمشق . درعا تولت الشرطة العسكرية مهام السيطرة ، وتوجيه المسير حتى دخوله بلدة (أنخل) بعد منتصف الليل .

في بلدة أنخل حسم موضوع الدلالة ، وتحديد المهام بشكل غير مألوف ، أو بالمعنى الصحيح بالصدفة . إذ حضر إلى مقر اللواء المقدم وليد أحد آمري الأولوية السورية المدرعة مشيرا إلى أمر اللواء العراقي المذكور أن لواءه قد تكبد خسائر كبيرة ، ولم يتبق لديه سوى ستة مسرقات وإمكان اللواء العراقي احتلال نفس الموضع بدلا عنه وهو جاهز للدفاع ، وبمجيء أمر اللواء هذا واقترح احتلال الموضع الدفاعي الجاهز حسم موضوع التنقل على غير هدى في تلك الظروف غير المستقرة ، ولحين تأمين الاتصال بالقيادة السورية ، أو بقيادة الفرقة المدرعة الثالثة التي يفترض أن يكون لها تنسيق واتصال بالقيادة العليا السورية ، حتى أن أمر اللواء العراقي قد عد مجيء أمر اللواء

السوري في تلك الساعات الحرجة ضربة حظ عظيمة بالنسبة له جنبته حلول النهار وتعرضه صيدا سهلا لطائرات الإسرائيليين .

بعد ذلك اللقاء العرضي بين آمري اللوئين العراقي والسوري تحول جميع ضباط اللواء إلى منظومة إدلاء وسيطرة على السابلة ، وفي سباق محموم مع ساعات الليل القليلة المتبقية لإيصال أكبر عدد ممكن من دروع اللواء إلى أماكنها الدفاعية ، وفعلًا تم ذلك بنجاح قبل الضياء الأول حيث تمكن اللواء من تأمين انتشار القسم الأكبر من عجلاته القتالية المدرعة ، وقبله تمكن لواء المشاة الآلي الثامن من نشر آلياته في قرية (قيطرة) بينما لم يكتمل وصول اللواء المدرع السادس للفرقة إلا مساء يوم 15 تشرين .

المشاركة الفعلية في القتال

لقد قضى اللواء المدرع الثاني عشر ما تبقي من ليلته في قرية أنخل وفي الموضع الدفاعي للواء السوري المذكور ، وبعد أن أكمل انفتاحه التعبوي بشكل مقبول صدرت له الأوامر في أن يهجم بالساعة 1500 يوم الجمعة 12 تشرين برتلين :

الأول من اليمين جحفل معركة قتيبة ومقر اللواء لاحتلال تل المال .

الثاني من اليسار جحفل معركة المعتصم لاحتلال تل الشعار .

وحال شروع اللواء بالانفتاح للهجوم تم إخباره بشكل مستعجل أن العدو الإسرائيلي قام بالهجوم على المحور الرئيسي تجاه دمشق بأربعة ألوية مدرعة، عندها توقف اللواء عن التقدم وهو يواجه وكافة القطعات العراقية الأخرى أخرج المواقف ، خاصة وإن الاتصالات بين اللواء المذكور ومقر الفرقة من ناحية ، وبينه والقيادة السورية من ناحية أخرى لم تكن ميسورة في تلك الساعات الأمر الذي دفع أمره أن يبادر على مسؤوليته بتغيير خطة الهجوم التي شرع بتنفيذها ، والتحول فورا لاحتلال قوس دفاعي :

من دير العدس شمال شرق إلى كفر شمس ، ومن ثم عقربا غربا لصد التقدم الإسرائيلي جهد الإمكان .

وبعمله هذا أتم اللواء التماس بالإسرائيليين وأجبرهم على التوقف عن إدانة الهجوم ، وبذا يعد اللواء من وجهة النظر العسكرية قد حقق هدف إيقاف تقدم العدو ، وحال دون تنفيذ أهدافه في إسقاط دمشق ، أو التقرب منها لتكون ضمن مرمى الأسلحة الخفيفة ، والمتوسطة على أقل تقدير ، وكما كان مخطط له حسب الأوساط الإسرائيلية ، والأخرى المحايدة .

ومن ناحية أخرى يعد هذا الموقف من بين أكثر المواقف التي استثمرها الإعلام العراقي آنذاك وبشكل مكثف محاولا تكوين فكرة مفادها أن القيادة العراقية هي التي أحالت دون سقوط دمشق على أيدي الإسرائيليين ساعيا إلى إبقائها طافية على سطح الذاكرة العربية ، والعراقية إلى فترة غير محددة من الوقت.

وفي خضم تلك الملابس بين الدلالة ، وتحديد الواجبات كانت وحدة من القوات الخاصة العراقية بإمرة المقدم الركن نزار الخزرجي¹⁶، قد وصلت الأراضي السورية لتشارك هي الأخرى مع وحدات الدروع بواجب صد الهجوم المذكور بعد أن شكلت مفاوز دورية لا تزيد عن خمسة أفراد بقيادة ضابط مهمتها البحث ليلا على حافات التماس ، وعند اصطدامها بمأوى ، أو مكان اختباء وحدة مدرعة صغيرة للإسرائيليين تهاجمها بسرعة لإيقاع أكبر عدد ممكن من الخسائر إضافة إلى عملية الإزعاج المستمر لوحدات العدو سعيا للتأثير على المعنويات .

اكتمال الفيلق العراقي في ساحة المعركة

بعد أسبوعين من بدء الحرب أي في يوم 20 تشرين الثاني أكتمل وصول الفرقة الثالثة إلى جبهة القتال بسبب النقص الحاصل في ناقلات الدبابات كما منوه عنه في أعلاه ، وكذلك القصور في التطبيق العملي لمفردات التدريب الخاص بموضوع التنقل بمثل هذا الجهد الاستراتيجي للدولة ، والذي تسبب أن يأخذ في معظمه أسلوب الفرقة العشوائية أكثر من اتباع الصحيح لسياقات التنقل والحركة المستخدمة عادة في الجيش العراقي ، وفي الجيوش الأخرى .

بعد اكتمالها بدأت وحدات الفرقة المدرعة السادسة بالوصول تباعا بألويتها الثلاثين المدرع بإمرة المقدم الركن وليد محمود سيرت¹⁷، ولواء المشاة الآلي الخامس والعشرين، وأمره العقيد الركن طارق محمود شكري ثم ألوية أخرى

¹⁶. تدرج في مناصب القيادة من آمر فوج ثم آمر لواء وقائد فرقة وفيلق ، ومن ثم رئيس أركان الجيش ، ونقل إلى منصب مستشار في رئاسة الجمهورية بعد غزو الكويت مباشرة ، بعدها ترك العراق منشقا على النظام عام 1996 ، ليستقر في الدنمارك كلاجئ سياسي .

¹⁷. شغل منصب قائد فرقة المشاة السابعة ، ثم قائد الفيلق الأول ، وعضو قيادة فرع في حزب البعث بمكتبه العسكري ، وأعدم بعد انقلاب صدام حسين على البكر عام 1979 مع ضباط آخرين بتهمة التآمر مع سوريا لقلب نظام الحكم .

متفرقة مثل لواء المشاة العشرين من الفرقة الأولى ، ولواء المشاة الجبلي الخامس من الفرقة الرابعة بحيث أصبح للقوات العراقية قبل وقف إطلاق النار يوم 22 تشرين الثاني بحدود الفيلق مكون من فرقتين مدرعتين زائد فرقة مشاة، وهذا الحشد الكبير من القوات التي لم تتكبد خسائر كبيرة بالمقارنة مع الوحدات السورية عدا لواء المدرع 12 الذي حقق اشتباك بالعدو أكثر من مرة حتى خسر نصف دباباته ، أما الوحدات والتشكيلات الأخرى ما زالت تتمتع بقدرة قتالية مقبولة ، ودافعية جيدة في ظروف قتال صعبة كانت فيها خسائر السوريين على الأرض كبيرة جدا ، وكان فيها الجانب الإسرائيلي أكثر سيطرة بعد استخدامه صواريخ تاو ضد الدبابات بكثافة عالية ، وكان الإعلام العالمي يؤكد قيام الأمريكيان بإقامة جسر جوي بينهم ، وتل أبيب لنقل الدبابات المجهزة بالعتاد اللازم للقتال ، وكذلك الصواريخ المضادة للدبابات بالإضافة إلى مدهم بالاستخبارات اللازمة لإدامة المعركة ، يضاف إلى ذلك :

الارتباك الحاصل في موضوع القيادة ، والسيطرة في الجانب العربي حيث التنسيق الضعيف بين الجبهتين المصرية والسورية ، وبين القطعات السورية والعراقية في المحور السوري، واضطراب الدلالة وتدني مستويات عمل الاستخبارات التعبوية .

الهجوم المقابل ووقف إطلاق النار

رغم كثرة الأخطاء ، ومعالم الارتباك احتفظ الفيلق العراقي بوجه العموم بدافعية معقولة للقتال بالقياسات السائدة في تلك الأيام الحرجة ، وهذا شجع قيادة الأركان السورية ، وبالتنسيق مع القيادة العسكرية العراقية الموجودة بالقرب منها على التخطيط لشن هجوم مدرع على القطعات الإسرائيلية بقيادة الفرقة المدرعة الثالثة مضافا لها اللواء المدرع الأربعين الأردني¹⁸ في المنطقة

المواجهة التي قدرت استخبارات الفرقة بالتنسيق مع السوريين قوة الإسرائيليين فيها بلوامين مدرعين في حين أكدت مصادر أخرى لاحقا أن لدى الإسرائيليين في تلك المنطقة ، وإبان تلك الفترة بين 2. 4 ألوية مدرعة .

لقد جرى التخطيط للهجوم سريعا وبعد استكمال متطلبات تقدير الموقف أُنذرت ألوية الفرقة ، والوحدات الملحقة بها يوم 21 تشرين للتهيؤ إلى التنفيذ وحددت لها وقت الشروع بالساعة 0500 من اليوم الذي يلي أي 22 .

إلا أن الأمور على الساحة السياسية هي ليست كذلك على الساحة العسكرية رغم أن الحرب تدور رحاها على كلا الساحتين ، وكانت نتيجتها في الميدان السياسي قبول القيادة السورية وقف إطلاق النار أسوة بقبول مصر لها ، وإثر هذا القبول السريع أصدرت القيادة العليا أوامرها بالساعة 0100 من اليوم المحدد للهجوم أي قبل أربعة ساعات من بدئه بإلغاء الخطة ، وإيقاف أي عمل عسكري بالضد من الإسرائيليين .

كان قرار وقف إطلاق النار وعلى الرغم من إنقاذه القيادة العراقية من حرج المساهمة في خسارة محتملة بعد أن تغيرت مجريات الحرب سياسيا ، وعسكريا لصالح إسرائيل ، إلا إنها وتبعا للنوايا غير السلمية تجاه موضوع الحرب وطرفيها العرب ، والإسرائيليين فقد تصرف بروح الوثائق من النجاح وعقلية الضامن لنتائجه مسبقا في معركة ترى : أنها قد هيأت لها جيذا .

حسبت مستلزمات تفوقها على العدو في تلك الظروف .

18. * لم يشترك الجيش الأردني بالحرب من خلال حدوده الطويلة مع إسرائيل لاعتبارات خاصة يتعلق بعضها على الأغلب بمعايير التوازن العسكري التي ليست في صالحه ، وببلا عن ذلك أرسل لواء مدرعا لإسناد السوريين .

تأملت أن تزيج قطعاته خلف خطوط وقف إطلاق النار لعام 1967 .
وربما تصورت أنها يمكن أن تستثمر الفرصة للدخول إلى العمق الإسرائيلي .
أو قد يكون حلمت بالقيام بدور التحرير الذي لم تستطع كل الحكومات العربية القيام به
منذ ما يقارب الثلاثة عقود من الحروب والمحاولات كما تعلن في أدبياتها ووسائلها
للتثقيف ، والتوعية العامة.
وكعادتها حاولت استثمار كل التطورات لصالح نواياها بالضد من خصومها السوريين ذلك
العدو اللدود على الرغم من امتزاج الدماء الزكية لشهداء البلدين على أرض المعركة ،
ودون الالتفات إلى رغبة السوريين بالتهدة وطي الصفحة القديمة للانشقاق .
لقد بدأت فور الإعلان عن وقف إطلاق النار بخطوات إعلامية منظمة قوامها : إشعار
السوريين بالذنب ، والتقصير بسبب موافقتهم السياسية على وقف إطلاق النار.
إعلام الشارع العربي بأوجه ذلك القصور الذي يتمثل في معظمه بالحيلولة دون قيام
القوات العراقية بإكمال خطوات التحرير .

الانسحاب بنوايا الإحراج

إن القيادة العراقية لم تكن تضمّر للسورين نوايا حسنة ، ولم تكن مرتاحة لتحركهم السياسي الذي استقبلت نتيجته الموافقة على وقف إطلاق النار بانزعاج شديد اندفعت بسببه إلى إحراجهم في موضوع التفاوض المرتقب ، والفصل المفروض للقوات المتداخلة على خطوط القتال وقررت :

الانسحاب الفوري للفيلق العراقي من على جبهة القتال .
البدء بتنفيذ الأمر حال استلامه برقيا .

لقد عادت الحكومة العراقية بعد توقف القتال إلى أساليبها السابقة في المناورة واستثمار الفرص لصالحها ، وبالضد من خصومها إلى أبعد الحدود ، وعادت لتذكير الجمهور العربي بمسألة علمها بوقوع الحرب من خلال وسائل الإعلام، وعلمها كذلك بتوقفها بنفس الطريقة ، وبالتالي هي لا ترغب أن تكون حامية لاتفاقات السورين مع عدو العرب. وإعلانها الانسحاب لم تبق للسورين سوى العتب على سرعة اتخاذ أي قرار الانسحاب ، ولم تبق للنوايا مجالا لأن تكون حسنة بعد سوء دام عديد من السنين ، وبذا أعادت أوجه الصراع بين البلدين ، والجناحين المتناحرين في الحزب إلى سابق العهد دون الاكتراث بالشعارات التي رافقت حملة القتال لمعاونة الأخوة ، والوقوف معهم أوقات الشدة .

لكن الحكومة التي تعمدت إحراج السورين لم تكتف بالانسحاب من أرض المعركة في أيام كانت الأكثر قلقا بالنسبة لهم أي السورين ، بل وركزت في دعايتها المكثفة لانتقاد الموافقة على وقف إطلاق النار والتشكيك بها ، دون أن تتنازل عن حقها للاحتفال بالنصر الناجز ذو الصلة بالحيلولة دون سقوط دمشق فأعدت له إعدادا جيدا يتمثل بعضه :

استقبال القطعات العراقية العائدة استقبالا يليق بما أدته على الأرض العربية السورية حتى أمرتها بالتوقف عدة أيام في قاعدة الوليد الجوية للتهيؤ إلى إخراجه بشكل متقن .
القيام بالاستعراض أمام القصر الجمهوري بصيغة الفاتحين الذي ظهر فيه الرئيس أحمد حسن البكر ملوحا بيديه لتحية تلك القطعات معبرا عن تقديره لجهودها في الذود عن دمشق ، وحمايتها من السقوط بيد الإسرائيليين .

وكان ذلك اتجاهها ومادة للإعلام العراقي بقيت ملازمة له ولجهود التثقيف العقائدي طيلة الفترة ما بعد عام 1973 وحتى انتهاء حكم البكر ، وبداية حكم صدام ، والانتقال إلى حرب أخرى ، أو صفحة أخرى من الحروب شبه المستمرة كانت النيات في مجالها أكثر سوءا ، والتثقيف العقائدي أكثر حقا ، تلك التي حدثت مع إيران.

التهويل الإعلامي للمشاركة

كانت الحملة الإعلامية العراقية لإبراز دور الجيش العراقي في الحرب أي دور الحكومة فيها واسعا وفيه من التهويل ليس القليل حتى علق بعض القادة العسكريين العراقيين القريبين من الحكومة ووقائع الأحداث :
(إن الحكومة العراقية قد أعطت الجيش العراقي تصورا يفوق كثيرا الواقع الذي جرى على الأرض لأغراضها الخاصة) .

وكان هذا رأي يتطابق بحدود كبيرة مع رأي الأمرين العراقيين في الميدان أيضا حيث أكد معظم المطلعين منهم على وقائع الحرب أن الدور العملي لا يتعدى استخدام اللواء المدرع الثاني عشر ، وأقل منه اللواء المدرع السادس ، وأحيانا اللواء الآلي الثامن ، ودوريات القوات الخاصة في معارك محدودة . وهو كذلك رأي القريبين من العراق ، بينهم السوفيت الذين حاولوا الإشارة إليه بطريقة دبلوماسية على لسان المارشال كرشكو وزير الدفاع في أحد زيارته للعراق عام 1974 حينما علق في عرض مبالغ أمامه لدور الجيش العراقي في حرب تشرين بضرورة تنمية روح الانضباط في أداء القوات العراقية في الحرب في إشارة واضحة منه إلى ضرورة التقيد بالحقائق في كافة المجالات .

وتلك كانت مبالغة وإن أفادت الحزب ، والحكومة في تسجيل بعض النقاط في العقل العربي لكن آثارها السلبية على المعايير والقيم العسكرية العراقية كانت ليست قليلة إذ : مهدت لأن يتعلم البعض من الأمرين والقادة الميدانيين فن المبالغة والتهويل في ذكر الحقائق في القتال بمستوى أصبحت فيه خاصية يشير إليها الضباط العراقيين المهنيين في جلساتهم الخاصة ويبدون امتعاضهم منها .

لكن الحكومة من جانبها لا ترى في المبالغة إلا ما يؤمن غاياتها التي تسعى في مجالها أن يكون سرد الوقائع ، والأحداث غير الحقيقية بطريقة التهويل حقائق ينبغي ترسيخها في الذاكرة الحاضرة للأجيال العربية وبما يعزز وطنية البعث وعروبته الأصيلة ، على الرغم من إقرارها تحت ضغط التقارير العسكرية للمعارك بوجود أوجه للقصور سواء في عمليات التحشد ، أو في التنفيذ الفعلي لأوامر القتال لكنها ترى في المساهمة بالحرب ، والعرض المسرحي لنتائجها عمل يعود عليها بالنفع الشعبي داخليا ، وخارجيا ، وبذا يصبح التهويل ضروريا من وجهة نظرها حتى أنها لم تعلن عن الأخطاء صراحة واستعاضت عنها

بتشكيل لجنة سرية برئاسة الفريق الركن عدنان عبد الجليل معاون رئيس أركان الجيش
للتحقيق بشأن التقصير في الحرب ، واستمرت بذلك التهويل حتى بعد الإطلاع على قرار
اللجنة .

النوايا التي لم تغيرها الحرب

لقد توقفت الحرب وعادت القوات العراقية إلى ثكناتها في الأسبوع الأول من تشرين الثاني وبعودتها تبين للعراقيين الذي شاركوا فيها ، وغيرهم المستعدين للمشاركة بها :
أن نوايا وتقديرات الحكومة العراقية لفعل الحرب ، واتهامها المصريين ، والسوريين بالتقصير في أمورهم لم يكن صحيحا ، إذ أن الحرب لا يمكن كسبها بالبقاء في وضع الدفاع الذي كان سائدا قبل عام 1973 ، وإن تحريك حاله المستقر غير المناسب نفسيا ، وسياسيا قد يكون فيه الحق إلى جانب مصر ، وسوريا للقيام به على العكس من رأي القيادة العراقية التي لم تأخذ بالاعتبار في طرحه الوضع الجغرافي ، والسياسي ولم تأخذ في الحسبان أن جيشها يقاتل في تلك الحرب ، والحروب التي سبقتها على غير أرضه ، وبعيدا عن التهديد المباشر لمدنه ، وعاصمته .
. أن العراقيين كشعب ، بعيدين عن نوايا الحكومة ، قريين من مشاكل العرب ، قادرين على التفاعل معها ، مستعدين للمجازفة من أجلها .
. وتبين أيضا أنه وعلى الرغم من توقف الحرب وعودة القوات العراقية إلى أماكن تواجدتها السابقة إلا أن الإجابة على السؤال الخاص بإبلاغ العراق مسبقا بالحرب من عدمه لم يجب عنه أحد بشكل دقيق ، وإن أجاب الطرفان حسبما يضمنانه من نوايا لم تغيرها نتائج الحرب فإن المنطق العلمي يحتم القول أن إخبار العراق وإن تم بالفعل فإن أسبوع واحد لن يكف لاكتمال إستعدادات المشاركة بوزن الجيش العراقي ، تلك الاستعدادات التي أخذت عند السوريين ، والمصريين أكثر من سنتين مستمرتين .
. وتبين كذلك أن عديد من تفاصيل الحرب التي تتعلق بالإسرائيليين بحاجة إلى إعادة التمحيص خاصة ما يتعلق منها بالتقدير العام لقدرة الإسرائيليين ، والتهويل الحاصل بإمكاناتهم ، واستخباراتهم .
. والأهم من كل ذلك تبين أن العرب يمكن أن يؤدوا فعل الحرب ، والسياسة بكفاءة مقبولة إذا ما حسنت نواياهم وتوحدوا في الطريق إلى تحقيق أهدافهم .

الفصل الخامس معارك بين الرفاق

إن ما حصل ويحصل على الساحة العراقية يعطي تصورا دقيقا عن اتجاهات الحزب لذبح رفاق الدرب في حرب مستمرة وقائعا حيث سحق المئات بذات الطريقة التي سحق بها الأعداء ، وبأكثر بشاعة.

الحرب والسلوك الحزبي

لم تكن ماهية الفكر وحدها كافية بشكل حاسم لجذب الجمهور إلى اعتناق الأفكار ، ولم تكن المبادئ وحدها كافية لحثه تماما على القتال دفاعا عنها في ساحات المعارك ، رغم أهميتهما الكبيرة في التهيئة والاستعداد .

والتفسير الصحيح من الناحية النفسية لعملية الاعتناق والعراك هو أن الأفكار ، أو المبادئ المناسبة للفترة الزمنية المناسبة تستثير نوعا محددا من البشر لاعتناقها ، والاستجابة إليها بما يؤدي إلى تعزيزها سلوكا فيه نسبة ليست قليلة من الديمومة ، والثبات .

هذا وفي نفس الاتجاه لم تكن الأفكار ، والمبادئ وحدها كافية لصيانة وحدة الجماعة حكومة كانت أو حزب سياسي ، أو تجمع ثقافي من التصدع ، والانشقاق ، وحروب التصفية ، والمؤامرات إذ أن الواضح من الناحية النفسية تأثير الأنا ، والرغبات العارمة في الاعتداد بالرأي هي التي تدفع الفرد، والجماعة بإزاحة الغير ، والانفراد بالموقع ، وربما اللجوء إلى التصفية لتحقيق النوايا المبيتة .

لكن هذه الصورة تبدو واضحة في مجتمع ما وبين جماعة محددة ، وغير مؤثرة ، أو معتمدة في أخرى تبعا لمستوى التحضر الذي يساعد في كبح السلوك الفردي التأمري ، أو يترك له العنان مطلقا كما هو الحال في حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق الذي شهدت ساحته الداخلية ، والساحات المشتركة له مع الآخرين معارك ، وحروب طاحنة مع أفراد الرفاق في ساحته الداخلية ، ومع حلفاءه القريبين في الساحة المشتركة .

هذا وإذا ما أجريت مقارنة في هذا المجال مع غيره من الأحزاب :

اليسارية واليمينية ، القومية والمحلية في عدد الحروب التي شنت ، أو في عدد الضحايا التي نتجت من معاركها سواء من بين المنتسبين والمتحالفين ، أو من بين الأعداء التقليديين نجد أن النتيجة :

حروب لم يتوقف أوارها منذ استلام حزب البعث السلطة في العراق عام 1968 وحتى وقتنا الراهن .

آلاف الضحايا سفكت دمائهم ، وغيبوا عن الساحة ، ومثلهم قدموا قرايين لديمومة بقاءه في الحكم كل تلك السنين .

وهذه نتيجة مأساوية يتفرد بها العراق الحديث يمكن أن تعود أسبابها إلى عاملين مهمين : يتعلق الأول بالنهج الفكري الذي يمجّد الذات الفردية عند الحزب ، وغيره من معالم الثقافة الشعبية ، والسياسية في العراق ، والمنطقة .

ويتعلّق الثاني بطبيعة الأشخاص اللذين دخلوا الحزب ، وفي نفوس بعضهم ميل قوي إلى تأكيد مسألة الفردية منذ البدايات الأولى لتأسيسه في العراق على وجه التحديد هذه الساحة التي حكم فيها الحزب أكثر من مرة ، وبدء حربا من خلالها في الخفاء والعلن أكثر من مرة ، بنوايا وتوجهات يصعب رصدها ، أو حتى متابعتها في كثير من الأحيان ليس لأنه لا يعلن عنها ، بل ولأنه يمتلك في كل معركة من معاركه أكثر من نية يراد بها تحقيق أكثر من هدف قد لا يكون موجودا إلا في عقل الحاكم الفرد (الأمين العام للحزب) الذي توجه الحزب ومنذ بداية تأسيسه تعزيز وجوده صيغة ، أو أسلوبا للقيادة ، ومجالا لإدارة المعارك في الخفاء ، ومعاركه المقصودة لا تقتصر على الأعداء فحسب ، وإنما تشمل أيضا :

الرفاق من داخل الحزب ، إذا شعر الحزب ابتعادهم عن رؤياه وأساليبه ، أو كان البعض منهم عائقا أمام من ينوي القفز إلى الأمام من فوق رؤوسهم . وهذا ما حصل بالفعل على الساحة العراقية التي تعطي الأحداث التي تكررت فوقها تصورا دقيقا عن اتجاهات الحزب لذبح رفاق الدرب في حرب مستمرة وقائعا حتى وقتنا الراهن حيث سحق المئات بذات الطريقة التي سحق بها الأعداء بل وبأكثر بشاعة لما يحمله الرفاق في القيادة العليا من مشاعر عدوان تفوق التصور ، ورغبة عارمة في الانتقام لا يمكن تصديقها.

التهيؤ إلى مرحلة العنف

يصعب تحديد بداية واضحة المعالم ، شرع بها الحزب لإزاحة ، أو اغتيال ، أو تنحية أحد رفاقه بطريقة غير شرعية .

ويصعب الجزم بإمكانية تعميم ما جرى في العراق على فروع الحزب خارجه ، لأننا لا نملك من وقائعها ما يدعم فكرة التعميم .

لكنها في العراق كانت واضحة جدا ، وبدايتها كانت مع أمين سر قيادته في العراق ، ومؤسسه في هذا القطر فؤاد الركابي قبل عام 1963 .

حيث أمر ميشيل عفلق (تجاوزا على ضوابط الحزب ، ونظامه الداخلي) تنحية المذكور عن أمانة سر القطر .

تنصيب علي صالح السعدي بدلا عنه .

دون أن يستطيع أحد في وقتها تفسير خطوة المؤسس ، رغم أن تطور الأحداث اللاحقة يبين أنها كانت ضمن نوايا تهيئة الحزب إلى مرحلة العنف أي الحروب اللاحقة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ما يتسم به السعدي من خصائص تنسجم وذاك الاستنتاج مثل :

العدائية ، والميل للإيذاء .

التطرف في الرأي والميل إلى الفردية .

تلك الخصائص التي انعكست على واقع الحزب وأساليبه في التعامل مع الرفاق ، والأحزاب السياسية ، وباقي العراقيين لاحقا .

إذ وبعد قرار ميشيل عفلق أعلاه .

وبعد التخلص من عبد الكريم قاسم .

وذبح الشيوعيين عام 1963 .

بدأت فقااعات التنافس داخل الحزب ، واتجه الكبار في قياداته إلى حشد أسلحتهم بالضد من رفاقهم في الساحة الداخلية للحزب ، والدولة ، وكان الاختلاف بينا على كثير من الأمور أهمها :

تقاسم التركة والمنافع .

توزيع المناصب .

تصرفات الحزبيين في الحرس القومي¹⁹ غير المناسبة .
وغيرها أمور كانت كافية لشحذ الهمم باتجاه القتال بين الرفاق ، فانقسم العسكر وكبار الحزبيين في ساحته إلى عدة فرق جميعها تنوي التآمر ، واستخدام السلاح ، ولو بفروق نسبية ، وكانت فرق على وجه التقريب أطرافها ضباط بعثيين مهنيين (بحدود معقولة) توجهوا مع عبد السلام عارف رئيس الجمهورية غير البعثي ضد رفاقهم المناضلين، وأسهموا في تغيير حكمهم البعثي ، وإلقاء رفاقهم في السجون يوم 18 تشرين الثاني 1963. وخليط من الضباط الكبار ، والسياسيين القيايين توجهوا صوب الحرس القومي، في محاولة لإخراجه من توازن السلطة ، والتخلص من كافة سلبياته. مع قياديين في الكادر الوسط بقوا متفرجين بانتظار استثمار الفوز . وآخرين اصطفوا مع الحرس القومي ركن مهم لحماية الحزب والثورة. لكن المشير عبد السلام محمد عارف رئيس الجمهورية غير البعثي الأكثر خبرة في إدارة الحكم ، استثمر الفرصة المتاحة ، وتعكز على الفريق الأقرب إليه (اللواء طاهر يحيى عضو القيادة القطرية رئيس أركان الجيش ، واللواء الطيار الركن حردان عبد الغفار التكريتي عضو القيادة القطرية قائد القوة الجوية²⁰ وآخرين) وعلى الضباط المستقلين ، والقوميين في تنفيذ حركته لإزاحة الحزب عن السلطة التي كان دوره فيها محدودا .

كانت معركة بين الرفاق ، والرفاق داخل مؤسسات الدولة التي يحكمها الحزب، نتيجتها خسارة الحزب حكم العراق. ثم وسمه حزبا فاشيا، وتدني سمعته بمستويات كبيرة في المجتمع العراقي. كذلك إيداع كبار رفاقه السجن، ومن بعدها حدوث أول انشقاق واسع النطاق بين صفوفه عام 1966 .

¹⁹ . تنظيم على شكل مليشيا عسكرية تأسس بعد انقلاب البعثيين في 8 شباط 1963 يضم في صفوفه غالبية الحزبيين البعثيين ، ومؤيديهم ، ومستقلين انتهازيين ، أخذ على عاتقه مهام الأمن الداخلي ، والسيطرة على الشارع العراقي ، وعرف باستخدامه العنف والتجاوز على القانون والأعراف .

²⁰ . تناقل البعض من بعثي الجيل الأول أنهم قد شاهدوا صدام حسين يوم 18 تشرين على متن إحدى الدبابات التي أغارت على المقر الرئيسي للحرس القومي في الأعظمية، ومشاهدتهم هذه دفعتهم إلى وضعه ضمن الفريق الأول، لكن هذا أمر غير وارد لأن صدام يومها لم يحصل على عائد من ذلك الانقلاب ، ولم يكن في مستوى قيادي يؤهله أن يلعب دورا حاسما فيه ، مما يرجح احتمال انضمامه إلى الفريق الثاني ، أو قيامه بمبادرة خارج تلك الأطراف يتمكن من خلالها استثمار الفراغ الحاصل في السلطة أملا في الخروج بصيغة يكون له بواسطتها مكان في الصفوف الأولى من القيادة العليا.

اتجاهات التكتل في الميدان

لقد اختلف الرفاق في كل المستويات حول أسباب الفشل في السيطرة على الحكم ، وكذلك حول السبل التي ينبغي اتباعها لإعادة نشاط الحزب ، اختلاف حاد أدى إلى حدوث انشقاق خرجت عنه قيادتين ، أي كتلتين أقرب إلى التعادل في كفتيها . عدت الأولى نفسها ذات مناحي يسارية تبعت سوريا في تمرد لها على القائد المؤسس ميشيل عفلق .

وحسبت الثانية وجودها الشرعية الأساسية للحزب تحت راية مؤسسه ميشيل عفلق ، وحسبها المتابعون من ذات اليمين .

دخلت الكتلتان في صراع مرير ، وشكلت الثانية تنظيماً خاصاً لمتابعة خصومها في الكتلة الأولى من بين المعروفين بالعدوانية ، والخبراء بارتكاب الجرائم المنظمة ، وخططت لتصفية من يقف في طريقها ، فكانت الأوفر حظاً في كسب المعركة على الحكم في العراق بالمقارنة مع تلك الكتلة اليسارية التي جمعت المحتجين على أخطاء الحكم السابق ، والمؤمنين أكثر من غيرهم بالتعايش مع القوى السياسية الأخرى ، والميلين إلى المجاهرة بالرأي ، وعدم إخفاء النوايا (بحسب طروحاتهم أثناء تلك الفترة الزمنية) .

وبسبب مبادئهم المذكورة حاولوا التأسيس عليها عوامل مثالية في معركتهم القائمة مع خصمهم البعثي في ميدان الانشقاق فخسروا المعركة وبقوا على حافات ساحتها متفرجين حتى فوجئوا أن الجناح المقابل لهم ، وعلى الرغم من عدم وجود قاعدة له مثل قاعدتهم في سوريا قد كسب الجولة ، وبتفوق أذهلهم يوم أعلن بيانه الأول لتغيير نظام عبد الرحمن عارف يوم 17 تموز 1968 ، عندها لم يجدوا تفسيراً لذلك التفوق الذي أوصل اليمين بقيادة أحمد حسن البكر إلى الحكم إلا الجزم بالدعم الغربي .

مجزرة اليسار

لقد بقي اليسار مذهولاً لا يقوى على المناورة في ساحة معركة تفوق فيها الخصم تماماً ، وامتلك كل زمام المبادأة ، فبقي في حالة أقرب إلى السكون بسبب عدم قدرته على إدامة زخم المنازلة ، وفضل قاداته التخندق في مواضع تحت الأرض ، لكنهم لم يدركوا أن رفاق الأمس يعرفون تلك الخنادق التي سبق وإن شاركوهم الاختباء بها ، ويعرفون ذات

الوسائل والأساليب ، فكانت المعركة الأولى بعد عام 1968 موجهة بالضد منهم قبل الشيوعيين الأعداء التقليديين للبعث الاشتراكي ، وتناخى الرفاق لإلقاء القبض على الرفاق ، وزجهم في السجون ، وفتحت لحسابهم هيئتين تحقيقيتين في قصر النهاية فيها أكفأ الرفاق خبرة بالقتل ، وأكثرهم التزاما بمبادئ الحزب في التعامل مع الخصوم . واستمرت المعركة تصفية هادئة دون ضجيج اعتقادا من أصحابها ضرورة عدم إثارة الجمهور العراقي ، والثورة ما زالت بيضاء كما هو الشعار الذي رفع في الأيام الأولى للانقلاب .

وتأسيسا على ذلك الاعتقاد سقط البعض ميتا أثناء التحقيق من شدة التعذيب ، أو نتيجة لجزع القائمين به²¹.

واستمرت المعارك مع الرفاق الذين أدرك غالبيتهم أن من يقابلهم في ساحة المعركة مسنود بأسلحة لا يقوى جناحهم ، وإن تحالف مع كل الحركات والأحزاب على مقاومتها ، أو التخفيف من قوة الزخم التي جاء بها قاطرة مسرعة من اتجاه الغرب كما كانوا يقولون ، ويدراكمهم هذه الحقيقة توزعوا إلى جماعات تبعا لخصائصهم : فمنهم من أعترف بما عنده في الكامل ، وسلم الخصم كل مستلزمات الصمود في ساحة الكفاح من أجل إعادة بعث الأمة ، وهجر القتال والسياسة ، ليكتف بالفرجة عما يجري في الساحة وخارجها من بعيد .

²¹ نقل أحد الضباط من أعضاء الهيئة التحقيقية الأولى ما زال على قيد الحياة أنهم وفي أحد الليالي جالسين يحققون مع ضابط بعثي من المنشقين أي اليسار كان في السابق عضوا في نفس الخلية الحزبية لناظم كزار قبل الانشقاق ، وقد عذب هذا الضابط من جميع أعضاء الهيئة حتى فقد الوعي دون أن يعترف عمن معه في النشاط الحزبي داخل القوات المسلحة ، ومع كل حالة فقدان وعي يترك قليلا ليسكب عليه الماء بهدف إعادة الوعي إليه ومن بعدها تعاد الكرة ثانية ، وثالثة حتى أمر ناظم كزار تعليق في حبل مثبت بعتلة أعلى سقف الغرفة على أن تكون يديه مربوطة بالحبل من الخلف ، وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشر منتصف الليل ، وكان قد أمر قبلها أي ناظم بعشاء يجلب سمكا مسقوفا من أبي نؤاس ، وبحدود تلك الساعة أدخل المراسل السمكة التي يزيد طولها على النصف متر ، وبينما هو محتار أين يضعها والطاولة الوحيدة مليئة بالأوراق وأدوات التعذيب ، نظر إليه ناظم كزار مستهزئا وقد سحب مسدسه ، وأطلق إطلاقتين على الحبل المربوط به الضابط ، وثالثة على رأسه بعد أن سقط على الأرض ليتمدد أمامهم جثة تنزف دما وقد تهشمت جمجمته ، فأداره على بطنه قائلا باللهجة العراقية (خلي صينيتك عليه لأن ماكومنه فايده) أي ضع الإناء الذي فيه السمكة على ظهره لأن بقاءه حيا لا فائدة ترجى منه. ودعا الرفاق الحاضرين إلى تناول وجبة العشاء لينعموا جميعا بوجبة شهية بعد أن أضناهم التعب من إجبار أحد رفاقهم السابقين على الاعتراف لأمر قد لا يكون موجودا في الأصل.

ومن حزم أمره وتقرب من رفاق الأمس طالبا الغفران ، ومبديا ولاء الطاعة سعيا للعيش الرغيد .

ومنهم من غادر العراق مدركا عدم جدوى استمرار القتال مع خصم يتفوق بنسب تزيد كثيرا عن القياسات الاعتيادية لديمومة القتال ، ومؤمنا أن المهادنة وحدها لا تكف ضمانا لأمنه من غدر الرفاق الذين يغرقون تماما في العدوان والانتقام ، فسارع إلى الخارج بنصيحة قدمت له من رفاقه القدامى الذين ما يزالون في الجناح الحاكم يحتفظون ببعض معايير الرفقة القديمة . وبينهم من شوهدت سمعته وصفي في وضوح النهار باتهامات أخلاقية بشعة وغير منطقية كما حصل إلى العميد الركن عبد الكريم مصطفى نصرت وآخرين . ومن اغتيل بين جدران السجن غدرا كما هو حال الرفيق الأول فؤاد الركابي . ومنهم من التهمته الطرقات الخارجية بين بغداد ، والمحافظات في حوادث سير مجهولة وهم ليسوا قليلين.

المعركة في الداخل

بعد أن أنهى الجناح الحاكم (اليميني) جولته مع رفاق الأمس المنشقين عنه بكفاءة عالية وبتفوق ساحق ، نقل بعدها المعركة إلى داخل مواضعه لاستئصال الرفاق الذين : يعتقد أنهم قد يكونوا يوما بالضد من توجهات قيادته .

الميلين على الانتقاد داخل الاجتماعات الحزبية ، وخارجها في الجلسات الخاصة . وكانت معركته هذه المرة مثل كل مرة تعتمد النوايا دون أية أدلة أو مسوغات ، ولا تختلف من حيث الوسائل المستخدمة ، والأساليب المتبعة في التنفيذ :

اغتيالا للقياديين والكوادر ، وأسلم الاغتيالات تلك التي تنفذ بطريقة الحوادث الخاصة بالسيارات المارة على الطريق العام ، وكان ضحيتها الأول من بين القياديين المعروفين بعد استلام الحزب للحكم عضو القيادة القطرية عبد الوهاب كريم الذي دفع حياته ثمنا لكسبه أصواتا في انتخابات عقدت بعد الانقلاب عام 1968 قيل في حينها كانت أكثر عددا من تلك التي حصل عليها صدام ، الأمر الذي يعني احتلاله موقعا يحول دون وصول صدام إليه ، فكان عليه أن يختفي على الرغم من الاتفاق على قدراته التنظيمية ، والثقافية التي تعد ضرورية للحزب في تلك الفترة الزمنية .

وبعد فترة من مقتله في حادث تصادم سيارته مع سيارة حمل كبيرة على طريق بغداد الحلة قرب مدينة الحصوة ، وجد حبيب كريم وعلي عجام من قيادي الحزب في الفرات الأوسط مقتولين أيضا بسبب خلل في سيارتهما الحديثة على نفس الطريق ، وقد نعاهم الحزب رفقا من خيرة الرفاق ، ومناضلين من الطراز الأول وأعد الفريق الركن صالح مهدي عماش قصيدة لثناء الأول دون أن يعلم أن مصيره قد تحدد في الصفحة الثانية للمعركة الدائرة ، وبطريقة أكثر تطورا ، وأقل احتمالا للتعرف من الآخرين .

إذ وبعد أن أزيح البعض من قيادي الخط الأول المعروفين بجديتهم ، أو بعدم طائفيتهم تطلبت المعركة وأصول إدارتها أن يختفي هذه المرة الجيل الأول من المساهمين في الانقلاب وكذلك الذين يملكون الأهم من المعلومات والأسرار ليفسح المجال أمام جيل آخر ليتحمل المسؤولية ، واستمرت عجلة التقتيل بالدوران في الساحة الداخلية لتطال هذه المرة إضافة إلى صالح مهدي عماش نائب رئيس الجمهورية عبد الكريم الشихلي وزير الخارجية ، لكن السلاح المستخدم في المعركة المستمرة هذه المرة لم يكن الاغتيال بالسيارة ، أو الاتهام بالتآمر ، أو الإنهاء بجرعة الثاليوم ، بل وبصفحتين :

كانت الأولى إبعادا مؤقتا عن ساحة الحكم ، ومفاصل إصدار القرار إذ كلف الأول بمهام السفير في فنلندا ثم الاتحاد السوفيتي ، وكلف الثاني بأن يكون ممثل العراق الدائم في الأمم المتحدة .

وكانت الثانية جرعة سم للأول في قدح من العصير المخصص للقياديين في مقابلة مع صدام ، والموت فجأة بسبب قصور مفاجئ بوظائف القلب بعد فترة قليلة من انتهاء المقابلة .

ومات الثاني اغتيالا في أحد شوارع الأعظمية ببغداد أمام عديد من العراقيين .

صراع الأجنحة غير المعلن

إن النيران الموجهة إلى صدور الرفاق في الحرب الداخلية لم تهدأ منذ العام 1968 إلا فترات قليلة جدا كانت تحشد فيها الأسلحة لمعارك أخرى جانبية تقتضيها المصلحة العليا للحزب بالضد من القوميين ، أو الشيوعيين ، وسرعان ما عادت إلى ذات النشاط قتال ضار ضد الرفاق حال تفرغهم من تلك المعارك الجانبية . لتدار هذه المرة صراعا مغلفا بين جانبيين ، أو جناحين داخل الحزب غير معلنين :
مثل الأول أحمد حسن البكر ، ومجموعة أقاربه ، والمحسويين عليه .
ومثل الثاني صدام حسين ، وعائلته ، وعشيرته ، والمقربين منه .
وكان السلوك الظاهر لجناح البكر ومجموعته لم تكن تتسم بالميل إلى العنف بذات الطريقة التي يستخدمها الجناح المقابل ، ثم إن الأول ومن معه لم يبدءوا التخطيط لمعاركها كما خططت له المجموعة الأخرى عندما سعت للاستفراد بالأجهزة الأمنية في عملية ذكية لم يدركها الجناح الأول الذي تغاضى عن كثير من أعمال ، وتجاوزان الثاني لحسابات الطائفية ، والمصالح الذاتية داخل الحكومة ، والحزب .
هذا بالإضافة إلى الاختلاف بين الجناحين في شكل النوايا المستقبلية :
التي لم تكن عند البكر غير الاستفادة من صدام طاقة لتعزيز وضعه شخصيا ، واستقرار الحزب بالدرجة الثانية .
بينما كانت عند الثاني إزاحة البكر ، والسيطرة على الحزب ليكون قاعدة لتفرده بالحكم ، وهذه نوايا تتطلب معاركها :
حشد الجهد اللازم في كافة المجالات لرصد ومتابعة الطرف المقابل ، وتضييق دائرة تحركه جهد الإمكان²².
الإمعان في التخطيط ، والتكتم على النوايا إلا في عقل الذي يتابع خطواتها المتتالية لتأمين الغاية بعيدة المدى .

²² استثمر صدام مسؤوليته عن مكتب العلاقات العامة (المخابرات) في بداية الانقلاب ليعمل حثيثا في تطويق البكر، بطرق شتى بينها التضليل بالمعلومات التي تدفع البكر إلى اتخاذ قرار إبعاد المستهدفين ، وفي نفس الوقت يقدم بدلا عنهم المؤتمنين من جانبه بطريقة لا تثير الشبهة ، كما أنه سعى إلى تطويق البكر عائليا بالمصاهرة وتوثيق العلاقات .

لكن النوايا غير الحسنة ، والميل إلى التكتل ، والانتقام في المعارك المستمرة داخل الجهاز الحزبي لم تقتصر على صدام والبكر ، أو بمعنى آخر أن التناقضات الحاصلة فيما بينهما قد أنتجت نوايا عند أطراف أخرى كانت الأشد خطرا على كلا الطرفين ، وكانت هذه المرة عند اللواء ناظم كزار مدير الأمن العام الذي يعد أول من بادر بإدخال فن الاغتيال بالسموم وأحواض السيانيد ، والتعذيب بالوسائل الفنية المتطورة آليا إلى العراق .

تمرد الأقوياء

كان ناظم كزار مع صدام حسين ، وسعدون شاكر أعضاء في الجهاز الأمني للحزب قبل الانقلاب ، وهم من تولوا إدارة أجهزة الدولة الأمنية بعد استلام السلطة ، إذ وبالإضافة إلى ناظم كزار للأمن العامة استلم سعدون مكتب العلاقات الذي تغير أسمه إلى المخابرات العامة لاحقاً وإشراف مباشر من صدام تلك الميزة التي هيئت له أي صدام استخدام وسائل الاتهام ، والاغتيال كصبيغ أمثل في المعركة الدائرة ضد الرفاق (كما مبين في أعلاه) .

كان الثلاثة منسجمين في إدارة المعركة المذكورة بدء من تنسيق الأدوار داخل قصر النهاية ، وانتهاء في توزيع المهام في مجلس أمن الدولة .

وكان ناظم الأكثر انسجاماً مع دوره في التنفيذ القسري ، وسعدون في التنفيذ غير المباشر ، وكان لصدام دور التخطيط ، والمباركة ، والغطاء الإداري للعمليات التي تنفذ داخل العراق ، وخارجه .

لكن الأمر قد تطور فجأة صيف عام 1973 وأعلن في العراق أن مؤامرة قادها ناظم كزار ، وضباط من الأمن العامة استهدفت قلب نظام الحكم ، وكانت المفاجأة كون المؤامرة من داخل الحزب ، ومن أحد أهم أجهزته ، وأكثر الأشخاص ، وثوقاً به في حماية أمن النظام ، وأعلن السيناريو على الملأ عن طريق وسائل الإعلام مفاده :

استضاف ناظم كزار على دعوة غداء كل من الفريق حماد شهاب وزير الدفاع والفريق سعدون غيدان وزير الداخلية ، والعقيد الركن عدنان شهاب عضو المكتب العسكري آمر لواء الحرس الجمهوري ، وآخرين مهمين واحتجزهم في أحد مقرات الأمن داخل بغداد الرصافة ، وأرسل جماعة من العاملين بالأمن بإمرة ضابط إلى مطار بغداد لاغتيال البكر ، ومن معه من المستقبلين حال نزوله من الطائرة العائدة من الخارج .

لكن الحظ كما أشير في حينها قد تدخل ، وتأخرت طائرة البكر لأمر يجهله المستقبلين والمنفذين ، وأعتقد المنفذون أن أمرهما قد انكشف ، وبسبب عدم وجود وسائل اتصال أمينة بين مجموعة الاغتيال ، والقائد الميداني للمعركة مدير الأمن العام اضطرب الموقف ، وترك المعنيون الساحة بمجرد انسحاب المستقبلين .

وبانسحابهم ترك ناظم ، ومن معه ، والرهائن المحتجزين بغداد ، وتوجه صوب الحدود العراقية الإيرانية معلنا أن له مطالب تتعلق :
بتقويم انحراف الحكم .

تعديل هيكلية الحزب التي بدأت الصيغ فيها تتجه إلى العشائرية ، والمحسوبية . ضرورة إنهاء القتال في شمال العراق .

إن النظر إلى المطالب أعلاه يعطي تصورا أنها قد أعدت على عجل ، وفي حال من اليأس ، يعي صاحبها أن رفاقه لم يستجيبوا يوما للمطالب ، وإنهم مستعدين بالتضحية بمن معه قربانا إلى كرسي الرئاسة الذي بقي سالما في بغداد ، وبذا لم يجد خيارا سوى المضي بالمسير إلى خط الحدود آملا الدخول إلى إيران التي كانت في أعلى درجات التوتر مع بغداد ، لكن الوقت والنوايا لم يسعفانه لأن قيادة الحزب من الرفاق السابقين قد استعدوا للمعركة وقبول نتائجها ، وإن كانوا ذات المخطوفين الذين أثبتت الوقائع لا حقا أنهم جميعا كانوا من بين المطلوب تنحياتهم جانبا كونهم محسوبين على البكر ، وكانت فرصة جيدة لأن يزاحوا بطريقة الاستشهاد .

وعموما أسفرت هذه المعركة عن مقتل الفريق حماد شهاب وزير الدفاع ، وجرح الفريق سعدون غيدان وزير الداخلية ، واسر ناظم كزار وبعض ضباطه ليقتلوا جميعا في أول حفل للقتل الجماعي دشنه الرفاق لرفاقهم البعثيين .

رغم إن العديد من اللذين أعدموا في تلك الصفحة من المعركة من ضباط الأمن قد نفذوا الأوامر دون أن يعوا ماهيتها في آلية عمل معقدة أوجدها ناظم كزار في الأمن العامة تتأسس على التنفيذ الفوري للأوامر دون التطرق إلى التفاصيل.

انتهت معركة ناظم كزار ميدانيا في نفس اليوم ، وبقيت آثارها ماثلة في الجسد البعثي بعدما أثارت عديدا من علامات الاستفهام حول طريقة تنفيذها وما آلت إليه من نتائج ، وكذلك كثير من التفسيرات من أهمها :

هناك تفسير أعقب حدوث المعركة بعدة أشهر لا يؤيد أصحابه فكرة قيام ناظم كزار بهذه المؤامرة أي المعركة لحسابه ، بل ويرجحون البعض فكرة أن ما جرى يصب في ذات الاتجاه الخاص بالمعارك الدائرة ضد الرفاق ، وإن الفعل الذي قام به المذكور يتمثل في إزاحة البكر لصالح الجناح المقابل (الراديكالي) الذي يمثله صدام وناظم وآخرين . وإن

تأخير البكر صدفه قد أربك الموقف وتسبب في أن يتوجه المعني لقتل حماد شهاب المحسوب على جناح البكر .

وأصحاب التفسير هذا يدعمون وجهة نظرهم على افتراض أن التحقيق مع ناظم اقتصر على صدام الذي أكد بأن يجلب المذكور أمامه شخصيا دون أن يتكلم معه أحد من المهاجمين ، وذن السماح له بالكلام ، وجرى التحقيق معه في مقر صدام ، وأعدم في نفس الوقت وبذات المكان .

وهناك تفسير آخر يتأسس على أن ناظم كزار قد أدرك بعد عام 1970 توجهها غير معلن للبكر ، وصدام بتكررة الحزب ، والجيش ، وكذلك الأجهزة الأمنية ، ومؤسسات ودوائر الدولة المهمة ، وما محاولته هذه إلا سعي منه لتصحيح مسيرة الحزب من وجهة نظره الخاصة .

ويدعمون أصحاب هذا التفسير تفسيرهم بقول كان يردده ناظم كزار في حالات غضبه :

(أن الأمور في العراق ستتصلح ، وإن الحال سوف لن يبقى هكذا)

كذلك يؤكدون أنه قد تطرق أكثر من مرة للمقررين إليه :

(إن الحزب بات تكرتيا وهذا غير مقبول)

ثم ومن ناحية أخرى أن غالبية المخطوفين من قبله هم من التكررة ، عدا سعدون غيدان.

على وجه العموم كان بإعدام ناظم ومجموعته قد أسدل الستار على طبيعة هذه المعركة، والنوايا الفعلية لناظم كزار الذي طرح مطالبا لا تنسجم وطبيعة شخصيته المعروفة بالثبات ، والقدرة العالية على تحمل الصعاب .

هدنة بين الرفاق

بعد عام 1973 كانت نذر الحرب مع إيران الشاه بادية للعيان ، وكان الموقف في الشمال مع الكورد يزداد تأزما ، وكانت هناك مشاكل مع شركات النفط حول التأمين ، وجميعها أسباب هدأت قليلا من المعارك الداخلية للحزب ، أو بالأصح أجلتها إلى حين حسم المعارك الخارجية ، أو ربما وحدث جهد الرفاق تجاه عدو خارجي نتج عنه الحصول على هدنة حتمية مؤقتة بين المتحاربين في الخفاء ، وهذه حقيقة تؤيدها إشارات كان قد نوه عنها مفوض الأمن أمجد كريم في فصيل أمن القصر الجمهوري الذي كان أمره برزان التكريتي منتصف السبعينات حين قال في جلسة خاصة :

(أنهم يستعدون لتغيير كبير ومفاجئ في القصر وهم أي منتسبي أمن القصر يتحركون على ضوء هذا الاتجاه ، وإن الأمر خلال أيام سيكون قنبلة للموسم لن يتوقعها أحد من البعثيين ، ونوه بشكل غير مباشر عن أن الموضوع ذو صلة بصدام الذي سيكون فيه نجما، مؤكدا أن بعض الممارسات السرية جدا تتعلق بالموضوع تم الانتهاء منها) . وبعد مرور عدة أيام من ذلك القول جاء نفس الشخص . الذي قتل لاحقا في أهوار الجنوب . مؤكدا أن الموضوع تأجل إلى إشعار آخر ، ويبدو أن من بين أسباب التأجيل تلك التي تتعلق بالوضع الخارجي غير المستقر .

إن الحرب ضد الرفاق لم تنته ، إذ ومع بدايات عام 1976 بدأ جناح الحزب في العراق يشعر بالقوة بعد تحقيقه خطوات :

التخلص من الضغط الإيراني على المستوى الخارجي .
إنهاء التحرك الكوردي على المستوى الداخلي .

تحسين مستوى المعيشة بالاستفادة من ارتفاع عائدات النفط .
التوجه لشراء الأسلحة وتقوية الجيش ، وإكمال خطته في عسكرة المجتمع بالاعتماد على الفائض في النقد الأجنبي .

وتلك كانت عواملا هدأت من اندفاع الرفاق للانتقام من رفاقهم القريبين في هدنة مؤقتة ، لكنها دفعتهم هذه المرة باتجاه الحدود .

التوجه إلى الرفاق خارج الحدود

كانت خطوات التحول المذكورة قد أشعرت قيادة الحزب بالقوة المفرطة ، ودفعتها هذه المرة إلى محاولة فتح جبهة للحرب ضد الرفاق الذين عدّهم خارجين على مبادئ الحزب وخائنين لأهداف الأمة خارج حدود العراق (السوريين) بعد تصفية مؤيديهم داخل الحدود .

ولإدارة الحرب معهم تم التوجه لاتباع عديد من الخطوات منها :
حشد عدة فرق مدرعة على محور بغداد الرمادي أبو الشامات وتهيئتها لعمل عسكري محتمل .

تعزيز قاعدة الوليد الجوية في (H3) بأسراب من الطائرات المقاتلة والقاصفة الأكثر حداثة في القوة الجوية العراقية .

هذا وبهدف تهيئة هذا الجهد واستثماره بالضد من الخصم عملت عام 1977 على استنفاره بصيغة تمرين واسع تجاه الحدود السورية من هذا المحور ، ومن محور ثان في نقطة الحدود العراقية السورية التركية شمال العراق أطلق عليه تسمية عملية البعث ، وكانت القطعات المشتركة قد انفتحت انفتاح المعركة ، وتزودت بعناد الخط الأول ، والثاني وتقدمت باتجاه الحدود في خطوة غير مسبوقة توقفت عند حافات الحدود بقليل.

وبدأت مع توقفها الاستنتاجات من قبل البعثيين وغير البعثيين وفي غالبيتها تؤكد :

أن هذا التمرين نوايا حرب ضد السوريين لم تستكمل صفحتها الأخيرة .
أو إنها صيغت هكذا لأغراض الضغط على دمشق ، أو لتعبير رسالة لها عن قوة الجناح العراقي للحزب في ظروف شهدت تبادل للتفجيرات بين دمشق وبغداد . خاصة وإن طبيعة التمرين تجاوز فيها الجيش العراقي قياسات التدريب الإجمالي التقليدية التي تصل في أحسن الأحوال في تلك الفترة الزمنية مستوى جحفل لواء في حين شهد التمرين حشدا لما يزيد عن فرقتين مدرعتين معززة بأخرى من باقي الصنوف متلازما مع حملة إعلامية مكثفة للسب والشتم على السوريين .

أو قد يكون محاولة لافتيال موقف مع السوريين يسحبهم إلى الصدام المسلح والدخول في معركة ينتقل منها الجيش العراقي من حالة التمرين العام إلى وضع القتال ، ومن خلفه

القواعد الجوية في المنطقة المهيأة لتقديم الدعم والإسناد . لأن فعل القيادة هذا تزامن مع وضع داخلي سوري ملائم لذلك إثر قيام الأخوان المسلمين المدعومين من العراق آنذاك بإثارة بعض الاضطرابات وكونوا وضعاً غير مستقراً قد يتيح الفرصة للجيش العراقي المنفتح قرب الحدود إلى التدخل تلبية لطلب من الداخل لتغيير حكم حافظ الأسد بأمين الحافظ الموجود في العراق بعد انقلاب عام 1968.

المعركة على الساحة اللبنانية

إن المعارك بين جناحي الحزب تطورت كثيراً في السبعينات ، وزاد الأمر سوءاً خسارة الجناح العراقي المعركة الدائرة على الساحة اللبنانية ، والتي بسببها حزم عفلق أمتعته وعاد ليستقر في بغداد لحصول تفوق في معركة الخارج لصالح الجناح السوري ، وكذلك فعل عضو القيادة القومية مجيد الرفاعي ليلتحق بالركب في بغداد تاركاً ساحة المعركة السياسية في لبنان لغيره من المستويات الدنيا في التنظيم الحزبي المدفوعين بدوافع العداء التقليدي للسوريين ، واقفلت بعض الصحف والمجلات التي كانت مسخرة للجانب الإعلامي ، والنفسي من المعركة التي اتخذت من لبنان ساحة لها ، وتحولت جهود الحزب والحكومة في العراق إلى اللعب بأوراق الحرب الأهلية اللبنانية ليس لصالح الطرف الأكثر التزاماً بقضايا لبنان العربية ، وإنما انطلاقاً لما يحققه من ضغط ، وتأثير مباشر على السوريين الذين احتلوا الموقع الأول في التأثير على مجريات الصراع في لبنان . وبدأ الجناح العراقي :

يحشد جهده لتأييد أحمد الخطيب الذي قاد انقلاباً على السلطة الشرعية تارة . ويدعم بعض التنظيمات المحلية ذات الصلة المباشرة بإسرائيل تارة أخرى . ويناور على الدروز عندما تسنح الفرصة تارة ثالثة .

وهكذا سعي دائب للتفتيش عن نقاط تزيد من حدة الصراع داخل المجتمع اللبناني ، وعن حاجة يقدمها لأطراف النزاع تدفع إلى الانتقام من السوريين وتحدي تفوقهم في ساحة المعركة الدائرة بين الجناحين على الأرض اللبنانية . وعموماً أسفرت المعركة عن خسارة الجناح العراقي بشكل كبير ليحجم دوره السياسي ، والعسكري ويتحول إلى عمل مخابرات أستنزف ملايين الدولارات دون أن يحقق ولو توازناً بسيطاً مع الطرف المقابل له في المعركة المستمرة على تلك الأرض العربية غير القريبة من العراق .

مذبحة في قاعة الخلد

إن الحرب بالضد من الرفاق السوريين لم تنته بمجرد حسم التفوق في ساحة لبنان ، بل واستمرت رغم محاولة التهدئة ، والميل إلى التصالح الذي قاد فكرته أحمد حسن البكر وحافظ الأسد عام 1979/1978 ومهدا لاتفاق بين الجناحين كان مؤملا أن ينهي الحرب بينهما ، ويوحد الحزب ، والدولتين تبعا لأهداف الحزب المعلنة ، لكن هذا لم يرق لميشيل عفلق المحكوم بالإعدام في سوريا ، ولم يوافق صدام بتوجهاته في القفز إلى المواقع العليا ، وبالتالي تحولت مساع الاتفاق إلى مذبحة للرفاق بمعركة أديرت بذات الأساليب التي تشير إليها قصص المخابرات المرعبة ، وكان القصد منها : إنهاء موضوع السيطرة على الحكم لصالح صدام القائد الفعلي لجميع المعارك التي بدأت ضد الرفاق ، والآخرين منذ العام 1968 .

توجيه ضربة قوية إلى السوريين الذين حاولوا بنوايا حسنة إنهاء الصراع بين البلدين الجارين ، والجناحين المتنافسين ، والحكم على مشاريعهما في هذا المجال بالموت إلى الأبد .

كانت تلك واقعة تموز 1979 التي شهد عامها هذا أحداثا جساما في المنطقة امتدت من أفغانستان مروراً بالثورة الإيرانية على الشاه إلى الحرب الأهلية في لبنان وانتهاء بالانقلاب على البكر (الأب القائد)²³ وإرغامه على الاستقالة، وهي جميعها أحداث يؤشر تزامنها ارتباطا فيما بينها لإدارة التوازن، والصراع في المنطقة ، وهذا ما كان واضحا من تطوراتها التي قادت إلى الحرب الدامية بين العراق بقيادته الجديدة صدام حسين وإيران بنظامها الإسلامي الخميني . وما يهمنا هنا ليس الدوافع التي قادت إلى تلك الأحداث وبينها الانقلاب الدموي في العراق بل النوايا من عملية التغيير ومعاركه ضد الرفاق في ساحة الحزب الداخلية خاصة وإن المعلن عنها تنازل للبكر بأسلوب ديمقراطي رغم أن الديمقراطية بكل معانيها لم تشر إلى التنازل واحدا من بين المعاني عند أحد قبل البعثيين في العراق ، ومع ذلك فقد توجه البكر في خطاب تلفزيوني منتصف تموز عام 1979

²³ صدام حسين أول من أطلق لقب الأب القائد كنوع من التقرب العاطفي إلى البكر وتأسيس قاعدة للثقة والاطمئنان.

للتنازل عن العرش (لأسباب قيل أنها صحية) إلى رفيق دربه صدام الذي قبل بشرف مسئوليتها التاريخية .

وبذاك التنازل الديمقراطي بدأ صدام على الفور إعادة ترتيب البيت البعثي ، وأمر بعقد اجتماع للقيادة القطرية وفي داخله نوايا لم يكن أحد من الموجودين مدركا طبيعتها .

وكان الاجتماع على غير طبيعة الاجتماعات التي كان يعقدها البكر إبان إدارته لها منذ العام 1968 بعيدا عن الحراس والمرافقين ، وانفض بالإعلان عن مؤامرة كان منوي تنفيذها بقيادة محمد عايش عضو القيادة القطرية ، ومعه عبد الحسين المشهدي ثم أضيف لها تباعا عندما بدأت كرة الثلج تتدحرج لتجمع في محيطها :

من يقف في الطريق أمام عدنان خير الله لوزارة الدفاع من العسكريين .
ومن يشكل عثرة للأخوة سباعوي في إدارة الأمن العامة ، وبرزان في رئاسة المخابرات ، ووطبان لوزارة الداخلية .

ومن رفع صوته أعلى من صوت صدام أيام النضال السلمي .
وعلى أساسها اتسعت القائمة لتشمل أعضاء القيادة القطرية :
عدنان الحمداني الصديق القريب من صدام حسين .
محمد محجوب الأب الروحي لبعثي تكريت .
غانم عبد الجليل .

وعبد الحسين المشهدي الذي تأسس على شخصه وقبوله تقديم الإفادة التي أملت عليه سيناريو المؤامرة الذي أعد على عجل كان فيه عبد الحسين البطل والضحية بعد أن سحب إلى غرفة قريبة من الاجتماع ليضرب ويهدد ، ويوعد بأن يترك ليعيش حياته الاعتيادية إذا ما أتقن المسرحية حتى استسلم سريعا ، وأبدى استعداداه للتوقيع على ما يريد أخوة الرئيس في الغرفة المجاورة للاجتماع ، وبعد الانتهاء من الخطوة هذه أعيد له توازنه، ونقل إلى قاعة الخلد ليعرض أمام مؤتمر للكادر الحزبي المتقدم (كان الأول من نوعه) أن مؤامرة قد عمل عليها محمد عايش ، وآخرين من قادة الحزب هو من بينهم
معد لتنفيذها هذه الأيام .

وبدأ عبد الحسين الضعيف المنهك القوى يسرد القصة التي تثير بعض فقراتها الاستغراب لكن الواضح أن مخرجها وبالإضافة إلى سعيه لإنهاء مشروع توحيد الحزب ، والدولة مع سوريا الذي تم الاتفاق عليه في الشهر الماضي كان ينوي التخلص سريعا من :

. الرفاق غير الموافقين على انتقال السلطة بهذه الطريقة ، والداعين إلى عقد مؤتمر قطري وعمل انتخابات أصولية حسب النظام الداخلي للحزب . أو الذين أبدوا ردود فعل في غير ما يريده صدام في أول اجتماع للقيادة القطرية بعد مسرحية التنازل .
. الرفاق غير المنسجمين وخط صدام في الإدارة ، والذين يعتقد أنهم سيكونون يوما كذلك.

. الذين يحتمل أن يقفوا في طريق تثبيت أسس الحكم لذاته ، والعائلة .
فكان ذلك السيناريو غير المتكامل الذي عرض وقائعه عبد الحسين المشهدي مشيرا إلى أن محمد عايش كان يتصل بالملحق العسكري السوري ، وإنه قد أستلم منه ثلاثة آلاف دينار وزعها على أعضاء القيادة القطرية المذكورين ليأخذ الواحد منهم بما لا يزيد عن الستمائة دينار في الوقت الذي كانت الحكومة العراقية توبخ الوزير ، والمدير العام ، وعضو القيادة الذي يبقى من ميزانيته مدورا للعام القادم بتهمة الضعف ، والتقصير سعيا لتحقيق ما يسمى بالخطوة الانفجارية التي تكونت بعد التطور في عوائد النفط . فكان محمد عايش ومثله أعضاء القيادة الآخرين يهبون مثل ذلك المبلغ مكرمة لموظف من موظفيهم ، أو لرفيق من تنظيمااتهم أعجبوا بمدحه ، وربما أكثر منه في دعوة سمر بعد منتصف الليل ، لكن الأمر وكما ورد قد يكون اجتهدا مستعجلا من أحد أطراف الفريق من حول القائد ، أو حتى منه شخصا بعد أن سيطر وساد في داخله اعتقادا أن الصدمة التي سيحدثها في العقل العراقي ستفتحه لتصديق إي شيء يقال ، وإن لم يكن محبوبا بما فيه الكفاية .

وأستمر المشهدي بالعرض وساد الهدوء المطبق على القاعة ، وفاجأ القائد الجميع بأن من يرد اسمه يغادر القاعة دون نقاش .

وبدأ العرض، وبدأت الحماية تتلقف الواحد بعد الآخر تذله أمام الرفاق وهو في طريقه إلى غرفة الموت المجاورة ، وسرعان ما تبدل الصمت إلى هيسيريا مدح ، وتأيد في أكبر عملية استجداء للولاء ، والرغبة في التخلص من المصير المجهول .

وفيها أصيب البعض بالدهشة ، بينما أدرك البعض الآخر نهاية المصير ، وتحرك بخطى ثابتة من مكانه بين الرفاق إلى أذرع الحماية دون أن ينبس بكلمة توحى ببراءته ، أو الإشارة إلى تاريخه النضالي ، وأمنيته بالحرية ، والوحدة ، والعدالة منذ أن انتمى إلى الحزب الذي قدمه قربانا في الطريق إلى الديكتاتورية ، والتسلط والفرقة ، والتشتت .

وأنتهي العرض المسرحي ، وذبح المشهدي أولاً إيفاء بالعهد لتجنيبه عناء العذاب من الانتظار ، وتقريع الضمير وتدحرجت من بعده رؤوس الرفاق أعضاء القيادة ثم الفروع ، والشعب .

ولكي تكون بعض جوانب المسرحية قابلة للتصديق توقف حكم الإعدام عند ما يقارب الخمسة عشر قيادياً ، واستكمل بأحكام في السجن تتدرج بين المؤبد حتى الخمس سنوات لتكون الحصيلة بحدود الستين رفيقاً ممن لم يكن محسوباً على أحد أجنحة الحزب ومجموعاته المذكورة .

لكن الرواية من المصادر البعثية القريبة لم تكن هكذا ، بل وبصورة مختلفة قيل عنها : أنه وفي اجتماع القيادة القطرية بعد مسرحية التنازل ، قدم محمد عايش ورقة إلى عبد الحسين المشهدي ، ليقرأها ويقدمها إلى عدنان حسين وآخرين مكتوب فيها أن تجاوزا يحصل على النظام الداخلي للحزب ، وينبغي المطالبة بعقد مؤتمر قطري ، وكان قد اطلع على ما مكتوب بتلك الورقة حسن العامري الذي تصادف جلوسه في الاجتماع جنب محمد عايش وقام على الفور بإخبار صدام عن طبيعتها ، حيث فسر صدام ما جاء فيها نية بالوقوف ضد حكمه وبادر على الفور في إخراج مسرحية المؤامرة التي رسخت وجوده وعائلته في حكم العراق .

نهاية الأب القائد

إن إزاحة البكر عن رئاسة الدولة يمكن أن تكون نية وجدت في عقل صدام بعد قليل من عام 1968 ونضجت فكرة منتصف السبعينات ، لكنها تأجلت لأسباب غير معروفة (كما ورد سابقا) ، واستعيز عنها بتمهيد يبدأ بتجريد هادئ لسلطة البكر ودعائم وجوده في الحكم من خلال :

. اغتيال المقربين إليه مثل (الندا) ، وابنه محمد .

. نقل البعض الآخر منهم إلى السلك الدبلوماسي خارج العراق مثل (منذر المطلق) .
. تقديم عدنان خير الله من البكر بمصاهرة يتقدم فيها عدنان خطوات يكون فيها آمرا للحرس الجمهوري ، عضوا في المكتب العسكري ، ثم وزير دولة ، وعضوا في القيادة القطرية .

. تسليم بعض المناصب المهمة في الدولة لجيل الشباب القريب من صدام .

. تنسيب القريين منه إلى الأجهزة الأمنية وبمفاصلها المهمة .

وكانت كل تلك الإجراءات قد مهدت للفرصة التي أتاحت عام 1979 التي جرى فيها تنازل البكر ليس كما ورد تنازلا ديمقراطيا لأسباب مرضية لأن البكر هو الآخر مهووس بالرئاسة ، ولا يمكن أن يتنازل عنها وفي داخله قدرة على التنفس والكلام ، ولا يمكن أن يقبل الأقرباء تنازله رغم إن تأثيرهم في الحكم أقل من أقرباء صدام .

وكانت الحقيقة كما يرويها ممن تبقى بالصدفة على قيد الحياة من القريين من البكر هي : قيام برزان ، ومجموعته بالتنسيق المباشر مع صدام باختطاف هيثم الابن الأكبر للبكر بعد أن تخلصوا من أبنه محمد بحادث سيارة في وقت سابق ، وبعد الاختطاف تم الاتصال بالبكر ، وإفهامه الموقف ، ومساومته على التنازل بهدوء وسلام لقاء حياة هيثم ، وكان البكر المعروف بانفعاله العاطفي السريع لم يمتلك خيارا سوى الموافقة ، والتسليم بالأمر الواقع ، والتحرك إلى دار الإذاعة والتلفزيون ليقرأ خطابا مكتوبا من قبل الانقلابيين أعلن فيه التنازل في أنزه عملية ديمقراطية أنفرد فيها الحزب بين الأحزاب الثورية في العالم .

لقد أنتهي كل شيء بالنسبة إلى البكر ، ولم يبق معه أحد من أفراد العائلة ، فأجبر على العيش في بيت صغير (مشتمل) داخل أسيجة القصر الجمهوري ، له طباخه الخاص ،

والخادم المرتبطين بالمخابرات ، وله نسخ من الصحف اليومية الصادرة في العراق ، تعاوده ممرضة خاصة انتدبتها وزارة الصحة لتزرقه حقنة لموازنة السكر في الدم الذي تضاعفت درجاته بعد حادثة الانقلاب، حتى حان وقت التخلص منه في السنة الثانية من الحرب الدائرة مع إيران عندما بدأ الشارع العراقي يتمنى استبدال صدام الحاكم الحالي بالبكر الحاكم السابق لتلبية أحد شروط الإمام الخميني في إيقاف الحرب مع إيران ، وكانت هذه التمنيات قد عجلت من نهاية البكر إذ أرسل سعدون شاكر مدير المخابرات آنذاك على الممرضة وطلب منها تبديل الدواء الخاص بالسكر إلى آخر مقوي بعد أن وهنت صحة الشايب (كما كانوا يطلقون عليه بالفترة الأخيرة بهدف التمهيد للاعتراف بعجزه عن إدارة الدولة والمجتمع) ، لكن الممرضة طلبت أن تسلمها وزارة الصحة الوصفة الجديدة بدلا من تلك المستخدمة .

بعدها بيوم منعت تلك الممرضة من دخول القصر ، وأرسل بدلا عنها طبيب خاص من المخابرات روى صهر البكر حاتم عبد الرشيد إلى بعض أقاربه أنه دخل الصالون ، ولم يجد البكر ، وسمع كلاما معه في غرفة النوم أدرك من خلاله أن طبيبا في الداخل قدم لإجراء الفحوص الطبية ، فجلس ينتظر ، بعدها بقليل رفعت سماعة الهاتف من داخل غرفة النوم تحدث المتكلم فيها بعبارة (نعم سيدي لقد أعطيته العلاج) وخرج الطبيب بعد إكمال مهمته ليفاجئ بالجالس في الصالة ، واكتفى بإلقاء التحية وخرج مسرعا ، وبعد خروجه بساعة واحدة تدهورت صحة البكر بسرعة كبيرة ، حيث لم يعد قادرا على الكلام ثم فارق الحياة في ذات الوقت ، ليسدل الستار على صفحة من صفحات الحرب ضد أهم الرفاق .

وتنتهي بانتهائها المخادعة ، والتغيب في الظلام أساليب معتمدة في الحرب الدائرة ضد الرفاق .

وتستبدل بأخرى اتهاما مباشرا ، وقتلا علنيا في وضوح النهار بعد أن أزيلت كل الألغام المحتمل تفجيرها في ساحة المعركة الداخلية حيث لم تعد المخادعة ، والعمل في الظلام لازمة للوصول إلى الغاية .

لكنها هذه المرة أكثر قسوة ، وأبشع صورة عندما يقتضي الردع العلني قتل الرفيق من قبل الرفاق ، وبأسلحة الحزب التي قيل في بداية توزيعها أن تكون وسيلة لحماية الأمة من أعداء الأمة .

كما حصل للدكتور رياض وزير الصحة .
وعندما يتطلب العقاب العلني ضرب الرفيق الوزير من جنود الحمايات ، وصفع الرفيق
عضو القيادة القطرية من سائقه ليكون عبرة للآخرين .
مثلاً حدث لوزير الداخلية وعضو القيادة القطرية سمير الشخيلي .
وعندما تقتضي ضرورة طمس المعالم أمر الرفيق بالانتحار بين أهله وذويه ليسكت
الجميع .

كما هو حال طارق حمد العبد الله رئيس ديوان الرئاسة وزير الصناعات الخفيفة .
وعندما يستلزم أمر عدم التفريط بالمعلومات المهمة المخزونة في عقول المسؤولين
البعثيين إسقاء أصحابها جرعة سم في عصير طازج يشربه حتماً من يتشرف بمقابلة
الرئيس يتلف العقل ، والجسم لأن الحزب والقيادة لم يمتلكا جهازاً لإفراغ العقول من
المعلومات الزائدة فلم يتبق لها بد سوى إتلاف العقول لتحفظ المعلومات في صناديق
مغلقة إلى الأبد²⁴.

إن المعارك في الحرب الدائرة ضد الرفاق ، وغيرهم في ساحة البعث العراقي سوف لن
تنتهي مادام هامش النوايا غير الحسنة موجوداً في العقل الحاكم ، وإن خلت الساحة من
الأعداء الفاعلين واقتصرت على نوع من الانتهازين ، والمتهاكين على كسب الود والرضا .
لأن القائد يعتقدها وسيلته الوحيدة للسيطرة ، والبقاء أعلى السلطة .
لكنه لم يدرك أن ثمنها معارك مستمرة بات مكلفاً .

وساحتها الواسعة بدأت تضيق تدريجياً مع استمرار ضغوط الحصار ، والمبالغة
بإجراءات الأمن ، والإفراط بالدكتاتورية، وغيرها متغيرات تنتج أعداء من بين الأبطال

²⁴. ورد عن موت رافع دحام مدير المخابرات السابق ، والرفيق الركن طه الأحبابي مدير الأمن العام السابق أن كل منهما
استدعي قبل موته لمقابلة الرئيس ، وفيها قدم له عصيراً ، شعر بالانتعاش إثر مغادرته مكتب الرفيق القائد إلى
المحاسب لاستلام هديته الثمينة : قطعة أرض في أرقى أحياء بغداد ، ومبلغ مناسب لتشييدها على أحدث طراز ،
وسيارة حديثة لركوب العائلة ، وقيل أن أن الواحد منهم ، وهو في الطريق إلى البيت شعر بفرط النشاط العقلي ،
والبدني ، ثم بعدها بساعات تسارعت ضربات قلبه بشكل غير اعتيادي حتى غط بغيوبة نقل على إثرها للمستشفى
الخاص بالكادر المتقدم للدولة ، والحزب ليلفظ أنفاسه بالطريق قبل أن يسعفه الحظ ليسر زوجته أنه قد شرب من
كأس السم في حضرة الرئيس ، ودون أن يجراً أحد على تشريح جثته ، والاكتفاء بالإشارة في شهادة الوفاة أنه قد أصيب
بنوبة قلبية حادة . في حين مات فاضل البراك مدير الأمن العام ، ومدير المخابرات الأسبق بطريقة التعذيب بعد اتهامه
بالتجسس لصالح الألمان .

التقليدين للمعارك السابقة ، وتنقل أحداثها إلى المنطقة والعشيرة وإلى داخل البيت الذي يسكنه الرئيس²⁵، وبانتقالها ستكون النهاية الحتمية لكل الحروب التي يخوضها النظام ضد الوجود العراقي ، وسيسجل التاريخ :
أن النوايا غير السليمة كانت من أكثر الدوافع لإنتاج تلك الحروب .

²⁵. تمرد صهري الرئيس حسين كامل وشقيقه صدام ، وهربا إلى الأردن ، ثم عادا بعهد للعفو عنهما قدم بشرط فديو ، ليقتلا في معركة دارت بينهما وأولاد عمومتهما من العشيرة ويتعرض من الرئيس .

القسم السادس حرب الثماني سنوات الهجوم العراقي

أن الواقع السياسي، والنفسي منذ التأسيس الحقيقي للدولتين الإسلاميتين المتجاورتين الفارسية والعثمانية ومن بعدهما العراقية والإيرانية حتى عام الحرب 1980 لم يشهد نوايا صادقة لإزالة ما علق من المشاعر السلبية في ذاكرة الشعبين.

صفحة الحرب الأولى

كان عام 1979 ومن بعده عام 1980 يزخر بكثير من الأحداث السياسية التي تزامنت على الساحة الإقليمية ، والدولية في المنطقة القريبة من العراق أهمها الثورة في إيران ، وانقلاب صدام حسين على البكر في العراق ، والتمهيد لتدخل القوات السوفيتية في أفغانستان ، وغيرها أحداث جعلت العالم يتصور وكأن دوله الكبرى تحرك الأحداث عن بعد لمصالح إستراتيجية بعيدة المدى دون التدخل المباشر ، أو غير المباشر لتهديتها لذات المصالح ، والأهداف .

وجعلت الكثير يعتقدون أن من يحاول التدخل من الصغار ، أو من غير المعنيين ، لأغراض التهدة ، ولو بنوايا حسنة يجد أن المسافة بين الفرق المتخاصمة أبعد من قدرته على التأثير ، أو أن نارها ستحرقه حتما .

وهذا مثل ينطبق على الوضع بين العراق ، وإيران في تلك الفترة الزمنية من عام 1980 التي باتت المسافة بينهما تتسع بالتدرج لمستوى يصعب فيه ، ولو تقربها إلى الوسط الذي اعتاد السياسيون العمل على تحقيقه .

الموقف السياسي النفسي على الساحة الإيرانية

بقي الموقف بين العراق وإيران حساسا قابلا للإثارة ، أو بالتعبير العسكري كانت هناك كثير من الألغام التي زرعت بين البلدين يمكن تفجيرها بسهولة، وهذه ألغام بدأت تتفجر فعلا مع أول أيام الثورة الإيرانية ، لكن مفهوم الألغام لم يكن مقتصرًا على الساحة العراقية الإيرانية كما يبدو من سير الأحداث الذي بدأت تشير إلى أن هناك توترا في العلاقات ، أي ألغاما تتفجر بين إيران ، والدول المحيطة بها ، والبعيدة عنها ، وبدأ الموقف يزداد تأزما في غير صالحها عقب السيطرة التامة على مقاليد الحكم من قبل الثوار الإسلاميين بعض مؤشرات العامة :

تبادل الاتهام مع الأمريكان الذين وصموا من جانبها بالشیطان الأكبر .
التوجه لانتقاد السعودية بوصفها الحليف القوي للأمريكان .

التنافر مع الإمارات العربية المتحدة في الإصرار على عدم مناقشة موضوع الجزر التي احتلها الشاه بداية السبعينات .

الابتعاد عن الاتحاد السوفيتي بحكمه الشيوعي (الكافر من وجهة النظر الإسلامية) .

وتلك معالم توتر أدت في المحصلة إلى :
توسيع المسافة النفسية بينها وبين المذكورين ، والقريبيين إليهم بالقدر الذي يصعب فيه التلاقي بعيدا عن الشكوك .

بناء مواقف التعامل على أساس النوايا الذي جعل في أن تكون عديد من استجابات الدول العظمى في غير صالحها تتمحور حول ضرورة الحد من حركة الحكومة الجديدة وتقييد توجهاتها ، أو حتى القضاء عليها بأقل الخسائر من جانبهم.

وتلك نوايا في السياسة الدولية التقت سريعا مع نوايا دول إقليمية منها :
تركيا التي لا تنظر بعين الرضا لإجراءات إثارة الحماس الديني قريبا من حدودها الجنوبية .
الدول العربية المحيطة بالعراق ، والقريبة منه التي تتحسس من نظام إسلامي يتأسس على فكرة التشيع على مستوى العلن لأول مرة ، باستثناء سوريا التي التقت مع الإيرانيين على طاولة العداء المشترك لنظام الحكم في العراق الذي تسببت معاركه معها نزع للدماء البعثية لم تلتئم جراحه بعد . وكذلك ليبيا من العرب البعيدين التي لها مع نظام الحكم البعثي في بغداد معارك ، وافترقات وصلت حد التآمر ، والتخطيط للاغتيال ، وقيام كل طرف بتقديم المساعدات العسكرية ، والمالية لقوى ، وأطراف ثالثة تعادي خصمه في الميدان الواسع لحروبهما الدائرة .

باستثناء تلك الدولتين العربيتين لم تستطع إيران بحكومتها الإسلامية الحديثة أن تقنع القريبيين من ساحتها من العرب ، وغير العرب ، وغالبية البعيدين في أن يدخلوا عاملا لتهدئة الموقف ، أو حتى البقاء على الحياد في صراعها الذي وجدت نفسها بموجبه على حافات حرب عسكرية مع العراق قبل أن تكمل الاستعدادات اللازمة لإدارة جوانبها بشكل صحيح .

الموقف السياسي النفسي على الساحة العراقية

أما في الجانب العراقي سياسيا كان تحرك حكومته ينسجم مع نوايا الحاكم في تصعيد الموقف باتجاه فعل الحرب العسكرية مع إيران ، أو يصب في النهاية برفده ، وإن لم يعلن عن أية خطوة في هذا المجال ، وكان تحركا استطاع بموجبه على سبيل المثال أن يحشد إجماعا عربيا للوقوف ضد مصر السادات ، وإسرائيل في مؤتمر القمة الذي عقد برعايته في بغداد ليس بعيدا زمانيا من بداية الأزمة بينه وإيران أسهم بشكل مباشر في :
تقريب المسافة النفسية لغالبية القادة العرب من بغداد .

تقليل هامش الشك في مخيلتهم بالنوايا غير الحسنة التي يبيتها الحاكم في رؤياه للتعامل مع إيران .

الدفع بإقامة علاقات صداقة سياسية ، واجتماعية ، وتجارية مع المسؤولين في دول الخليج على رأسهم السعودية ، والكويت يمكن من خلالهم تعبير رسائل غير رسمية ، وأفكار وإيحاءات ، وشحن بالضد يؤسس في النهاية مواقف لدولهم تنسجم ، ومواقفه ، وتقديراته من الحالة في إيران حاضرا ومستقبلا .

الامتداد إلى الغرب عن طريق توثيق عرى الصداقة ، وتبادل المصالح المشتركة مع الفرنسيين ، وفتح الأبواب بشكل مقبول مع الشركات الألمانية وتعبير الرسائل غير المباشرة للأمريكان بعدم الممانعة بتأمين مصالحهم ، إضافة إلى منح الهدايا والهبات والتسهيلات لمئات الشخصيات المهمة في عديد من دول العالم . السعي لتوثيق علاقات أقوى ، ومصالح متبادلة مع الاتحاد السوفيتي ، مصدر تسليحه الأساسي .

كل ذلك كون وضعاً سياسياً ، يوحى من الناحية النفسية بالقوة للعراق ، وبالأرضية الصلبة التي يقف عليها حزب البعث العربي الحاكم في أي عمل مقبل مع إيران الإسلامية . وكانت تحركات سياسية من قبل حكومة بغداد رافقها تصعيد إعلامي ، ونفسي مدروس وصل حد الاتهام المباشر للإيرانيين ، وبعض العراقيين من أصول إيرانية بتعمد الاعتداء على ثورة الحزب في العراق ، وتهديد وجودها عندما أفتعل الحزب مظاهرة تمر من باب المعظم ، فمنطقة الوزيرية قرب أحد المدارس الإيرانية ثم إلى الجامعة المستنصرية لتلقى من تلك المدرسة قنابل يدوية هجومية على التظاهرة ، وكذلك في الجمع الحاشد أمام المستنصرية تسببت في إحداث خسائر أخذ منها الحزب ذريعة وسع من آثارها ، وتأثيراتها على المتلقين العراقيين ، وغيرهم حتى أسس عليها اتجاهها للمطالبة بالتأثر من الإيرانيين الذين تجاوزوا الحدود المسموح بها .

وكانت تلك الواقعة التي يشير البعض من كواد الحزب المتقدمة ، وضباط في المخابرات على افتعالها من قبل السلطة مجالا :

لتبرير إجراءات تقوم بها الحكومة لمضاعفة أعداد العراقيين من الأصول الإيرانية ، وغير الإيرانية المسافرين إلى إيران .

إيجاد واقعة تزيد انفعال البغض ، وتثير مشاعر العداء نحو الحكومة الإيرانية ، والإيرانيين.

وقد حققت الحكومة آنذاك نجاحا تكتيكيا ملموسا ، إذ استطاعت أن تضخم جسامه الأحداث ، ومخاطرها في عقول الكثير من العراقيين ، وتعبئهم باتجاه القبول بفعل الانتقام حماية للأرواح ، وضمانا لمستقبل الأجيال كما كانت تدعي في حينه . وتلك توجهات إعلامية باتت تأتي من صدام مباشرة بعد انقلابه على البكر ، وسيطرته على مقاليد الأمور في سنة الثورة الإيرانية الأولى ، وفيها بدأ يدفع باتجاه التصعيد ، وكأنه قد رسم خطوات الحرب في مخيلته بشكل واضح مع بدايات استلامه الموقع الأول في الحزب والدولة مؤشراتها :

. غرض الإعلام العراقي الحكومي الموجه الطرف عن أحداث الثورة إلا ما يؤشر الإساءة إليها بشكل مباشر ، وغير مباشر.

. البدء بتنفيذ أوامر الرئاسة لدراسة الأصول الفارسية ، ومحاولة ربط التشيع الإيراني بالمجوسية تلك الدراسات ، والبحوث ، والمقالات التي أخذت تنتقل إلى الإعلام العراقي بحكم الاستعراضية التقليدية للباحثين ، وبتوجيهات غير مباشرة من قبل مكتب الثقافة ، والإعلام القومي للحزب الحاكم .

استعادة الموروث في الذاكرة البعيدة

استنفرت الحكومة العراقية كل جهدها ، وبدأت حملات اتصال ، وتواصل مع علماء دين ، ومؤرخين ، وأساتذة ، وأخذت توجههم للتعامل مع موضوع معركتها القادمة مع إيران ، دون أن تتطرق إلى النوايا بشكل واضح ، وبأسلوب دفع سمح لرواسب المشاعر السلبية أن تظهر في مجال الوعي لعقول المسؤولين ، والقادة العسكريين ، والمدنيين على وجه الخصوص الذين تكيفت نظم تفكيرهم على الأسس ، والتوجهات القومية العربية ، وكأن السنوات الخمسة التي مرت على توقيع اتفاقية الجزائر مع شاه إيران عام 1975 وصدام حسين ، والتبشير بعصر جديد من علاقات الود والتفاهم :
لم تكن كافية للتخلص من شوائب التنافر ، والرغبة في التوسع ، ومد النفوذ التي تختزنها الذاكرة الجمعية لقادة الدولتين المتجاورتين .
ولم تكن أجواء تلك المعاهدة ، واتجاهات حسن الجوار المعلنة فيما بعدها قادرة على تجاوز مشاكل رسم الحدود التي أقرت مع بداية القرن الماضي .
ولم تكن كذلك عوامل الدين ، والمذهب ، والتاريخ التي يشترك بها الجانبان كافية لإزاحة معالم العداء من عقول حكامهما طيلة عدة قرون .
لقد توقف كثير من العراقيين ، والإيرانيين أمام حالة تتصاعد مؤشرات العداء في جوانبها بسرعة هائلة لا يستطيع بينهم أحد التخفيف من زخمها ، ولم يكن أمامهم خيار سوى العودة للتاريخ الذي تأملوا بعض صفحاته بتروي ، واستنتجوا :
أن الواقع السياسي ، والنفسي منذ التأسيس الحقيقي للدولتين الإسلاميتين المتجاورتين الفارسية ، والعثمانية ومن بعدهما العراقية ، والإيرانية حتى موعد بدأ الحرب عام 1980 لم يشهد نوايا صادقة لإزالة ما علق من المشاعر السلبية في ذاكرة الشعبين .
لقد تطور الموقف إلى مستوى فقدان التام للثقة ، حتى بات كل طرف لا يثق بنوايا الطرف الآخر ، وسارع على أساس عدم الثقة هذه بتوظيف ، واستثارة تلك المشاعر المخزونة في الذاكرة البعيدة مادة لحربه النفسية بالضد من خصمه في غفلة من الزمن كانت في غير صالح الطرفين . وبسببها استمرت :

معالم العداء ، والبغض ، والرغبة بالتحدي ، والانتقام عند أصحاب القرار ، والقرييين منهم بعيدا عن أسس الدين ، ومنطق الجيرة كانت أقوى من العواطف الآنية ، والميول المؤقتة للتهدة ، وإعادة البناء الفكري الصحيح . واستمرت كذلك النوايا مغلفة في عقول الكثير من المسؤولين ، ورجالات الحكم المدنيين ، والعسكريين .

تلك حقائق ، ومناحي سجال بين مجتمعين تسببت أيضا في أن يبقى كلاهما عن قصد وسائله النفسية ، والاجتماعية ، والدينية التقليدية فاعلة لكسب التأييد ، وفرض السيطرة ، وتعبئة القدرات لإعادة تلك المشاعر من اللاوعي إلى مجالات الوعي في الوقت المطلوب .

البعد الدولي في استعادة الموروث

إن ما يتعلق بالمخزون الانفعالي ومحاولات استثارته ، واستثماره لتكوين موقف جديد لم تتوقف على أحد طرفي الصراع إيران ، و العراق في تلك الفترة الحرجة نهاية سبعينات القرن الماضي ، بل ودخل على ذات الخط آخرون :

. الدول الكبرى عوامل دفع ، وإيحاء مضافة وبما يلائم الوضع النفسي لكل طرف من الطرفين لأسباب تتعلق في معظمها بالصراع الدولي في حقبة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي ، والأمريكان ، قطبيها الرئيسيين حيث لم تكن قد انتهت حتى ذلك التاريخ . وتبعا لمصالح استراتيجية عند الأمريكان تتمثل بالمحافظة على نفوذهم السابق في إيران الشاه .

وعند الاتحاد السوفيتي محاولة للمحافظة على نفوذ لهم في أفغانستان وسعي من جانبهم لمداه خارجها قريبا من الخليج العربي .

. دول الجوار الإقليمي عوامل تفعيل ، وحث ، ومساندة بما يناسب الوضع الخاص لكل طرف من الطرفين لأسباب يعود معظمها إلى الخشية ، والخوف من التغير الحاصل في إيران التي توجي مؤشرات الحكم فيها ميلا إلى الثورية ورغبة في تصدير الثورة .

إن الدخول المباشر ، وغير المباشر لتلك الدول البعيدة منها ، والقريبة أسهم بزيادة التوتر ، والقلق ، ومن ثم التشويش في النوايا ، أو بالمعنى الأدق زاد فسحة السوء في طبيعة النوايا المبيتة في ذاكرة الطرفين خاصة بعد أن تراءى لحكومة صدام حسين الجديدة :

أن الفرصة متاحة للتخلص من عدو محتمل قد يثير مشاكل ، واضطرابات أقلها ذات طابع طائفي في الوسط ، والجنوب العراقي الشيعي .
وإنها متاحة أيضا لتجاوز عقدة التوقيع القسري على معاهدة الجزائر التي يشعر صدام أنه قد وقعها تحت ضغط التعامل ، والالتفاف على الكورد في الحرب التي كانت تدور معهم في الشمال ، وفي ظروف غير مواتية في حينها.
وهو تدخل في الجانب المقابل أشعر القادة الإيرانيين في وقتها أن حكم البعث في العراق تأمر على الثورة قبل حصولها إذ لم ينسوا ما فعلته الحكومة العراقية مع الإمام الخميني المحرض القوي للثورة ، وقائدها الفعلي عندما أمرته بعد تطور الأحداث وتفاقمها عام 1978 بترك منفاه في النجف الأشرف بناء على رغبة الشاه في إبعاده عن ساحة العراق المجاورة لإيران الأكثر تأثيرا على التوترات الجارية فيها لطبيعة الحدود المفتوحة لما يزيد عن ألف كيلومتر، وللتداخل الحاصل في التركيبة السكانية القومية ، والمذهبية على طرفي الحدود حيث يفكر الشاه إن الإبعاد سيفقده أي الإمام الخميني وسائله للاتصال بالشارع الإيراني الذي بدأت معالم فقدان السيطرة عليه واضحة للعيان .
ويفكر البعثيون في إبعاده مصلحة لهم في إطار تسجيل موقف مع الشاه في ظروفه الصعبة سوف يطور إيجابيا علاقاتهم به مستقبلا ، وكذلك يؤدي أي الإبعاد إلى إسقاط احتمالات التأثير غير المباشر لفورة الدين السياسي على المجتمع العراقي الذي بدأت تنشط فيه بعض التيارات المنظمة بشكل ملموس .

إبعاد الإمام الخميني عن العراق

لقد نفذت الحكومة العراقية رغبة الشاه في إبعاد الخميني من العراق سريعا رغم أن مؤشرات الوضع تشير إلى قرب نهاية الأول وصعود الثاني بشكل شبه محتوم ، معتقدة كما يبدو :

أنها ستحول بإبعاده دون تحقيق تلك النهاية غير المرغوبة لحليفهم الشاه ، أو عدم التعجيل بها على أقل تقدير .

ومعتقدة في ذات الوقت أنها قد تأخرت في مسألة الإبعاد الذي كان يفترض أن يتم قبل تاريخه بأكثر من عام تنفيذا لبنود اتفاقية الجزائر التي من بين جوانبها التعاون بين البلدين فيما يتعلق بالجهد المعارض سواء ما يتعلق منه بالكورد في الشمال العراقي ، أو بالتيار الديني في إيران التي تمتد بعض ارتباطاته إلى النجف الأشرف حيث المرجعية الشيعية الأعلى في العالم .

وبإبعاد الخميني ارتكبت الحكومة البعثية خطأ قاتلا كونت على أساسه موقفا انفعاليا بالضد منها في عقول الثوريين الذين يزحفون على طهران آلاف مؤلفة من كل حد وصوب كان كافيا :

لاستثارة كل معالم العداء المترسبة في دواخلهم منذ مئات السنين .

تكوين موقف حازم بالضد من حكم البعث يمكن تلمسه في رد الإمام الخميني على تهنئة الحكومة العراقية بالثورة الذي أختتمه بالسلام على من أتبع الهدى ، فسرته أي الحكومة العراقية اتهاما لها بالكفر بقي يحز في نفس مسئوليتها بينهم صدام حسين حتى وقتنا الراهن .

الدفع باتجاه الصدام المسلح

إن معالم التوتر المتزايدة بين الجارين إذا ما وضعت في معادلة واحدة مع : تحسس غالبية الدول العربية الخليجية من طبيعة الشعارات المرفوعة لرجالات الحكم الإسلامي الجديد خاصة ما يتعلق منها بموضوع تصدير الثورة . ومع عدم الرضا الغربي من دعوة الحكومة الجديدة للخروج من تحالفات الشاه السابقة . وكذلك مع القلق الإسرائيلي من غلق سفارتها في طهران ، واستبدالها بمقر لمنظمة التحرير الفلسطينية القريبة نفسيا وايدولوجيا من إيران . تكون نتيجة تفاعلها في المعادلة أزمة مربكة للثورة الإيرانية مركزها الجار العراقي القريب يدخلانها سوية من باب : . النوايا المشوبة بالرغبة في الانتقام عند الطرفين . . السعي الجاد لكل منهما في التخلص من الآخر وبأي ثمن كان ، وهي بوجه العموم رغبات ومساع يشتركان فيها سوية ولو بمقادير متفاوتة . . التخلخل في ميزان القوى بين البلدين الذي أشعر الحكومة العراقية بالقدرة على التفوق ، والحسم في أية معركة مقبلة ، ولم يشعر الحكومة الإيرانية باليأس من إمكانية تعويض الفاقد في الجهد العسكري النظامي إثر رحيل الشاه بالمد الثوري العارم للشارع الإيراني بعد سيطرتها على الحكم . وكان هذا تخلصا مؤقتا نظر كل طرف إليه من زاويته الخاصة نظرة قاصرة فيها قدرا مبالغا من الثقة ، والاعتداد بالذات فرضتها ظروف خاصة انعكست على تقييم الطرفين للنتائج المتوقعة في فترة من التاريخ غير اعتيادية ، خاصة إذا ما تم النظر إلى موضوعه أي التوازن بينهما من جوانبه السياسية ، والنفسية ، والعسكرية وفي ذلك الزمن المعاش : بالنسبة للعراق الذي شهد تغييرا للحكم في نفس فترة التغيير التي حصلت في إيران كان أكثر استرخاء ، وثباتا في قاعدة الانطلاق إلى الأمام . وكانت قواته العسكرية النظامية متماسكة بشكل جيد وحالتها العامة تؤشر : . مضاعفة أعدادها من ستة فرق إلى اثنتي عشرة فرقة قبل 23 أيلول غالبيتها مدرعة وآلية .

. أنشأت قوة صاروخية (أرض/ أرض) تزيد عن لواءين وأكملت تطعيم القوة الجوية بطائرات حديثة من القاصفات بعيدة المدى نوع (TU 22) وسيخوي ومن المقاتلات ميغ 23 مع عدد من طائرات الميراج التي كانت قد تعاقدت عليها مع فرنسا قبيل بدأ الحرب بقليل .

. أكملت من الناحية العملية السيطرة المطلقة للحزب على الجيش ، أي تبعيته في آخر خطوة خطتها في تموز قبل الحرب بسنة واحدة على وجهه التقريب عندما أزاحت الضباط البعثيين المحسوبين على التيار المهني أي العسكري في الجيش العراقي عن مناصبهم ، وإحالة ما تبقى من الضباط غير البعثيين على التقاعد وتنسيب ضباط جدد بمستوى أعضاء قيادة شعب ، وفروع ، ومكتب عسكري من رتب مقدم ركن وعقيد ركن لقيادة فرق الجيش العراقي الإثني عشرة ذات الاستعداد العالي للقتال .

. أجرت من جانبها تمارين هجوم وصل إلى مستوى الفيلق حاولت من بعده سد الثغرات ، وأوجه القصور التي رصدت سواء في مجالات التعبئة ، أو في الجوانب الإدارية ، والتسليحية وتعاون الصنوف .

أما بالنسبة إلى إيران فبالإضافة إلى الوضع السياسي غير المستقر فقد اقتضى الأمر أن يكون الجيش النظامي ضحية الثورة ، أو قربانها من أجل النجاح خاصة قوته الجوية حيث الإحالة على التقاعد ، والهرب خارج إيران لعدد من الطيارين المدربين في الولايات المتحدة ، وكذلك المهندسين الجويين ، ومن بعدها القوات الخاصة ، والفرق المدرعة التي خرج منها الكثير من الضباط في الرتب العليا ، بعد أن بدأت مقتضيات الاستمرار في الثورة شأنها شأن جميع أنواع الثورات تحتم الشك ، والاتهام ، والعزل ، التي تفاعلت مع الواقع لتجعل الجيش المحسوب خامسا على جيوش العالم في قوة تسليحه ، وقدراته القتالية غير قادر على اتخاذ وضع الاستعداد للحرب ، أو الدفاع بشكل يتناسب وسمعته العسكرية آنذاك .

إلا إن إيران ومن زاوية أخرى لها بعض النقاط الإيجابية التي يمكن تسجيلها عوامل مضافة لموضوع توازنها مع العراق بينها :

. الشعور بوحدة القيادة ، وصلابة الرمز .

. الاندفاع تحت تأثير انفعال النصر .

. الهياج العارم للجمهور ، واستعداده لتنفيذ أوامر الثوار .

. الانضباط السلوكي الديني كما يريده قادة التغيير .
وتلك على العموم محصلة لخلل في الجانب العسكري ، والموقف السياسي الإقليمي ،
والدولي كان لصالح العراق في جوانبه العسكرية التقليدية .
ولصالح إيران في جانب الانفعال الجماهيري ، والتوجه الديني العقائدي . بمستويات
زادت من التقرب إلى حافات الحرب بصيغتها العسكرية المباشرة .

قرار البدء بالهجوم

كانت عوامل الدفع ، والإيحاء ، والتوازن غير المستقر واضحة في حسابات الوقع بين
العراق وإيران.

وكانت هي من بين أهم المعطيات التي جعلت المعنيين بالقرار الإيراني لا يأبهون لمؤشرات
التهديد القادمة من غرب حدودهم ، ولا يقدرّون عقباته على مستقبلهم ، بل وقد يكون
من بينهم من يتمنى حصوله ، وهم في أعلى درجات الانفعال والتأييد .
نوع من التوازن القلق سحب إيران إلى موقف الاستمرار بالاندفاع في عدائها المعلن لحكام
العراق دون توجس .

وكذلك التمسك بالنوايا المبيتة ضدهم دون حذر .
على الرغم من أن التقدير الواقعي لميزان القوى العسكري ، والسياسي الصحيح لا يساعد
في تحقيقها .

وسحبت الجانب الحكومي العراقي في ذات الوقت إلى اتخاذ قرار الهجوم بقوة زخم لا ترى
تقادير الموقف العسكرية أنه كاف في بدايته على الحسم في إسقاط العدو .
ولا ترى التحاليل النفسية أنه قادر على إقناع القائمين عليه من الحزب الحاكم في العراق
بأن عسكريهم في وضعه ، وجماهير الإيرانيين في حالها..... تعادلُ سيكون موقفا في ساحة
المعركة يحول دون تحقيق النوايا كما يريدون .

وبالتالي انجرف الطرفان إلى الحرب ، والاستمرار بها في واقع :
اندفعت منه حكومة بغداد لأن تأمر قواتها باجتياز الحدود في حركة سريعة لم يدرك قادة
الجيش الإيراني الشباب جديتها إلا بعد أن استفاقوا على أصوات مدافع الجيش العراقي ،
وهدير دباباته وهي تجتاز الحدود بسرعة مذهلة : عندها تيقنوا أن الحرب قد بدأت
بالفعل .

وإن الجيش العراقي قد اجتاحت الحدود .

وعندها شعرت القيادة السياسية العراقية بالنصر ، والقدرة على تحقيق فعل الانتقام ،
والتخلص من عقد الماضي .

القتال على طرفي الحدود

لقد شرعت القوات الجوية العراقية بالساعة 1200 يوم 22 أيلول بقصف القواعد الجوية ، وكذلك الأهداف الاستراتيجية الإيرانية في وسط وجنوب البلاد التي يمكن أن تؤثر على جهد الهجوم ، وكررت الضربة ثانية قبل الضياء الأخير لنفس اليوم ، وأعقبها القوات البرية من الدروع ، والمشاة الآلي ، والمشاة عبور الحدود البرية بالساعة 0300 يوم 23 أيلول بعدة محاور رئيسية:

خانقين . قصر شيرين . سربيل زهاب . دانة خوشك .

العمارة . الشوش . ديزفول

البصرة الأحواز

البصرة . المحمرة . عبادان .

بنجوين . مريوان .

إذ حققت القوات العراقية بهجومها السريع الصدمة المطلوبة في دفاعات الإيرانيين التي تخلخلت سريعا لتشهد انسحابات غير منظمة من غالبية وحداتها إلى العمق الإيراني ، وبمسافات مختلفة تبعا لطبيعة الأرض ، ونوع الوحدات المدافعة وكانت أهم نتائجها في بداية الهجوم :

تمكنت على المحور الأول في يوم القتال الأول الوصول إلى قصر شيرين ، والاندفاع منها إلى سربيل زهاب ، ومن ثم التوجه إلى المرتفعات المشرفة على دانة خوشك .

في قاطع الشوش ديزفول (شمال شرق العمارة) استطاعت فرقة المشاة 21 الإيرانية المعززة بوحدات من الحرس الثوري في ذلك القاطع استخدام صواريخ تاو الأمريكية بكفاءة عالية أدت إلى تدمير أكثر من ثلاثين دبابة ، وناقلة أشخاص مدرعة من لواء المدرع الرابع والثلاثين العراقي الذي يمثل رأس الرمح في الهجوم على هذا القاطع ، وإن انسحابها الاضطرابي تحت ضغط القوات العراقية الأكثر تفوقا كان الأحسن تنظيما من غالبية الانسحابات التي نفذتها الوحدات ، والتشكيلات الإيرانية في تلك الأيام الصعبة حتى نجحت في الانسحاب إلى شرق نهر الكرخة في المنطقة كما استطاعت وحدات من نفس الفرقة ، ومفارز الحرس الثوري من احتلال موضع دفاعي على هضبة النادري غرب مدينة ديزفول كان ملائما جدا للدفاع عن المدينة بكفاءة واقتدار حال دون تمكن القوات

العراقية من دخولها ، وتحقيق أحد أهداف الحرب المباشرة في هذا المحور ، رغم السيطرة على المدينة بنيران المدفعية ، وعدها ساقطة من وجهة النظر العسكرية . وفي محور الأحواز توغلت القوات العراقية بسرعة عالية نسبيا حتى وصلت إلى مشارف المدينة ، وبالتحديد إلى الغابة التي تبعد عن محيطها بحدود خمسة عشر كيلومترا ، وتوقفت دون أن تتمكن من دخولها كأحد الأهداف الاستراتيجية للحرب في هذا المحور ، وباتت في الواقع تسيطر على مساحة واسعة امتدت طولا لما يزيد عن 100 كيلومتر . وكان القتال الأكثر شراسة ، وصعوبة بالنسبة إلى القوات العراقية هو الذي حدث في قاطع المحمرة رغم قرب محورها من البصرة عن طريق التنمية ، ومقابلتها إلى كوت الزين . أم الرصاص من جهة شط العرب العراقية ، إذ دافع الحرس عن المدينة بجدارة لعدة أيام اضطرت فيها القيادة العراقية أن تقحم خيرة قواتها الخاصة تدريبا واستعدادا ، زائدا الفرقة المدرعة الثالثة من قوات صلاح الدين ، وبعد أكثر من أسبوع استطاعت أن تكمل احتلال القسم الشمالي منها عندها انسحب الإيرانيون ، وفجروا الجسر الضخم على الكارون ليحولوا دون قيام القوات العراقية بالنفوذ إلى عبادان هدفها الرئيسي في هذا الاتجاه . إلا إن هذا المحور بقي ساخنا فترة ليست قصيرة بعد صفحة الهجوم الأولى على المحمرة حيث أعطيت الأوامر إلى اللواء المدرع السادس لعبور نهر الكارون من جهة الشرق خارج المدينة ، والاندفاع صوب عبادان شيخ بدير ثم عبور ترعة بهمنشير ، والوصول إلى الضفة الشرقية لشط العرب لكنه وبعد عبور الكارون توقف على حافة الترعة المذكورة الموازية إلى شط العرب بعد أن لاقى مقاومة كبيرة من الإيرانيين الذين قاتلو قتالا شرسا وصمدوا في مواضعهم الدفاعية لمسافات تقربت منها القوات العراقية بحدود 50 مترا في بعض الأحيان ، وساعدتهم في دفاعهم المستميت هذا طبيعة أرض المنطقة الرخوة ، والمشجرة بالنخيل التي تعيق قتال الدبابات بحدود كبيرة حتى استحالت عليها أي القوات العراقية عبور تلك الترعة ، ومن ثم الوصول إلى شط العرب كهدف أساسي يمهد لإحكام الطوق على عبادان وإسقاطها دون الحاجة إلى الدخول إليها والتكبد خسائر كبيرة كما جرى في المحمرة .

لكن الأمر لم يتحقق رغم إن القيادة السياسية العراقية قد أصرت على تنفيذه وعادت مطالبا من قيادة قوات صلاح الدين أكثر من مرة قبل أن تقتنع بصعوبة ذلك على أرض

الواقع . واستمر الحال هكذا معاودة الكرة ، وازدياد عدد الخسائر ، وظهور بوادر الاتهام بالتقصير ، والخيانة²⁶ .

أما المحور الأخير في أقصى الشمال العراقي بنجوين مريوان فقد حققت القطعات العراقية أهدافها بالوصول إلى الراقم 1864 ، واحتلاله الذي أتاح الإشراف على المنطقة بالنار ، والنظر في آن معا .

لكن الأمر لم يستمر على نفس وتائر الهجوم إذ بدء شكل القتال بالنسبة للقوات العراقية، وفي جميع المحاور باستثناء المحمرة عبادان يتغير جذريا بعد إصدار مجلس الأمن قراره في 28 أيلول 1980 بوقف إطلاق النار ليأخذ صيغة الدفاع

عن الأرض التي تمكنت من احتلالها معلنة أي القيادة العراقية أنها حققت أهدافها من الهجوم التي تتمحور حول :

إبعاد القوات الإيرانية عن الحدود لتقليل من تأثيراتها على العراقيين سكنت القرى ، والقصبات الحدودية .

استعادة أراض كان متفق مع الإيرانيين على عودتها للعراق بعد اتفاق الجزائر ولم تعاد حتى حدوث الحرب .

إعادة العمل بالاتفاقات السابقة مع إيران خاصة ما له صلة بشط العرب الذي أصبح عراقيا بعد النجاح الذي تحقق في الحرب .

إلا أن وقائع الحرب ، وسير المعارك لا تدعم ادعاءات الحكومة ، وصيغة أهدافها المعلنة للحرب بل وتؤشر أن نيتها كانت :

التوغل إلى العمق الإيراني لاحتلال المدن الرئيسية ، والسيطرة على كامل منطقة عربستان، وضفة شط العرب المقابلة .

²⁶ ناقش العقيد الركن عبد العزيز الحديثي أمر اللواء المدرع السادس قائد قوات صلاح الدين الفريق الركن إسماعيل تايه النعيمي وهيئة ركنه في أخطاء فنية لعبور نهر الكارون ، وكذلك في عدم جدوى استخدام الدرع في القتال بمنطقة لا تساعد على ذلك ، ووصلت صيغة النقاش إلى القائد العام الذي أمر بتوقيفه وتقديمه إلى محكمة عسكرية بتهمة التردد، والتخاذل، وعدم تنفيذ الأوامر على العكس من حقيقته المشهود له فيها بالشجاعة حد التهور ، وبالانضباط العالي ، وحكم عليه بالسجن خمس وعشرين عاما (وكان أول أمر يحال إلى محكمة عسكرية في هذه الحرب) هذا وقد قضى من فترة حكمه بحدود السنة أعيد بعدها إلى الجيش قائدا لفرقة مدرعة ثم قائدا للفيلق الأول حيث قتل بعدها بجاذب طائرة سمنية مع البعض من هيئة ركنه قريبا من كركوك في ظروف جوية غير مواتية .

الدخول في مساومات مع الإيرانيين حول ما يتعلق باتفاقية الجزائر أولاً، وما يمكن الحصول عليه من مكاسب تتعلق في عموم منطقة عربستان بالدرجة الثانية .
خاصة وإن القيادة التي طربت لأصوات الانفجارات ، وهدير الدبابات في يومها الأول كانت قد نوهت عن شروط جني الثمار :
بضوء ما اعتقدته (خطأ) من إنجاز هائل لقواتها العسكرية .
وما حققته (وهما) من دور فاعل لحركتها السياسية .
وفي الجانب المقابل أصرت إيران على :
تحدي العراق وعدم الالتفات لمطالبه ، أو حتى قبول مناقشتها .
قبول نتائج الهجوم في صفحته الأولى خسارة قابلة للتعويض في المستقبل القريب .
التهيؤ ، والاستعداد بكل جهد الدولة ، والمؤسسات غير الحكومية إلى القيام بصفحة الهجوم المقابل لاحقاً .
هذا واستندت القيادة الإيرانية في واقعها هذا ، وإصرارها على ديمومة القتال على جملة معطيات من أهمها :
أفراد الحرس الثوري الذي تشكل بأمر من الإمام الخميني عام 1979 من بقايا الأجنحة المسلحة للحركات الثورية الإسلامية التي تعاونت لقلب نظام حكم الشاه، والذين شحنوا شحنا انفعاليا دينيا جيداً²⁷.
إجراءات التعبئة العامة لصفوف الشباب ، والصبية ، والشيوخ²⁸.
توقف زخم الهجوم وتحول القوات العراقية إلى حالة الدفاع .

²⁷ إن تشكيلات الحرس مع بداية الحرب كانت حديثة ، وأعدادهم غير كافية ، وخبرتهم القتالية في الميدان كانت قليلة بحيث لم تساعدهم على استثمار ذلك الشحن بشكل يحول دون السماح للقوات العراقية باجتياز خط الحدود في أكثر من موقع رغم إنهم وعلى سبيل المثال قد أدوا دوراً كبيراً في الدفاع عن المحمرة التي جرى فيها قتال مدني قاس خاضوه مع القوات الخاصة العراقية تمكنوا في نهايته من منع القوات المهاجمة من احتلال الجانب الجنوبي للمدينة ومن ثم الدفاع عن عبادان .

²⁸ إن السريان البطيء لإجراءات التعبئة العامة بداية الحرب ، وتطبيقاتها غير العملية آنذاك لم تؤهلها لدعم الدفاعات الإيرانية غير المتماسكة على طول خط الحدود ، لكنها وبالتعاون مع الحرس الثوري ، وقوات الجيش النظامية ساعدت على إيقاف زخم الهجوم عند القسم الجنوبي من المحمرة ، وقرباً من ديزفول ، وبعمق يزيد على المائة كيلومتر باتجاه مدينة الأحواز .

. العمق الشاسع لساحة الحركات الإيرانية التي يصعب التأثير فيها بشكل حاسم من قبل القوات العراقية المهاجمة بقدرتها القتالية المحدودة .
. حاجة الثورة في بدايتها إلى عدو خارجي يتوحد تجاهه المجتمع الذي يعاني بعض الاضطرابات ، ويلتف بسببه الشعب حول قيادة الثورة .
. ظهور تيار عربي معارض في الجامعة العربية (سوريا وليبيا) لهجوم العراق يفوت الفرصة على حكومته من إمكانية جعل الصراع عربيا . فارسيا بدلا عن واقعه عراقيا . إيرانيا .

نهاية صفحة الحرب الأولى

لقد قاتلت القوات الإيرانية في ظروف خسارة قاسية في الأيام الأولى ، وتمكنت من استيعاب هجوم القوات العراقية ، وتبديد قوة زخمه ، بعد ذلك شعرت وهي تستنهض الهمم بتعبئة دينية مكثفة :
إن بإمكانها الانتقال إلى مرحلة استنزاف القوات العراقية .
أنها قادرة على التطوير باتجاه الهجمات الشاملة لكسب الحرب ، وتدمير النظام القائم في بغداد .

وباتت إثرها مستهزئة من مطالب الحكومة في بغداد ، وغير آبهة للنداءات الدولية بوقف الحرب على حدودها مع العراق .
لقد توقف زخم الهجوم في كافة المحاور قبل أن تحقق الحكومة العراقية أهدافها الحقيقية منه ، والتقط الإيرانيون أنفاسهم فشرعوا في إعادة تنظيم صفوفهم ، وحصلت الدولة على فرصة مناسبة لإكمال إجراءات التعبئة العامة من خلال :
. رفد قوات الحرس الثوري بالمتطوعين الشباب ، وتشكيل وحدات وقيادات جديدة ، وتسليمها مسؤوليات قتالية مستقلة عن الجيش ، أو التعاون معه في بعض الأحيان .
. تشكيل قوات البسيج من المتطوعين (غير الثوريين على الأغلب) وتحديد مهامها في معاونة قوات الجيش والحرس الثوري تبعا لظروف القتال ، والموقف العسكري .
. إعادة بعض الضباط المحالين على التقاعد إلى الخدمة في الجيش خاصة من ذوي الرتب الوسطى ، والصغيرة .

لقد كانت تلك الإجراءات الخاصة بالتعبئة ذات تأثير إيجابي فعال على جبهة القتال بالنسبة للجانب الإيراني ، وهي في الجانب العراقي أجبرت الحكومة العراقية اللجوء إلى صيغة الدفاع المستكن غير الفعال نتيجة إلى الفشل في تقدير الموقف الاستراتيجي على مستوى السياسة العليا للدولة التي لم تكن قد حسبت ردود فعل واستجابات الشارع الإيراني ، إذ اعتقدت أن هناك هوة ، أو فاصلا بينه ، وبين حكومته ذات التوجهات الدينية ، وربما تكون تقديراتها هذه من ضمن الأخطاء التي وقعت فيها إثر عمليات التضليل ، والتسميم السياسي التي نشطت قبل بدأ الحرب بقصد جر الطرفين إلى الشروع بتحقيقها .

وبعد هذا التحول استعادت القوات الإيرانية بعض من معنوياتها التي هبطت كثيرا في أيام الهجوم الأولى ، وشرعت بدفع قوات الحرس الثوري التي دعمت بشكل مباشر من قبل الأمام الخميني في البدء لاستخدام استراتيجية الهجمات القتالية المتفرقة بقصد الإزعاج ، والإرباك بين القوات المدافعة ، والتأثير على المعنويات حيث اعتمدت أسلوب تشكيل مجاميع قتالية صغيرة العدد تتراوح بين العشرة أفراد إلى المائة فرد حسب طبيعة الظروف القائم مجهزة بأسلحة خفيفة ، وصواريخ ضد الدبابات تاو وقاذفات RBG 7 ، وهاونات خفيفة ، وكذلك رشاشات من العيار الثقيل ، وهي مجاميع سريعة الحركة من خلال استخدامها لسيارات الجيب الصغيرة ، مع الاعتماد على خطط استطلاع كفوءة حيث التقرب إلى مسافات التماس ، وأحيانا التغلغل إلى خلف خطوط بعض الوحدات العراقية المتداخلة إضافة إلى تأسيس شبكة مرصد على طول خط التماس كانت تزود مراكز القيادة الإيرانية بالمعلومات اللازمة لنجاح عمل تلك المجاميع ، كما تقوم عن طريق اختصاصيو الهندسة الملحقين بها بفتح ثغرات ، وممرات في حقول الألغام كانت بعض الوحدات المدافعة تعجز في أحيان ليست قليلة من ردمها لما يسببه ذلك من خسائر لها فاكتفت بالسيطرة عليها بالنيران كما تدعي تجاوزا للواقع ، وهو الأمر الذي ساعد على نجاح العديد من الهجمات التي قامت بها تلك المجموعات خاصة التي تنفذ مهامها على شكل غارات ليلية على المواقع المنعزلة ، أو الحساسة ، ومقرات القيادة للوحدات ، والتشكيلات التي ركز الإيرانيون على استهدافها حتى نهاية الحرب .

وأسلوب الإيرانيين هذا في القتال وعلى الرغم من خسارتهم جولة الحرب الأولى تسبب في إيقاع أعداد من العسكريين العراقيين ، وأفراد الجيش الشعبي في الأسر كانت تحتاجه جدا لغرض :

توفير قاعدة معلومات عسكرية مهمة لضبط حركة قواتها على طول خطوط الجبهة ، واختيار الأهداف المهمة بدقة .

تفهم أساليب قتال القوات العراقية التي بضوئها تحدد أساليبها التعبوية ، والسوقية للتعامل مع تلك القوات .

استخدامها لأغراض الحرب النفسية التعبوية الموجهة للعسكريين في الجبهة ، والسوقية الموجهة لعموم العراقيين في الداخل .

والأهم من هذا هو استثمار تلك الهجمات لأغراض الرفع المستمر لمعنويات أفرادها ، والشعب الإيراني وبمستوى أتاح للدولة الإيرانية التحرك بمرونة أكبر، والحصول على دفع قوي ، ومبرر مقنع لمواصلة الحرب .

لقد نجحت القوات الإيرانية باستخدام هذه الاستراتيجية في التعامل مع الموقف الآني ، وطورته لاستخدام أكثر دقة ، وتنظيماً في المواقف اللاحقة فيما بعد الذي ساعدها على إنهاء القوات العراقية ، واستنزاف طاقتها المادية ، والمعنوية ثم الضغط المستمر على كافة الجبهات الأمر الذي أجبر الحكومة العراقية على القيام بنوع من التعبئة في جانبها اعتمد على :

. إشراك المزيد من قطعات الاحتياط العام للدولة في الدفاعات الأمامية بهدف غلق الثغرات ، وتقوية الدفاعات .

. دعوة مواليد جديدة إلى الخدمة الإلزامية ، وأخرى إلى خدمة الاحتياط .
. عمل قوانين خاصة للتعامل مع قتلى الحرب بصيغة الشهداء²⁹، وأخرى مع الجرحى والمفقودين .

. تطويع المزيد من المدنيين من موظفي الدولة ، وأساتذة الجامعات ، والصناعيين ، وغيرهم في قواطع الجيش الشعبي ، التي زادت أعدادها بشكل كبير .
. زيادة رواتب العسكريين ، ومضاعفة مخصص الحرب (الإنذار) .

. تفضيل العمل بالجبهة في مسائل الترقية ، والتنسيب إلى المناصب العليا ، والايادات لأغراض الدراسة ، حتى بات شائعاً قراءة سؤال في كثير من النماذج يشير إلى : هل خدمت في جبهة القتال وما هي المدة ؟ .

. توزيع سيارات صالون إلى الضباط العاملين في الجبهة أسبقية أولى ومن بعدهم ضباط المقر العام ، ومن ثم ضباط الصف ، والجنود المطوعين .

²⁹. عرفت الحكومة العراقية من يقتل في الحرب (خارج حدود العراق في البداية . وبعدها عممته حالة لعموم ساحة المعركة) شهيداً ، وفي حالته يستحق ورثته الشرعيين سيارة صالون ودار سكن ، أو قطعة أرض سكنية ، ومنحة مالية بحدود خمسة آلاف دينار لبنائها داراً ، ويعطى الجريح مبلغاً من المال تبعاً لنوع الجرح ودرجة الإعاقة ، وهذه إجراءات في الواقع دفعت إلى قبول أمر القتال ، وتحمل بعض تبعاته من الناحية النفسية ، ودفعت العائلة من الزاوية الثانية إلى الرضا بابتعاد المعني عنها أبا كان أو زوجاً ، أو ابناً لمستوى بدأت بعض العشائر ، والعوائل العراقية غير الرصينة تتفاخر بعدد شهدائها ، وما حصلت من الحكومة من تعويضات عن أرواحهم.

. إصدار الأوامر بجعل الضباط أعضاء شرف في النوادي ، والجمعيات ، وتقديمهم على الغير في عمليات شراء السلع ، وإنجاز المعاملات .

لقد أفادت تلك الإجراءات التعبوية مد الجبهة بعناصر مقاتلة ، وأعطت المقاتلين فيها مبررات آنية لقبول الضغوط بأقل ما يمكن من الخسارة النفسية ، والمعنوية التي بدأت علامات الضعف فيها تظهر بشكل واضح بمجرد الانتقال من حالة الهجوم إلى الدفاع ، لكنه ومن نواح أخرى تسبب في إرباك إدارة الدولة في أكثر من مجال ، وظهرت بسببه ، وعوامل أخرى ذات صلة بالحرب مشاكل لم تكن الحكومة ومؤسساتها ، والحزب راضين عن مناقشتها³⁰ ، أو حتى سماعها من المختصين بشؤونها ، وغير المختصين .

ومع تلك الإجراءات التعبوية لرفد جبهة القتال بالأشخاص ، ودعم أفرادها بمساعدات المحافظة على الدافعية في القتال ، حاولت القيادة العسكرية العراقية بين فترة وأخرى القيام ببعض الهجمات خاصة في القاطع الجنوبي من الجبهة في محاولة تأكيد فاعلية الدفاع المتحرك ، والسعي لاسترجاع المبادرة التي تحولت إلى الجانب الإيراني لمجرد توقف زخم الهجوم من تجاه العراق .

لكن تلك المحاولات لم تحقق في واقع الحال أية فعالية لتغيير مسار الحرب الذي بدأ يتجه لصالح الإيرانيين عسكريا بعد أن استطاعت حكومتهم والقيادة العسكرية أن تعيد تنظيم الجيش من خلال :

. دمج بعض الفرق ببعضها لتشكيل فرق جديدة .

. المزاوجة في العمل العسكري بين وحدات الحرس ، والجيش النظامي رغم ظهور بعض المشاكل في مجالها ليست لصالح هذا الأسلوب إذ عادة ما تتحرك الوحدات العسكرية ببطء لا يروق لقادة الحرس الثوري المقربين من الدولة

³⁰. في اجتماع لجنة الحرب النفسية العليا للدولة كان يحضره المؤلف آنذاك طرح موضوع ازدياد نسب الدعاية في بغداد وبعض المدن العراقية (دراسة نفسية) كواحدة من مشاكل الحرب الجانبية ، وكانت الغاية من الطرح هي التنبيه إلى الموضوع أملا في تقديم الحلول المناسبة كما تراه الدراسة العلمية قبل استفحاله ظاهرة تخل بتقاليد المجتمع العراقي ، لكن لطيف نصيف جاسم وزير الإعلام الذي كان يرأس الاجتماع رفض مناقشة الموضوع بحجة أن المجتمع العراقي البعثي الجديد لا يمكن أن ينزلق إلى هذا المستوى ، وإن ما مذكور ما هو إلا حالات فردية موجودة في كل المجتمعات البشرية.

وفي اجتماع آخر في تلك الفترة لتدارس الجريمة في المجتمع العراقي برئاسة سمير الشيكلي عضو القيادة القطرية وزير الداخلية حضره المؤلف ممثلاً عن وزارة الدفاع قدم أحد أساتذة علم الاجتماع دراسة عن تنامي معدلات الجرائم الخاصة بالتزوير ، والسرقه ، ونهب الأموال العامة ، اعترض على صيغتها الوزير بشدة ، مؤنباً الباحث على نتائج دراسته التي لا تنسجم مع تقارير ، وإحصاءات مديرية الشرطة العامة ، ودوائر الوزارة المختصة التي بحوزته ، والتي تؤكد أن مستويات الجريمة بشكل عام قد انخفض في العراق إبان تلك الفترة ، وهي لا تنسجم أيضاً وأهداف حزب البعث العربي الاشتراكي في إقامة مجتمع العدل والاستقرار وهذا طرح لا ينسجم في الواقع مع مستويات الجريمة ، ومعدلاتها التي تضاعفت بالعراق كثيراً ، وباتت ملموسة خارج أطر البحث ، والتقصي العلمي.

عندما يتلمسون حركة قواتهم السريعة بعيداً عن السياقات العسكرية التقليدية والذيل الإداري الموجود فقط عند الوحدات العسكرية النظامية ، الأمر الذي يثير كثير من النقد ، والشك الذي يزعج العسكريين .

بيد إن انتقال المبادأة أمر لا يتعلق بالعمل على الجبهة الذي بدأ يزداد فاعلية ، وتنظيماً من الجانب الإيراني ، ويزداد بطئاً ، وخسارة في الجانب العراقي ، بل ويرتبط أيضاً بالعامل السياسي حيث الاستشعار لعدد من الدول بينها الكبرى على وجه الخصوص أن استمرار تفوق العراق ، والإبقاء على خسارة إيران سينهي الحرب بطريقة يكون فيها أحد الجانبين رابحاً قوياً ، والآخر خاسراً بشدة ، وهو الأمر غير المرغوب الذي يخل بالموازن الهشة في منطقة من أكثر المناطق حساسية في العالم ، وأكثرها إنتاجاً للنفط .

وعلى ضوء هذا التحسس بدأت إيران تحصل على دعم عسكري مباشر ، أو غير مباشر من دول بينها أمريكا المورد الأساسي لأسلحتها ، وطيرانها الحربي بعد أن أقحمتها في موضوع الرهائن الدبلوماسيين في سفارتها بطهران ، وبمساومات إطلاق سراحهم لقاء تسهيلات عسكرية الطابع ، وعلى دعم آخر من دول أخرى تناصبها إيران العداء في العلن مثل إسرائيل ، لأن ظروف الحرب ، والرغبة في تعديل الموازين حتمت أن يتعامل المعنيون في المنطقة ومن خارجها بطريقة المصالح الآنية بعيداً عن العواطف ، والأفكار المسبقة . وكان ذلك من بين أهم الأمور التي ساعدت الجانب الإيراني على الوقوف بحزم بالضد من كل محاولات وقف إطلاق النار ، والاستمرار بذات المنحى العسكري أي

الهجمات المحدودة حتى العام 1982 التي تحولت مجريات الحرب فيها بالضد من العراق بعد أن تمكنت بإعادة احتلال المحمرة ليشكل سقوطها بأيديهم نقطة تحول في الحرب استمرت متصلة حتى العام 1987 ، قبل سنة من نهايتها تعادل نسبي بالخسارة بين الطرفين .

الفصل السابع حرب الثماني سنوات الحرب نفسيا

إصرار إيران على أن يكون الثمن تغيير النظام في العراق
أخل بنتيجة المعادلة المطلوبة عالميا لنتائج الحرب،
وعدل من اتجاهات الموقف الدولي لصالح العراق.

ساحة الحرب

توقفت القوات العراقية على الأرض بعد عملية الاجتياح البري يوم 23 أيلول 1980 عند حدود لم تكن قد وضعتها أهدافا لها في تقادير الموقف العسكري قبل بدء الهجوم ، ولم تكن قد حسبتها جيدا بالتقييمات السياسية التي أنجزتها قبل الشروع بتنفيذ خطواته ، ونتائج الحرب النهائية لا تقاس على صفحة من صفحاتها ، ولا على معركة من معاركها ، ومع ذلك فإن نتيجة صفحتها الأولى كانت :

في جانب العراق قد حققت قواته اجتيازا سريعا للحدود في كافة المحاور ، وبمسافات متفاوتة أشعرت الحكومة بالعظمة وبمكائنتها الإقليمية .

ومن جانب إيران كانت تلك الصفحة صدمة شديدة أحست في تطوراتها أن الهدف من نوايا الهجوم كانت الدولة ، وشكل نظام الحكم فاستنفرت كل قواها للحيلولة دون تحقيق ذلك الهدف ، حتى إنها لم تر في المساحة التي احتلت من أرضها ، والمدن التي دمرت مشكلة كبيرة بالمقارنة مع المشكلة الأكبر لو تمكنت الحكومة العراقية من تحقيق نواياها، خاصة وإنها لم تسمح باحتلال المدن الرئيسية في ساحة المعركة حيث بقي مركز مدينة الأحواز عصي على السقوط ، وبقيت مواقع القوات العراقية مسافة عن المدينة تعطيها فقط إمكانية التأثير المدفعي والصاروخي ، وكذلك الحال بالنسبة إلى مدينة ديزفول .

أما المحمرة فالأمر مختلف بالنسبة لها بعض الشيء إذ أن معظم أجزائها خاصة الشمالي قد سقط بيد القوات العراقية ، وبقي الجنوبي أرض حرام مغطى بنيران الأسلحة الخفيفة ، وهذا تقييم ينطبق جزء منه على عبادان التي تطوقها القوات العراقية من غالبية الجهات باستثناء مساحة قليلة بين شط العرب وترعة بهمنشير التي استخدمها الإيرانيون لإسناد قواتهم التي تقاتل في المدينة ، وإدامتها بالأسلحة ، والمعدات والأشخاص بمستوى أكثر من جيد عبر عن الإصرار على التمسك بأهداف الدفاع عن المواقع الاستراتيجية .

إطالة أمد الحرب

كان النجاح التعبوي دفاعا للقوات الإيرانية في أعلاه قد أثر كثيرا على مجريات الحرب ، وإطالة أمدها الذي لم يكن قد حسبته الحكومة العراقية بدقة آنذاك ، لأنها وضعت حروب العرب ، وإسرائيل مثلا للتخطيط ، والتنفيذ وتصرفت على طريقتهم في تقدير الموقف ، وحساب هامش الحركة ، والنتائج دوليا بشكل خاص حتى إنها اعتقدت أن ستة أيام بين الشروع بالهجوم ، والقرار الدولي في 28 أيلول 1980 بالطلب لوقف إطلاق النار كافية لأن يتجه الإيرانيون للموافقة كما كان حال العرب في حروبهم المذكورة تفاديا لمزيد من الخسائر في الوقت الذي توافق فيه إسرائيل على ذلك متحاشية الضغط الدولي الذي يعطيها الضوء الأخضر للمحافظة على الكسب المتحقق في ساحة الحرب ، وتنتهي المعركة في ساعاتها الأخيرة تحرك سريع للإسرائيليين لتوسيع الربح جهد الإمكان ، واحتجاج غير مسموع من قبل العرب على نتائج متفق على غالبيتها بين الكبار لأغراض التوازنات الدولية .

كذلك كان صدام حسين الذي لم يتمكن من إدارة المعركة السياسية بالقدر الذي ينسجم ، والنتائج المتحققة للمعركة عسكريا ، فوقع في مأزق إطالة أمد الحرب المطلوب دوليا ، وإقليميا دون أن يعي ذلك ، وكذلك حكومته التي عبر على لسانها طه ياسين رمضان عضو القيادة القطرية ، وقائد الجيش الشعبي بعد إعلان إيران عدم موافقتها على قرار مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار في لقاء عام متلفز قائلا :
(أن العراق مستعد للاستمرار في القتال ثلاثة أشهر أخرى) .

تقدير انفعالي لزمّن معركة كان وقوعه على العراقيين مثل الزلزال ، وإدراك ناقص لمعطيات الحرب ، ومعارك السياسة سحبهم إلى الاستمرار بها ثمان سنوات مستمرة :
حيث يريد الكبار وقتا كافيا لتحديد نتائجها :

تعادل نسبي في مستويات الدمار لكلا الجانبين كافيا للتأثير على حاضرهما ، والمستقبل .
وأن يحسها كل طرف من أطرافها انتصارا على الخصم في مجال الحيلولة دون تحقيق النوايا .

وتريد إيران إستراتيجية فاعلة في القتال راهنت عليه عاملا حاسما لتنفيذ نواياها في الانتقام ، وتحقيق نصر للثورة الفتية على الكفر ، وإسقاط النظام البعثي .

لكنها هي الأخرى لم تكن موفقة في تقدير حقيقة الموقف الدولي الذي ، أسهم في تقوية العراق ودفعه لأن يدخلها ، وأسهم للحد من تفوقه بعد صفحتها الأولى ، وأسهم كذلك في التعويض عن بعض حاجاتها " إيران " من الأسلحة ، والأدوات الاحتياطية سعيا منه لتجنيبها الخسارة التامة التي قد تضطر بسببها إلى وقف الحرب قبل أوانها .

التعبئة النفسية الإيرانية للحرب

لقد أصرت إيران على الاستمرار في الحرب ، وقادتها من رجال الدين يعتقدون أن الثمن قد دفع من قبل إيران ، وبقي الثمن المطلوب من الجانب العراقي مستفيدين من قدرتهم على التعبئة الدينية لمشاعر وانفعالات الشارع الإيراني باختلاف مشاربه ، وقومياته ، فعملوا بكل جهدهم على تحويل تلك المشاعر إلى مطالب لمحاربة البعث العراقي ، وصدام التي صنفتهم في عقول ذلك الجمهور من بين الكفار الذين يقفون بالضد من إسلام تحاول الثورة تطبيقه نظاما في الحكم لأول مرة على الأرض الإسلامية .

وقد حققت نجاحا ملموسا في هذا المجال ، واستفادت من بعض وقائعه بعد فترة من بدء الحرب لضرب المعارضة التي بدأت مؤثراتها تظهر بشكل واضح على بعض شرائح الشارع الإيراني ، حيث استطاعت بضوئه إقناع الجمهور العادي أن أية معارضة لنظام الحكم تعني توافقا مع صدام في حربه من إيران ، وحققت كذلك كسبا لمعركتها مع المعارضة التي انتهت قدراتها على القيام بالفعل المؤثر في الثورة بعد قليل من هجوم العراق.

وفي جهدها النفسي السياسي الموجه للخارج تمكنت أن تستفيد من العداء التقليدي لجناحي حزب البعث الحاكم في سوريا ، والعراق وكسبتها أي سوريا إلى جانبها في تأييد مواقفها من استمرار الحرب ، والوقوف ضد تحرك العراق في الجامعة العربية ، والمحافل الدولية جهد الإمكان ، وكذلك كسب ليبيا التي ارتكبت حكومة العراق أخطاء عدة في التعامل مع قائدها العقيد القذافي قبل مجيء صدام للحكم ، وما بعده على وجه الخصوص حيث :

التقديم المستمر للدعم العسكري ، والمالي إلى تشاد في حربها ضد ليبيا على شريط أوزو الحدودي .

منحها ملايين الدولارات لبعض المنظمات الإرهابية الدولية لاغتيال القذافي الذي طرح نفسه داعية للقومية العربية ، وخليفة لجمال عبد الناصر مما يتنافى تماما ، وخطط البعث الحاكم في تأكيد وجوده حزبا قوميا تقدميا اشتراكيا مؤهلا فقط أن يكون راعيا للقومية العربية ، وتتنافى كذلك مع نوايا صدام حسين في أن يكون جمال عبد الناصر الجديد .

الأمر الذي سهل الطريق على إيران في كسب ود ليبيا حد التأييد السياسي في إطار الجامعة العربية والمحافل الدولية ، والدعم العسكري المباشر في ساحة المعركة³¹.
ذاك على الجانب الاستراتيجي العام ، أما على المستوى التعبوي فقد نسبت القيادة موجهها دينيا للوحدات العاملة ، واجبه تثقيف المقاتلين فقهيا ، وإثارة مشاعر عدائهم بالضد من عدوهم ، ومحاولة تعزيز فكرة الجهاد في عقولهم، وكانت مسألة الدخول إلى الجنة هي المحور الأساسي لعملية التوعية والتثقيف لأغراض التعبئة النفسية ، وفي مجالها كما أورد بعض القادة الميدانيين العراقيين أنهم قد وجدوا مع الأسرى الإيرانيين مفاتيح متشابهة ، تبين من الاستفسار عن وجودها عند الكثيرين ، أنها مفاتيح سميت بمفاتيح الجنة تم تزويد المقاتلين بها من قبل المرشد الديني لإقناع المعننين ضمان الحصول على مكان لحاملها في الجنة ، وتلك روايات تكررت كثيرا بين القادة والأميرين العراقيين ، وكتبت في المواقف الرسمية ، لكنها موضوع لم تتم الإشارة إليه من قبل الجانب الإيراني كأسلوب للتعبئة .

كما كان العمل النفسي يستند برمته على تعزيز التوجه الديني ، من خلال المحاضرات ، وعقد الندوات ، وإقامة المآتم الحسينية والتذكير بمصيبة الحسين (ع) في كربلاء التي حاول أولئك الموجهون أن يوجدوا لها اقترانا شرطيا مع واقع الحرب التي يقوم بها صدام في عقول المتلقين ، وبيقوا على أساسه صدام في ذاكرتهم يزيد بن معاوية ، الذي يكرهه الإيرانيون حد المقت لدوره في مقتل الحسين (ع) بن بنت رسول الله (ص) وعائلته.
هذا بالإضافة إلى إعطاء تسميات دينية لأهم الفرق والتشكيلات الفاعلة على الجبهة مثل الفرقة 25 كربلاء ، وفرقة أبو الفضل ، وبيت المقدس ، وعاشوراء حيث أعطت تلك الجهود ثمارا جيدة ، وأقنعت المقاتل الإيراني في هذه المرحلة بان قتاله العراق (صدام) لأهداف دينية الطابع .

³¹. أرسلت ليبيا صواريخ سكود مع طواقمها إلى إيران إبان اشتداد قصف المدن الإيرانية بالصواريخ الاستراتيجية في السنة الأولى من الحرب ، وبقيت فترة طويلة تنكر هذا الدعم ، لكنها وبعد تقديم العراق معلومات استخبارية ، وتأكيدها من مصادر دولية عادت واعترفت بأمر إرسالها تلك القواعد المتحركة بحجة الردع الصاروخي ، وتجنيب المدنيين في كلا البلدين المسلمين آثارها المدمرة ، وعموما سجل العراقيون في ذاكرتهم أن أول صاروخ يقع على بغداد العاصمة (عمارة مصرف الرافدين في شارع الرشيد) كان ليبيا .

التعبئة النفسية العراقية للحرب

في الجانب العراقي لم تستطع القيادة في جهدها الموجه إلى الداخل من أن تحافظ على قوة الزخم المعنوي الذي صاحب بداية الهجوم .
وظهرت بعد أسابيع من حدوثه حالات من التردد .
ومصاعب في القيام ببعض الفعاليات .
ودخلت الحكومة بأجهزتها المتعددة في خضم معارك جانبية للإدارة ، والدعم المعنوي .

وبدأ العراقيون يحصون النتائج المترتبة على الحرب ، وظهرت على السطح تساؤلات كثيرة عن :

دوافع القيام بحرب لا يمكن أن تحقق هدف إسقاط النظام القائم في طهران .
وعن جدوى الاستمرار بها ، وهي عاجزة عن إعادة إقليم عربستان ، أو حتى مدينة من مدنها مثل المحمرة ، والأحواز التي تم التأكيد على أنها أرض عراقية عربية ، واستعادتها هدف من أهداف الحرب .

وبدأ الشارع العراقي يحصي عدد القتلى الملفوفة توابعيتهم شهداء بالأعلام العراقية .
وتوسعت مساحة المقابر في النجف الأشرف ، وفي بغداد الكرخ وباقي محافظات الشمال .
وبدأ التملل بالضد من الحرب يظهر في اللقاءات الخاصة للضباط ، وفي الجلسات المغلقة للحزبيين .

وتحولت القيادة بسرعة إلى سياسة العصي ، والدينار لإدامة فعل الحرب ، والمساعدة على تحمل ضغوطها ، وتوجهت إلى إصدار أوامرها في التعامل بقسوة مع الضباط ، وضباط الصف ، والجنود الذين يشك بعدم تنفيذهم الأوامر بالطريقة التي تريدها القيادة سعياً للانتحار في بعض الأحيان .

واشتعلت حمى التصفيات على أساس النوايا من الحرب ، والموقف من استمرارها .
وبدأ التعامل مع الواقع العسكري العراقي بشكل طائفي شبه معلن .
إذ يفسر على سبيل المثال تقصير ضابط من المحافظات العربية الشمالية في معركة ما ، أو تقديره لموقف خطأ فيها مخالفة مهنية قد يعاقب عليها بإفادات نظر أو قطع راتب ، أو

السجن لعدة سنوات في الوقت الذي يدفع إلى الموت³²، أو يعاقب بالإعدام ضابط من الجنوب العراقي ، أو كوردي من الشمال على نفس المخالفة، وإعدامه أو دفعه إلى الموت يتم على ضوء النوايا الطائفية من إيران التي تفترضها الحكومة ، والحزب في سلوك ذلك الضابط وإن لم تكن موجودة. لأن الضباط ، وعموم العسكريين العراقيين قد ورثوا مهنية عسكرية مقبولة على مدى نصف قرن من تأسيس الجيش العراقي ما قبل البعثيين . ولم تسجل حوادث في مسيرتهم آنذاك لتصرف، أو عصيان للأوامر العسكرية على الأساس الطائفي رغم إقحام الجيش العراقي في معارك، وحروب داخلية بالضد من العشائر الجنوبية عدة مرات. وكذلك بالضد من العشائر الكوردية بصفة شبه مستمرة، ورغم دخوله المدن العراقية ، والقصبات لذات الغرض كثير من الأحيان. هذا وفي ذات الاتجاه الخاص بالتعبئة فتحت الحكومة خزائنها للعسكر دون تحفظ. وسنت القوانين³³ الداعمة

³². العميد الركن قوات خاصة عباس مزعل ضابط من أهالي محافظة بابل تدرج في المناصب العسكرية من آمر فصيل حتى آمر لواءآخر منصب كان يشغله في معارك شرق ميسان ، حيث حققت القوات الإيرانية خرقا في ذاك القاطع عام 1984 أوصل بعض أفرادها إلى الطريق العام بصرة عمارة وتعرض اللواء الذي كان يقوده العميد عباس إلى الإبادة لتكراره الهجوم المقابل على قوات تفوقه في العدة ، والعدد أكثر من مرة بأمر أعضاء القيادة العامة الموجودين على أرض المعركة آنذاك (اللواء الركن عبد الجواد ذنون ، واللواء الركن هشام صباح الفخري) وعندما لم يتبق من اللواء غير أمره ومقدم اللواء والمراسل ، نادى اللواء هشام على العميد وهو في حالة التعب الشديد ، طالبا منه الهجوم على العدو ، حيث بادره العميد بأي قطعات أجهز وأنتم تعرفون سيدي خسائر اللواء . عندها رد عليه اللواء (أجهز بروحك). عندها فهم العميد المعروف بشجاعته أن حياته باتت ثمنا للخسارة ، وتفسير خاطئ للنوايا، فقال في الحال سوف أثبت لكم إني لست خائنا أو جبانا، وأمر مراسله أن يعود ليخبر أهله بنهايته، وتوجه صوب القوات الإيرانية ماشيا دون أي تردد ، وبيده مسدسه حتى أُردي قتيلًا بطلقات القناصة الإيرانيين، بعد أكثر من مئتي متر من المرصد الذي يتواجد فيه أعضاء القيادة المذكورين ، وهم يراقبون نهايته بمراقب ميداني.

³³. إذ وبالإضافة إلى السيارة، والأرض السكنية المنوه عنها ، سنت الحكومة نظام الأنواط، أو غيرت من نظامه الموجود أصلا في الجيش العراقي ليكون ذا طابع مادي أكثر من المعنوي . إذ بدأت بمنح أنواط الشجاعة ، ومنحه يعني حصول المعني على إكرامية مالية تصل إلى خمسة آلاف دينار . وبعد أن كثر الممنوحين أنواطاً للشجاعة ، سنت قانونا متمما له يعد كل من يحصل على ثلاث أنواط شجاعة صديقا للرئيس ، وهي صفة تعني مبلغا من المال دفعة أولى ، وسيارة صالون ، وقطعة أرض زراعية ، ومخصصات شهرية تضاف على راتبه الشهري ، وعوائد أخرى في التعامل مع دوائر الدولة ومؤسساتها ، والاستفادة من قروضها ، وتسهيلاتهما. وكذلك الحال بالنسبة إلى أنواط الرافدين ، وسيف القادسية اللذان يحصل حاملهما صفة صديق الرئيس التي تسمح لأولاده بالإضافة إلى الجوانب المادية المذكورة ، وأخرى غيرها الحصول على خمس درجات على المعدل العام في الامتحانات الوزارية ، حتى بدأ بعض الطلاب يقدمون إلى الكليات ومعدلاتهم تزيد عن المائة بالمئة . وفي فترة لاحقة من الحرب منحت مخصصات منصب مضافة إلى الأمرين والقادة ، ومكرمات محددة لهم وللضباط بدرجة مدراء ، ومن ثم للحزبين بدرجة عضو قيادة فرقة فما فوق .

لأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية. تلك الإجراءات التي حققت نجاحا ملموسا لتأمين غاية القيادة في تعبئة المجتمع، العراقي للحرب طويلة الأمد، إذ تبين الشواهد : ارتفاع عدد الطلاب الراغبين بالدراسة في الكليات العسكرية عدة أضعاف . زيادة نسب الراغبين بالدراسة في التخصصات العلمية على نفقة وزارة الدفاع . تقدم الآلاف الشباب للتطوع ضباط صف ، وجنود في مختلف الصنوف، والأهم منها بدأت العائلة العراقية الفقيرة تقبل مسألة الموت بحزن أقل مما هو معهود في التراث العربي الإسلامي ، لأن موت أحد أبنائها شهيدا في المعركة ينقلها سريعا من الفقر المتقع إلى الغنى الموسر بحسابات تلك الفترة الزمنية القاسية . لكن إجراءات التعبئة لم تتوقف على الجانب الإيجابي ذو الصلة المباشرة بالترغيب ، بل وكذلك في جانبه السلبي الخاص بالردع العقابي ، أو ما يسمى بكف السلوك غير المرغوب بالنسبة لها أي الحكومة ، وفي هذا المجال شكلت لجان سميت بلجان منع التسرب من التوجيه السياسي، والاستخبارات العسكرية ، والحزب ، والانضباط العسكري، تنتشر على شكل مفارز خلف خطوط القتال ، وفي عقد المواصلات ، والنقاط المهمة من جبهة القتال، وتنفذ حكم الإعدام فورا لمن تقدر أنه قد انسحب من أرض المعركة دون سبب عسكري مقبول، كما شرعت قوانين للإعدام في أرض المعركة³⁴ لمن ينسحب دون أمر

³⁴. * المقدم الركن برهان إبراهيم كان ضابطا في مقر الانضباط العسكري ببغداد يوم صدر أمر نقله إلى الجبهة مع ضباط آخرين على أعقاب توجيه من قبل القيادة بنقل كافة الضباط الذين مضى على وجودهم خارج الجبهة لمدة سنتين ، أو لم يسبق لهم العمل فيها ، وكان تنسيبه أمر فوج في الفيلق الثاني . وبعد التحاقه إلى المنصب بأيام حصل هجوم إيراني على مواضع وحدته ، فأدار المعركة بشكل جيد ، وبقي يقاتل في مكانه رغم تحقيق الإيرانيين خرقا في مواضع أخرى تجاوره، وكان هذا عملا عده الفيلق ، والقيادة العامة بطوليا لأن صموده كان عاملا لنجاح الهجوم المقابل على الإيرانيين ، وإعادة الموقف إلى سابق عهده ، وعلى أساس بطولته هذه أمر القائد العام بمنحه رتبة عسكرية كاملة ، ونوط شجاعة ، ونقله إلى أمر لواء في نفس الفرقة ، على أن يجري تقليده هذا التكريم ميدانيا أمام جنوده ، وفعلا توجه الفريق الركن عدنان خير الله إلى مقر الفوج بعد أن انتهت المعركة ، وقلد المقدم رتبة العقيد ، ونوط الشجاعة ، وسلمه مفاتيح سيارة صالون حديثة ، بعدها أصبح العقيد الركن برهان مثالا في الجيش العراقي ترد حادثة تكريمه على لسان الجميع ، لكن صورته بطلا في المعركة لم تستمر طويلا إذ لم يمض شهرين على حادثة التكريم هذه حتى عاود الإيرانيون هجومهم على القاطع ، ومن مواضع اللواء الذي يقوده العقيد برهان ، وقاتل جيدا كعهده السابق إلا أن تفوق الإيرانيين هذه المرة كان ساحقا ، وأبيدت قوة اللواء في ساعات أغضبت قائد الفيلق اللواء الركن طه الشكرجي الذي كان أكثر قادة الفيلق ميلا لتوجيه عقوبة الإعدام ميدانيا ، فقام بإعدامه أمام القليل المتبقي من جنوده ، وضباط من وحدات أخرى ، وانتهى العقيد متهما بالجبن ، والتخاذل في ذات الساحة التي أعلنت شأنه بطلا من أبطال القادسية.

واضح، وأعطت الصلاحيات للآمرين ، وضباط الأمن الشباب في تنفيذ ذلك .
أطلقت العنان للجميع أن يراقب الجميع .
شجعت الجميع أن يكتب على الجميع .
تلك الإجراءات ، وغيرها كثيرة اتخذتها الحكومة ، والقيادة العامة للقوات المسلحة في الحرب ، وبأمر وتوجيه مباشر من القائد العام دون أن تضع في الحسبان آثارها الجانبية المستقبلية .
هذا وعند النظر إلى تلك الإجراءات من الزاوية المادية المجردة فقط يمكن القول :
أنها في الواقع حققت نجاحا ملموسا في الإطار العام للتعبئة الآنية .
لكن النظر إليها من الزاوية النفسية يدفع إلى التأكيد على :
أنها كارثة أخلت كثيرا بتقاليد الجيش العراقي ، وبمعالم انضباطه العسكري .
وجعلت الضباط القادة على وجه الخصوص يعيشون حالة خوف مستمرة من احتمالات انتقامهم بالتقصير والخطأ .
وحالة قلق دائمة من إمكانية الحكم عليهم في ساعات الانفعال الشديد التي كثيرا ما يتعرض لها القائد العام ، ليعود من بعدها ويحسب الضحية شهيدا
يغدق على أهله بالهدايا وسبل التكريم ، بشكل غير طبيعي كما هو حال إعدامه بشكل غير طبيعي³⁵.
إن القيادة العامة التي أدارت عملية التعبئة، وتهيئة الوقود اللازم للمعركة بشكل مستمر لم تتوقف عند حدود الثواب، والعقاب في تغيير السلوك العسكري بما يتفق وحالة الحرب، بل ونفذت ضمنا الكثير من المفردات، بينها على سبيل المثال:

³⁵ تكررت حالات الإعدام بين الضباط ، والقادة العسكريين بالأمر الفوري من قبل القائد العام ، وقادة الفيلق والفرق ، ويتبين لاحقا أن العديد من المعدومين لا علاقة لهم بالتهمة التي وجهت إليهم ، ولكثرتها من جانب ، وعدم التخلي عنها أسلوب ردع ميداني من جانب آخر ، توجهت القيادة إلى عد المعدوم من هذا النوع شهيدا ، ومنح عائلته بما يستحقه الشهيد من مكاسب مادية ، مع كتاب رسمي بالاعتذار على إعدامه الخطأ ، كما حصل للواء الركن صلاح القاضي قائد الفيلق الثالث عام 1982 إثر معارك المحمرة وغيره كثيرين، ويبدو من تكرار هذه الحالة والإصرار على عدم التخلي عنها أنها لا تتعلق بإنصاف الضابط المعدوم ، ولا بتأنيب الضمير على الأمر بموته خطأ ، وإنما تتصل مباشرة :
بموامل التحسب من الثأر التي انتشرت كثيرا في المجتمع العراقي. وبعدد رغبة القائد العام في توحيد مشاعر ذوي المعدومين الذين يتزايدون بالصد من عائلته ، ونظام حكمه.

. الدفع لأن يكون اختيار القادة العسكريين على أساس طائفي ، مناطقي يفضل على وفقه من كان تكريتيا أسبقية أولى ، ومن بعده درجة ثانية الذي يأتي من بين مثلث الجزيرة شمال بغداد ، وهكذا نزولا إلى العرب من الجنوب درجة ثالثة، وفي الدرجة الرابعة، والخامسة ، والسادسة من كان تركمانيا ، أو كرديا ثم مسيحيا في آخر القائمة .

. سد الحاجة إلى الشباب كضباط في الأجهزة الأمنية الرئيسية، وكأمري فصائل ، وسرايا في الحرس الخاص والجمهوري ، من بين أهالي تكريت حصرا ، وتهيئتهم بسرعة ، لمناصب أمنية ، وكذلك إلى مناصب القيادة ، والركن مستقبلا³⁶.

وبذا كونت الحكومة قاعدة لتنفيذ الأوامر العسكرية بضوابط مختلفة :

تجمع الرغبة والإذعان ، والتسليم بالأمر الواقع من جانب .

والخشية ، والخوف ، والتوجس من جانب آخر .

وهي القاعدة التي أدت نتائج تطبيقها إلى:

سوق العراقيين إلى الحرب أفواجا ، وحسب متطلبات تعويض الخسائر ، وتشكيل وحدات جديدة، مع خراب قيمي، وحالة نفسية متردية ستبقى انعكاساتها السلبية على الشخصية العراقية ، وعلى العراق عشرات السنين مع افتراض وجود حكام وطنيين مصلحين مستقبلا ، إذ رسخت معايير خطأ في السلوك الفردي ، والجمعي العراقي قوامها على سبيل المثال :

. توجه آباء إلى قيادة الفرقة الحزبية ، أو المركز الأمني يخبروا عن أبنائهم الهارين من الجحيم ، يقودوهم إلى الإعدام طوعا بيد ترتجف ، ومشاعر متبلدة أملًا بالحصول على

³⁶. تولى برزان إبراهيم التكريتي الأخ غير الشقيق إلى صدام حسين رئيس جهاز المخابرات آنذاك خطة سرية لمنح شهادات الثانوية العامة إلى مئات من الطلبة الفاشلين فيها من أهالي تكريت، والقرى المحيطة بها عن طريق التزوير في تصليح دفاتر الامتحانات التي تعزل فيها منطقة تكريت الامتحانية عن مناطق العراق الأخرى، وتنسيب مشرفين خاصين للمراقبة على القاعات الامتحانية في تكريت يأمرهم بالسماح للمتشحين الاطلاع على الإجابة التي تدخل القاعات من آخرين موجودين في خارجها، ثم تقديم قوائم من اللذين لم يصلوا السادس الثانوي إلى الرئيس لقبولهم في الكليات المطلوبة تجاوزا على الشروط الخاصة بالتحصيل، وبعد تلك الخطوة أشرف عن طريق مكتبة الخاص على قبولهم في الكليات العسكرية، وكلية الأمن القومي ليكونوا ضباط أمن ، واستخبارات في القوات المسلحة، والأجهزة الأمنية، وفي حمايات الخاصة، والحرس الجمهوري والخاص على أمل أن يتولوا مناصب قيادية في المستقبل تضمن حكم العائلة إلى ما لا نهاية كما كانوا يعتقدون .

تكريم القائد يحلون به مشاكلهم المالية ، وينتقلون على أساسه إلى خانة الغنى بعد أن أقعدهم الفقر فترة طويلة من الزمن .

رقص عجوز في أواخر عمرها بحضرة القائد مغتبطة بمقتل ثلاثة من أولادها الشباب عارضة الرابع ، والأخير قربانا لقادسيته في نية لها لا تتجاوز الحصول على مكارمه المادية .

جلوس شيخ عشيرة في مضيفه مغتبطا بتقديم عشيرته عدد من القتلى يفوق العشيرة التي تجاوزته دون أن يدرك معنى الاستشهاد ، بهدف الحصول على حضوة عند القائد .

جري الرفاق العسكر في الوحدة ، والتشكيل ، والقيادة لكتابة التقارير على زملائهم سعيا محمومًا لإزاحتهم من المنصب الذي يخططون القفز إليه في وهم الولاء الحزبي ، وخارج سياقات الكفاءة ، والمعايير العسكرية ، أو للحصول على مكرمة القائد سيارة صالون حديثة .

استشراء الإدعاء الباطل بالنجاحات العسكرية للذات الشخصية بشكل واسع ، وتسجيل الإنجازات للأقرباء ، والأصدقاء ، وأبناء العشيرة ، والطائفة بصورة شبه عامة ، حتى حصل المئات على أنواط الشجاعة وهم في بيوتهم يتمتعون بالإجازات الدورية أو المرضية ، ومنح العديد من مراسلي القادة³⁷ رتب ضباط في معارك يدعون فيها الاستبسال وهم يهيئون موائد الجلسات الخاصة .

تخلي عديد من الضباط الأمرين عن خاصية الإيثار ، والقذوة في قيادة وحداتهم لمستوى استشرى فيه داء التسيب واللاأبالية .

تلك معايير خطأ ، وغيرها أخرى لا يتسع المجال إلى ذكرها كونت بين المنتسبين :

³⁷ . * حضر وفد صحفي كويتي إلى الفيلق السابع في مقره على طريق البصرة الفاو عام 1986 ، والتقى به اللواء الركن ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق مستعرضا بطولات الفيلق ، وفي خلالها نادى على ضابط شاب كان يقف في الباب المقابلة حاملا بندقية آلية ، ليجلب له إضبارة من رئيس أركانه ، ملتفتا إلى الجمع الصحفي ، ليقول (رأيت هذا الضابط ، كان جنديا مراسلا لي إبان معارك الفاو ، وأنا من منحه رتبة ملازم لشجاعته ، رغم ضعف ذكاءه..... تصوروا أنه لا يستطيع تأدية امتحان الترقية لرتبة ملازم أول لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب) ، عندها صمت الصحفيون لهذه المداخلة التي لم يجدوا لها تفسيرًا في سياقات حديث القائد ، والتفت الضباط الموجودين في المؤتمر خجلا من إهانة الرتبة العسكرية التي حصلوا عليها بتعب السنين ، رغم علمهم أن هذا المراسل القريب من القائد ليس هو الوحيد ممن حصل على الرتبة العسكرية (بشخطة قلم) كما يقول العراقيون .

سلوك القتال بطريقة تضمن المحافظة على البقاء جهد الإمكان ، وأداء عام يعبر عن الرغبة في إيقاف الحرب بأي ثمن³⁸. إذ أن الملاحظ على سلوك المقاتلين وفي عديد من المواقف أنهم باتوا يظهرون عدم الاندفاع كتعبير غير مباشر عن مخالفتهم الأوامر التي كانت تصدر إليهم من آمريهم ، وقادتهم كانعكاس لما يريده القائد العام ، وهذا يعني أن أولئك المقاتلين الذين يمثلون تشكيلة المجتمع العراقي كانوا يعبرون بأدائهم المتدني ودافعيتهم الضعيفة عن تمنيات بوقف الحرب أيا كانت النتائج ، ولم يكن في مقدورهم عمل شيء من أجل هذا سوى المزيد من التكاثر وعدم الاهتمام . فكان قتالا بعد فترة الانتقال للدفاع بأداء متدن يختلف كثيرا عن الأداء التقليدي للجيش العراقي ، أو بمعنى أدق يختلف كثيرا عن بداية الحرب خاصة مع اختفاء الجيل الأول من العسكر العراقي بالموت استشهادا ، أو بالعزل ، والطرده والإعدام ، وبروز الجيل الثاني ، والثالث من الضباط الذين حُسم أمر تنسيبهم إلى المناصب على أساس الولاء ، والنوايا المحتملة من الحكم ، والحاكم الأعلى صدام حسين . ذاك على المستوى الاستراتيجي أما مفردات التعبئة النفسية على المستوى التعبوي فقد أخذها التوجيه السياسي على عاتقه يعاونه في ذلك التنظيم الحزبي العسكري الذي ينتشر هرما يوازي الهرم العسكري في عموم القوات المسلحة ، وتقدم له المعلومات اللازمة في هذا الجانب شعبة الاستخبارات النفسية في مديرية الاستخبارات العسكرية العامة . وكانت المفردات التي يجري التركيز عليها لأغراض التعبئة النفسية مختلفة عن تلك التي كان الإيرانيون يعتمدونها ، حيث الابتعاد عن ما يتعلق بالدين ، وتناول بعض جوانب

³⁸. ورد في المواقف الخاصة بتقييم الأداء القتالي على سبيل المثال قيام دوريات قتال مكلفة بالعمل في أرض الحرام بعبور الثغرة الموجودة في حقل الألغام والاختباء في مكان أمين حتى انتهاء موعد عودتها لتكتب تقريرا بإنجاز المهمة ، كذلك تعود الكثير من الضباط ، والأميرين عدم النقاش فيما يتعلق بالأوامر الصادرة لهم لتنفيذ مهام خطيرة ، وإن كان غير ممكن تنفيذها عمليا ، والاكتفاء بدلا عن ذلك بصياغة الحجج لتبرير عدم دقة تنفيذها لاحقا ، والإصاقة بقوة العدو الهائلة مثلا رغم عدم وجودها في الأصل ، أو الادعاء بالتنفيذ لبعض الواجبات التي يصعب قياس مردود تنفيذها، كما إن أداء المقاتلين في أكثر من معركة يبين رصده نفسيا أنه كان مجردا من التنفيذ الصحيح لقواعد وأساليب القتال التقليدية، حيث الميل لا شعوريا بقبول حصول الخسارة في المعركة أملا أن تحسم الموقف في إيقاف إطلاق النار، كما كان واضحا في معركة المحمرة.

الوطنية ، والتمجيد بدور القائد العام عن طريق أدوات عديدة يكمل بعضها البعض الآخر بينها :

صحيفة القادسية التي تصدرها الدائرة المذكورة يوميا ، وترقى في مستواها إلى مصاف الصحف الرسمية الأخرى .

الكراسات ، والمحاضرات المطبوعة ، والندوات المصورة التي تصدرها مديرية الثقافة في الدائرة المذكورة .

الإصدارات ذات الأبعاد النفسية التي تعدها مديرية البحوث والخدمات النفسية ، وتوزعها على عموم القوات المسلحة .

المنشورات ، التي تسقطها طائرات الحرب النفسية ، والنداءات التي توجهها تلك الطائرات ، ومفارز العجلات إلى القوات أثناء المعارك وفي حالات العزل والتطويق .

خطب ، وأحاديث القائد العام التي كانت تسجل على أشرطة فيديو ، أو تسجيل صوتي ، وتطبع على شكل كراسيس بأحجام مختلفة ، وتوزع على القوات من قبل مديرية الثقافة .

بناء دور لاستراحة المقاتلين في جميع قواطع العمليات ، يمر عليها المقاتلون في الذهاب إلى الإجازة ، وعند الالتحاق منها ، لأغراض التخلص من بعض انفعالات المعركة غير المطلوب نقلها إلى المدنيين في الداخل ، والتخلص من شوائب الحياة المدنية ، غير المطلوب تأثيرها على العمل العسكري .

إقامة الحفلات الترفيهية التثقيفية (يمكن من خلالها حقن المقاتلين بالمشاعر الوطنية) في المناسبات الوطنية ، وعند ملائمة الموقف العسكري ذلك .

إن تلك الإجراءات الخاصة بالتعبئة النفسية ورفع المعنويات ، وعند محاولة تقييم تأثيراتها بضوء النتائج المتحققة يمكن القول :

أن القيادة بواسطتها ، وأعمال أخرى إضافية استطاعت أن تديم زخم المعركة الانفعالي بمستوى مقبول .

وإنها قد تمكنت أيضا أن تستعيد مستوى معقول من المعنويات آتيا ، يفي بالحاجة إلى تنفيذ مهام القتال في الزمان والمكان المحددين . رغم الانتكاسات الكثيرة التي تعرضت لها

معنويات المنتسبين طوال الثماني سنوات من الحرب المستمرة .

وفي مجال التقييم أيضا يمكن القول :

إن تلك الإجراءات التي نفذتها دائرة التوجيه السياسي ، والحزب بطريقة الحشر القسري ، لم تكون قناعات بالقتال من أجل الوطن ، وبما يجعل مستوى المعنويات أكثر استقرارا . كما إنها ومن زوايا أخرى لم تكن قادرة على تكوين سلوك الاندفاع ذاتيا إلى القتال ، بل والتوجه إليها بدوافع أخرى خارجية سرعان ما ينتهي مفعولها مع الصدام المباشر بالخصم ، ويكون في حالته المقاتلين مقسمين بضوء الدوافع إلى مجاميع غير متجانسة معنويا تسببت في كثير من حالات التسرب ، والانسحاب غير المنظم من أرض المعركة . كذلك لم تتمكن إجراءات التعبئة ، وضغوط الحزب ، ومحاولات الأمرين أن تكون أداء منضبطا ، أو المحافظة على أداء المقاتلين العراقيين كما كان قبل الحرب ، إذ وبسبب تطبيقاتها القسرية دفعت أن يكون الأداء الغالب للمقاتلين ظاهريا أي استعراضيا غايته إقناع الأعلى ، والتخلص من عقابه ، وهذا من وجهة النظر العملية أسوء أنواع الأداء . من هذا يمكن الاستنتاج أن إجراءات التعبئة النفسية في الجانب العراقي أفادت القيادة في: تهيئة المقاتلين إلى قبول الاستمرار بالحرب . مكنتها من سد التعويض بالخسائر بسرعة كبيرة . كونت في داخل العسكر ، قبولا بالأمر الواقع ، وميلا للتكيف إليه رغم الخسارة الداخلية في الذات الإنسانية . وتلك الإيجابيات التي سجلت للقيادة ، في مسألة التعبئة النفسية قد أضرت القوات المسلحة في جوانب كثيرة منها بعد أن أدت إلى تكوين : حالة نفسية غير مستقرة ، أو هشّة لغالبية المنتسبين يمكن التأثير عليها سلبا من قبل الخصم ، وبأقل الجهود . امتلأت ذاكرة العسكر جميعا بمفرات الوطنية ، والقومية في ظروف الضغط، والتعب الشديد ، فتكون إحياء مضادا في العقل العسكري بالضد من تلك المفردات ، وأضعفت بالنتيجة المشاعر الوطنية التي لم تستخدم عاملا من عوامل رفع المعنويات ، وتحسين الأداء في ظروف الشدة . إن كثرة الإجراءات ، وتعدد مصادرها ، والإلحاح على تعميمها دون الاستناد إلى المعايير العلمية في مثل حالاتها دفع المعنيين بها إلى سلوك إسقاط الفرض في تعميمها ، ودفع المتلقين لها أن يغلقوا مجسات استقبالهم لمفرداتها من الداخل، وبالتالي أصبحت عامل إرهاق للمقاتل بدلا من أن تكون دافعا لتحسين وضعه النفسي .

لقد أخذ فكر حزب البعث حيزا كبيرا من مفردات التفكير لأغراض التعبئة ، وهو فكر وإن كان معدا لكسب الناس إلى الإنضمام إلى الحزب ، وزيادة الارتباط به في الظروف الاعتيادية ، إلا إنه غير ملائم لجعل العسكريين يندفعون إلى الموت في ساحة المعركة ، لأن الوحدة أحد جوانب الشعار المركزي للحزب التي أخذت حيزا في مجال التفكير لا علاقة لها بحرب تدور مع جار لا يعلم أحد دوافعها الفعلية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الاشتراكية والحرية وغيرهما من المصطلحات والمفاهيم التي لا ترتبط بالحرب ، والموت ، والتضحية ، والأداء بأي رابطة تعين في استخدامها لأغراض التعبئة ، ورفع المعنويات حد تحمل ضغوط الحرب ، والقبول بالموت من أجل الهدف الأسمى (الوطن) .

وإجمالا فإن كل الإجراءات التي اتخذت في زمن الحرب العراقية الإيرانية كانت قد مهدت إلى حالة نفسية في القوات المسلحة أبعدتها عن المهنية . وأنهت في داخلها كثير من المعايير والقيم العسكرية .

وكونت بدلا عنها عديد من العادات ، والتقاليد الدخيلة على الجيش العراقي . وكونت أجيالا من العسكر في داخلهم ميل قوي لتجنب الفعل الوطني الصحيح . وميل قوي للتلذذ ، والتقرب إلى السلطة ورموزها كمصدر عيش ، وعامل للمحافظة على البقاء .

التحرك خارج ساحة القتال

لم تتوقف الحرب ، ولم تستطع السياسة تغيير وقائعها على الجبهة ، ولم يستطع قادتها في الميدان تقليل خسائرها التي أخذت أرقامها تتزايد في الجانبين بشكل مثير ، وهي من جانب العراق الذي يقل تعداد سكانه عن الإيرانيين مسألة صعبة ، ولا حل لها من وجهة نظر القيادة سوى السير في إجراءات القسر لأغراض التعبئة وسد النقص البشري فتوجهت سبلها مع اشتداد المعارك إلى الطاقات المدنية الاختصاصية لتلتهمها فوصلت حدود الجامعات ، ومراكز البحوث ملحقة الأستاذ الذي لم يتوفر من إختصاصه بالعراق سواء إلى الجبهة محاربا في صفوف الجيش من أجل خدمة الاحتياط . وإن تخلص منها لكبر العمر ، أو لتدني حاله الصحية فستلقفه التعبئة متطوعا في صفوف الجيش الشعبي .

وإذا ما تجاوزها بالرشوة ، والقرباة من المسؤول الحزبي في المنطقة فستكون أمامه المعاشية الإجبارية لموظفي الدولة في الجبهة مع الصفوف الأولى للمقاتلين ، وأحيانا في الحافات الأمامية ، والحجابات إذا لم يكن قد تعرف على قريب في الوحدة أو القيادة يوصي به . وقد يكلف بالعمل مع دوريات الأرض الحرام إذا ما كان خريجا لدولة أوربية استهزاء بشهادته التي ساوت بينه وبين كاتب الطابعة الذي لم ينه دراسته الابتدائية ، أو بحكم العداء الذي بات واضحا لمن لم ينتظم بين صفوف العسكر وتوجه إلى الحياة المدنية دارسا ، أو عالما . وبتكرار هذه الممارسات سئم مثل هؤلاء سلوك العسكر ، وتكونت من خلال مناقشاتهم أفكارا غير معلنة بالضد من استمرار الحرب ، بدأت تنتشر بينهم أولا، ثم انتقلت عن طريق العدوى إلى باقي المقاتلين المحترفين .

لكن آثار سوق المثقفين ، والاختصاصيين ، والعلماء إلى ساحة المعركة لم تتحدد بتلك الأفكار التي أثرت على حال الاستقرار النفسي بين المقاتلين ، وعلى دافعيتهم للقتال ، وإنما امتدت إلى تكبيد العراق خسارة فادحة في رصيده العلمي، والأكاديمي ، حيث أخذت الحرب منهم العديد قتلا ، أو أسرا في معاركها المتواصلة ، وأثبت نتائجها هذه :

أن تحرك القيادة لأغراض التعبئة خارج ساحة القتال ورغم نجاحه في سوق العدد الكافي وقودا ملائما لديمومته إلا إنها كانت فاشلة في إدارتها إدارة تحقق الغاية بأقل الخسائر في

المستويين النفسي والمادي ، وبتفاعل تلك العوامل والأخطاء خسر العراق جهد علماءه في الوقت الذي لم يحافظ فيه على معنويات شعبه ، ومقاتليه .

إن وقائع القتال على الحافات الأمامية من الجبهة ، ورغم كثرة خسائرها ، وشدة الإحباط في بعض نتائجها بين الحين والآخر لكنها ، لم توقف التحرك السياسي للقيادة العراقية التي عاودت تنشيط اتصالاتها لاستثمار ما مهياً لها من فرص جيدة للتحرك ، وهامش واسع من المرونة للمناورة وإدامة الاتصال بالدول الغربية وأمريكا .

وبضوء تلك الاتصالات وافقت فرنسا على :

استئجار ستة طائرات نوع سوبر أتندار تحمل صواريخ أكسوزيت للتعامل مع الأهداف البحرية الإيرانية في الخليج العربي .

بدأت بحدود العام 1982 بتزويد القوة الجوية العراقية بطائرات الميراج (أف 1) حسب العقد المبرم بين البلدين .

وكذلك فعلت ألمانيا حيث زودت العراق بطائرات سمته نوع (BO) ، وكذلك (BK) التي استخدمت للقتال ، والتنقل ، والاسعاف الطبي .

ومثلهم فعلت أمريكا حيث زودت العراق بعدة أنواع من طائرة (HUZE) السمته ، وكذلك (ST) بشرط عدم استخدامها لأغراض القتال . وخطت خطوات أبعد إلى الأمام بموافقتها على إيجاد نوعاً من التنسيق الاستخباري بينها والاستخبارات العسكرية العراقية ، كان العقيد الركن وفيق السامرائي مدير شعبة إيران في الاستخبارات العسكرية العامة الطرف العراقي فيه .

أما في مجال الدول العربية فلم تكن غالبيتها بحاجة إلى التحرك العراقي المكثف تجاهها بالمقارنة مع الساحة الغربية لأن معظمها (خاصة الخليجية) قد استمرت في تقديم الدعم سياسياً ، ومالياً ، وتسهيل بيع النفط بالإنازة عن العراق لتسديد كلف الحرب ، والتخفيف من الضغوط على العراقيين المقاتلين على وجه الخصوص .

معارك عسكرية ذات طابع نفسي

لقد تحركت القيادة العراقية بكافة الاتجاهات ، لكنه تحرك ودعم لم يغير كثيرا من الواقع المعنوي للقوات المسلحة العراقية الذي بدأ يتردى تدريجيا ، ولم يؤثر بشكل حاسم على الواقع النفسي للقوات الإيرانية الذي بدأ يتحسن بشكل ملموس ، حتى وقعت عدة معارك في سياق هذه الحرب كان لها التأثير المباشر على تنفيذ استراتيجية الاستمرار باتجاه النتيجة المطلوبة أي تعادل الخسارة نختار لأغراض التوضيح عن نواياها معركتين منها كانت نتائجهما أكثر وضوحا وتأثيرا هما :

معركة المحمرة .

معركة الفاو الأولى .

معركة المحمرة 1982

المحمرة مدينة عربية يطلق عليها الإيرانيون (خرم شهر) تقع على مصب نهر الكارون في شط العرب احتلت القوات العراقية قسما منها بداية الحرب ، وبقيت أقسامها الأخرى عصرية حتى تحولت أخيرا إلى أرض حرام تفصل الجانبين .

وكانت هذه المدينة تمثل هدفا استراتيجيا للقيادة العراقية تنوي من خلاله إعلان تحرير أرض عربية لتعريب المعركة ، وتمثل كذلك للإيرانيين مدينة إيرانية يسكنها عرب لا يمكن أن تسمح باحتلالها وإعطاء تلك الفرصة أي تعريب المعركة إلى القيادة العراقية ، وبذا تكونت صورة للمحمرة في عقول الطرفين بعيدة عن شكلها الحقيقي كأرض للمعركة يتبادل على ساحتها الطرفان إطلاق النار يوميا ، وكانت عند العراقيين مختلفة تماما عنها عند الإيرانيين :

إذ إنها عند الإيرانيين صورة متطابقة في ذاكرة الحكومة ، والمقاتلين مدينة إيرانية يجب تحريرها بأي ثمن .

لكنها عند العراقيين مختلفة ، أو متناقضة ، فهي عند القيادة نوايا يجب تأمينها ولو من خلال الدفاع عن ما تحقق على أرضها بأي ثمن كان .

وفي اعتقاد المقاتلين في ساحتها مدينة إيرانية لا شأن لهم بعروبيتها التي لم تثبت وقائع الحرب انحياز أهلها العرب إلى المهاجمين العراقيين العرب ، بعد أن تركوها بيوتا خاوية ، والتحقوا بوطنهم إيران ، في أول يوم من الحرب ، والأكثر من ذلك ونتيجة التركيز على

موضوعها في الحرب النفسية بين الجانبين تكون إحياء مضادا لمفهومها مدينة عربية عراقية في عقول المقاتلين العراقيين، وصوروها العائق الوحيد أمام وقف إطلاق النار . فكانت المحمرة صورة ، واعتقادا ، ومفهوما دفعت إلى أن تكون معركتها نفسية تكونت نتائجها تمنيات في عقول المهاجمين ، والمدافعين قبل تلاقيهم في ساحة معركتها بعدد من الأيام ، وكانت من أكبر المعارك النفسية لهذه الحرب أدارتها إيران بكفاءة عالية ، وبأقل الخسائر البشرية .

وخسرها العراق بسهولة ، وبكثير من الخسائر بالأرواح والمعدات . وكانت معطيات المعركة النفسية هذه قد تأسست على بداية العبور العراقي للحدود الإيرانية عندما أعطيت المدينة أهمية كبيرة وتحددت أحد أهم الأهداف العراقية، وضخمت كثيرا في عقول المقاتلين العراقيين وهم يسيطرون على طرفها الشمالي، بالتأكيد على أهمية المحافظة عليها مدينة عربية يعاد تحريرها وميناء إيراني يتم إسقاطه، واستمرت على خطواتها هذه طيلة الأعوام 1981 و 1982 وحشدت في داخلها ، ومن حولها قطعات بحجم كبير من كافة الصنوف ودعمتهم بقواعد للجيش الشعبي ، ووضعت خلف خطوطهم فرق مكافحة التسرب استعدادا للمواجهة التي رصدتها استخباريا بشكل جيد .

أما إيران من جانبها فقد قادت المعركة النفسية بشكل بسيط وواضح إذ أوجت للمدافعين العراقيين فيما تبقى من المدينة أن الحرب ، أو نهايتها متوقف على إعادة تحريرها منهم ، ودعمت إحياءاتها هذه بوسائل بسيطة للحرب النفسية بينها الإشاعات في داخل العراق ، وقليل من التسريبات للإعلام العالمي الذي لم يكن مؤيدا لها ، وقد حققت اقتناعا معقولا عند الكثير من المقاتلين العراقيين الذين يدافعون عنها ، وكذلك المعبئين للهجوم المقابل في حالة اقتحامها ، وأوجت كذلك أنها حشدت لهذا الغرض قوات تفوق أعدادها ما موجود للدفاع بعدة أضعاف، وإنها ستستخدم تعبئة الحشود البشرية على شكل موجات متتالية حتى يتم التحرير ، وأقتنع المقاتلون العراقيون بذلك أيضا³⁹.

³⁹ . تكونت قناعات عند العسكر العراقي أن الإيرانيين يعتمدون الموجات البشرية أسلوبا لهجماتهم ، بعد توجه القيادة الإيرانية في مجال الحرس الثوري لتخصيص العدد الأكبر من الأشخاص كمقاتلين في الوحدات المهاجمة ، وتخصيص أقل ما يمكن للذبول الإدارية والمقرات ، وهذا مكنهم من زج قوة كبيرة في قاطع معين خلال وقت قصير مما يعطي

لذلك السبب ، وعوامل التعب ، والضعف المعنوي بات كثير من المقاتلين العراقيين في المحمرة :

. يتمنون أن تنتهي المعركة في قاطعهم لصالح سقوط المدينة أملا في انتهاء الحرب التي طال أمدها لسنتين آنذاك .

. يتوجسون من إمكانية الاستمرار في القتال لأنهم مقتنعين بالاحتمالات العالية للإصابة تبعا لتعدد الموجات البشرية المتتالية ، وبمعنى أدق ساد شعور لدى الغالبية أنه إن لم يصب في الموجة الأولى فسيكون نصيبه من الإصابة عاليا في الثانية ، أو الثالثة ، وربما العاشرة التي ستحسم الموقف حتما .

وهذه المشاعر التي يعتريها التوتر ، والخوف ، والقلق زادت مستويات شدتها القيادة العامة للقوات المسلحة التي انتقلت بجميع أعضائها إلى البصرة لتقود المعركة عن قرب ، وتوجهت فور وصولها إلى :

إصدار الأوامر المتتالية لأغراض التحسب ، واليقظة ، والحذر ، والتهديد العلني في محاسبة التقصير والتهاون .
الاستمرار بإصدارها أي الأوامر متتالية في اليوم الواحد أكثر من مرة .

انطباعا بأن القتال يدار على أساس الكتل البشرية ، وهذه كونت قناعات رسخها في الذاكرة القريبة لعموم المقاتلين العراقيين بعض القادة الميدانيين ، في سعيهم للتخلص من عقاب القادة عند الإخفاق بصد أي هجوم إيراني ، الأمر الذي يدفعهم إلى التأكيد في مواقفهم المرسله للمراجع عند كل هجمة إيرانية أنهم يتعرضون لضغوط شديدة ويعيدون تأكيد استنتاجاتهم تلك بأن الهجمات متتالية وبموجات بشرية هائلة رغم أن العديد من تلك الهجمات لا تزيد عن عمليات مهارشة ، أو جس نبض ، أو دوريات قتال لأهداف محددة عدا بعض الاستثناءات في المعارك الشاملة ، وكان قصده أولئك القادة في حالة النجاح :

الحصول على المكافئة التي يحدد ثمنها بضوء جسامه المعركة وشدتها .
ونيتهم في حالة الفشل تجنب غضب القائد العام بعد الخسارة نتيجة لموجات بشرية هائلة .
وهو وهم عززه التوجيه السياسي أيضا في عقول المقاتلين عندما سخر محاضراته ، وكتابات منتسبيه وجهود أذاعته الميدانية باتجاه التفاخر بحصد الموجات البشرية للإيرانيين .
وهو حال رسخه القائد العام في أمثلته ، ولقاءاته التي ينوه فيها عن قدرة العراقيين في دفع الشر الذي تضره الموجات البشرية ، وتمكنهم من حصدها في الميدان .
حتى أصبح هذا الوهم حقيقة في عقول المقاتلين ، وبات تداوله مصطلحا عجز المعنيون بالجهد النفسي للقوات المسلحة من الحد من انتشاره بين الجميع .

تردّدها بمكالمات هاتفية للقادة الميدانيين الذين يحولوها بدورهم إلى القادة ، والآمرين الذين يقلون عنهم درجة للتخلص من المسؤولية وإسقاط الفروض . لقد دام حال التوتر هذا لأكثر من شهر كان كافيا لاستنزاف جل الطاقة النفسية

للمدافعين حدا وصل البعض منهم مستوى الإعياء ، والرغبة باستقدام المعركة للتخلص من معانات الانتظار ، وضغوط الشد والاستنفار .

والأهم منه عدم الرغبة بالقتال الجدي عسى أن ينهي احتلال المدينة الحرب برمتها بعد أن أصبح استرجاعها هدفا مشتركا لكلا طرفي القتال في الميدان .

أما الجانب الإيراني المهاجم فكان قد عبئ مقاتليه باتجاه الشهادة ، ونجح في استكمال الإيحاءات المطلوبة للمدافعين العراقيين ، وبقي متمسكا بالمبادأة في تحديد زمان ، ومكان الهجوم حتى أجله أكثر من مرة ليس لنقص في الاستحضارات ، أو تفاديا لتسريب خبر الهجوم الذي ترصد الاستخبارات العراقية خطواته بدقة ، بل لزيادة الإعياء العصبي عند المدافعين .

بعدها شرعت بالهجوم على المدينة من أكثر من محور بعد أن نجحت في عبور الكارون وجد المدافعون أنفسهم فيها بين فكي كماشة إحدى أطرافها القوات الإيرانية المهاجمة ، والطرف الآخر مفارز مكافحة التسرب العراقية ذات الصلاحية الكاملة بإعدام من تراه منسحبا ، وفي أسفلها شط العرب الذي يزيد عرضه من جهة المحمرة المقابلة لجزيرة أم الرصاص أكثر من مئتي متر .

وحصلت المعركة وزادت الخسائر ، وأزداد الموقف النفسي سوءا وخلالها : فضل البعض الاستسلام للقوات الإيرانية التي هجمت على المدينة بأقل من الأعداد المدافعة .

توجه القسم الآخر للقفز في مياه شط العرب فغرق من شدة التعب ، أو من عدم إجادته السباحة ، أو مات بعتاد الأسلحة الخفيفة للإيرانيين التي لاحقته حتى الحافة المقابلة للمحمرة .

اتجه البعض الآخر مهرولا إلى بساتين المنطقة ، وأحراشها دون وعي لطبيعة الموقف ، وخطر المفارز المهيأة للإعدام أملا في الاختفاء أيما ينجلي بعدها الموقف ، ويلعب الحظ دورا في نجاته .

ومن جانب الحكومة اختلطت الأمور على القيادة العامة للقوات المسلحة ، وبات انقطاع الاتصال بالوحدات ، والألوية ، والفرق المدافعة عن المدينة يتوالى بسرعة غير متوقعة ، وهي ما زالت تصدر الأوامر بالتحسب ، والإصرار على الدفاع عن المدينة حتى الموت رغم انها أي المحمرة قد سقطت في عقول المقاتلين قبل حصول التماس بأسابيع معدودة .

وانتهت المعركة على الأرض بسرعة لم تحسبها القيادة السياسية العراقية فأصيبت بإحباط شديد تسبب في تغيير مجريات السياسة ، والاقتصاد بشكل واسع ، إذ وبعد المعركة مباشرة أصدرت تلك القيادة أوامرها :

منع السفر لجميع العراقيين .

إيقاف التحويل بالعملة الصعبة .

إيقاف إرسال البعثات على خارج العراق .

التوقف عن استكمال المشاريع التي لم ينجز منها أكثر من 60% منها .

تحميل عبئ الفشل على القادة الميدانيين وأمرت بضوئها إعدام :

اللواء الركن صلاح القاضي قائد الفيلق الثالث .

العميد الركن جواد أسعد شيتنه قائد الفرقة المدرعة الثالثة .

العميد نزار النقشبندی آمر مدفعية الفرقة .

العقيد عبد الهادي آمر لواء المشاة (412) .

فكانت نتيجة للمعركة تشكل بالنسبة للعراق نقطة تحول سلبي في تاريخ حربه مع إيران التي دامت ثمان سنوات متصلة .

أما من جانب إيران فقد تسببت نتائج المعركة :

إنعاش قوي لمعنويات مقاتليها .

إعطاء القيادة الإيرانية حجج مضافة للاستمرار بالحرب .

بدء التحرك على الساحة الدولية دون التكبل بواقع المدينة المأسورة بالقوات العراقية .

الحصول على أعداد من الأسرى يقارب ما حصلت عليه القوات العراقية طيلة فترة

السنتين الماضيتين . بل وبدأت متفوقة في هذا الجانب للمرة الأولى منذ بداية الحرب .

وكانت على وجه العموم نتائج زادت من تشدد الجانب الإيراني في مسألة المساومة على

وقف إطلاق النار .

وأكبرت من ليونة الجانب العراقي في المطالب الخاصة بذلك حتى عادت المسافة بين الطرفين ، واسعة لا يلتقون في وسطها بأي حال من الأحوال . وكانت هذه المعركة من جانب العراق الأكثر تأثيرا على الوضع المعنوي من عموم المعارك التي سبقتها .

وكانت من الجانب الإيراني المعركة المثلى التي مهدت للقيادة العسكرية الإيرانية التحرك في ساحة القتال بثقة أكبر وبدافعية أعلى ، ودفعتهم إلى التخطيط لمعارك أخرى سرّعت كثيرا من إزاحة القطعات العراقية إلى خارج الحدود الإيرانية ، بل والدخول في عمق الأراضي العراقية في بعض المواقع المهمة مثل الفاو التي شهدت معركة أكثر قساوة على العراق من معركة المحمرة .

معركة الفاو 1986

الفاو ميناء رئيسي للعراق يشكل مثلثا زاويته العليا رأس البيشة على الخليج العربي ، و ضلعه الشرقي يمتد بمحاذاة شط العرب حيث المزارع الكثيفة للنخيل ، و ضلعه الغربي منطقة الممالح ، والطريق الخاص بشركة النفط الوطنية .

وضعت فيه القيادة العامة للقوات المسلحة ما يقارب فرقة مشاة معززة بقواعد للجيش الشعبي بهدف الدفاع عن المنطقة من رأس المثلث حتى منطقة السببة كوت الزين حيث لم تقتنع تلك القيادة تماما بتقارير الاستخبارات في احتمالات الهجوم من المنطقة المواجهة للمدينة رأس المثلث لاعتقادها بوجود شط العرب مانع مائي مثالي للدفاع ، يحتاج اجتيازه إلى معدات تجسير ضخمة ، وإلى جهد كبير لإدامة زخم الهجوم عبر الشط المكشوف للطيران العراقي المتفوق في ساحة المعركة ، ثم إن الفاو التي هجرها سكانها منذ بداية الحرب لوقوعها ضمن مرمى الأسلحة الخفيفة للإيرانيين تبعد بحدود ستين كيلومترا عن البصرة الهدف الاستراتيجي للهجمات الإيرانية ، هذا بالإضافة إلى أرضها التي تصلح للدفاع المثالي ضد عمليات العبور وضد الدروع التي يصعب تحركها في المنطقة . إلا أن حسابها من قبل الإيرانيين ، وبضوء نتائج المعركة كان مختلفا عن حساب القيادة العامة العراقية ، وحساباتهم كانت تتأسس على :

إن الهجوم من جهة الفاو يحقق المباغته التي يحتاجونها لتحقيق نصر في الدخول إلى الأرض العراقية .

إن نجاحه ، وتوسيع رقعته سيساعدها على استنزاف القوات العراقية مع علمها أن قيادتها ستحاول بكل الوسائل عدم التفريط بالفاو المؤشرة على الخرائط مدينة عراقية ، وميناء رئيسي للعراق منذ تأسيس دولته عام 1921 .

إن كسب معركة على أرض عراقية واضحة المعالم سوف لن تتوقف تأثيراته السلبية على معنويات القطعات الأمامية ، بل وسيشمل عموم الجيش ، والقوات المسلحة ، وكذلك الحكومة بأكملها .

وتلك عوامل في الوقت الذي حسبتها إيران بدقة لم تكن قد حسبتها القيادة العراقية المصابة بداء الذات المفرطة ، وجنون العظمة الذي دفعها لأن تشعر بالتفوق ، وتميل إلى التقليل من قيمة الخصم طوال الوقت .

كان ذاك هو موقف الحسابات العسكرية في ساحة القتال أما على الساحة السياسية الدولية منها على وجه الخصوص فكان الأمر وعلى ما يبدو سير في الطريق لإدامة أمد الحرب يتأسس على فكرة أن يحقق الإيرانيون نصرا في داخل الأرض العراقية ينسبهم خدش الحياء الذي تسببه دخول القوات العراقية أراضيهم عسى أن يساعد في إقناعهم لوقف إطلاق النار في ظل المعادلة التي كانت متساوية آنذاك وفقا لفلسفة الخسارة المتعادلة .

وعلى وفق تلك الحسابات بدء الإيرانيون المعركة :

قصف مدفعي شديد على أكثر من محور من محاور الجبهة .

أعقبه عبور بالقوارب الخفيفة ، والمطاطية ، وبكل الوسائل المتاحة للعبور ، ومن أكثر من مكان على حافات شط العرب .

توسيع مكان العبور الذي يتم فيه تحقيق النجاح ، وتثبيت الأماكن الأخرى للمشاغلة ، والإيهام ، وقد حققوا نجاحا ملموسا في الساعات الأولى من جهة الميناء استطاعوا في يومه الأول السيطرة على مساحة المدينة كاملة .

مد جسر غاطس لربط المدينة بالبر الإيراني للحيلولة دون رصده من الطائرات العراقية ، وكذلك تقليل احتمالات التأثير عليه بوسائل القتال التقليدية ، ونجحوا في هذا الأمر بوقت قياسي .

نقل بطاريات مدفعية من العيارات الخفيفة ، وأسلحة مقاومة دبابات ، وبعض الآليات ، وكذلك جهد طبي تم تطويره لاحقا لمستوى مستشفى ميدان .

توسيع قاعدة الانتشار خارج المدينة للسيطرة على بعض عقد المواصلات التي تربط الطرق المؤدية إلى مركزها تلك الطرق الموجودة أصلا ، أو التي أنشأتها القوات العراقية لأغراضها خلال فترة الحرب المستمرة .

وفي هذه الفترة الحرجة من القتال ناورت القيادة العامة ببعض تشكيلاتها في محاولة للقيام بهجمات مقابلة لكنها فشلت ، واستمرت المعركة على هذا الحال حتى هيات : الفيلق السابع للقيام بالهجوم برتل (النخيل) القريب من الطريق العام .

قوات الحرس الجمهوري للقيام بالهجوم برتل ساحلي . لكنهما تمكنا فقط من إيقاف زخم الهجوم الإيراني ، وإرغامهم على تغيير خططهم في الاندفاع إلى البصرة من جنوبها كهدف لاحق للهجوم ، والاكتفاء بالدفاع عن منطقة الفاو التي تم احتلالها بالكامل .

وفي هذه المعركة عاودت القيادة العراقية الخطأ في التعامل مع الموقف العسكري مرة أخرى :

حيث الإصرار على نطح الجدار الحديدي ، أي الطلب من القوات تحرير أرض الفاو بأي ثمن تلك الأرض التي لا تصلح سوى لقتال المشاة بشريط ساحلي ضيق يصعب أن تفتح فيه القوات لأكثر من لواء مشاة في أوسع مسافته دون التمكن من الاستفادة من الأرض غرب الطريق العام لتوسيع جبهة الهجوم كونها أرض ملحية رخوة مغمور معظمها بالمياه .

وتلك التحديدات جعلت خطة القيادة الخاصة باستعادة المدينة تقوم على أساس الهجوم بمستوى لا يزيد على لواء مشاة ، مدعوم بقليل من الدبابات ، وبدفعات متكررة ، إذ تصدر الأوامر إلى لواء بالتقدم ، وعندما يخسر قوته لأكثر من 70% تعيد زجه بالمعركة ثانية ليخرج منها وقد دمر تماما فتحاول مع الثاني ، والثالث ، وهكذا تم زج أكثر من ستين لواء دمرت جميعها بطريقة بعيدة تماما عن أبسط تطبيقات المبادئ العسكرية .

وأسلوب التعامل هذا باتجاه الإصرار على الإبادة الجماعية للقوات في ظروف قتال غير متكافئة شهدت في أحيان ليست قليلة التحام بالسلاح الأبيض ، وتقرب من الخنادق أمتار معدودات ، كذلك تبادل احتلال المواقع في اليوم الواحد ولأكثر من مرة في بعض

الأحيان خاصة في مناطق (العقد⁴⁰) تسبب في هبوط المعنويات وتردي الحالة النفسية لعموم المقاتلين .

كانت نتيجة المعركة في الميدان مؤلمة للضباط والمراتب الذين خاضوها بمعنويات ليست جيدة ، وقيادة غير كفوءة ، وكانت مثيرة لأعلى درجات القلق بالنسبة للقيادة الميدانيين الذين يحسون أن رقابهم جميعا على كف عفريت بعد أن مثلت نتيجة المعركة جرحا عميقا للعظمة التي تبحث دائما عن الانتصارات لانتعاشها ، وفي حالهم هذا لم يجدوا أي أعضاء القيادة العامة وقائد الفيلق ، وقادة الفرق المشاركة أمامهم طريقا للنجاة سوى العودة لخبراتهم الجيدة في اختيار القرابين ، أي تحويل الخطأ على الآخرين ، وبدأوا على الفور التفتيش عن ضحايا يقتنع القائد العام بمسئوليتها عن النكسة ويعتق رقابهم ، وقد اختاروا هذه المرة (العقيد الركن كاظم) أحد آمري الأولوية التي كانت تدافع عن المنطقة وأسر من قبل القوات الإيرانية لتوجه له تهم الخيانة والتقصير ، وكذلك ضباط بمستوى آمري وحدات ووحدات فرعية تم إعدامهم ميدانيا . وبإعدامهم خونة ، ومقصرين توقفت المعركة ونتيجتها :

خسائر للجيش العراقي بحدود ستين ألف قتيل ، وضعفهم من الجرحى والمفقودين . شكلت نقطة التحول الثانية في مجرى الحرب بعد معركة المحمرة من نواح عدة بينها النوايا التي بدأت تفكر القيادة العراقية جديا في تحويلها لما يوقف الحرب بالحفاظ فقط على ماء الوجه .

بدأ الإيرانيون يفكرون بالثمن المفروض لوقفها الذي لا يقل عن إسقاط الحكومة ، ورحيل صدام عن السلطة .

لكنها وعلى أساس التكوين النفسي لكلا الجانبين العراقي ، والإيراني لم تحقق معركة الفاو كما كان يؤمل لها في الوصول إلى قناعة الخسارة المتعادلة ، وكان إصرار إيران على أن يكون الثمن تغيير النظام يخل بنتيجة المعادلة الأمر الذي عدل من اتجاهات الموقف الدولي لصالح حكومة العراق بشكل فاعل ، وعلى أساسه :

40. تعبير أطلق في حينه على نقاط التقاء الطرق ، والطرق الفرعية إحتلها الإيرانيون خارج المدينة ، واستهدفها العراقيون في هجماتهم المقابلة أساسا في خططهم لدخول المدينة .

. فتحت الأسواق الغربية أبوابها للعراق بشكل أوسع بغية تأمين المعدات ، وبعض الأجهزة الخاصة بالرصد ، ومعدات الرؤيا الليلية ، والتسديد بأشعة الليزر التي تم تركيبها على الطائرات الشرقية ، والغربية الموجودة في القوة الجوية ، وكذلك أنواع من القنابل الضخمة ذات الانفجار العالي .

. زادت من دافعية الأمريكيان للتوسع في مسألة التنسيق الاستخباري .
. تكثيف الدعم السياسي للحكومة العراقية ، وضمان مزيدا من القروض لمشترياتها العسكرية .

تلك من بين الخطوات التي أعادت للقيادة العراقية توازنها ، وعدلت ميزان القوى بينها وبين الخصم إلى مستوى تكون فيه قادرة على الاستمرار بالمعركة بشكل يؤدي الغاية التي وجدت من أجلها .

لقد عملت القيادة على تطبيق خطة مكثفة بعد هذه المعركة لإعادة الثقة بالنفس إلى القادة الميدانيين ، وإلى الآمرين ، والمراتب التي تدنت كثيرا بعد هذه المعركة ، وركزت كثيرا لرفع المعنويات .

وعملت في الجانب العملي لإعادة تأهيل القوات من خلال نشرات التدريب والتمارين لتجاوز تلك الآثار التي ترسبت ، ومهدت في ذات الوقت إلى الصفحة القادمة ، والأخيرة من الحرب التي بدأت من أرض الفاو ، وفتحت الطريق مشرعا لمعارك خسرتها إيران بشكل متتال ، اقتنعت بسببها بوقف إطلاق النار على أساس معادلة الخسارة التي آمن بها الطرفان بعد فوات الأوان .

الفص الثامن حرب الثماني سنوات النهاية الناقصة

لقد تبادل الطرفان الفوز والخسارة ، وأحسا سوية أسى احتلال الأرض ونشوة تحريرها ، وفرغت خزائنها ، ولم يسقط صدام أو تنني الثورة في إيران ، فتيقن شعبيهما سوية أن الحرب مسألة حكام.

إعادة حشد القوى

كانت نتيجة المعركة التي ربحتها إيران على أرض الفاو عام 1986 مهمة بالنسبة لها بعد أن هيات لها موقفا استفادت من وقائعه في جوانب :
التوجه لاستثمار التفوق الحاصل لتهدئة الشعور بالحيث من احتلال العراق لبعض مدنها، وأراضيها مع بداية الحرب .
التقليل من الإحساس بالتقصير الحكومي ، وتحميل رجالات الثورة بمسئوليته الذي هيمن على مشاعر الكثير من الإيرانيين بعد توغل القوات العراقية داخل حدودهم في الأيام الأولى للحرب .
التحرك للتأكيد على نتائجها شروط سبق وأن أعلنت لوقف إطلاق النار لا تقل عن إسقاط النظام في بغداد .
وبالقياسات العامة كانت تلك النتيجة قاسية جدا بالنسبة للعراق حيث المحاولات الجادة للقيادة في التخلص من آثارها النفسية السلبية التي أرهقت كاهل العراقيين ، وعموم منتسبي القوات المسلحة ، كذلك السعي للاستفادة من دروسها المستنبطة في جوانب مهمة مثل :
التركيز على الجهد الاستخباري السوقي (الاستراتيجي) والتعبوي لمتابعة التحركات الإيرانية .
التوسع في تشكيل وحدات الاستطلاع العميق ، والعمليات الخاصة ضمن نظام معركة الاستخبارات العسكرية العامة .
إعادة تنظيم بعض القيادات ، والتشكيلات القديمة ، وتأسيس أخرى جديدة . التوجه بخطوات أوسع نحو الغرب الأوربي ، والاتحاد السوفيتي على حد سواء للحصول على أسلحة متطورة يمكن التأسيس على قدراتها التدميرية العالية في تحقيق أرجحية التوازن القلق بينها ، وبين إيران التي تتفوق بالجهد البشري المعبى دينيا لتعوضه بالتفوق التقني من خلال إضافة قوة التأثير الفعلي لتلك الأسلحة عاملا رئيسا إلى جانبها .
وقد تمكنت بالفعل من الحصول على أجيال متطورة من طائرات الميغ (25) و (27) و (29) والسيخوي (25) ، بالإضافة إلى ما موجود لديها من طائرات الميغ (23) وبقايا طائرات الميغ (21) لبعض واجبات القتال الجوي ، والإسناد القريب .

وتمكنت أيضا من الحصول على أجهزة التسديد بالليزر لطائراتها الشرقية أي الروسية ، والغربية (الميراج) التي كان لها تأثيرا كبيرا على إصابة الأهداف الإيرانية بالعمق ، وتحقيق السيادة الجوية على عموم الجبهة ، وأجزاء مهمة من الخليج العربي . كذلك حققت قفزة نوعية لفاعلية القوة الجوية إذ أنها وبالإضافة إلى ما تمتلكه من طائرات ذات مديات طويلة تصل طهران دون الحاجة إلى إعادة التزود بالوقود فإنها أدخلت إلى الخدمة طائرات خاصة بالإرضاع الجوي لزيادة مدى القاصفات ، وطائرات الحماية المرافقة لها لتصل جزيرة خرج ، وأهداف أخرى في أقصى الجنوب الإيراني . وعلى وفق هذه الجهود ، والتصورات تعد الفترة الزمنية التي أعقبت معركة الفاو الأولى فترة لإعادة حشد القوى ، وسعي لتقييم المواقف العسكرية والسياسية بالنسبة للطرفين المتحاربين .

استنتجت منها إيران أنها قادرة على مواصلة القتال ، وتكبيد القوات العراقية خسائر يمكن أن تدفعها إلى التلكؤ بالقتال في الميدان ، أو التمرد على صدام حسين في خطوات لاحقة.

وتوصل على أساسها العراق إلى قناعة تامة أن الجهد السوقي للدولة ، والتعبوي للقوات المسلحة لابد وأن يتركز على إيقاف إطلاق النار بأقل الخسائر الممكنة . وبعد هذه الفترة التي شهدت على الصعيد السياسي بعض الانتقادات العربية ، والدولية لإيران بسبب دخولها الأراضي العراقية ، لم يحدث أن تغيرت فيها التحالفات الإقليمية ، والدولية بالنسبة للبلدين التي بقيت على ما هي عليه مع بعض المناورات هنا ، أو هناك بين الحين والآخر لتليين الموقف الإيراني وشد الأزر العراقي تماشيا مع الأهداف العامة لديمومة الاستمرار بالقتال

معارك لتحريك الموقف

لم يكن الموقف العسكري على الجبهة مختلفا من ناحية الحركة وفعل التأثير عن الموقف على الساحة السياسية لما بعد معركة الفاو ، إذ لم تشهد ساحاته إلا معاركا محدودة للتحرش ، وجس النبض ، وإدامة رفع المعنويات لم تؤثر بطبيعتها على نتائج الحرب حتى حلول العام 1987 الذي حاولت فيه القيادة العراقية تحريك الموقف ، وتفحص الأداء العسكري الإيراني في أقصى الشمال من جبهة الحرب ، وكانت هذه المرة معركة على جبل (كردة مند) في كردستان العراق الذي شهدت قمته معارك سجل تبادل فيها الطرفان السيطرة عليها أكثر من مرة حتى استقرت عليه القوات الإيرانية أخيرا ، واحتفظت به حتى نهاية الحرب .

معركة كرد مند

كرد مند جبل تحتل قمته موقعا تعبويا يشرف على جميع القمم المحيطة بها ، الأمر الذي زادت من أهمية الاحتفاظ بالمواضع الحصينة عليه لكلا الطرفين لأنها تعطي لمن يفرض الوجود عليها أفضلية الرصد ، وتوجيه نيران المدفعية بكافة عياراتها ، وكذلك السيطرة بالنار على ساحة معركة ممتدة فيها عديد من القمم أقل ارتفاعا . في ربيع العام المذكور بدأت الثلوج بالذوبان عن القمة الجرداء لهذا الجبل ، والسفوح القريبة منها ، وأصبح التنقل في الوديان بكثافة أكبر ممكنا لمنتسبي فرقة المشاة الثالثة والعشرين التي تدافع عن المنطقة ، وأضحى السير على النياسم المؤدية إلى أعلى القمة للأفراد ، والحيوانات ممكن أيضا ، الأمر الذي أغرى العميد الركن محمود حمادي عامر قائد الفرقة المذكورة لإرسال برقية توددية إلى القائد العام مباشرة يطلب فيها السماح له بالهجوم على كردة مند واعداء إياه شرب الشاي على هذه القمة العصية في غضون ساعات محتفظا لنفسه بالنوايا التي كان قد أسس عليها فكرة البرقية ، وشرب الشاي في حرب لم تكن أحد معاركها منذ عام 1980 نزهة .

وقد حصل الرد سريعا ، وبما ينسجم واستجابة القائد العام ، وتطلعاته ، أو رغباته في تحريك الموقف مع الإيرانيين ، وتدقيق استجاباتهم بعد معركة الفاو، وكانت عبارة (بارك الله فيكم) إيذانا لقائد الفرقة بالشروع لشرب قدح من الشاي كان قد كلف العراق آلاف القتلى ، وملايين الدولارات من الأسلحة التي دمرت ، والطائرات التي أسقطت ، والأعتدة

التي صرفت دون أن تتحقق أمنية القائد ، ولا نواياه في الحصول على المكارم السخية في مثل هكذا مواقف انفعالية تكررت في الحرب العراقية الإيرانية كثيرا.

وبدأت المعركة أولا بالجهد العسكري الخاص بالفرقة مع إسناد جوي لأسراب القوة الجوية في قاعدتي كركوك ، والموصل بشكل رئيسي ، ودعم من الطيران السمتي لجناح طيران الجيش الثاني ، وتقدم أحد ألوية الفرقة في اليوم الأول حيث واجه مقاومة شديدة ، وتكبد خسائر كبيرة تؤكد أن الإيرانيين لم يباغتوا بالهجوم .

حاول قائد الفرقة اليوم الثاني تقديم لواء آخر ، وبنفس أسلوب الهجوم الجبهوي وبما يشبه أرتال المسير الاعتيادية الذي تحتمه طبيعة الأرض الوعرة ، وتكررت ذات النتيجة ، عندها تدخل الفيلق الخامس ، وقائده اللواء الركن طالع الدوري الذي سارع فور قيادته المعركة إلى :

حشد مدفعية الفيلق لأغراض الإسناد .

طلب جهدا جويا مضاعفا لتدمير القوات الإيرانية في القمة ، والسفوح القريبة ، وكذلك تجريد الطرق المؤدية إليها .

طلب سريين لطائرات سميتية (مي 8 ومي 17) لنقل قوات الصولة ، وأخرى لحمل صواريخ ضد الدفاعات الحصينة وضد المشاة ، وكذلك لتوجيه نيران المدفعية ، ونقل الجرحى من ساحة المعركة .

وبدأ القتال من جديد في اليوم الخامس بعد أن تأمنت طلبات الفيلق جميعها ، وتم استخدام الطائرات السميتية لحمل فوج في كل نقلة ينزل قريبا من خط الشروع أسفل القمة بحدود مائتي متر ، تعويضا عن الوقت الذي يصل بمتوسط عشرة ساعات تسلق من أسفل سفح الجبل إلى قمته ، وكذلك لتجاوز مشاكل التحرك من منطقة التحشد التي حتمت الأرض الجبلية أن تتكدس القوات المطلوب إشراكها في المعركة في منطقة ضيقة ، ومحصورة من الوديان لا تصلح لانفتاح جميع تلك القوات التي وصلت من خارج الفرقة ، والفيلق لأغراض التعزيز ، والمشاركة في الهجوم ، وأبقيت منتشرة في حوض راوندوز ومدينة جومان .

وكانت المعركة في بدايتها عنيفة جدا ، وقد صبت فوق ساحتها المحصورة أي قمة الجبل آلاف الأطنان من القنابل ، وعتاد الأسلحة المختلفة أسفر في نهاية اليوم الثامن عن احتلال المواضع الإيرانية في أعلى القمة .

لكن الإيرانيين الذين يقدرّون هم أيضا أهمية الموقع لم يستسلموا لهذه النتيجة وقاموا بهجوم مقابل في ذات الليلة نتج عنه انسحاب المدافعين العراقيين عن القمة بطريقة أقرب إلى الفوضى منها إلى التنظيم . وبتخلي القوات عن مواضعها أصيب قائد الفيلق بإحباط شديد ، وبدأ توجيه اللوم إلى العميد الركن قائد الفرقة على سحبه الفيلق إلى معركة لم يكن مستعدا لها ، وانعكس ذلك على أسلوب إدارته المعركة الذي اتجه لينحو منحاً غير متزناً مع الوقت ، وشدة الخسائر التي لم يستطع الجهد الطبي للفيلق من السيطرة عليها ، أو التعامل معها وفقاً لضوابط الإخلاء المعروفة في الجيش العراقي⁴¹. بعد هذا التعقيد بالموقف انتقلت القيادة العامة للقوات المسلحة من بغداد إلى المنطقة لتكون ومثل باقي المعارك قريبة من ساحتها ، وتسهم بشكل مباشر في تقدير الموقف الخاص بها ، وتسهيل تقديم الدعم اللازم لها ، مع معرفتها التامة بصعوبة الهجوم على

⁴¹. يصف سمير عبيد حسن أحد الجنود الخريجين ذلك الانسحاب من خلال مشاركته الفعلية في ظروفه عندما كان أحد أفراد الألوية التي وصلت القمة في يوم المعركة الثامن، مؤكداً أن منتسبي فوجه وهم يتحينون الفرص غير المواتية لإعادة ترتيب المواضع ، والتحصينات التي تهدمت تماماً ، بدأ بعد منتصف الليل قصف للمدفعية والهاونات الإيرانية، لم يستطع أحداً خلاله أن يرفع رأسه، وبعد خمس دقائق سمعوا فجأة أصوات تكبير (الله أكبر) وتكلم العربية طالبة من المدافعين الاستسلام ، وفي لحظات قتل أمر الفوج ، وقطع الاتصال، وتناثرت الجثث فوق تلك الجثث الإيرانية الموجودة في الأصل. كان المنظر مروعا انفرط فيه عقد الضبط، ولم يشعر الواحد فينا إلا وتناول بندقيته لينزل من على هذه القمة التي تمثل عين الجحيم ، وفي كل متر أنزله إلى السفح أجد فيه جثة قتيل كان معي على القمة قبل قليل ، أو من جنود جاءوا لأغراض الدعم والتعزيز ، ويزداد الهلع في داخلي شدة مع تزايد عدد الجثث في الطريق. كان منظر الموت أهون في تلك اللحظات من أن أتعثر بالجثث التي يصعب تمييزها رغم وضوح الرؤيا في تلك الليلة المظلمة ، وهذا الأمر أهون من أن أقفز لاهثاً من على أحدهم وينادي متوسلاً أن أنقذه من الموت القريب وأنا لا أقوى على حمل بندقيتي ، والجري بين الصخور تحت أزيز الرصاص . كنت في الخمسين متراً الأولى أقف قليلاً لأتبين صوت المنادي بدافع الرحمة التي تعلمتها لكني وكلما أتقدم أكتاراً باتجاه الأسفل ، ويزداد الرمي من حولي ، وتزداد أعداد المستنجدين ، أسرع في ركضي دون أن ألتفت إلى تلك الأصوات التي تمزقني . وبمرور الوقت وتحت يأس المجروحين من إمكانية الإخلاء ، تغيرت نبرة أصواتهم ، وبدلاً من أن تسمع توسلاً من أجل الإنقاذ كانت هناك فقط ترديد للأسماء (أنا فلان خبروا أهلي في المكان الفلاني إني قد مت على هذا الجبل). وبعد قليل توقفت كثير من تلك الأصوات ، أو إني لم أعد أسمعها ، ربما لأني لا أريد سماعها . كان النزول إلى السفح سريعاً ، وكان التخلص من مفارز الإعدام الخاصة بالمنسحبين عسيراً ، ومع ذلك وصلت مع اثنان من سريتي فقط إلى القدمة الإدارية للفوج بعد ساعة حسبتها دهرًا من الزمان . لم نشأ أن نتكلم مع بعضنا ، أو يكلمنا أحد من الموجودين ، نكرر فقط عبارات لا يفهمها الآخرون ولم نعد نتذكرها في اليوم الثاني عندما أفقنا من النوم وملابسنا ملطخة بالدماء ، وقبل أن أفكر بقطعة صمون أسد بها رمقي توجهت بنظري إلى هذا الجبل وقمته الشاهقة وتيقنت عمق المأساة .

مواضع مشرفة محصنة جيدا ، يدافع عنها مقاتلون بمعنويات جيدة ، والتقرب إليها ، أو الانفتاح التقليدي لأغراض الهجوم عليها أمرا عسيرا ، ويعلمون أنه يتحدد بطرق نيسمية يتقدم فيها المشاة بالرتل المفرد ، وتسير فيها الحيوانات (البغال) المستخدمة لأغراض الجهد الحربي بالتتابع الواحد خلف الآخر .

وبذا أكدت تقادير موقف القيادة العامة لتدارك الوضع الذي يزداد سوءا على الحاجة السريعة إلى :

حشد ناري هائل يتأمن من دعم مدفعي من خارج الفيلق ، ومن طائرات القوة الجوية وطيران الجيش .

إدانة لزخم الهجوم من وحدات جديدة غير متعبة .

أن يجري تهيئة سريعة للمهاجمين ، في مجال المعنويات ، وحثهم على التمسك بالمواقع التي يتم احتلالها .

وهذا أمر لم تكن فقرته الأخيرة ممكنة على المستوى العملي رغم عدم التجرؤ على التطرق إليها في التقييمات التي تعدها القيادات الميدانية إلى مراجعها ، أو في الأساليب التي تطبقها لرفع المعنويات التي تكتفي بوسمها بالعبارة التقليدية (المعنويات عالية جدا) ، والتي يصيغها التوجيه السياسي إلى المراجع العليا أي القيادة العامة ، ورئاسة أركان الجيش بنفس مستويات التقييم المذكورة ، الأمر الذي يصعب فيه ، وأنت بعيد عن الوحدة العسكرية أن تتعرف على معنوياتها وسبل رفعها من تلك التقارير .

لقد تركت القيادة العامة إدارة المعركة إلى اللواء طالع الدوري أصوليا ، ودفعت إلى جانبه أمر الأفواج الخفيفة (متطوعين أكراد) حيث عاود الهجوم في اليوم الذي يلي ، وبنفس السياقات السابقة :

تنقل الطائرات السمتية بعض وحدات الهجوم من المشاة ، والقوات الخاصة ، والمغاوير ، وتنزلها تحت قمة الجبل ، رغم تكرار سقوط العديد منها بسبب نيران الإيرانيين المصوبة عليها من مسافات قريبة ، ونتيجة لإرغام الطيارين للهبوط على أرض غير صالحة تزيد فيها درجة الميل عن 25 درجة أحيانا .

تتقدم وحدات أخرى راجلا من أسفل السفح مع إسناد جوي ومدفعي كثيف .

تستمر الطائرات المقاتلة ، والسمتية بالقصف ، والإسناد القريب ، والتجريد طيلة ساعات الهجوم .

وتتكرر ذات النتائج السابقة حيث تتمكن القوات العراقية المهاجمة تحت تأثير النيران الشديدة من احتلال القمة لأكثر من مرة ، وقيام القوات الإيرانية بإعادة احتلالها ليلا لأكثر من مرة مستفيدة من الارتباك الحاصل ، وشدة التعب والإعياء ، وكثرة الخسائر ، وضعف المعنويات .

هذا وقد استخدم الإيرانيون في هذه المعركة صيغ التقدم من نفس النياسم التي تقدمت عليها القوات العراقية ، وعند إيقافها لأغراض الاستيضاح تكلم من في مقدمتها باللهجة العراقية⁴² مؤكدا أنهم أحد ألوية الفيلق الخامس ، جاءوا لتعزيز القوة الموجودة ، أو تبديلها بعد أن تعبت ، وتكبدت خسائر ، وقد نجحت هذه المحاولة مرتين على الأقل ، ونزل الجنود المدافعون عن القمة قبل أن يتأكدوا من أمرهم صحة الأمر .

وبتطورات الموقف هذا ، وتعقيداته مختلف قائد الفيلق ، وأمر الأفواج الخفيفة بتقدير تبعة الفشل ، وتحديد مسؤولية الخطأ في القيادة والسيطرة ، وتطور الخلاف إلى مشادة كلامية ، وجه فيها طالع الدوري شتيمة قاسية للأمر الكوردي الذي لم يتحمل الشتيمة ، وسحب مسدسه ليطلق منه اطلاقاً على المذكور أسقطته على الأرض جريحا ، فكانت حادثة خطيرة لم يسبق أن حدثت أخرى مثلها طيلة الحرب كادت أن تتطور إلى كارثة بين حماية كل منهما ، أو بين العسكر العرب ، والمقاتلين الكورد لولا تدخل البعض من الضباط القريبين من مكان الحادث .

على إثر هذه الحادثة والإصابة المتوسطة أخلي الدوري ، ونسب بدلا عنه لقيادة المعركة الفريق الركن عبد الجواد ذنون رئيس أركان الجيش الموجود ضمن أعضاء القيادة العامة في مقر الفيلق المتقدم .

بدأ الفريق جواد إدارة المعركة لكن الموقف لم يتبدل كثيرا ، واستمر التناطح مع الجدار الكونكريتي الإيراني لأربعين يوما متصلة فيها مواقف كثيرة للقتال بالسلاح الأبيض.

⁴² بينت تقارير الاستخبارات بعد هذه المعركة أن عراقيين من منتسبي المجلس الأعلى للثورة الإسلامية المعارض ، وآخرين قد شاركوا في هذه المعركة إلى جنب القوات الإيرانية ، وكان لهم الفضل في عمل التداخل مع القوات العراقية باستخدام اللهجة ، والتقرب إليها بذات الأساليب المستخدمة من قبلها في التقدم والانفتاح ، وبنفس قياقتها القتالية .

خسائر المعركة

بعد الأربعين يوما من القتال تمكنت القوات الإيرانية المحافظة على البقاء أعلى القمة ، والسفوح القريبة .

وعادت القوات العراقية إلى مواقعها السابقة .

وانتهت المعركة التي اشتركت فيها من الجانب العراقي قوة تفوق الفيلق على مراحل ودفعات ، ومن الجانب الإيراني قوات الحرس الثوري معززة بوحدات معارضة عراقية ، وكانت نتيجتها :

. خسارة الفيلق الخامس بحدود 60% من قدرته القتالية ، وكذلك بعض تشكيلات الفيلق الأول التي جاءت لأغراض تعزيز الهجوم .

. تسرب أعداد من المقاتلين المراتب من أرض المعركة للجبال ، والوديان القريبة من ساحتها والبعيدة عنها .

. إعدام العشرات من الجنود ، وضباط الصف من قبل فرق مكافحة التسرب المنتشرة على مفارق الطرق ، وفي القرى ، والقصبات القريبة .

. موت المئات جرحى في ساحة المعركة لم يستطع الفيلق من إخلائهم إلى وحدات الميدان الطبية . انتهت المعركة وأثير حول أسلوب إدارتها سؤال يتعلق بالغرابة من تكرار ذات الأخطاء على الرغم من أن أعضاء القيادة العامة ، وجميع القادة الميدانيين يمتلكون من التجارب العملية عشرات المعارك ، ومن التحصيل دراسة كلية الأركان المعروفة بحسن تأهيلها ؟. عاد أعضاء القيادة العامة إلى بغداد، وهذا الموقف دون أن يستطيع أحد الإجابة على ذاك السؤال⁴³، وبقيت الأخطاء كما هي:

⁴³. لم تكن تلك السياقات الخطأ موجودة في أساليب إدارة المعارك في الجيش العراقي عبر تجاربه الطويلة في الميدان ، ولم يكن القادة العسكريين يسمحون بها تحت أي ظرف ، حتى عام 1979 عندما أصبح صدام حسين القائد العام للقوات المسلحة ، وبدأ التدخل في تفاصيل المعارك ، وفرض رؤياه في العقاب القاسي الذي يتأسس على إهانة الضباط والقادة ، ودفعهم إلى العمل تحت طائلة التهديد ، والأمر بتكرار المهمة التي لم تنجز ، وإن لم تكن متوافقة والضوابط العسكرية ، وبالتكرار أصبحت مثل هكذا أفعال سياقات عند أعضاء القيادة العامة ، ومن ثم قادة الفيلق والفرق ، و تقليدا يتم اللجوء إليه في أول مواجهة صعبة . وبما أن هذا التقليد تعود جذوره إلى القائد العام سيكون من الطبيعي أن لا يجيب أحد عن أسباب تكرار مفرداته أخطاء تعبوية .

إرغام الوحدات ، والتشكيلات المهاجمة في أن تعاود الهجوم أكثر من مرة ، وإن تكبدت خسائر تزيد على 80% من قدرتها القتالية .

التهديد العلني للضباط ، والأميرين بالإعدام إذا لم يحققوا نجاحا لخطط لم تهئ لها أية مستلزمات للنجاح .

النتائج النفسية للمعركة

إن تلك المعركة ومع شدة خسارتها المادية ، والمعنوية بالنسبة للعراق فإنها لم تكن ذات تأثير فاعل باتجاه الحسم أو الإخلال بالتوازن غير المستقر بين الجانبين لأنها وقعت في منطقة محدودة أقصى شمال العراق ، وفي ظروف استطاعت فيها أجهزة الإعلام العراقية أن تغطي على نتائجها السلبية بعرض التحرك الدبلوماسي العراقي عرضا مثيرا .

انتهت المعركة في هذا القاطع وبقي الجبل تحت السيطرة الإيرانية حتى حلول وقف إطلاق النار في 1988/8/8 .

وهي وإن حققت فيها إيران نجاحات في المواجهة العسكرية الميدانية ، لكنها وعلى المستوى النفسي لم تتم في أرض ذات أهمية كبيرة بالنسبة للقيادة مقارنة بتلك الموجودة في الوسط والجنوب ، كما إن احتمالات التوسع على أساس استثمار الفوز في هذه المنطقة محدود جدا كونها أرض جبلية تحتاج إلى كل الجيش الإيراني ، وأكثر منه ليضيع في جبالها ووديانها الكثيرة .

وبذلك لم تكن خسارتها ذات وقع كبير على معنويات القيادة العراقية وحالتها النفسية ، ولم يكن لها تأثير سلبي ملموس على الموقف السياسي ، أو الوضع الشعبي العام .

الدعم الدولي للعراق

لقد قيمت القيادة العراقية نتائج تلك المعركة من الناحية العسكرية ، وقيمتها جهات أخرى ذات صلة بالحرب الدائرة على جانبي الحدود العراقية من الناحية الاستراتيجية ذات الصلة بترتيبات التوازن في المنطقة ، وكانت نتيجة التقييم : سعي حثيث من قبل القيادة العراقية لتأهيل ، وتدريب القوات ، وتحسين مستويات أدائها، ورفع معنوياتها ، واستعدادها القتالي على أن تتولى الصنوف والقيادات هذه المهام، وبشكل مكثف.

رغبة عند المعنيين بالصراع في دعم العراق وتعزيز قدراته العسكرية لتأمين تفوق ميداني مرحلي .

وبعد فترة قليلة من انتهاء تلك المعركة بدأ العد التصاعدي لميزان القوى يميل إلى صالح العراق بعد أن عجزت إيران المحافظة على مستوياته التي سجلت لصالحها منذ معركة المحمرة مروراً بالفاو ، وانتهاءً بكرد مند ، وبعد أن تلكأت في استثمار الفرصة التي أتاحت لها من الناحية النفسية ، والسياسية في تأسيس موقف لفرض شروط معقولة لوقف الحرب على ضوء التفوق العسكري في ساحة المعركة ، لكنها وبدلاً من ذلك استمرت على نفس الوتيرة في ترديد عدم الموافقة على وقف إطلاق النار إلا بالسقوط الكامل لنظام الحكم في العراق ، هذا الهدف الذي تبين مناقشة مديات تطبيقه : أنه لم يكن مدعوماً من قبل الدول ذات النفوذ في المنطقة . لا يمكن اقتناع الضباط ، والقادة في القوات المسلحة العراقية بموضوعه . من الصعب جداً تنفيذه من الناحية العملية .

من غير المعقول أن يقبل الشعب العراقي فرض التغيير من فوهة البندقية الإيرانية ، رغم أن غالبيتهم يتمنون التغيير .

وكان ذلك جموداً في الموقف على العكس من الموقف في جانب القيادة العراقية التي تحركت في جميع الاتجاهات لاستثمار تعنت الحكومة الإيرانية فيما يتعلق بوقف الحرب ، وشروطها التعجيزية ، وتكييفها مادة مهمة في مجالات كانت تحتاج لها بشكل ملح خاصة في :

. التوجهات الميدانية للدعم المعنوي للعسكر المقاتل في الجبهة ، والشعب الساند في العمق .
. تحديد الاستراتيجية العامة للحرب النفسية الموجهة ضد إيران ، والمجتمعات الأخرى في الخارج .
ومع هذا الاستثمار لم تتوقف عن السير قدما في التهيؤ لمعارك الحسم النهائية بمباركة من الخارج ، ورغبة عارمة في الداخل .

الفاو بداية النهاية

لقد تبادل الطرفان العراقي ، والإيراني الفوز في معارك على الجبهة ، وتبادلا الخسارة ، وأحسا سوية أسى احتلال الأرض ، ونشوة تحريرها ، وأذاق عسكرهما سوء العذاب لعسكر الطرف الآخر ، وشعر شعبيهما بؤس الحرب ، وفرغت خزائنها ، ولم يسقط صدام ، وكذلك لم تنته الثورة في إيران ، وتيقن شعبيهما سوية أن الحرب مسألة حكام . تلك كانت المشاعر السائدة في الوسط الشعبي لكلا المجتمعين ، وفي خضمها أدركت القيادة العراقية أن الوقت مناسب لأن تقوم بعمل عسكري ملموس على الأرض في جبهة القتال ، وقد امتلكت السلاح الكافي ، ودربت لأغراض الهجوم قوات قاربت الفيلقين ، وفسرت الدعم الدولي إشارة لبدأ ذاك النوع من الأعمال التعرضية .

معركة الفاو الثانية

كانت الاستعدادات ، والاستحضارات تسير بشكل جيد بمعايير ، وقدرات الطرفين في ثمانينات القرن الماضي ، وعندما تيقنت القيادة العراقية باستكمالها قررت القيام بعمل تعرضي واسع ، واختارت الفاو هدفا لمعركتها القادمة لعدة اعتبارات عسكرية منها : أن الفاو هي الأرض التي جرت فوقها أقصى معركة تم فيها اقتطاع أرض عراقية واضحة المعالم ، فاصبح استرجاعها هدفا واضح المعالم أيضا من الناحية العسكرية والنفسية . إن الدفاعات الإيرانية في الفاو شبه معزولة عن البر الإيراني باستثناء جسر يربطها بالضفة الثانية لشط العرب ، وهو جسر يمكن تدميره ، أو تجريده عن طريق القوة الجوية العراقية ذات السيادة المطلقة على أرض المعركة ، الأمر الذي يجعل تعزيز هذه الدفاعات مسألة صعبة ، والتفوق عليها سهلا في ظروف امتلاك العراق بعد عام 1987 كثافة نيران هائلة . إن الفاو وبسبب تلك العزلة الممكنة الحدوث ستتكدب فيها القوات الإيرانية خسائر كبيرة يمكن أن تؤثر على مجريات المعارك اللاحقة . وكذلك اختارتها أي الفاو لاعتبارات نفسية بينها : إن سقوط الفاو عام 1986 كان المعركة الأكثر إيلاما للعقلية العراقية الحاكمة في تاريخ الحرب القائمة بينها وبين الإيرانيين ، وتسعى بكل جهدها إزالة ذلك الألم النفسي ، وإطفاء الشعور بالخسارة بأي ثمن كان .

. إن استعادتها هدف يمكن أن يرفع معنويات القوات المسلحة ، والشعب العراقي بعدها مدينة عراقية ، وميناء رئيسي مؤشر في الذاكرة العراقية .
. إن المتوقع بعد سنتين من الدفاع عن المدينة قد مل الإيرانيون التواجد فيها دون أمل بحسم الحرب لصالحهم هدف أسس عليه قادتهم مفردات دعمهم المعنوي في بداية احتلالها ، وسقوطها قبل سنتين .
على وفق تلك الاعتبارات العسكرية ، والنفسية ، ولأخرى سياسية تهيأت القيادة العامة للقوات المسلحة لخوض المعركة ، وهيأت لها استحضارات جيدة منها الطلب من الحرس الجمهوري ، وقيادة الفيلق السابع إجراء ممارسات هجومية على أرض مشابهة لأرض الفاو ، وخططت لأن يكون الهجوم على محورين :
الأول بمحاذاة شط العرب ، والطريق العام بصرة الفاو برتل من الفيلق السابع يقوده اللواء الركن ماهر عبد الرشيد . والثاني بموازة الساحل ، والطريق الذي يربط أم قصر الفاو برتل من الحرس الجمهوري يقوده اللواء الركن أياد فتيح الراوي. هذا ويتكون كل رتل من الرتلين من قوة لا تقل الفرق المشاركة بها عن أربعة فرق ، وقامت بعدد من الخطوات مسبقا مثل:
. تهيئة الأرض بشكل مناسب لتقدم الدروع خاصة بالنسبة إلى الرتل الساحلي . تأمين إمداد مدفعي ، وصاروخي ، ودعم مباشر من طائرات القوة الجوية في قاعدتي الشعبية ، وعلى بن أبي طالب القريبتين من ساحة العمليات ، وكذلك من القاصفات الاستراتيجية في قاعدة البكر .
. هيأت المدرج الموجود في أم قصر للجهد الجوي الخاص بطيران الجيش السمتي ، والطائرات الخفيفة (PC7) التي تحمل صواريخ ضد المشاة والمواقع الحصينة .
. جهد نفسي تعبوي لرف الحرب النفسية ، ومفارزها⁴⁴.

⁴⁴. ألقت طائرات (PC7) ثابتة الجناح العائدة إلى رف الحرب النفسية في مديرية البحوث والخدمات النفسية عدة ملايين من المنشورات فوق مواضع الإيرانيين على أرض الفاو مع ساعة الشروع، ونفذت طائراتها السمتية نوع (MI2) أكثر من خمسين طلعة في اليوم الأول من الهجوم، وبتحديد أربعين أخرى في اليوم الثاني حتى إتمام تحرير المدينة آخر النهار.

. خصصت جهد الدولة الإعلامي لأغراض المعركة، وأرسلت طواقم إعلامية كانت قريبة من قطعات الصولة .

بدأت المعركة قبل الضياء الأول ليوم 17 / 4 / 1988 بقصف مدفعي شديد على المناطق الإدارية ، والاحتياطي التعبوي في الضفة الثانية لشط العرب، وضربة جوية شاملة على المواضع الدفاعية داخل الفاو⁴⁵، وعلى طرق التموين ، والإمداد. بعدها جرى التقدم من قبل الرتلين كل على حدة ، وبأسلوب جعل فيه القائد العام نوعاً من التنافس على مسألة الوصول إلى مركز المدينة ، وإكمال هدف الهجوم درجة تسبق التقيد بالمعايير العسكرية ، الأمر الذي دفع الرتلين إلى التسارع حيث حقق كلاهما تماساً بالمدافعين الإيرانيين قبل منتصف النهار . سارت المعركة منذ بدايتها لصالح القوات الهاجمة طيلة ذلك اليوم ، وفي اليوم الثاني بدأت قوات الحرس الجمهوري بالتقدم أسرع نحو قصبة الفاو ودخلتها بحدود الساعة 1600 ، ثم واصلت التقدم باتجاه رأس البيشة ، لتعلن في برقية مستعجلة إلى القائد العام للقوات المسلحة سقوط آخر دفاعات الإيرانيين قبل الضياء الأخير لهذا اليوم. هذا وبدأت قطعات الفيلق السابع بعدها مباشرة بدخول المدينة ، والانتشار في بعض الأماكن ، لكن قائدها ماهر عبد الرشيد صاغ برقيته للقائد العام بما يؤكد دخوله المدينة قبل غيره من قوات الحرس الجمهوري، وقد انسحب الإيرانيون من مواقعهم بالاستفادة من الجسر قبل تدميره، وكذلك باستخدام وسائل العبور التقليدية، وسقطت دفاعاتهم في هذه المدينة بوقت قياسي لم تتوقعه القيادة العراقية، وبانسحابهم المبكر أوقفوا النزف المستمر للخسائر في جانبهم التي كانت عالية حتماً بضوء كثافة النيران واستخدام الأسلحة الكيماوية، بينما لم يخسر الجيش العراقي في صفوفه سوى أعداد لا تزيد عن العشرات، رغم إن النظر إلى أرض المعركة من الجويتين فيها حفراً لانفجارات قنابل المدفعية، وقنابر الهاونات في كل متر مربع من أرض المعركة. لقد سقطت المدينة بالفعل ورفع العلم العراقي على مئذنة المسجد التي بقيت سليمة نسبياً حتى ساعة إعلان التحرير ، وتحرك ماهر عبد الرشيد خطوة أبعد في استعراضية التحرير عندما أرسل مفرزة من هيئة التوجيه السياسي لفيلقه تعلن إلى أهالي البصرة من مكبرات الصوت المثبتة على العجلات أن تحرير الفاو قد تم بجهود الفيلق السابع الذي

⁴⁵. استخدمت القوة الجوية العراقية قنابل عيار 9 طن روسية الصنع في قصف المواضع الإيرانية في الفاو .

يقوده دون أن يدرك أن تسابقه من أجل الفوز برضى القائد ومكارمه السخية ، واستعراضيته بهذه الطريقة قد فسرت من قبله أي القائد العام نوايا مبيتة للتحرك باتجاه كرسي الرئاسة على المدى البعيد لم يغفلها صدام حسين في تشخيص ولاء القائد المذكور، وتحديد مستقبله العسكري ، والسياسي فيما بعد. وكان المقاتلون الحقيقيون على أرض المعركة بعيدون عن الصراعات الجارية من أجل الرتب، والمكافآت والنوايا المبيتة... يتحسسون وحدهم طعم النجاة من المعركة... وإنهم وحدهم يستحقون تسجيلها لصالحهم فسارعوا يحتفلون بطريقتهم الخاصة رعي باتجاه السماء لكل أنواع الأسلحة ، والعتاد المذنب والتنوير بدت فيه السماء شعلة ملتهبة مع الدقائق الأولى للمغيب عندما أعلن راديو ، وتلفزيون العراق بيان القيادة العامة للقوات المسلحة إتمام احتلال الفاو وتحرير الأرض التي أسمتها بوابة النصر .

الاحتفال بالنصر

إن صدام حسين الذي ينظر إلى المعركة من زاويته النفسية الخاصة كان الأكثر غبطة وفرحا من بين الآخرين في قيادته ، وبضوء سعادته هذه أمر بالتهيؤ إلى لاحتفال بها بشكل مميز غمر فيه كبار الضباط ، والقادة بانواط الشجاعة التي لم يعد على صدر البعض منهم متسعا للمزيد منها، دون أن ينسى لماهر عبد الرشيد نواياه غير المعلنة ، أو يغفر له سقطته في وهم الاستعراضية وحب الظهور الذي توضح بعد انتهاء معركة الفاو مباشرة ، فرسم نهايته عسكريا في خضم التكريم الخاص بالمعركة حيث منح قائد الرتل المنافس له اللواء الركن أياد فتيح الراوي (27) نوط شجاعة مرة واحدة تعبيراً عن شجاعته ، وإخلاصه ، وسرعته في التقدم ، وهدوءه في تسجيل النتائج ، والأهم منها جميعاً نواياه السليمة تجاه القائد والحكم، في حين منح اللواء الركن ماهر عبد الرشيد نوطاً واحداً⁴⁶

⁴⁶ قال بعض الحاضرين لاحتفال التكريم أن ماهر عبد الرشيد (والد زوجة قصي ابن الرئيس) أبدى امتعاضاً ، أو عدم رضا عن موضوع تكريمه نوطاً واحداً بأن أثره على وجهه الشاحب ، مما دفع صدام أن يأمر مرافقيه بضربه أمام البعض من المقربين ، لكن مثل هكذا أمور يصعب إثباتها (رغم وجودها فعلاً في حالات عديدة مشابهة) لطبيعتها التي تثير المبالغة والتهويل من جهة ، ولتعلقها بشخص ماهر عبد الرشيد المعروف بعدوانيته ، وميله لإهانة الضباط العاملين بمعينته ، وسعيه لتعميم الطائفية أسلوباً في تعامله مع الآخرين من حوله التي تدفع جميعها تضخيم صورة السلب لما يتعلق به ، وربما الإضافة إليها مما تريده النفس بالضد من شخصيته غير المحبوبة من جهة أخرى .

فقط أحسه هذا القائد الذي حاول أن يبني مجدا عسكريا في هذه المعركة إهانة لشخصه وفسره الحاضرون نهاية لمستقبله. وبذا عدت تلك المعركة التي فتحت الباب أمام معارك ناجحة للعراق قد أنهت مستقبل ماهر عبد الرشيد المقرب سابقا من الرئيس ، والمكافح من أجل مناصب أعلى ، إذ نقل بعد واقعته بفترة ليست بعيدة مستشارا (بلا منصب) في الرئاسة ، فضل بسببها العزلة في منطقة الجزيرة مع أبله ، وغنمه بعيدا عن الأضواء ، والنوايا غير الواضحة إلى الأبد⁴⁷.

⁴⁷. اعتاد صدام حسين الاحتفال بذكرى تحرير الفاو سنويا ، وفيه يجمع الضباط القادة الذين أسهموا بمعركتها يقص عليهم المآثر ، ويقصون عليه البطولات ، وفي احتفال عام 1995 تلفت من حوله ، وكأنه تذكر ماهر عبد الرشيد ، وأردف على الفور قائلا بلهجته التكريتية (ماهر ما موجود لازم يرعى الغنم والإباعر مالتو بالجزيرة) لكن ماهر في واقع الحال لو كان قد دعي لحضور احتفال الرئيس فعلا فمن غير الممكن تعمد التأخير لأنه يدرك جيدا أن الثمن سيكون رأسه ، مما يرجح احتمال عدم دعوته وتعمد إهماله بقصد مزيدا من الإذلال والإهانة التي كانت واضحة في عبارة الرئيس الذي شبهه فيها براعي الغنم ، وهو ضابط برتبة فريق.

معارك فرض النهاية

إن معركة الفاو الثانية شكلت المنعطف الثالث ، والأخير للحرب لأنها ومن الناحية النفسية :

أعادت الثقة للحكومة بقدرتها على الاستمرار بالقتال .
أسهمت في رفع معنويات القطعات العراقية درجات إلى الأمام .
أثارت أمام القيادة الإيرانية ، والإيرانيين عديد من الأسئلة حول جدوى احتلال الفاو ،
وجدوى الاستمرار بالحرب .

وأصابت المعنويات لعموم مقاتليهم بنكسة كبيرة أثرت على مستويات أدائهم اللاحقة بشكل كبير .

وفي الجانب المقابل دفعت القيادة العراقية إلى المبادرة بإدانة زخم الخسارة في عقول الإيرانيين ، إذ إنها شرعت على أعقاب هذه المعركة مباشرة بعديد من الأعمال بينها :
زيادة عدد الطلعات الجوية في العمق الإيراني ، وفوق أهدافها السوقية جنوب الخليج العربي .

كثفت جهود الحرب النفسية التعبوية ، والسوقية لتأكيد هدف الحسم في معارك مقبلة من أجل وقف الحرب .

حركت الدبلوماسية العراقية بعديد من الاتجاهات في محاولة للتأثير على العامل الدولي بالضغط على إيران للقبول بوقف الحرب من جانب ، واستزادة الدعم العسكري لصالحها من جانب آخر .

وفي ساحة الحرب بدأت مباشرة بعد الفاو بالمنورة بالقوات الموجودة في القاطع الجنوبي من الجبهة والقريب من أهداف مهمة أخرى داخل حدود العراق ما تزال القوات الإيرانية تتواجد فيها ، وتهيأت بشكل مقبول بعد شهر تقريبا للقيام بشن هجوم آخر مستفيدة من الدفع المعنوي التي تمتعت به القوات العراقية بعد تلك المعركة .

وكان الهدف هذه المرة الدفاعات الإيرانية في قاطع الشلامجة ، وقطعات الصولة الرئيسة فيها قوات الفيلق الثالث معززة ببعض الوحدات المدرعة من الحرس الجمهوري ، وبدأت المعركة التي استطاع فيها الفيلق حسم الموقف لصالحه بمعركة خاطفة لم تتجاوز يوم قتال .

وفيهما تمكن من استرجاع كافة الأراضي التي كانت تحتلها القوات الإيرانية في هذا القاطع منذ معركة المحمرة ، وما بعدها بقليل .

وبانتهاء هذه المعركة زادت ثقة القيادة العراقية بنفسها وتضاعفت دافعيته من أجل الاستمرار بسلسلة المعارك التي أطلقت عليها الدعاية الموجهة لأجهزتها (معارك التحرير).

ووضعت سقفا زمنيا بحدود الشهر بين معركة وأخرى ، كان عبارة عن زحف للقوات من الجنوب إلى الوسط ، فالشمال .

وكان المكان هذه المرة جزر مجنون ، أو ما يسمى بحقول النفط في مجنون والهدف الرئيسي إخراج القوات الإيرانية التي تركزت من معارك سابقة في جزرها الصغيرة المتناثرة في منطقة واسعة مغمورة بمياه هور الحويضة الذي يمتد في كلا البلدين ، اعتقدت إيران باحتلالها أنها تسيطر على ورقة استراتيجية تفيدها بالمساومة على نتائج الحرب كونها منطقة فيها من احتياطي النفط العراقي الكثير.

وكانت المعركة سهلة بالنسبة للقوات العراقية بالمقارنة مع معارك جرت فيها قبل ثلاث سنوات تكبدت فيها خسائر كبيرة دون أن تحقق سوى تثبيت القوات الإيرانية المهاجمة في أماكنها داخل الهور وعلى تلك الجزر ، والسهولة هذه لا تتعلق بطبيعة الساحة الخاصة بالمعركة التي تصعب فيها المناورة ، وتضييق فيها الطرق التي تربط بعض الجزر داخل المسطح المائي .

ولا تتعلق بمدى تيسر وسائل القتال الملائمة للمياه الضحلة التي لم تتأمن بالقدر الكافي ، بل تحققت من خلال :

الارتفاع الحاصل لمؤشر المعنويات في الجانب العراقي .
الهبوط الحاصل في مجالها أي المعنويات في الجانب الإيراني .
سهولة تحشيد القوة اللازمة للهجوم بسبب قربها من منطقة التحشد الرئيسة للمعارك السابقة .

قرب ساحتها من الجهد الجوي ، والصاروخي .
وكانت هذه المعركة بقيادة الفيلق الثالث المعززة بقوات من فرق الحرس الجمهوري ومدفعيته ، وبواجب محدد بشكل واضح قوامه :
الهجوم على الدفاعات الإيرانية في الجزر ، ودفعها خارج خط الحدود الدولية .

وبدأ القتال باستخدام القوات العراقية لتعبئة الكثافة النارية الشديدة على مواضع وأماكن دفاعية شبه محصورة أدت بفترة زمنية وجيزة إلى :
تخلخل الدفاعات الإيرانية سريعا .

الانسحاب من جميع المواضع في نهاية اليوم الثاني إلى العمق الإيراني .
وقوع الكثير من المقاتلين الإيرانيين في الأسر .
أنهت هذه المعركة آخر وجود إيراني في الأرض العراقية ضمن القاطع الجنوبي ، وأنهت معها أي أمل للإيرانيين في الاستمرار بالقتال بكفاءة تعيد لهم تفوقهم السابق .
بدأت على إثرها تظهر أصوات ، وتترسخ قناعات على مستوى الداخل الإيراني تنادي بضرورة وقف الحرب ، وبدأ الإيرانيون والعراقيون يدركون عدم جدوى استمرارها ، وبدأ الكثيرون من بينهم يفهمون تبادل الربح ، والخسارة الذي جرى طيلة الثمان سنوات المؤلمة لهذه الحرب القاسية لا يتعدى تبادل الأدوار من أجل الإطالة وتدمير البلدين ، فزادت أي هذه القناعات ، والأصوات الوضع صعوبة في الجانب الإيراني ، بينما استثمرته الحكومة العراقية هدفا من أهداف حربها النفسية نجحت من خلال تطبيق وسائلها بكفاءة في إقناع عموم العراقيين ، والعرب وبعض الإيرانيين أن الحرب تتوقف فقط عندما يشعر الإيرانيون بهول الخسارة على خط الحدود ، ويحسونها خطرا يقترب من أهدافهم الاستراتيجية .

كانت كل تلك التداخلات للمعارك العسكرية على جبهات القتال ، والإصابات المباشرة للأهداف البحرية ، وموانئ تصدير النفط قد اقترنت تأثيراتها السلبية على الإيرانيين بأحداث مهمة في المنطقة بينها :

إصابة الفرقاطة الأمريكية ستراك بنيران إحدى الطائرات العراقية خطأ⁴⁸ في الخليج دون أن تبدي الحكومة الأمريكية اكتراثا للموضوع على غير عاداتها الأمر الذي فسره الإيرانيون تقرب للأمريكان مسافة أكبر من ساحة الحرب واحتمال الاشتراك بها بأدوات ووسائل مضافة .

⁴⁸ . عوضت الحكومة العراقية أسر المقتولين ماديا .

وبينها كذلك قيام البحرية الأمريكية بإسقاط طائرة ركاب إيرانية فوق الخليج عن طريق الخطأ أيضا ، فسروه أي الإيرانيين رسالة مباشرة بأن الحرب ستطال أهداف خارج ساحة المعركة .

وفي خضم هذه التطورات لم تتوقف القوات العراقية حيث أضاف لها كل كسب لمعركة ميلا للبدا بأخرى ، وبذا نقلت القيادة العامة للقوات المسلحة جهدها هذه المرة إلى محافظة ميسان ، وأمرت قيادة الفيلق الرابع بتنظيم هجوم على المواضع الإيرانية شرق ميسان .

تلقى الفيلق التوجيهات واستعد جيدا للتعاون مع وحدات من الحرس الجمهوري ونفذ خطط المعركة بسهولة أدت إلى كسب جولاتها مثل الفيالق التي سبقته وبنفس مستويات النجاح .

وفي نفس الوقت أصدرت الأوامر إلى الفيلق الثاني المسؤول عن القاطع الأوسط من الجبهة بالتهيؤ لخوض المعركة في جبهته ، وهيأت معه ثلاث فرق من الحرس الجمهوري أعطتها جبهة منفصلة عن جبهة الفيلق .

وتم الشروع بالهجوم في الشهر السابع بعد حوالي الشهر من آخر معركة دخلتها القوات العراقية في قاطع العمارة .

ولم تكن النتيجة مختلفة ، بل وكانت أكثر قساوة على الإيرانيين الذين بدأ مقاتليهم يتوجهون إلى التسليم للقوات العراقية بأعداد كبيرة⁴⁹، وبدأت معالم التعب واضحة على أدائهم الذي اختلف كثيرا عن فترة الحرب بعد معركة المحمرة ، والفاو الأولى .

وفي هذه المعركة لم تتوقف القوات العراقية عند خط الحدود بل واندفعت في العمق الإيراني حتى سوماً لحسابات تعتقدها مهمة في التخلص من التداخل الحاصل في وضع الدفاعات داخل ، وخارج الحدود لكلا البلدين .

⁴⁹. ألقت طائرات الحرب النفسية بطاقات أمان بأعداد كبيرة على الدفاعات الإيرانية قبل المعركة وأثنائها تطلب فيها من القوات العراقية مساعدة الإيراني الذي يحملها ومعاملته معاملة جيدة ، وصاغتها بشكل يوحى بطابعها الرسمي أي الحكومي ، وكان عديد من الإيرانيون قد سلموا وهم يحملونها بعد ساعات من إلقائها عليهم في بعض المواقع .

القرار الذي تأخر ثماني سنوات

مع كل ذلك التفوق العملياتي حافظت القيادة العراقية على الأهداف المعلنة لسلسلة المعارك من أجل ، أو باتجاه وقف الحرب مبدية قدرا من التعقل تميزت به هذه المرة على غير عاداتها منذ بدأ الحرب ، وأجملتها بالآتي :
الرغبة بوقف إطلاق النار ، والتخلص من سكير الحرب .
الجلوس على مائدة المفاوضات .

تجاوز معالم الشك ، والخطأ بين البلدين .
وهذا سلوك مع حادثة الطائرة المنكوبة ، والفرقاطة المضروبة ، والتسريبات القصدية بالتنسيق الاستخباري بين الأمريكان ، والعراقيين كون اعتقادا لدى القيادة الإيرانية قوامه: أنها غير قادرة على مسك زمام المبادء كما كانت قبل سنوات .
وأنها معرضة إلى خسائر أكبر سوف لن تكون قادرة على تحملها فيما إذا أصرت طرفا على الاستمرار بالحرب .

عدم تمكنها من تحمل الضغط المباشر عليها من قبل أقرب حلفائها ، وأصدقائها لتلين موقفها .

وتلك كانت متغيرات قد تفاعلت مع بعضها البعض لتدفع إلى الموافقة على وقف إطلاق النار في وقت تقاربت فيه مستويات الربح ، والخسارة مسافة من كلا البلدين لم تحصل من قبل:

فالأرقام المعلنة للأسرى التي كانت تشكل أفضلية كبيرة لصالح إيران قد تقلصت فروقها نسبيا نتيجة لسلسلة المعارك الأخيرة التي وصلت أعداها من جانب الإيرانيين بحدود عشرين ألف أسير لأربعة أشهر من القتال شبه المستمر .

والأرقام غير المعلنة للخسائر بالأرواح تؤشر في غير صالح إيران .
والأرض على جانبي الحدود فيها قدر من التعادل ، بقيت على أساسه أراض عراقية مسيطر عليها من إيران ، وبقيت في نفس الوقت أراض إيرانية محتلة من قبل العراق .

ولإيران أهداف قريبة من الحدود تضررت كثيرا ، وكذلك للعراق .
وإيران التي حافظت على تفوق معنوي عقائدي منذ معركة المحمرة عام 1982 خسرت كثيرا من مستوياته بعد معركة الفاو عام 1988 .

والعكس حصل مع العراقيين الذين تعدلت مستويات معنوياتهم كثيرا في السنة الأخيرة للحرب .

ودافعية القتال التي زادت عند العراقيين من أجل إنهاء الحرب في الأشهر الأخيرة ضعفت عند الإيرانيين بسبب الإحباط الحاصل إثر النتائج السلبية للمعارك من ناحية ، وبسبب خسارتهم الكبيرة لمقاتلي الجيل الأول من ناحية أخرى ، ورغبة في داخلهم للتخلص من هذه الحرب غير المبررة .

حصول خرق في القناعات الخاصة بديمومة القتال من أجل الإسلام ، والدفاع عن الثورة التي بدأت تخسر مواقعها واحدا تلو الآخر .

كل تلك المتغيرات بالإضافة إلى الوضع الداخلي ، جعل الطرفان يغيرون من نواياهم التي وضعوا بعضها أهدافا غير معلنة للحرب ، ودفعت الإمام الخميني المخول الوحيد بتقرير مصيرها إلى الموافقة على قرار الأمم المتحدة بوقفها مع إشارته العلنية عن الاضطرار لاتخاذ موقف يشبه تجرع السم .

نهاية فعل القتال

تلقف الجانب العراقي موافقة إيران بتشوق ليعلن هو موافقته التي أنهت في 1988/8/8 ثماني سنوات قتال مستمرة كلفت العراق ، وإيران :

بحدود المليون إصابة بين قتيل وجريح ومعاق .

حوالي مائة ألف أسير أمضى البعض منهم عشرين سنة في أقفاص الأسر التي أعدت بظروف تفتقر إلى أبسط معايير الرفق بالحيوان .

خراب وتدمير شمل غالبية المدن الحدودية .

دمار لنسبة غير قليلة من البنى التحتية للبلدين .

تأخر عن الركب الحضاري للعالم الآخر عشرات السنين .

تعزير مشاعر العداء بين أجيال عدة سوف لن تخف ، أو تعاد إلى الذاكرة البعيدة بسهولة.

انتهت الحرب بعد أن سجلت فشلا لجهود القيادتين في :

المحافظة على أرواح شعبيهما ، وعلى قيمهم الدينية ، والاجتماعية .

وفي تلمس المبادئ التي أعتقد كل طرف أنه قد رسخها في عقول منتسبي الطرف الثاني ،

لأن الاحتفالات بالتخلص من هموم الحرب ، وضغوطها قد شارك فيها الملايين لكلا

الطرفين بشكل طوعي دليلا على سأمهم الحرب التي أطالها قادة البلدين .

وباحتفالهم نسي العراقيون مجوسية الإيرانيين التي حاول النظام ترسيخها في الفكر الشعبي ، والديني العراقي .

ونسي الإيرانيون بنفس الوقت اتهام الجيش العراقي بالكفر الذي حاولت دعايتهم تجسيده في العقل الشعبي الإيراني .

ونسي الأسرى العراقيون وهم في الطريق إلى الحدود كل المحاضرات ، والطقوس الدينية ، والممارسات العقائدية التي أستخدمها المعنيون لغسل أدمغتهم ، إلا القليل منها الذي دفع أصحابه إلى تفضيل البقاء في إيران أو طلب اللجوء خارجها خشية تلقي العقاب القاسي بسببها .

ونسي كذلك الأسرى الإيرانيون مع بداية خروجهم من الأقفاص السيئة كل التشويهاات التي كان القائمون على إدارتهم يتعمدون ضخمها أفكارا في عقولهم . ولم يتبق في العقل الجمعي سوى الانفعالات غير السارة لثماني سنوات من الدمار ، والخراب ، والقتل ، والأسر ، والتشريد كونت أحقادا سوف لن تمحى من الذاكرة القريبة لكلا الشعبين عشرات السنين .

وتركت في العراق آثارا سلبية على كل معالم الحياة :

فالاقتصاد قد تردى ، وتدنت مستويات صرف الدينار العراقي مقابل الدولار الأمريكي تسع مرات ، ليكون مع نهاية الحرب ثلاثة دنانير ، على العكس مما كان قبل حدوثها بما يعادل ثلاثة دولارات للدينار الواحد .

ارتفاع نسب التضخم لأكثر من 900% وتدني مستوى المعيشة لعموم الشعب العراقي .
زيادة مديونية العراق التي بلغت مع نهاية الحرب حوالي (150) مليار دولار في الوقت الذي كان العراق يمتلك نقدا بحدود (30) مليار دولار قبل بدايتها .

رواسب في الذاكرة

انتهت حرب الثماني سنوات بقرار من الإمام الخميني ، مثلما بدأت بقرار من حاكم العراق وبانتهاؤها :

.عاد آلاف الجنود من جبهة القتال ليجدوا :
أن وظائفهم التي تركوها منذ ثمان سنوات قد ألغيت ، ولا مجال لإعادةتهم إلى أخرى مشابهة .

إن مشاريع السكن التي كانوا يأملون الحصول من خلالها على دور يستقرون بها قد تلاشت .

وإن النصر الذي أوهموا بتحقيقه لم يتعدى الفشل بكل المعايير القياسية :
فأمر شط العرب الذي طرحته القيادة عراقيا ، وهدفا من أهداف الحرب في بدايتها عاد مناصفة كما ثبتته اتفاقية الجزائر عام 1975 .

والعروبة تلك المشاعر التي أرادت الحكومة توظيفها لأجل الحرب قد تبين عدم جدواها في نهايتها :

إذ لم يتمرد عرب الأحواز على دولتهم ، وينظموا إلى العراق بالمطالبة في العودة إلى الحظيرة العربية طيلة الحرب .

ولم يبد عرب الخليج اهتماما للنتيجة التي حصلت ، ويعينوا شعب العراق للتخلص من محنته ، بعد أن أبعدت أجساد أبنائه عن أرضهم ثورة كانت معدة للتصدير .

ولم يعير العرب اهتماما لشعارات العراق في الدفاع عن الجناح الشرقي لأمتهم كانت القيادة العراقية تبتزهم فيها طيلة سنوات الحرب .

ولم يتنازل محركي الحرب عن المطالبة بتسديد الاستحقاقات ، والديون المالية المترتبة لهم على العراق .

.وعاد الطلاب الذين أجلوا دراساتهم ليجدوا أن أعمارهم تجاوزت الجلوس على مقاعد الدراسة ، وإن فرص التوظيف أقل من قدراتهم على التنافس مع الآخرين ، فاعتكفوا مع أنفسهم ، وتحولت مشاعر بعضهم إلى اتجاهات عدوان بالضد من أنفسهم ، والمجتمع الذي يعيشون .

. وانتظرت آلاف الفتيات المؤهلات للزواج ، إتمام زواجهن ، والعيش في أجواء أسرية بشكل طبيعي دون ما فائدة لعدم رجوع آلاف الشباب من جبهة القتال ، ولارتفاع تكاليف الزواج .

. واستعد الصناعيون لتشغيل معاملهم التي توقفت عن الإنتاج منذ بداية الحرب ليجدوا المصرف المركزي قد أغلق باب التحويل ، وفتح الاعتمادات المالية فعادوا إلى معاملهم محبطين .

. وتذكرت الأم أبنها الذي لم يعد من الجبهة مفقودا حتى لحظة إعلان وقف إطلاق النار ، ولم يظهر وجوده مع وجبات الأسرى التي بدأ تبادلها بين الجانبين بطريقة بعيدة جدا عن تعاليم الإسلام ، فغرقت ثانية في نوبات الاكتئاب .

. وتوقف الفلاح عن الجري نحو الشركة العامة لانتاج ، وتسويق المعدات والمكائن الزراعية بعد أن أخبره الموظف المختص أن قوائم التسجيل القديمة على مكائن الحراثة ، ومضخات المياه قد ألغيت ، ووزعت هذه المعدات القليلة مكرمة من قبل الرئيس القائد إلى قادة الحرب المنتصرين ، وأعضاء القيادة القطرية الصامدين ، والكادر المتقدم لحزب البعث الاشتراكيين .

لقد أفاق العراقيون جميعا من غفوتهم بعد شهر من انتهاء الحرب ، وبدأو يحسبون الربح والخسارة ، وبحسابهم المستمر وجدوا :

أن الربح الوحيد من هذه الحرب هو البقاء على قيد الحياة .
وإن الخسارة شاملة لكل شيء ، فحاولوا أن يعطوا تفسيراً مقنعاً لما أصابهم ، ويحددوا تصورا معقولا لما سيعملون مستقبلا فلم يجدوا بدا من الانكفاء على الذات آملين أن يصلح الباري عز وجل الأمور .

أما على مستوى الحكومة فإنها وكعادتها في التعامل مع المواقف حاولت بكل جهدها أن تحول التعادل بالخسارة التي تحددت نتيجة للحرب إلى نصر حاسم ، وحاولت أن تربط هذا النصر ببقاء العراق صامدا إزاء الهجمات الفارسية ، وعاشت نشوة التخلص من كابوس الحرب الذي أقض مضاجعها ثمان سنوات ، لكنها سرعان ما عادت إلى وعيها لتجد أن مشاكل ما بعد الحرب الخاصة بالاقتصاد ، والبنى التحتية ، والخرق الحاصل بالمعايير القيمة ، والديون ، وأسعار النفط ، وتضخم الجيش ، وقلة فرص العمل ، والوضع المعنوي المتردي تهدد النصر الذي كونه في مخيلتها مشاعر وهمية :

فبدأت تخطط لأعمال أخرى .
ونوايا أخرى لم يستطع الشعب العراقي ولا المقرين من بعض مفاصلها من إدراكها إلا بعد
تنفيذ خطواتها بعد سنتين من انتهاء هذه الحرب المدمرة حرباً أخرى أكثر قسوة من
سابقها .

الفصل التاسع حرب الخليج الثانية الغزو

كانت الحرب من وجهة النظر السياسية رغبة أمريكية بدعم
غربي وقبول عربي تمهد نتائجها لفرض واقع عالمي جديد .

رواسب حرب الثماني سنوات

أصرت الحكومة العراقية على تفسير إشارات الأميركيان المتكررة بعد انتهاء الحرب مع إيران بضرورة تجاوز التضخم الحاصل بأعداد الجيش العراقي تجاوز على السيادة ، وأكدت أن مسألة إعادة نظام معركة الجيش العراقي إلى اثنتي عشر فرقة بدلا من سبعة فيالق زائدا الحرس الجمهوري الذي يزيد عن فيلق⁵⁰، كما يتطلب حال العراق ، ومنطق الدفاع عن حدوده غير ممكنة .

بل وذهبت ابعد من ذلك حد عدم تقبل التحليلات التي يقدمها البعض من المعنيين في أجهزتها الاستخبارية عن نوايا الأميركيان ، والآخرين لإعادة ترتيب التوازنات الإقليمية في منطقة تشمل العراق ، وعدتها مجرد هراء .

وإن عدم رغبتها التفسير عمليا ، وكذلك عدم قبولها الإشارات ، والاستنتاجات منطقيا لا علاقة لها بجهل تعاني منه بعد فترة حكم طويلة اكتسبت فيها خبرات متراكمة في كافة المجالات خاصة منها ما يتعلق بالسياسة الدولية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى صدام حسين أعلى هرم سلطتها .

لكنها وكما يتفق المطلعون على بواطن الأمور في الإدارة العراقية مسألة تتعلق مباشرة باستفحال داء العظمة في الذات الحاكمة بعد أن دفعت الحزب ، وأدواتها الإعلامية إلى صياغة مفردات انتهاء الحرب مع إيران صياغة تنم عن : تحقيق النصر المؤزر ، وصدقت صياغتها .

ووقعت ضحية هذا التصديق حيث الاعتقاد الجازم بضرورة الحصول على الثمن كما هو حال المنتصرين .

والثمن الذي تراه مناسبا لقتالها إيران ثمان سنوات على المستوى الدولي : منحها دور الشرطي القوي في المنطقة بعد أن أسهمت بالنيابة عن الكبار في العالم باحتواء الثورة الإيرانية ، وتدمير بناها التحتية ، وإبقائها مكبلة بمشاكل اقتصادية ، وإدارية، وسياسية عديد من السنين .

⁵⁰ بلغ تعداد الجيش العراقي مع نهاية الحرب مع إيران بحدود 1,500,000 فرد عدا التشكيلات غير النظامية للجيش الشعبي ، ووصل تعداد فرقته العسكرية إلى ما يزيد عن ستمين فرقة .

والثمن الذي تراه عربيا دور الريادة ، أو القيادة العليا للأمة بدلا عن مصر بعد أن اعتقدت أنها من رفع شأن هذه الأمة في قتالها الفرس الذين وسمتهم جزافا بالمجوسية كل تلك السنين .

أما الثمن الذي تصر عليه خليجيا هو إطفاء الديون المستحقة على العراق ، وإعادة بناء اقتصاده المنهار ، وبقاء العصا الغليظة في يد الرئيس مسلطة على رؤوس الخليجيين بعد أن حماهم من غزو شيعي موهوم روج له بعض رجال الثورة في بدايتها تحت مصطلح تصدير الثورة ، واستثمرته الدعاية الغربية عاملا :

لإثارة البعض في المنطقة وخارجها بالضد من إيران . لكن واقع الحرب ونتيجتها العملية لا تشير إلى النصر كما يراه ، أو يفهمه الرئيس ، ويروج له البعثيون ورجال الدعاية ، وإنما :

تعاادل نسبي في الخسارة الإجمالية بحساب الموازين القائمة ، وبنسب جعلت كل جانب من الجانبين يغض الطرف عن خسائره ، وينظر فقط إلى خسارة عدوه مكسبا يقتنع به على مستوى الوعي .

نسيان القياديتين في هذه النتيجة عدم قدرتهما على تنفيذ نواياهما غير المعلنة من الحرب واستمرارها ، والنظر فقط إلى عدم تمكن الخصم من تحقيق نواياه نصرا مؤزرا لصالحه .

كما إن الحكومة العراقية الغارقة بوهم الانتصار لم تتنبه جيدا إلى الواقع الدولي نهاية ثمانينات القرن الماضي ، وبداية التسعينات الذي شرع الكبار فيه إلى تغيير أساليبهم في إدارة الصراع نسبيا بواقع جديد :

لا حاجة فيه إلى الشرطي الذي ينوب عنهم في أماكن وبؤر التوتر ، لأنهم ساعين في نظامهم الجديد إلى امتلاك زمام السيطرة من قبلهم .

لا ضرورة فيه للتقيد بالتواجد غير المباشر الذي تم انتهاجه أسلوبا بعد الحرب العالمية الأولى ، بل توجه للتواجد المباشر المطلوب والمرحب به من قبل دول ، وشعوب المنطقة المعنية .

هذا من ناحية ومن الناحية التي تتعلق بالعرب فإنهم قد أعادوا مصر إلى الريادة بدعوى عراقية سعى إليها صدام جاهدا عندما كان الموقف العسكري على جبهات الحرب مع إيران بحاجة ماسة إلى دعم مصر عسكريا ، وسياسيا وهم في تلك الفترة ليسوا

مستعدين للمجازفة بتبديل هذا الدور، أو الموقع بآخر جديد للعراق الذي لم يستطع أن يحافظ على فرصة توفرت له في هذا المجال عام 1979 بعد زيارة السادات إلى إسرائيل .

النظر باتجاه الخليج

في ظل تلك التناقضات وعدم التجانس بالرؤى والتصورات ، ولأسباب ذاتية على الأغلب أهمل صدام تلك الحقائق ، وبدلاً عن المناورة للتخلص من آثارها توجه بكل ثقله باتجاه الجنوب في محاولة لقبض الثمن خليجياً .

وبدأت تتجسم في مخيلته نوايا الحصول على الثمن المطلوب بالقوة مع كل لحظة يكتشف فيها واقع البؤس في عيش المواطنين العراقيين ، والتردي في حال الاقتصاد ، والصناعة ، والزراعة ، والعجز الكبير في ميزانية الدولة ، واستحالة ترميم الحالة مع موجة هبوط الأسعار للنفط الخام .

وتضخمت مساحة الشك في داخله من أن الكويت ، والإمارات وراء ذلك بقصد تدمير العراق ، وإسقاط نظام الحكم القائم .

لقد فهم الموقف ، والظروف المحيطة بالعراق بالصيغة التي يريدونها ، أو يتمناها تبعاً لنواياهم غير المعلنة ، وعلى أساس هذا الفهم لم يستطع إدراك نوايا الغير من القريبين والبعيدين ، وبالمعنى السياسي قدر خطأ ماهية التحرك في الساحة ، وعلى أساس هذا التقدير الشخصي بدأ :

. تحركاً باتجاه العمل العسكري ضد النقطة الأضعف في الجدار الخليجي وهي الكويت .
. تسخير ماكينته الإعلامية ، وأجهزته السياسية ، والنفسية ، والمخابراتية بإثارة بغض العراقيين في الداخل ، وإخافة الكويتيين ، والخليجيين في الخارج ولو في الأسبوعين الأخيرين قبل الغزو .

. اللعب مع الكبار على الساحة الدولية لعبة تلبية المصالح غير المناسبة .
. السعي لافتيال حرب تؤمن المباغته لأهل الكويت ، وقوة الصدمة للعرب الذين قد يسعفونها في الموقف الحرج .

التحرك قريباً من الكويت

في مجال النوايا من الحرب توجه القائد العام إلى أعمال التضليل في الوقت الذي يهيأ القوات على العمل العسكري حيث السعي إلى :

. تحريك قوات الحرس الجمهوري إلى منطقة الزبير قبل حوالي أسبوعين من بدأ الاجتياح ونشرها في الساحة المواجهة بأسلوب الدفاع ، وبشكل لا يساعد المعنيين بالمخابرات في العالم ، وأمريكا على وجه الخصوص من التوصل إلى استنتاجات مبكرة نسبيا عن نوايا الغزو .

. تعبئتها عسكريا للإيحاء أن كل الجهد تلويح باستخدام القوة لغرض الضغط ، والحرب النفسية .

. وفي مجالها أبقى قطعات الفيلقين السابع ، والثالث في مقراتها القريبة من المنطقة مع الأمر بإعادة تنظيمها ، وتدريبها ، وسد النقص في موجودها من الأشخاص والأسلحة والمعدات بسرعة كبيرة .

التحرك النشط على الساحة السياسية ، تحركا قوامه :

. الرد على استفسارات العرب ، والأجانب حول تركز تلك القوات في هذه المنطقة التي انتهت قريبا منها الحرب قبل سنتين على أنها :

مناورات عسكرية أي تدريب إجمالي لقوات موجودة أصلا في المنطقة .

إعادة تأهيل تلك القوات بعد حرب طويلة الأمد أرهقتها فنيا ومعنويا .

. الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة في بغداد تم عقده بالفعل ربيع عام 1990 في أجواء يشوبها بعض التوتر وعدم الارتياح ، خطب فيه الرئيس خطبة حماسية نوه فيها عن نوايا الأصدقاء لتدمير اقتصاد العراق بطريقة عدها حربا غير مقبولة مؤكدا فيها المقولة الشهيرة (قطع الأعناق ، ولا قطع الأرزاق) ، وأشار بشكل واضح لا لبس فيه عن دور الأصدقاء في تخفيض سعر النفط الذي يؤثر كل هبوط بمستوى الدولار في سعر البرميل الواحد خسارة للعراق بحدود المليار دولار سنويا الشعب العراقي بأمس الحاجة إليها. ومع كل تلك الإشارات ، والاتهامات لم يستثن الشيخ جابر الصباح أمير الكويت من الأنواط التي أغدق بها مكرمة للملوك والرؤساء ، حتى انتهى المؤتمر تظاهرة أثارت حيرة العرب ، والمؤتمرين أكثر من مساهمتها في توحيد جهودهم لتحقيق أهدافهم الاستراتيجية .

إن صدام حسين الذي يبني تعامله مع الواقع على أساس النوايا غير المعلنة .

ويحدد استجاباته للظرف القائم على وفق الشك بنوايا الآخرين .

وينفذ ما ينويه بمنتهى الكتمان .

كان على الأغلب قد وضع في عقله فكرة غزو الكويت بعد عجزه عن إيجاد حل للمعضل التي أرهقت كاهله والعراقيين ، وربما قبل ذلك بكثير وتطورت لتنضج بعد تدهور الحال بشكل مثير تراءى له أن الكويت بأرضها ، وساحلها ، ونفطها ، واستثماراتها هي الثمن المناسب لفعله في الحرب ثمان سنوات .

حتى أن جهوده في الثلاثة أسابيع التي شهدت أعلى درجات التوتر بين الجارين لم تكن كافية لتعبئة المجتمع العراقي بالضد من الكويت نفسيا لما استقر عليه وضع التعايش على مدى ربع قرن من الزمان تعامل فيه العراقيون مع الكويت دولة لا مجال للاختلاف معها .

ولم تكن هذه الأيام القليلة كافيه لمسح رواسب الأخوة في الذاكرة العراقية . حيث فتح فجأة هذا الملف وبدأ من محتوياته يضح التوجيهات اليومية إلى المتلقين العراقيين حقوق مستلبة في الأرض ، والساحل . نفط مسروق من حقول الرميطة الجنوبية . الكويت فرع من العراق لابد أن يعود إلى الأصل . وعلى أساس هذه الفكرة ، أو التمهيد لتطبيقها عمليا بدأ تحركاته الخارجية بعدة اتجاهات أهمها :

. السعي لتعزيز دور مجلس التعاون العربي ليكون فيه العراق قادرا على تمرير بعض النوايا بتأييد هذه الكتلة ، أو بتحيد بعض أعضائها .

. التوجه نحو قادة مصر ، واليمن ، والأردن لتوثيق العلاقات الشخصية معهم . . الإعلان بذات الوقت أن المحور الجديد ليس بديلا عن الجامعة العربية ، وليس تكتلا بالضد من أي عربي ، وإنما نظام اقرب إلى التحالف الموحد يبغي مفتوحا لانضمام باقي العرب الراغبين متى يرون ذلك مناسبا لهم .

واجتمع مع الملك حسين ، والرئيس حسني مبارك ، والرئيس علي عبد الله صالح في الأردن ودعاهم إلى بغداد ، واصطحبهم في جولات داخل العراق ، مؤشرا لهم على الأرض قصور تبني شامخة ، وتسجل بأسمائهم في أهم المناطق السياحية بالعراق .

وفي نفس الوقت تبرع إلى مكتبة الإسكندرية بأكثر من عشرين مليون دولار ، ومعها استعداد لدفع مبالغ أخرى نوه عنها الرئيس حسني مبارك في أحد خطبه كمحاولة لاستمالته من خلالها إلى تأييد ما سيقوم به لاحقا أي احتلال الكويت .

مباحثات التمهيد لعملية الغزو⁵¹

بعد أن نشر قواته قريبا من الحدود ، وتأكد من الردود العالمية غير المزعجة ، واقتنع أن الأزمة سوف لن تذهب بعيدا عن العرب غير القادرين على حلها ، اقتنع صدام أن النوايا باتجاه الكويت يمكن أن تترجم إلى حقيقة ، وبذا سلك باتجاه الدفع إلى الحرب حتى في المفاوضات التي بدأت تنحو منحى الجد بين العراق والكويت. إذ أعطى أوامره إلى عزة الدوري رئيس آخر وفد اجتمع مع ولي العهد الكويتي الشيخ سعد الصباح يوم 1990/7/31 بضيافة الملك فهد قبل يومين من الغزو في 1990/8/2 لإتباع أسلوب التشدد في طرح مطالب العراق، وبطريقة تخرج الكويتيين حيث الاستحالة بتلبيتها منطقيا.

أن يعود حالا بعد انتهاء الاجتماع ليحضر اجتماعا للحكومة العراقية قد أعد بشكل مدروس يقوم فيه أي عزة إبراهيم بعرض تعنت الكويتيين ، وعدم استجابتهم لمقترحات العراق التي تتمحور حول الآتي:

- . التوقف الفوري عن سياسة خفض أسعار النفط .
- . التعويض عن نفط الرميعة المسروق من قبلهم كما كان يشيع في حينه.
- . إطفاء الديون ، والحصول على منحة بحدود العشرة بلايين دولار .
- . تأجير جزيرتي وربة وبوبيان لمدة تسع وتسعون عاما لتوسيع إطلالة العراق على الخليج العربي .

ذاك هو الثمن المنصف من وجهة نظره لجهد العراق الذي تمت المطالبة به بأسلوب معلن فسرهُ الكويتيون من جانبهم وعلى الفور أنه مطالبة من صدام بدفع أتاوة سوف لن يتوقف من جهته عند تلك الحدود ، بل سيتشجعه على المطالبة بالمزيد والمزيد الذي

⁵¹. لقد وصفت عملية الهجوم على الكويت بأوصاف عدة تبعا لمواقف الأطراف منها وكذلك نهج التفكير السياسي ، والوضع النفسي للقريبين منها حيث أطلق عليها صدام حسين يوم النداء ، ويقصد به الاستجابة إلى نداء أفترض تقديمه انقلابيين ، لكنه وبعد افتتاح الأمر وعدم تصديق صيغة الانقلاب حاول أن يصحح ذلك بالتنويه على أنه استجابة لنداء إلهي ، وإلى إرادة ربانية . في حين وصفه البعض بالاجتياح للاستدلال على طابعه التخريبي ، ووصفته الأطراف المقابلة بالغزو الذي يدل في الأدب السياسي المعاصر على فعل الاحتلال ، والضم بالقوة ، وهو الوصف الأقرب إلى واقع العملية برمتها .

يمكن أن يחדش الحياء الكويتي ويفتح الأبواب لاضعافها وربما تدميرها على المدى المستقبلي البعيد⁵².

⁵². هذه رواية ، أو تحليل أقرب إلى الواقع على الرغم من وجود روايات أخرى تشير إلى أن الكويتيين قد تلقوا دعماً أمريكياً لمواقفهم بالتشدد من مطالب العراق ، وإشارات بضرورة التصلب إزاء الطروحات غير المنطقية لحكومته ، مؤكدة أي تلك الروايات إلى أن الكويتيين تصرفوا في الاجتماعات المذكورة بطريقة الاستعلاء غير المرن ، والإيحاء بعدم الرغبة حتى في مناقشة بعض المطالب ولو على سبيل المرونة ، ومقتضيات تجاوز الأزمة.

إنتاج فعل الحرب

لقد تعددت التفسيرات ذات الصلة بخطوة الحكومة العراقية لغزو الكويت وتباينت حد التناقض وتباينها تعددت الأسباب التي دفعت باتجاهها حيث أعطت الحكومة العراقية أسبابا غير الأسباب التي حددها الكويتيون ، وتختلف عن تلك التي أشار إليها العرب ، والأمريكان وغيرهم ، لكن الباحثين ، والمفكرين في الاستراتيجية الدولية ، وعلماء النفس ، والاجتماع قد أجملوها بتلك التي تتعلق بالأمور الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والشخصية التي تفاعلت جميعها لتنتج فعل الحرب .

وفي جانبها الاقتصادي يرى المحللون أن العراق قد دخل حرب الخليج الأولى مع إيران يمتلك اقتصادا معقولا بالمعايير الإقليمية ، وقياساتها التقليدية ، وفائض نقدي أكثر من جيد مكسب في المصارف الأجنبية ، وخرج منها بحالة متردية قوامها : ديون خارجية عربية ، وأجنبية ، وتضخم تجاوزت نسبته قدرة الاقتصاد العراقي على التحمل والنمو .

. توقف التنمية في معظم المجالات ، وتدني مستوى المعيشة ، وزيادة نسب البطالة .

تردي مستوى الإنتاج العام (عدا ما يتعلق بالتصنيع العسكري) .

. عدم قدرة الحكومة على الإيفاء بالتزاماتها للآلة العسكرية الضخمة ، ولأسرى الحرب ، والشهداء والجرحى ، وإعادة بناء ما دمرته الحرب في جوانب الحياة المتعددة .

. ومن ناحية أخرى بقي أكثر من ربع مليون جندي في حالة غير مستقرة بين الاستمرار في خدمة الاحتياط في الجيش ، أو العودة إلى مجتمع مدني لم يكن مهينا لطموحات كانوا ينتظرونها من عيش مستقر اقتصاديا .

وهذه حالة أقلقت العراقيين الذين وضعوا في نهاية الحرب أملا للعودة إلى صورة أواخر السبعينات التي اعتادوها رفاهية معقولة لما يقارب الأربع سنوات في جوانب العيش ، والسكن والسفر ، وأعطت تصورا للحكومة البعثية غير المتوازنة على أن الوضع يسير من سيئ إلى أسوء ، وبمستوى يهدد مباشرة ديمومتها في البقاء ، وعززت إحساسا عند رئيسها الحاكم المطلق أنه بات وجها لوجه أمام أزمة لم يخبرها من قبل قد تهز كرسي الحكم الذي يتشبث فيه بشدة .

وإزاء غياب التخطيط الاقتصادي السليم كان الشعور بالخطر يتعزز في داخله بعد رواج ما صار يعرف بوجود مؤامرة اقتصادية خارجية .

ومما زاد الأمر سوءاً تدني أسعار النفط التي تشكل وارداته 90% من دخل العراق بالعملة الصعبة في ظروف حرجية ، واستحقاقات عليه بات أصحابها يطالبون تسديدها بشكل معلن ، واقتناع صدام حسين بمسؤولية الكويت والإمارات عن ذلك ، كما ورد في تلميح بالخطاب الذي ألقاه بمؤتمر القمة العربي آنف الذكر ، ومعاودة التأكيد بصراحة تامة على اتهام الدولتين المذكورتين بإلحاق الأذى المتعمد بالاقتصاد العراقي في خطابه بالذكرى السنوية لانقلاب 17 تموز قبيل موعد الغزو بأسبوعين .

من هذا يتبين أن الصورة القائمة للاقتصاد العراقي التي أدركها صدام وأكدت حكومته ، والعجز من احتمالات إصلاحه بالطرق التقليدية ، لضعف المدخلات ، وكثرة الالتزامات التي فرضها على نفسه ، والعراق نتيجة الحرب مع إيران ، وصعوبة الإيفاء بها من ناحية ، وكثرة الديون المستحقة ، وعدم القدرة على تسديدها من ناحية أخرى ... كانت من بين العوامل ذات الطابع الاقتصادي التي دفعته إلى التفكير ارتجاليا لافتعال أزمة مع الكويت معتقداً أنها العامل الحاسم لحل مشاكل اقتصاده المعقدة ، حتى وجد نفسه بتقادم الأيام ، وخطأ التعامل معها متورطاً بطريقة أثارت له العديد من الأزمات التي يصعب حلها على مدى المستقبل القريب .

هذا وإن اعتقاد صدام الخاطئ ، وتطلعاته غير المشروعة ربما قد توافقت ، ولو بشكل غير مباشر مع رغبة دولية في افتعال أزمة بالمنطقة .

توافق أوقعه في مخطط خفي لم يتنبه إليه إلا في المراحل الأخيرة التي لم يجد فيها مجالا للتراجع ، أو الانسحاب المنظم ، فكانت الحرب :

. رغبة من لدن الكبار في العالم الجديد لتحقيق أهداف بينها الجانب الاقتصادي بعد أن توفرت الفرصة السانحة لحدوثها .

. تصور لدى صدام بعدها خياراً وحيداً للحفاظ على حد أدنى من الترميم في الوضع الاقتصادي الذي يمكن أن يساعده على الاستمرار بالحكم .

وتلك الأسباب الاقتصادية توافقت مع أخرى سياسية يراها البعض ذو صلة بواقع المنطقة التي يثار فيها التوتر بدرجة تفوق شدتها كل مناطق العالم ، وبأساليب إثارة تعد

الأسهل من بين جميع الأساليب المعروفة على الكرة الأرضية ، وهذه منطقة في نفس الوقت تتمتع بأهمية دولية استراتيجية من الناحيتين السياسية ، والاقتصادية : حيث الاحتياطي النفطي الهائل .

قرب موقعها من الاتحاد السوفيتي المطلوب الإجهاز عليه آنذاك . وبذلك وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية ضمن أولويات سياستها الخارجية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، آخذة بالاعتبار ضرورة التواجد الفعلي على أراضيها ضمنا لتدفق النفط ، وسعيا للحد من الشيوعية ومن بعدها الاتجاهات الإسلامية المناهضة ، وعلى أساسها ، والاهتمامات الأخرى وضع كيسنجر وبريجنسكي نظرية التدخل الخارجي السريع بقوات منتخبة لضمان الأمن ، والمصالح القومية الأمريكية عام 1974 لتتهدأ إلى التعامل مع أحداث المنطقة المهمة بينها الغزو عام 1990 ، والتواجد المباشر في المنطقة إلى حين.

لكن الأمريكيان الذين ترددوا بالتدخل في هذه المنطقة ، إبان الاجتياح السوفيتي لأفغانستان بسبب عدم الرغبة في تحمل خسائر قد تكون جسيمة عند التحرش بالعلاقات السوفيتي ، أو بسبب عدم ملائمة الظرف آنذاك رغم احتجاز أفراد السفارة الأمريكية رهائن في طهران ، وتفاقم خطر تصدير الثورة الإسلامية ، حيث التحسس من الاحتكاك بالإسلام السياسي ، ومحاذير الانجرار إلى المنطقة المجاورة لإيران ذات الكثافة الإسلامية غير المستقرة .

لكنهم لم يسقطوا من حسابهم خيار التدخل ، وإنما على العكس من ذلك جاهدوا للمساهمة غير المباشرة في تحديد وقته ، وتكوين الظروف المناسبة لحدوثه ، بالاستفادة من ظروف سياسية ، ونفسية عالمية ملائمة أهمها : أحداث الاتحاد السوفيتي ، وبداية التفكك في بنيته السياسية . ثورة الديمقراطية في دول أوروبا الشرقية .

تنامي الرغبة بإحلال السلام بين العرب وإسرائيل " التي لم يكونوا بعيدين عنها " . تلك الأحداث التي أخلت بميزان القوى بين القوتين العظميين من جهة وبين الشرق ، والغرب من جهة أخرى مهدت للبدء بمرحلة جديدة في السياسة الدولية تكون فيها أمريكا القطب الواحد دون منازع ، وتكون فيها العديد من الدول ، والشعوب بحاجة إلى تدخلها في أي وقت تراه مناسباً.

إن بداية التعديل في ميزان القوى لصالح الأمريكان نهاية الثمانينات ، وبداية التسعينات رافقتها خطوات باتجاه العراق كانت أهمها :

. تهميشه عن فعل التأثير بالأحداث المحيطة بعد أن أوهمت حكومته لثمان سنوات " الحرب مع إيران " أنها مؤهلة أن تقوم بدور يناسب فعل الحرب في الساحة الإقليمية .
. تشديد الضغط عليه لتسديد الديون المستحقة لدول عربية خليجية سبق وإن فتحت خزائنها لإسرافه غير المحدود طيلة الثمان سنوات .

. التلميح بسحب البساط من تحت أقدام صدام حسين شخصيا بعد أن بُشر له في أن يكون عبد الناصر الجديد عند العرب خلال الثمان سنوات من الحرب.

... الخ من خطوات محبطة ، وأخرى مشجعة كان آخرها غض الطرف ظاهريا عن نواياه في التحرش بالكويت بشكل ما ليفهمها خطأ ضوء أخضر بالموافقة على القيام بأي عمل يراه هو مناسبا ، أو عدم الاكتراث لحدوثه على أقل تقدير من خلال التسريبات الإعلامية ، وهدوء الحوار الذي دار بينه وبين السفارة الأمريكية في العراق كلاسي قبيل الحرب بحوالي أسبوعين ، والتي نوهت بإمكانية حل المشاكل في الإطار العربي تنويعها من المحتمل أن يكون صدام قد فسر عدم رغبة للأمريكان في التورط بالمشكلة العراقية الكويتية (وفي هذا المجال سنترك للقارئ تحليل متن المقابلة الموجودة نصا كملحق في نهاية هذا الفصل واستنتاج هامش الضياء الأخضر من عدمه) .

هذا وإن الإحباط الذي أثار لدى صدام ، وحكومته مشاعر العدوان قد وجد بضعف الكويت عسكريا ، وغناها ماليا ، والتغاضي الأمريكي الوهمي عن أي فعل باتجاهها سياسيا، مجالا للإقتناع بالقدرة على قبض الثمن على شكل فعل للاحتلال ، وهو الفعل الذي انتظره الأمريكان طويلا ، ووجدوا في تطوراته فرصة سانحة للتدخل من حيث الزمان :

بعد أن يحصل في وقت لا يستطيع فيه الاتحاد السوفيتي الذي يرتبط مع العراق باتفاقية صداقة " لأسباب داخلية " من عمل شيء لمنع حدوث الغزو ، أو الحيلولة دون الرد عليه بالطريقة التدميرية .

ومن حيث المكان بعد أن يصبح احتلال منابع النفط الكويتية ، واحتمالات الزحف على السعودية مناسبا لعملية إقناع الرأي العام الأمريكي ، والعالمي بأنه تهديد للمصالح

القومية الأمريكية ينبغي التخلص منه بنفس ساحة حدوثه ، وهذا لن يتم إلا بتدخل قوات عسكرية في المنطقة على ضوء النظرية المذكورة .
وبالتالي يمكن القول أن الحرب من وجهة النظر السياسية كانت :
رغبة أمريكية بدعم غربي ، وقبول عربي تمهد نتائجها لفرض واقع عالمي جديد فيه الأمريكان قوة وحيدة في عالم يتبعها بحكم المصالح .
وهي في ذات الوقت رغبة من صدام في التخلص من واقع بدأ يهدد وجوده السياسي ، وسعي منه للظهور بمظهر القادر على التعامل مع أزمات المنطقة أملا في مكافئته ثمنا لسنوات الحرب مع إيران ، أو لموقف آخر في الكويت .

العوامل النفسية لفعل الحرب

لكن تلك الأسباب السياسية ، والاقتصادية لم تكن وحدها منطوقا كافية لتحريك آلة الحرب نحو الصدام المسلح ما لم تتضافر معها أسباب أخرى اجتماعية ، وذاتية نفسية بينها على سبيل المثال ما له صلة بالتركيبة الاجتماعية للحكومات العراقية المتتابعة التي بدأت بالتغير بعد انتهاء الملكية في العراق ، وإقامة الجمهورية في 14 تموز 1958 تغيرٌ كان قوامه صعود الطبقة العسكرية ، وسيطرتها على مقاليد وتعمم أساليبها في التعامل مع أحداث العراق ، ومشاكله لمستوى جعل الحياة الاجتماعية ، والسياسية العراقية مرتبطة بحركة هذه الطبقة ، واستمر الأمر كذلك حتى الانقلاب العسكري في 17 تموز 1968 الذي جاء بحزب البعث العربي الاشتراكي (الجناح العراقي) إلى الحكم ، ليضيف إلى طبيعة الحكم العسكري صفة الحزب القائد ، أو سلطة الحزب الواحد ، ومن ثم بعد عام 1979 أضيف إليهما دكتاتورية الفرد الواحد ، فأصبحت بالتالي تركيبة ثلاثية هرمية متداخلة حصل من خلالها رئيس الدولة ، القائد العام للقوات المسلحة ، أمين سر القيادة القطرية للحزب على تفويض أن تكون آراؤه :

قوانين لا يمكن الطعن بها .

وأن تكون توجيهاته أوامر لا يمكن التفكير بعدم تنفيذها .

لتجد الحكومة نفسها في نهاية المطاف خلية عسكرية تنفذ أوامر ، وتوجيهات الرئيس دون مناقشة .

ومن جانبه لم يكتف صدام بالتغيير الحاصل في الطبقة الحاكمة " عسكريتها " بل توجه لتغيير التركيبة الاجتماعية لعموم العراقيين باتجاه عسكريتهم من جهة ، وبناء أربعة أجهزة أمنية رئيسية ، وأخرى رديفة وأدارها بطريقة تنظيمية عسكرية صارمة . وإقامة شبكة من الوكلاء ، والمخبرين ، والمؤتمنين ، والأصدقاء مرتبطين بتلك الأجهزة بصيغ متعددة لتأمين هدف العسكرية بدرجة تهيئة فرص تنفيذ الأوامر من قاعدة عريضة يشترك فيها الشعب بجانب الجيش ، والأجهزة الأمنية .

هذا وإذا ما عزلنا الأطفال ، والشيوخ كعناصر غير فاعلة في التركيبة الاجتماعية الجديدة ومن بعدهم المرأة بدرجة أقل نصل إلى قناعة أن أكثر من 70% من سكان العراق قد

عُسكروا وأصبحوا نتيجة لصفتهم هذه جزء من التركيبة الاجتماعية العسكرية المذكورة ،
يأتمرون بأوامرها وينفذون توجيهاتها آليا .

وهذه بطبيعتها متغيرات عززت الشعور بالقدرة على تنفيذ الفعل المطلوب لدى
المؤسسة الحاكمة من جانب ، وكونت تضخم بشري ، وفراغ مهني مثير للقلق من جانب
آخر ، وما زاد الأمر سوءا حدوثها في فترة انتقال قلق ما بعد الحرب مع إيران التي وإن
كانت مظاهر التفوق على العدو فيها طافية على المشاعر ، لكنها وفي الأعماق كانت
تختزل كثير من التراكمات الانفعالية التي تثير الشعور بالقلق من المستقبل ، وبالضعف
من معالجة الحاضر لم تجد مجالا في التعبير عن نفسها أو التنفيس عن واقعها إلا
بالقسوة وإضهار العزم⁵³، الذي أثار أعلى درجات التوتر بين العراقيين ، وأشعرت الحكومة
بالتوجس حيالهم . وهذه مع غيرها عوامل دفعت في أن تكون الحرب :
اشغال متعمد للطبقة الفاعلة في المجتمع العراقي .

استنزاف لطاقتها ، ومن ثم إبعادها عن احتمالات التفكير بأن تكون طرفا في البحث عن
حلول للأزمة السياسية ، والاقتصادية العراقية من جهة ، وإتاحة الفرصة لتلك الطبقة في
الحصول على المكافئة اللازمة لاستمرار ولائها للنظام من خلال الغنائم الكويتية المرتقبة
من جهة أخرى .

وتلك أسباب لم تكن قد حدثت في فراغ نفسي ، بل وتجمعت لتوائم طبيعة الشخصية
التي اتخذت قرار الحرب أي صدام حسين الذي تكون سلوكه السياسي في بغداد إبان
أحداث السويس ، واللهب القومي المتصاعد منتصف الخمسينات ، حيث بدأ مشواره
صعودا سريعا منذ مشاركته في عملية اغتيال الزعيم العراقي اللواء الركن عبد الكريم قاسم
عام 1961 ليتسلم بعدها مسؤولية فرق الإرهاب ، والاغتيالات لحزب البعث العراقي
حتى عام 1968 ومن بعدها مهام أمن الثورة ، والحزب حتى عام 1979 وقت انقلابه على
البكر ، وتسلمه السلطة في الموقع الأول للدولة ، والحزب رسميا حيث الحكم وفق

⁵³ خلال السنتين اللتين أعقبتا وقف إطلاق النار في الحرب مع إيران جرى إعدام عشرات الضباط ، والمراتب من
حملة الأوسمة والأنواط بتهمة مختلفة، وباتت في تلك الفترة وما تلتها حتى وقتنا الراهن كلمات الحيرة، وملاحظات
الانتقاد التي يبديها الضباط ، وغيرهم في حالات الانفعال كافية لتوجيه تهمة الخيانة العظمى، والتآمر لقلب نظام
الحكم.

فلسفة السيف والدينار ، وعبر التهويل السياسي ، والأساطير المضخمة موحيا بحلم الدولة العربية التي ستستعيد أمجادها السابقة حتما ، تلك الوحدة التي ينبغي أن تكون تحت قيادته ، وأن تبدأ بالعراق الوحدة التي لا تعتمد كثيرا على خيار الشعب ، بل على تراكم الثروة الكافية لفرضها فرضا ولو بالقوة عبر شكل من أشكال النظام الاشتراكي القريب من الرأسمالية .

وهذه الرؤى توافقت مع فلسفته في :

الاعتماد على ضمان وجود أعداء بصفة شبه دائمة " خارجيين أو داخليين " من أجل بقاء وحدة العراقيين فعالة ، واستمرار شعورهم بالحاجة إلى هذه الوحدة باعتبارها مصلحة حيوية ، ثم العمل في كافة المجالات على خدمة الذات ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه لإشباع غرائزها .

كذلك إنشاء آلة عسكرية فعالة ، وتهيئة أجهزة أمنية قوية لفرض إرادة الحكومة بالقوة لتجسيد إيمانه أن الحرب ينبغي أن تكون صفة الدولة العراقية ، والدولة العراقية صفة الحرب .

وهذه أي الأجهزة ، والآلة العسكرية تعمل في إطار سير الحكومة على نهج التواطؤ ، والمجانبة الوطنية ، واللامبدئية ، والمراوغة لتحقيق مكاسب آنية تشبع حاجة البقاء في أعلى السلطة .

وهي رؤى تدفع باتجاه افتعال الحرب التي ستكون :

دفاع عن الذات القلقة تجاه تهديدات أحستها من الخارج .

محاولة لبناء مجد شخصي يتسق ، والشعور القوي بالعظمة .

لقد تعددت الأسباب وتشعبت ، وكذلك كانت الروايات ، ومع هذا ، ومهما كانت صحتها، ومديات دقتها ، فإن العامل الشخصي فيها كان هو الأقوى باتجاه التحريك ، وكان سيناريو الحرب قد تأسس عليه نية ، وتخطيطا ، وإدارة حتى النهاية ، وكان في إطاره عزة الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة (الرجل الثاني بروتوكوليا) قد مثل الدور الذي رسمه له الرئيس بشكل جيد في السعودية أمام الوفد الكويتي وكذلك أمام الملك فهد ، والأهم منهما أمامه شخصيا والمجتمعين من أفراد حكومته التي يجهل غالبية أفرادها النوايا حتى بعد انتهاء هذا الاجتماع الذي أصدر بعده صدام حسين الأوامر للمخابرات العامة بالشروع لتنفيذ بنود الخطة ، وإلى قوات الحرس الجمهوري بالتحرك

لاجتياز الحدود التي لم ترسم بين البلدين الشقيقتين حتى ساعة بدأ الغزو فجر يوم 2 / 4 / 1991.

خطة الغزو

لقد صدر قرار الهجوم ، أو الغزو ، ونفذ بخطة غير تقليدية ، بعيدة جدا عن تطبيقات العلم العسكري تعتمد أساسا على :
. اجتياز نقطة صفوان الحدودية بأكثر من حافلة نقل للركاب تحمل الواحدة منها أربعين راكبا مع منتصف ليلة 1 / 2 آب ، جميعهم ضباط مخابرات بتخصصات مختلفة .
. التوقف بعد خمسة دقائق في العبدلي نقطة الحدود الكويتية ، وبدلا من مراجعة إدارة الجوازات ينتشر المعنيون بعدة اتجاهات أهمها مركز الشرطة الحدودي الذي أحتل بسرعة .

. يتم وضع منتسبي المركز ، وباقي الموظفين في الحجز .
نفذت تفاصيل الخطة بدقة متناهية ، وجلس آمر المجموعة مكان آمر المركز الحدودي يدير الأمور ، وانتشر آخرون في قاعة تأشير الدخول ، والخروج ليلقوا القبض على الموظفين ويودعوهم غرفة خاصة ، ويأمروا المسافرين القليلين جدا بالبقاء داخل القاعة تحت الانتظار ، بينما سارعت مجموعة فنية بقطع اتصال جميع الهواتف بين النقطة الحدودية وبين العاصمة الكويت ، وتلك كانت إجراءات قد تمت بوقت سريع لم يتجاوز ربع ساعة من الزمن قام بعدها الأمر المذكور بالاتصال من جهاز خاص بمركز قيادة الحرس الجمهوري الذي يتواجد فيه بالإضافة إلى الفريق الركن أياد فتيح الراوي قائد الحرس الجمهوري كل من :
الفريق الركن حسين كامل حسن وزير الصناعة والتصنيع العسكري صهر الرئيس الأقرب إلى قلبه .

الفريق الركن علي حسن المجيد وزير الحكم المحلي أبن العم المخلص للرئيس .
سبعواي إبراهيم الحسن مدير الأمن العام الأخ غير الشقيق للرئيس .
يمثلون وحدهم غرفة عمليات إدارة الهجوم على الكويت ، وهم الذين يعلمون وحدهم النوايا المسبقة للهجوم قبل الشروع به بفترة ليست بعيدة ، لأن هذه الخطوة بمجملها محكومة نفسيا بخطأ عبد الكريم قاسم حيث الإعلان المسبق بالمطالبة قبل الفعل العسكري الذي دفع إلى حضور المصريين والبريطانيين للتدخل ، وهذا ما كان يحاول

صدام تجنبه لهذا جاءت الخطوة كتومة إلى أبعد درجات السرية ، وفي دائرة صغيرة مغلقة يمثلها المذكورين أعلاه حتى الاقتراب جدا من التنفيذ دون إثارة مسبقة للحفيظة وبما يوفر أعلى قدر من عنصري المباغته ، وقوة الصدمة .

لقد تلقوا الإشارة من العبدلي بإتمام المهمة كما هو مرسوم لها عملية مخابرات سريعة فتحت الحدود على مصراعيها أمام قوات الحرس الجمهوري التي عبرتها فورا بدبابات ، وناقلات الأشخاص المدرعة قبل بزوغ الفجر حالة نادرا ما استخدمها الدرع في القوات المسلحة العراقية من قبل بهدف :

تأمين المباغته في عامل الوقت .

تجنب تدخل القوة الجوية الكويتية .

تأمين قوة صدمة نفسية ، وعسكرية لعموم الكويتيين .

الاستفادة من ساعات الليل لانفتاح الهجوم ، واتخاذ وضع التقدم بعيدا عن وسائل الرصد التقليدية .

تجنب احتمالات التدخل الأمريكي الفوري .

التوقي من حرارة الصيف لأكبر وقت ممكن في الطريق إلى المدينة .

توفير الظرف الملائم لقتل أفراد الحكومة ، والعائلة الحاكمة الكويتية .

لقد تقدمت في ذلك الوقت خمس فرق مدرعة للحرس الجمهوري هي :

المدينة المنورة ، ونبوخذ نصر ، وبغداد ، وحمورابي ، وعدنان ، معززة بالقوات الخاصة للحرس الجمهوري المحمولة بالطائرات السمتية .

شرع الجميع نحو أهدافهم المحددة بدقة دون أن يصادفوا مقاومات تعيق تقدمهم الذي تحدد بثلاث أرتال رئيسية في ثلاث محاور هي :

الأول. وهو الرتل الجنوبي الذي بدأ تقدمه من الرميثة العراقية ثم المثلث العراقي السعودي الكويتي حتى نقطة الحدود السعودية الكويتية ، ليتجه بعدها إلى البحر مكملًا الطوق جنوبا ، وهو الرتل الذي لم يكمل واجبه كما يجب بسبب :

عدم دقة التأشير على الخرائط .

ضعف الدلالة في الصحراء المفتوحة .

النقص في التدريب على الحرب في أجواء الصحراء وطبيعتها الجغرافية. وبسببها دخل أحد ألوية الرتل الأراضي السعودية دون أن يكون ذلك في واجباته ، وتسبب في زيادة قلق

السعودية ، واندفاعها لطلب العون الخارجي ، ولم يتمكن من غلق الحدود كما يجب كأحد أهم واجباته الرئيسية⁵⁴، حيث غادر العديد من أفراد العائلة الحاكمة ، والكويتيين المهمين في الدولة ، والأجهزة الحكومية إلى السعودية بسيارتهم الخاصة على الطريق العام .

الثاني. وهو الرتل الوسطي الذي سلك الطريق العام صفوان . العبدلي . المطلاع . الكويت باتجاه مركز المدينة مباشرة لتأمين احتلالها ، والسيطرة تماما على الأجزاء ، والأماكن المهمة من المدينة . وقد استطاع هذا الرتل أن يصل إلى أهدافه العامة باحتلال المدينة بسرعة قياسية قبل بدأ الدوام الرسمي للموظفين في ذلك اليوم .

الثالث وهو الرتل الشمالي الذي تقدم من أم قصر عن طريق المزارع داخل الأراضي الكويتية ليكمل الطوق شمالا باتجاه العبدلي الميناء الرئيسي للكويت ، وتمكن هو الآخر من تحقيق أهدافه على الرغم من التأخير البسيط .

أما القوات الخاصة فقد شرعت بعد قليل من شروع القوات المدرعة حيث أقلعت من جناح طيران الجيش ست وثلاثون طائرة سميت نوع (مي 8 ومي 17) بحمولتها الكاملة من المقاتلين. وصلت منها ستة عشر فقط مدينة الكويت بعد حوالي الساعة من إقلاعها، وقبل وصول القوات المدرعة إلى المدينة. وسقطت عشرون طائرة بصواريخ منظومة ضد الجو موجودة في منطقة أم العيش⁵⁵ التي تركها الجنود ، والضباط المسؤولين عنها تعمل آليا ، وانسحبوا بعد تعرفهم على

قيام القوات العراقية بالهجوم . أو باصطدام البعض القليل منها بأعمدة التيار الكهربائي أثناء الهبوط على أرض غير مناسبة يصعب كشفها في ظروف الرؤية الليلية .

⁵⁴. كانت الغاية الأهم عند صدام حسين قتل ، أو اعتقال الحكومة الكويتية ، وأفراد العائلة الحاكمة ، وعندما لم تتمكن قواته من ذلك إثر انسحابهم إلى الأرض السعودية على الطريق البري أصيب صدام بالإحباط لأن قتلهم من وجهة نظره سيؤدي إلى إثارة الانقسام ، والحيرة ، والضباب في المجتمع الكويتي بمستوى يتيح الفرصة إلى التصارع على المرجعية السياسية ، الأمر الذي يضع أصحاب القرار في أمريكا ، وبريطانيا ، وكذلك دول الخليج أمام وضع معقد وخرج يعطيه فرصة التصرف بمرونة أكبر .

⁵⁵. منظومة صواريخ مضادة للطائرات متطورة تعمل إلكترونيا، أي تمسك الهدف راداريا ويعطي الحاسب الرئيسي فيها الأمر إلى قاعدة الصاروخ للانطلاق باتجاه الهدف الظاهر بالشاشة دون تدخل المشغلين ، ويبدو أن القيادة العراقية لم تمتلك عنها معلومات دقيقة، ولم تضع في حسابها قدرة تلك المنظومة الدقيقة على الإصابة والتدمير .

ومع ذلك فإن أكثر الطائرات التي وصلت مدينة الكويت وجدت صعوبة بالتعرف على أهدافها قبل بزوغ الفجر فأنزل بعضها القوات المحمولة في الأماكن غير المطلوبة ، وبقيت أخرى تحوم أكثر من الوقت اللازم ، وبذا لم تسطع إجمالاً تحقيق أهدافها في أسر الأمراء وأفراد الحكومة ، إلا القليل جداً من عوائلهم يغلب عليها النساء⁵⁶. لقد حققت تلك القوات بعض من أهدافها في مسك النقاط المهمة ، والإغارة على أهداف خاصة مثل القصور ، والدوائر الحكومية الحساسة ، ومفارق الطرق ، وتسببت في إحداث الصدمة النفسية بين الكويتيين كما أراد لها القائد العام أن تكون .

⁵⁶. من مفارقات هذه الحرب قتل في ساعاتها الأولى على أيدي القوات الخاصة في مواجهة غير متكافئة الأمير فهد شقيق الأمير جابر الذي كان الأقرب للحكومة العراقية في حربها ضد إيران ، إذ حضر إلى جبهة تلك الحرب ليشترك فيها رمزياً أكثر من مرة ، وتبرع من ماله الخاص لدعم المجهود الحربي لتلك الحرب كذلك أكثر من مرة .

الغزو وفعل الصدمة

لقد دخلت الألوية المدرعة للحرس الجمهوري العاصمة الكويتية ، بعد القوات الخاصة ، وبدأت تتحرك في شوارعها . وعلى أزيز محارك دباباتها القريبة من بيوتهم صحا الكويتيون ، وكذلك على تحذيرات هاتفية من أقارب لهم مقيمين في أمريكا يشاهدون الاجتياح (بحكم فارق الوقت) عن طريق الفضائيات التي باتت تنقل وقائعه من الميدان مباشرة . بينما أفاق العراقيون على بيان القيادة العامة للقوات المسلحة باحتلال الكويت من إذاعة بغداد ، وعلى العبارات الصارخة للبيان التي تشير إلى التخلص من الشر الذي كان يضمه حكمها أي الكويت نوايا مبيتة بالضد من العراق حسبما ورد في نص البيان الذي أمضى طارق عزيز نائب رئيس الوزراء ، وحامد حمادي السكرتير الخاص بالرئيس ، ولطيف نصيف جاسم وزير الإعلام الليل لتهيئته بالصيغة التي أصابت العموم بالدهشة لأن غالبية العراقيين لم يضعوا في حساباتهم احتلال الكويت ، ولم ينشغلوا به هدفا منذ عشرات السنين .

وهم بالإضافة إلى ذلك يعدون الكويتيين الأقرب لهم في مواقف الشدة . وكان من بين الذي اذهلوا ، أو تفاجئوا بهذا البيان أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة منهم وزير الدفاع ، ورئيس أركان الجيش⁵⁷ .

العرب وصدمة الغزو

لقد حدث الغزو بالفعل ، وكان مفاجئة أذهلت العرب ووضعتهم في مواقف الحيرة والحرج :

بين معتقد أنه أوهم بالتحركات العراقية ، وقد أستخدم جزء من عملية التضليل، والمباغته مثل الرئيس المصري حسني مبارك الذي أعلن عن سخطه ، وانزعاجه بعد أن

⁵⁷. حضر الفريق الركن سعدي طعمة الجبوري وزير الدفاع إلى أستوديو التصوير في مديرية التوجيه السياسي بالساعة الثامنة حسب موعد سابق مع مديرها من أجل أخذ صورة له مستفسرا عن الوضع ، وكأنه سمع بالغزو من راديو السيارة وهو في الطريق إلى الدائرة المذكورة. كما أكد الفريق الركن نزار الخزرجي رئيس أركان الجيش في مقابلات له بعد خروجه من العراق متمردا على الحكومة أنه هو الآخر سمع الأمر من خلال الراديو في بيته قبل التوجه إلى رئاسة الأركان ، واندesh للأمر كغيره من العسكريين القريبين منه في محاورته بعد الوصول إلى مكتبه .

أخبر الكويتيين قبل يوم من الغزو أن صدام بعيد عن احتمالات الحرب ، وما يجري على الحدود قريبا منهم ما هي إلا مناورات بقصد الضغط ، والتهويز على حد زعمه .
وبين مشدوه بهول الصدمة غير المتوقعة مثل العقيد القذافي الذي انتقد علنا موقف العراق غازيا ، وموقف الكويت ممهدا للغزو ، ولو بشكل غير مباشر .
وبين من يحس التهديد قريبا من حدوده ، مثل السعوديين الذي بادروا بانتقاده ، وشجبه حال سماعهم بحدوثه عن طرق الإعلام ، وبالوسائل الأخرى للمعلومات .
وبين من يشعر باحتمالات التهديد غير المباشر لنظامه السياسي ، والاجتماعي مثل دول الخليج العربية التي أعلنت فورا عن تضامنها مع الكويت دولة خليجية ترتبط وإياهم في اتفاقية مجلس التعاون الخليجي ، وتنسجم معهم في المعايير ، والقيم الخليجية .
وكانت تلك المافجأة التي أذهلت العرب ، وأربكت مواقفهم ، وأذهلت الكويتيين ، وقللت من قدرتهم على مقاومة قوات تفوقهم عدة وعددا ، وخبرة قتالية بمراحل عديدة .
كونت من جانب آخر اختلاف ، وتناقض في وجهات النظر بين جميع الدول العربية نتج عنه أكثر من موقف أهمها:
موقف يميل إلى تحميل العراق مسؤولية الغزو ، ومنع حكومته المخلة باتفاقات الجامعة العربية ، وضوابط الدفاع العربي المشترك من استثمار النجاح العسكري الحاصل على الأرض لأغراضها القريبة والبعيدة المدى ، وهو الموقف الذي يقوده الرئيس حسني مبارك ، ويؤيده الملك فهد ، وأمراء دول الخليج بشدة .
موقف ثان يرى بضرورة التفاهم على حل مناسب لجميع المشاكل الموجودة بين العراق ، والكويت بضمها الحدود ، والقروض ، والجزر الكويتية القريبة التي يسعى العراق إلى الاستفادة منها استراتيجيا ، وهو موقف يقف على قمته الملك حسين يؤيده الرئيس علي عبد الله صالح ، والرئيس السوداني البشير ، والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات .
وكان هذان الموقفان ، وموقف ثالث أيد صدام حسين في الخفاء قد انعكست على واقع الأزمة ومستقبلها ، حيث أنتقل الخلاف إلى الجامعة العربية التي نظمت مؤتمرا على عجل دعا إليه الرئيس حسني مبارك يوم 9 آب على أن يعقد في القاهرة اليوم الذي يلي حيث تبلور في هذا المؤتمر رأيين :
ينحو الأول إلى تدويل الأزمة ، وتمهيد الطريق لتدخل خارجي أي أمريكي (وإن لم يفصح عنه) قادر وحده على إجبار صدام حسين على الانسحاب من الكويت دون شروط

مسبقة ، وقادر أيضا على إعادة الشيخ جابر وعائلته التي استطاع الأميركيان إشعارها بضرورة مغادرة الكويت بطائرات سميت خاصة إلى السعودية قبل لحظات من الشروع بالغزو ، وهو التيار المدعوم دوليا ، والمسنود من عشرة دول هي التي قدمته⁵⁸ (دول الخليج ومصر ، وسوريا ، والمغرب ، والصومال)

أما الرأي الثاني الذي يسعى إلى تعريب الحل ، طرح فكرة تشكيل وفد من بعض الرؤساء يذهب فورا إلى بغداد من أجل إقناع صدام حسين الانسحاب من الكويت مع وعد بحل كافة المشاكل العالقة بينه والكويتيين ، وهو الرأي الذي دافع عنه الملك حسين ، والرئيس علي عبد الله صالح ، والرئيس البشير .

لكن الرئيس المصري فاجأ الجميع بطرح المشروع الأول إلى التصويت ليحصل على 12 صوتا (إذ وبالإضافة إلى الدول العشرة التي قدمته وافقت عليه جيبوتي ، ولبنان) ليفوز بأغلبية صوت واحد وامتناع اثنان عن التصويت .

عندها أعلن الرئيس المصري انتهاء المؤتمر رغم احتجاج الأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي على النتيجة التي تتطلب في مثلها إجماعا .

ورفع البعض مثل الملك حسين ، وعرفات ، والقذافي ، والبشير أياديهم للكلام ، لكن الرئيس مبارك أغلق الحاكبة من أمامه ، أما العقيد القذافي فقد مزق أوراق المشروع التي كانت بحوزته ونثرها في القاعة . فكانت نتيجة المؤتمر مسرحية توحى وقائعها أن الحرب يجب أن تكون وتستمر كما أريد لها .

كان المؤتمر منعقدا والقطع البحرية الأمريكية ، والإنجليزية تعبر قناة السويس باتجاه الخليج العربي ، والطائرات المقاتلة ، والقاصفة تقلع من القواعد الأمريكية لتحط في السعودية وكأن قرارا قد اتخذ بتدويل الأزمة دون انتظار القرار العربي الذي جاء متمما لها بصوت واحد .

⁵⁸. سارت الأمور داخل مؤتمر القمة بشكل يوحى باستقدام القوات الأجنبية إلى المنطقة . ومن هذا المؤتمر أرسل رئيس الوفد العراقي طه ياسين رمضان برقة إلى صدام كانت صيغتها (السيد الرئيس هناك خطة مدبرة لإصدار قرار يوفر غطاءا عربيا لضرب العراق . يقود العملية مبارك وفهد) .

وفي المقابل كان صدام مثل تلك القطع البحرية لا ينتظر القرار العربي إذ وجه نداء إلى العرب وبعد القادة مجتمعين داخل أروقة المؤتمر يطلب منهم ، والمسلمين الجهاد ضد القوات الأمريكية التي وطأت أرض السعودية .

لقد صدر قرار القمة الذي فسر صدام تحدياً له ورغبة في الحيلولة دون قبضه الثمن المطلوب .

وفسر البعض من الرؤساء الحاضرين تجاوزاً على صيغ وأعراف الجامعة العربية ، وسمحوا بنشر التصويت ، والمناقشات بأجهزة إعلامهم مثل العقيد القذافي الذي كان أكثر المحتجين ، رغم إن القرار قد شمل الإشارة إلى تشكيل لجنة عربية للاتصال بالرئيس صدام حسين لذر الرماد في العيون ، ومحاولة تهدئة الغضب الذي اعتري حال الموجودين .

لكن اللجنة التي شكلتها الجامعة العربية فقدت قدرتها على التأثير لمجرد اقترانها بقرار أثار غيض صدام الذي لم يفسح له النجاح الحاسم للغزو مجالا للنظر إلى النوايا المبيتة بشكل عقلاني ، وسد من أمامه منافذ الرؤيا الصائبة إلى الأزمة ومتغيراتها المتعددة.

جهود الوقت الضائع

وصل الرئيس ياسر عرفات إلى بغداد طرفا رئيسا في اللجنة المذكورة ليجد أن معالم التعقيد قد سبقته إلى قصر الرئيس الذي سبق وأن أعلن عن تشكيل حكومة محلية . وأمر بمساواة الدينار العراقي بالدينار الكويتي في عملية الصرف . وبدلا من أن يناور على قرار قرار الجامعة العربية أعلن ضم الكويت محافظة للعراق بالرقم (19) ليضع نفسه في مأزق ويمهد الطريق أمام أصحاب الرأي الأول للشعور براحة الضمير في سعيهم لجلب القوات الأجنبية إلى المنطقة . ويغلق ذات الطريق أمام أصحاب الرأي الثاني بعدم إعطائهم فرصة التحرك بالاتجاهات المتاحة رغم قلتها حتى أنه لم يقبل في خطاب متلفز توسط العرب في موضوع محسوم ، وكان لسان حاله يقول :

من هو ليس معنا فهو ضدنا .

ومع هذا الوهم ، والاعتقاد بصحة الرأي فإن سلوك الحكومة العراقية في التعامل مع موضوع الغزو كان مرتبكا إلى أبعد الحدود مؤشرات واضحة :

إذ إنها وعلى سبيل المثال نوهت في الساعات الأولى للاجتياح على أنه عمل عقابي جاء ردا على محاولات الكويت تدمير الاقتصاد العراقي باشتراكها ، ودولة الإمارات العربية المتحدة في تأمر دولي بهذا الاتجاه .

لكنها وبعد الحسم العسكري السريع ، وفي محاولة للتحايل على القيم والمعايير العربية ، والأعراف الدولية أعلنت أن دخول قواتها جاء بطلب من انقلابيين كويتيين لتقديم العون لهم ، ودعم ثورتهم على العائلة الحاكمة (آل الصباح) في وقت بعثت فيه لجنة فنية من وزارة الإعلام إلى الكويت تفتش عن أماكن مناسبة لنصب إذاعة محلية قادرة على البث تحت عنوان الانقلابيين .

سارعت للاتصال بمعارضين كويتيين معروفين بينهم أمين سر شعبة حزب البعث العربي الاشتراكي للكويت عرضت عليهم تشكيل حكومة بديلة عن آل الصباح رفضوا جميعا هذه الفكرة التي أدت إلى مقتل الرفيق الحزبي مسؤول الشعبة .

لم تتوقف عند الصد الشعبي الكويتي لجهودها في إخراج مخرج لعملية الغزو ، بل وتوجهت إلى أساليب أخرى عينت على أساسها حكومة شكلية برئاسة العقيد علي حسين

وزراء آخرين⁵⁹ لم يكن من بينهم أحد معروفًا للكويتيين من الناحيتين السياسية و الاجتماعية .

البقاء خيار الحكومة الوحيد

لقد سيطرت القيادة العراقية على مقاليد الأمور ، وعينت على حسن المجيد حاكما عسكريا لها ، وسبعواوي إبراهيم مسؤولا لأمنها ، وعزيز صالح النومان عضو القيادة القطرية للحزب محافظا لها ، وبعد سيطرتها هذه واستعجال تحليلها ردود الفعل العربية والعالمية من الاحتلال سارعت إلى تغيير طبيعة الوضع بالكويت حيث السجن ، والقتل ، والملاحقة ، وحجز الأجانب ، وانتهاك الحرمات الدبلوماسية لتشكل بسلوكها الارتجالي المنفعل في إثارة الأزمة، وكذلك في التعامل معها مخالفة لكل الأعراف السياسية والإنسانية⁶⁰.

هذا وازداد الأمر تعقيدا من خلال طبيعة التعامل الإعلامي ، والسياسي مع الأزمة ومع صدام حسين الذي يديرها في الجانب العراقي ، إذ وكلما كان يقترب من قرار الانسحاب من الكويت خاصة في الأسابيع الأولى كانت تثار من أمامه معالم التحدي ، والتجريح الشخصي الذي يفسره خسارة له على المستويين النفسي الذاتي ، والسياسي الدولي ، فيعود إلى نقطة الصفر مصدرا الأوامر للتشبث بالكويت فرع عاد إلى الأصل دون رجعة .

⁵⁹ العقيد علي حسين ضابط في الجيش الكويتي برتبة نقيب سبق وأن درس الإدارة والاقتصاد في العراق أسر مع ضباط آخرين في الساعات الأولى للغزو ، وتمت مساومته بطريقة فضل بنتيجتها رئاسة الوزارة الوهمية على يؤس السجن العراقي ، قاداته مساومته غير المضمونة لاحقا إلى الترويج لاجئا سياسيا ثم عائدا إلى الكويت طالبا الغفران عام 2000 . حيث ورد على لسانه إبان محاكمته أنه أجبر من قبل المخابرات ، وصدام على الظهور بمظهر رئيس الوزراء الكويتي تبعا لسيناريو وضع على عجل .

⁶⁰ في 4 آب حطت في مطار الكويت أول طائرة نقل عسكرية عراقية تحمل ضباط مخابرات لتشكيل أطقم التحقيق مع المعتقلين بأمره سبعواوي إبراهيم مدير المخابرات الذي اتخذ من السفارة مقرا له في البداية. وفي حديث خاص للواء الركن كامل ساجت قائد قوات الدفاع عن الكويت أثناء مقابلة له في النادي العسكري بالبصرة يوم 27/2/1991 أكد وهو في حالة إنزعاج شديد من الموقف الحاصل أن سبعواوي شخصيا قام بجديقة منزل يعيش فيه بالكويت بصف ثلاثة أخوة مع أبهيم الذي جاء يراجع عن مصيرهم وقام بإطلاق إطلاقا من مسدسه على الأول ليقتله ويجرح الثاني ، وهكذا حتى قضى تماما على الأربعة بطريقة اللعب بالنار.

الملحق الخاص بمقابلة صدام حسين مع الأنسة أبريل غلاسبي سفيرة الولايات المتحدة في بغداد 1990/7/25

صدام حسين

تعرفون أن علاقتنا كانت مقطوعة مع الولايات المتحدة على عام 1984 ، وتعرفون الظروف والأسباب التي أدت إلى قطع العلاقة ، وقد بينا لكم إن قرار إعادة العلاقة مع الولايات المتحدة قد اتخذ في الواقع في عام 1980 ، وربما خلال الشهرين اللذين سبقا قيام الحرب بيننا وبين إيران .

ولكن عندما قامت الحرب ، مع ملابسها المعروفة ، ولأننا حريصون على أن نتصرف بالقضايا الكبيرة بما لا يجعل المقابل يفسر الأمور إلا في إطارها الصحيح ، أجلنا إعادة العلاقة على أمل أن تنتهي الحرب .

ولأن الحرب استمرت طويلا ، وتأكيدا لمبادئنا التي تقول أننا جهة غير منحازة ، كان لا بد أن نعيد العلاقات مع الولايات المتحدة فجاء التوقيت لإعادتها في عام 1984 .

ومن الطبيعي أن نقول ، إن الولايات المتحدة ليست مثل إنكلترا مثلا ، من حيث قدم علاقاتها مع دول الشرق الأوسط العربية ومنها العراق ، وإذا ما أضفنا إلى هذا ، أنه لأن العلاقات بين البلدين كانت مقطوعة طيلة المدة بين أعوام 1967 . 1984 لا بد أن نقول أنه سيصعب على الولايات المتحدة أن تفهم الكثير من الأمور في العراق كما ينبغي ، وكان مؤملا ، بالعلاقة الجديدة التي أستؤنفت ، أن نعاون بعضنا ، لكي يفهم كل منا الآخر ، لأننا نحن أيضا كنا وما زلنا ، نجهل الكثير من الخلفيات والأمر التي يستند إليها القرار الأمريكي.

تعاملنا مع بعضنا أثناء الحرب ، وأجرينا الحوار على المستويات التي أتاحها الفرص ، لأن تجري العلاقة والحوار فيما بيننا ، وكان أهم مستوى في إجراء الحوار هو مستوى وزير الخارجية .

وكنا نأمل أن تزداد مساحة الفهم المشترك ، بل وعلى الأمة العربية كما كنا نأمل ، وكلما وجدت الأطراف المعنية أن هذا ممكن .

غير أن العلاقة وهي حديثة عهد ، تعرضت إلى بعض المنغصات والضربات وهي في خط سيرها على الطريق .

أهم ضربة تعرضت لها العلاقات كانت في عام 1986 (بعد سنتين من إعادة العلاقات) فيما سمي بقضية (إيران . غيت) وصادف في ذلك العام ، احتلال الفاو من قبل إيران . ومن الطبيعي أن نقول أن كل علاقة ، تستطيع مع قدمها وتشابك المصالح ، أن تغطي ارتكاب الأخطاء التي تحصل فيها ، ولكن عندما تكون المصالح في هذه العلاقة صغيرة الحجم ، ولم تتسع بعد ، وعندما تكون العلاقة ليست قديمة بما يكفي لتوجيه أطرافها ، لكي تتفهم بعضها البعض ، لابد أن يترك كل خطأ في طريقها نوعاً من الأثر ، هو بحجم الخطأ وربما في بعض الأحيان أكبر من حجمه ، ولكن في كل الأحوال لا يكون الأثر أقل من حجم الخطأ.

مع ذلك ، قبلنا الاعتذار الذي قدمه الرئيس الأمريكي (حول إيران . غيت) عن طريق مبعوثه إلينا ، وإعتبرنا ذلك يكفي عن الماضي ، وينبغي أن لا نحيا الماضي إلا إذا ارتبطت به خطوات لاحقة ، تذكر بأن الخطأ الماضي ليس مجرد خطأ عابر . استمرت علاقاتنا هكذا ، وبدأت هواجس تظهر على السطح من جديد ، وبدأت علامة الاستفهام ترسم متسائلة ماذا تريد الولايات المتحدة عندما تكون غير مرتاحة لنتائج القتال التي حررنا بها أرضنا ؟.

كان واضحاً لدينا بما لا يقبل الشك ، أن هناك أوساطاً في الولايات المتحدة ، ولا نقول الرئيس الأمريكي ، لأنه ليس لدينا ما هو ملموس على هذا ، ولكن هناك أوساطاً في الولايات المتحدة يرتبط بعضها بأوساط جمع المعلومات والمخابرات أو الاستخبارات ، وبعض الأوساط في الخارجية ، ولا أستطيع أن أقول وزير الخارجية أقول بدا لنا أن هذه الأوساط غير مرتاحة لتحرير أرضنا ، وبعض الأوساط مما ذكرنا تجمع معلومات تحت عنوان " من الذي يخلف صدام حسين " ؟ ثم بدأت تجري الاتصالات مع دول الخليج ، على أساس تخويف هذه الدول من العراق ، وتعلن الرغبة أو توجي بها ، لكي لا تقدم دول الخليج ، أية معارضة اقتصادية للعراق ، وقد لمسنا بما لا يقبل الشك تأثير هذه النشاطات . وأضاف الرئيس :

خرج العراق من الحرب وهو مدين للآخرين بحدود (40) مليار دولار عدا المساعدات التي قدمت للعراق ، والتي ما زالت مسجلة عليه كديون من قبل بعض الدول

العربية ، مع إنهم يعرفون وأنتم تعرفون بأنه لولا العراق لما بقيت هذه المبالغ وغيرها عند أصحابها ولأصبح مستقبل المنطقة على غير ما هو عليه .

أنتم وغيركم نظمت مشروع مارشال لكل حلفائكم بعد الحرب وكنتم خلال الحرب تقدمون مساعدات سخية لهم ، هذه كلها كانت تقدم لهم من دافعي الضرائب الأمريكيان . ثم بدأنا نواجه بسياسة خفض أسعار النفط ، ثم بدأت أمريكا التي تتحدث عن الديمقراطية ، تضيق ذرعا بالرأي العام المقابل ، بدأت الحملة الإعلامية تشن على صدام حسين من مركز الإعلام الأمريكي الرسمي ، وفي ظن الولايات المتحدة أن حال العراق مثل الحال في بولونيا أو رومانيا أو جيکوسلوفاکیا . انزعجنا من الحملة ، ولكن لم نزعج كثيرا على أمل أن نترك فرصة كافية عددا من الأشهر ليعاين صاحب القرار الأمريكي بنفسه وليلمس ، هل ترك هذا الإعلام أثرا ما في حياة العراقيين ما كان يراد أن يتركه من أثر أم أن الأمر مختلف؟.

كان أملنا أنه بعد هذه الفرصة الطويلة ، سيصبح بمقدور المسؤولين الأمريكيين ان يتخذوا قرارات أكثر صوابا في العلاقة مع العراق .

من المسلم أن العلاقة حتى وهي ترقى إلى مستوى من مستويات الصداقة ، لا نفترض التطابق بل وإن الأمريكيان يرون أنه حتى داخل القيادة الواحدة لا يفترض التطابق أن يكون هناك تطابق في الآراء .

ولكن عندما تخفض أسعار البترول بشكل مخطط ومتعمد وبدون سبب تجاري أو اقتصادي ، فهذه حرب أخرى على العراق ، لأن الحرب تقتل البشر بعد تسييح دمهم ، والحرب الاقتصادية تقتل إنسانية البشر بعد أن تسلبها فرصتها في الحياة الكريمة .

ونحن كما تعلمون ، أعطينا أنهارا من الدم في حرب استمرت ثماني سنوات ولم نتنازل عن إنسانيتنا ، أي حق العراق في أن يعيش بكرامة وعليه ، لا نقبل على الإطلاق (وإذا كنا لا نقبل هذا بدرجة معينة قبل الحرب ، فالآن لا نقبله بدرجة مضاعفة) أن يخل أحد بكرامة العراقيين أو بحقوقهم في العيش حياة سعيدة ومرفهة ومزدهرة .

الكويت والإمارات ، كانا وجه هذه السياسة التي تريد أن توصل إلى ما يذل العراق وتسليبه فرصة الحياة السعيدة ، وأنتم تعرفون أن علاقاتنا كانت جيدة مع الإمارات والكويت . نضيف إلى هذا ، أن دولة الكويت ، ونحن مشغولون بالحرب كانت تتوسع على حساب أراضيها .

قد تقولون أن هذا حكم الدعاية ، لكننا نقول ، بإمكانكم أن تعودوا إلى وثيقة واحدة ، والتي تسمى (خط الدوريات) وهو الخط الذي اعتمدته الجامعة العربية ، لتجعل أية قوة عسكرية في عام 1961 بعيدة عن هذا الخط ، أي على الحافة القريبة منه . عاينوا وقفوا في الحافة الأخرى التي هي باتجاه الكويت ، وانظروا أكانت توجد عليها مخافر شرطة أو مزارع أو منشآت نفطية وإلى عمق بعيد ، من هذا الخط أي خط الدوريات .

إن كل هذه المرافق والمنشآت ، أستحدث بتخطيط مقصود لفرض الأمر الواقع على العراق . ومن الطبيعي أن نقول ، أنه خلال هذه المدة كانت حكومة الكويت مستقرة ، بينما الحكومة في العراق تتغير وحتى بعد عام 1968 وإلى عشر سنوات بعدها ، كنا نحن مشغولين بأمور كثيرة مرة في الشمال ، وأخرى في حرب 1973 ، وغيرها من الانشغالات ، ثم جاءت بعد ذلك الحرب مع إيران التي مضى عليها الآن عشر سنوات . في تقديرنا يجب أن تفهم الولايات المتحدة بأن المرفهين المتمكنين اقتصاديا يستطيعون أن يتفاهموا معها على ما هو مشروع من المصالح المشتركة ، فيما لا يستطيع ذلك من يجوع ، أو تسلب فرصته في حياة سعيدة .

نحن لا نقبل التهديد من أحد ، لذلك لا نستخدم التهديد لكننا نقول بوضوح ، نأمل أن لا تتوهم الولايات المتحدة كثيرا ، وأن يكون سعيها لكسب أصدقاء ، وليس إضافة أرقام جديدة إلى الأعداء .

أنا أطلعت على التصريحات الأمريكية التي تتحدث عن الأصدقاء في المنطقة وأقول من حق كل جهة أن تختار أصدقاءها في المنطقة ومن حق كل جهة في العالم أن تختار أصدقاءها ... نحن لا نعترض على هذا ولكن أنتم تعرفون ، أنكم لستم الذين حميتم أصدقاءكم خلال الحرب مع إيران وأنا أجزم لو إن الإيرانيين اندفعوا في المنطقة ، لما استطاعت الجيوش الأمريكية أن تصدهم وتوقفهم إلا باستخدام القنابل النووية . هذه ليست نظرة استصغار لكم ، وإنما مرتبطة بطبيعة الجغرافية وبطبيعة المجتمع الأمريكي ، التي تجعله لا يستطيع أن يتحمل في معركة واحدة عشرة آلاف قتيل .

وأنتم تعرفون أن إيران وافقت على وقف إطلاق النار ليس بسبب ضرب أمريكا منصة صغيرة من منصات تحميل النفط بعد تحرير الفاو فهل هذه هي مكافأة العراق على

دوره في استقرار المنطقة وحمايتها من طوفان لم نكن نعرف على أي شاطئ كان سيضعها؟.

ماذا يعني قول أمريكا الآن أننا ملتزمون بحماية أصدقائنا بصورة فردية وجماعية؟ إنه يعني بوضوح ، انحيازاً واضحاً ليس إلى جانب الجهة الفلانية من دون الجهة الفلانية الأخرى ، وإنما انحياز واضح ضد العراق في هذه المرحلة . هذا الموقف فيه تشجيع واضح للكويت والإمارات ، ومع التصريحات الأخرى والمناورات ، لكي لا تحترم دولتا الإمارات والكويت حقوق العراق . أقول لكم بوضوح إن حقوق العراق التي وردت في المذكرة سنأخذها واحدة واحدة قد لا يحصل هذا الآن ... أو بعد شهر أو بعد سنة ولكننا سنحصلها كلها ، لأننا لسنا من النوع الذي يسكت على حقه وليس هناك استحقاق تاريخي أو شرعية أو حاجة لتستحوذ الإمارات والكويت على حقوقنا فإن كانوا (محتاجين) فنحن أيضاً محتاجون .

إذن على الولايات المتحدة أن تكون منسجمة مع هذا الموضوع ، ويجب أن تظهر بوضوح أنها تريد الصداقة مع الجميع حيثما رغب الجميع بصداقتها ، وتعادي من يعادها ويجب أن لا تعادي من يختلف معها في وجهة النظر في الصراع العربي الإسرائيلي أو شؤون الحياة الأخرى .

نحن نفهم تماماً قول أمريكا بأنها حريصة على تدفق النفط ، ونفهم قول أمريكا بأنها تريد علاقات صداقة مع دول المنطقة ، وأن تتسع مساحة المصالح المشتركة في المجالات المختلفة ، ولكن لا يمكن أن نفهم محاولات تشجيع البعض لكي يلحق الضرر بالعراق .

تريد الولايات المتحدة ضمان تدفق النفط هذا مفهوم ومعروف . تريد أمريكا السلام في المنطقة وهذا الذي نسمعه هذا مفهوم . لكن عليها أن لا تعمل بالطرق التي تقول أنها لا تحبها وهي طرق الضغط واستعراض القوة .

إذا استعملتم طرق الضغط والإكراه نحن سنعمل بطريقة الضغط واستخدام القوة . نحن نعرف إنكم قادرون على إلحاق أذى بنا ونحن لا نستخدم التهديد ضدكم لكن نحن أيضاً قادرون على إلحاق أذى بكم وكل واحد يلحق أذى بقدر حجمه . نحن لا نستطيع أن نأتي إليكم في الولايات المتحدة ربما يصل إليكم أفراد عرب .

أنتم تستطيعون أن تأتوا إلى العراق بطائرات وبصواريخ نعرف هذا لكن لا توصلونا إلى أن نستخف بكل هذا متى نستخف بهذا ؟

عندما نشعر أنكم تريدون أن تذولنا وأن تنتزعوا فرصة العراقيين في العيش بكرامة وسعادة عند ذلك يكون الموت هو الأفضل .

وعند ذلك ... لا نأبه إذا وجهتم علينا مقابل الصاروخ ، مائة صاروخ ، لأنه من غير هذه ، لا كرامة للإنسان ولا حياة ذات قيمة .

ليس من المعقول أن نطلب من شعبنا أن ينزف كل أنهار الدماء طيلة 8 سنوات ، ثم نقول له الآن عليك أن تقبل العدوانية الكويتية أو الإماراتية أو من الولايات المتحدة أو من إسرائيل .

نحن لا نضع هذه الدول بمستوى واحد أولا نحن متألمون أن يحصل بيننا وبين الكويت والإمارات هذا ، والحل لما حصل يتم ضمن الإطار العربي وبالعلاقة الثنائية المباشرة .

لا نضع أمريكا كعدو ... ولكن نضعها حيث نرغب أن نكون أصدقاء ... وحاولنا أن نكون ، ولكن يبدو من تصريحات أمريكا المتكررة خاصة خلال السنة الماضية بأنها لا تضعنا كمشروع صداقة ... وهي حرة في تصرفها هذا .

نحن عندما نسعى لأن نصادق ، نريد مع الصداقة ، الكرامة ، الحرية ، الحق في اختيار فرصنا كما نجتهد ، وخاصة الفرص التي لا تلحق أذى بطرف الصداقة .

نريد أن نتعامل بحجمنا ونعامل الآخرين بحجومهم .

نريد مصالح الآخرين ، في الوقت الذي نتعامل مع مصالحنا ، وعلى الآخرين أن يروا مصالحنا في الوقت الذي يتعاملون مع مصالحهم .

ماذا يعني استدعاء وزير الحرب الصهيوني في هذا الوقت إلى أمريكا ؟

ثم ماذا تعني هذه التصريحات الملتهبة التي تخرج من (إسرائيل) في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، والحديث عن احتمالات اقتراب الحرب أكثر من السابق .

نحن لا نريد الحرب لأننا نعرف معناها ولكن لا تدفعونا إلى أن نعتبرها هي الطريق الوحيد أمامنا لنعيش بكرامة ويعيش بقيتنا بسعادة .

نحن نعرف أن لدى الولايات المتحدة قنابل نووية ولكننا مصممون على ، أما أن نعيش بكرامة أو نذهب كلنا .. ولا أعتقد أن هناك إنسانا شريفا في الكرة الأرضية لا يفهم هذا المعنى .

نحن لا نطلب منكم أن تحلوا مشاكلنا أنا قلت أن مشاكلنا العربية نحلها فيما بيننا .. ولكن لا تشجعوا بعض الناس أن يتصرفوا بأكثر من هجومهم وعلى الباطل .
الذي يصادق العراق لا أضنه يخسر ... ما زال الرئيس الأمريكي في تقييمي أنه لم يرتكب خطأ تجاه العرب ، وإن كان قراره بتعليق الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية قرارا خاطئا .

ولكنه قرار يبدو أنه ينطوي على مجاملة ما لتيار الضغط الصهيوني ، وربما ينطوي على تكتيك ما ليمتص التعبئة الصهيونية ويعيد الكرة . نحن نأمل أن يكون استنتاجنا الأخير صحيحا لكن سنظل نقول إنه قرار خاطئ .

تجاملون المغتصب بعشرات العناوين والمفردات في الاقتصاد وفي السياسة وفي الإعلام وفي الأسلحة ... متى يحين الوقت لتجاملوا بعد كل ثلاثة عناوين للمغتصب بعنوان واحد للعرب ؟ ومتى تجد الإنسانية فرصتها الحقيقية في القرار الأمريكي العادل ، بحيث يوازن في الحقوق الإنسانية ل (200) مليون إنسان مع (3) ملايين يهودي ؟
إذن نحن راغبون في الصداقة من غير أن نركض وراءها نقوم بواجبنا ... نرفض إيذاء من أية جهة جاءت ... وإذا حصل إصرار على إيذائنا سنقاومه ... وهذا حق إنساني ، سواء جاء الإيذاء من أمريكا أو الإمارات أو الكويت أو إسرائيل .
طبعاً لا أضع هذه الدول على مستوى واحد .

إسرائيل تغتصب أرض العرب .
أمريكا تساندها .

لكن الإمارات والكويت لا تساعدانها ، وهم عرب في كل الأحوال ، أما عندما يصرون على إضعاف العراق ، فهم يساعدون الأعداء ، وعند ذلك من حق العراق أن يدافع عن نفسه .
وفي عام 1974 ، التقيت مع ابن الملا مصطفى البارزاني في هذا المكان الذي تجلسين عليه وكان اسمه إدريس .

جاءني بطلب تأجيل تطبيق الحكم الذاتي في كردستان العراق كما اتفق عليه في بيان 11 آذار 1970 . فقلت له لدينا إصرار على أن نلتزم بتعهداتنا وعليكم كذلك الالتزام بتعهدكم

... وعندما رأيت أن هناك نوايا شر من البارزاني ، قلت له سلم لي على أبيك وأنقل له أن صدام حسين يقول ما يلي : وحدته عن توازن القوى بالأرقام والمعطيات مثلما تحدثت مع الإيرانيين في رسائي المفتوحة إليهم أثناء الحرب ، وخرجت من الحديث حول هذه الأمور بنتيجة أوجزتها له بالقول ، أنه إذا حصل قتال عسكري سننتصر ... وقلت له أتعرف لماذا ؟ لكن هذه الأسباب التي ذكرتها زائدا سببا سياسيا ... أنتم تعتمدون على خلافاتنا مع إيران (الشاه) وإيران مستندة في خلافها مع العراق على أطماعها بالحصول على نصف شط العرب فإذا كان الاختيار أن نحافظ على العراق كله ومعه شط العرب ونكون بخير فسوف لن نتنازل عن شط العرب ... وإذا وضعنا في زاوية أما نصف شط العرب أو كل العراق ، فإننا سنعطي نصف شط العرب لنحافظ على العراق كما نتمنى له . نأمل أن لا تدفعوا الأمور لتذكرنا بهذه الحكمة في علاقاتنا مع إيران ... لكن بعدها أعطينا نصف شط العرب والبارزاني مات ودفن خارج العراق وخسر معركته . فنأمل أن لا تدفعوا إلى هذا .

إن كل الذي يعطل العلاقة بيننا وبين إيران الآن هو شط العرب . فعندما نرى أننا أمام أن يعيش العراق بعز وكرامة أو شط العرب ، سنقف لنناقش على أساس الحكمة التي قلناها في عام 1974 ... وعند ذلك مثلما خسر البارزاني فرصته التاريخية ، سيخسر كثيرون فرصتهم التاريخية .

مع تحياتي للرئيس بوش .

وآمل أن يطلع الرئيس على هذا وأن لا يتركه بيد المجموعة في وزارة الخارجية ، وأستثني من هذه المجموعة وزير الخارجية وكيلي ، لأنني رأيته ورأيت عقيلته وتبادلت الحديث معه .

قالت السفارة

أشكركم سيادة الرئيس ... من دواعي السعادة الكبيرة لدبلوماسي ، أن يلتقي ويتحدث مباشرة إلى الرئيس ... وأنا أفهم بوضوح الرسالة التي تحدثتم بها .. وأنتم تتحدثون سيادة الرئيس ، درسنا في المدرسة درس التاريخ .. كانوا يعلموننا أن نقول الحرية أو الموت . وأعتقد أنكم تعلمون جيدا أننا كشعب لنا تجربتنا ضد المستعمر .

سيادة الرئيس ... ذكرتم أشياء كثيرة خلال هذا اللقاء ، ليس بوسعي أن اعلق عليها نيابة عن حكومتي ، لكن بعد إذنكم أعلق على مسألتين :

تحدثتم عن الصداقة وأعتقد انه كان واضحا من رسائل رئيسنا إليكم بمناسبة العيد الوطني أنه يؤكد ...

قال صدام

كان كريما وتعبيره محل تقديرنا واحترامنا .

قالت السفيرة

وكما تعرفون انه وجه الإدارة الأمريكية بالرفض القاطع والحديث لمقترح فرض العقوبات التجارية .

قال صدام مبتسما

لكن لم يبق لدينا شيء نشتره من أمريكا ... فقط الحنطة ... لأنه كل ما نريد أن نشتره شيئا ، يقولون هذا ممنوع ... ونخشى أن تقولوا أن الحنطة أيضا تصلح للبارود .

قالت السفيرة

إن لي توجيهها مباشرة من الرئيس شخصا أن أعمل على توسيع وتعميق العلاقات مع العراق .

قال صدام

ولكن كيف ؟ نحن أيضا لدينا هذه الرغبة ، والأمور تجري من حيث النتيجة خارج الرغبة.

قالت السفيرة

أعتقد كلما ناقشنا هذه القضايا ، يتقلص الاحتمال الذي أوردتموه مثلا أوردتم قضية المقال الذي نشر عن طريق وكالة الاستعلامات الأمريكية ... لقد كان محزنا فعلا ... وقدمت اعتذارا رسميا حوله .

قال صدام

موقفكم كريم .

نحن عرب يكفيننا أن يقول لنا المعني أنا لآسف ، قد أخطأت ... ونمضي على الطريق ... لكن الإعلام بشكل عام استمر . ومليء بقصص مع الأسف ، لوإنها موجودة لا تسبب الزعل . لذلك نفهم من استمرارها هذا النهج أن هناك إصرارا .

قالت السفيرة

أنا رأيت برنامج دايان سوير في محطة A.B.C الذي جرى في هذا البرنامج أمر رخيص وغير عادل ، وهو صورة حقيقية لما يجري في الإعلام الأمريكي حتى لسياسيين أمريكيين ... هذه هي طريقة الإعلام التي يعمل بها الإعلام الغربي .

أنا مسرورة أنكم تنضمون إلى الدبلوماسيين لمواجهة هذا الإعلام ... لأن ظهوركم في الإعلام حتى ولو لمدة خمس دقائق ، يساعدنا على أن نجعل الشعب الأمريكي يفهم العراق وهذا شيء يزيد من الفهم المشترك . ولكن لو كان بإمكان الرئيس الأمريكي أن يسيطر على الإعلام ، لكان أداؤه لوظيفته أسهل .

سيادة الرئيس ... لا أريد أن أقول أن الرئيس بوش يريد علاقة أفضل وأكثر عمقا مع العراق فحسب ، بل يريد أن يكون للعراق إسهام تاريخي في السلام والازدهار في الشرق الأوسط . إن الرئيس ذكي ، ولن يعلن أي حرب اقتصادية على العراق . أنتم محقون ... صحيح الذي أوردتموه من إننا لا نريد أسعارا عالية للنفط ... لكن أسألكم أن تتأملوا احتمال الرغبة في أن لا تكون أسعار النفط مرتفعة جدا .

قال صدام

نحن لا نريد أسعارا عالية جدا للنفط وسأذكر لك إنه في عام 1974 أملت أفكار مقال كتبه السيد طارق عزيز مضمونه انتقاد شديد لارتفاع أسعار النفط ، وكان أول مقال يظهر من عربي بهذا الاتجاه .

قال طارق عزيز

وسياستنا في منظمة الأوبك ضد القفزات في الأسعار .

قال صدام

غير أن السعر (25) دولارا ليس عاليا .

قالت السفيرة :

عندنا كثيرون من الأمريكيان ممن يتمنون أن يرتفع السعر إلى أكثر من (25) دولارا ، لأنهم من ولايات تنتج النفط .

قال صدام

كان قد وصل السعر في هذه المرحلة إلى (12) دولارا .. فعندما تنخفض من ميزانية العراق المتواضعة 7.6 مليارات فإن هذا تدمير .

قالت السفيرة

أعتقد أنا أفهم هذا وعشت سنين هنا وأنا أعجب بجهودكم غير الاعتيادية من أجل إعادة البناء ... وأفهم إن هذا البناء يحتاج إلى أموال وهذا نفهمه ولدينا رأينا في هذا الموضوع وهو أن تتاح لكم الفرصة لإعادة البناء ، ولكن الذي لا يتوفر لدينا رأي حوله هو الخلافات العربية . العربية ، مثل خلافكم الحدودي مع الكويت . أنا خدمت في أواخر الستينات في سفارة أمريكا بالكويت . وكانت التوجيهات لنا في تلك الفترة . أن لا علاقة لكم بهذه القضية ولا علاقة لأمريكا بهذه القضية . وقد وجه جيمس بيكر

متحدثنا الرسمي لأن يعيد التأكيد على هذا التوجيه ونتمنى أن تتمكنوا من حل هذه المشكلة وبأية طريقة مناسبة ، عن طريق القليبي أو الرئيس مبارك وكل ما نأمل أن يجري حل هذه الأمور بسرعة . ومع كل هذا هل أطلب منكم أن تنظروا في كيف يبدو هذا الأمر بالنسبة لنا .

إن تخميني بعد (25) سنة خدمة في المنطقة ، هو أن تلقى أهدافكم الدعم القوي من إخوانكم العرب ... أنا أتحدث الآن عن النفط .

ولكن أنتم سيادة الرئيس قاتلتم بحق حرباً أليمة مرعبة ونحن بصراحة لا يمكن إلا أن نرى أنكم قد نشرتم قطعات كبيرة في الجنوب . بالشكل الاعتيادي هذا ليس من شأننا ولكن عندما نرى أن هذا الشيء يحصل في سياق الكلمة التي ألقيتها في ذكرى الثورة ، ثم نقرأ ونطلع على التفاصيل في رسالتي وزير الخارجية ومن ثم نطلع على وجهة النظر العراقية ، من أن إجراءات الإمارات والكويت هي من حيث التحليل النهائي لها موازية لعدوان عسكري على العراق ، يبدو أن من المعقول لي على الأقل ، أن أقلق ، ولهذا السبب تلقيت توجيهها بأن أتوجه بالسؤال بروح الصداقة وليس بروح المواجهة ، عن نواياكم . هذا الوصف البسيط للقلق الذي ينتاب حكومتي ... أنا لا أقصد أن الوضع هو وضع بسيط إنما هو قلق بسيط .

قال صدام

لا نطلب من أحد أن لا يهتم بالسلام أو أن لا يقلق عندما يرى السلام يتكرر ، هذا شعور إنساني صميم نحن نشعر به ، وأنتم كدولة عظمى أمر طبيعي أن تقلقوا ، لكن إلي نقصده أن لا يعبر عن هذا القلق بطريقة تشعر المعتدي أن هناك من يعاونه على العدوان . هذا هو الذي نقصده .

نحن نريد أن نتوصل إلى حل ينصفنا ولا يأخذ من حقوق الآخرين ، لكن في الوقت نفسه نريد أن نشعر الآخرين بأنه لم يعد لنا مجال للصبر تجاه تصرفاتهم التي وصل ضررها إلى حليب أطفالنا وإلى رزق الأرملة التي استشهد زوجها في الحرب ، وإلى رزق الأيتام الذين فقدوا آباءهم أثناء الحرب .

ثم إننا بلد من حقنا أن نزهدهر ، وطالما ضاعنا علينا فرص وعلى الآخرين أن يقدرنا دور العراق في حمايتهم وحتى هذا العراقي (يقصد المترجم) أصبح في شعور صعب ... هذا شعور كل عراقي نحن لا نريد أن نعتدي ، لكن لا نقبل أن يعتدي علينا ، أرسلنا مبعوثين ورسائل خطية ، وحاولنا معهم بكل الطرق ... تمنينا على خادم الحرمين الملك فهد أن يعقد اجتماعا " رباعيا " على مستوى القمة ، فاقترح أن يكون على مستوى وزراء النفط ووافقنا ، وانعقد اجتماع وزراء النفط في جدة كما تعرفون وتوصلوا إلى اتفاق لا يمثل الذي يفترض أن يكون ، لكن وافقنا عليه .

بعد الاجتماع بيومين فقط ، صرح وزير النفط الكويتي بما يخالف الاتفاق . كذلك طرحنا الموضوع أثناء قمة بغداد ... فبعد إنجاز جدول أعمال القمة ، قلت للملوك والرؤساء العرب ، إن بعض الأشقاء يشنون علينا حربا اقتصادية ، وإن الحرب ليست كلها تستخدم الأسلحة ، هذا النوع من الحرب نعتبره بمستوى العمل العسكري ضدنا ، لأنه إذا هبطت كفاءة جيشنا من الممكن عندما تعاود إيران الحرب ، أن تحقق أهدافا لم تحققها في الماضي ، وإذا هبط مستوى برنامجنا الدفاعي قد يشجع إسرائيل لأن تعتدي علينا .

وقلت هذا أمام الملوك والرؤساء العرب ... فقط لم أشر بالاسم إلى الكويت والإمارات لأنهم كانوا ضيوفا .

ثم أنا كنت قد أرسلت لهم مبعوثين قبل هذا لكي أذكرهم بأن القتال الذي قمنا به يتضمن دفاعا عنكم ، فلا يجوز أن تبقى المساعدات التي قدمت لنا بصفة قروض . قمنا بأكثر مما تقوم به الولايات المتحدة تجاه من يعتدي على حقوقها . وتحدثت بالموضوع مع الدول العربية الأخرى ... حكيت للأخ الملك فهد عدة مرات عن طريق المبعوثين وبالهاتف .

وحكيت مع الأخ الملك حسين ... ومع الشيخ زايد بعد انتهاء أعمال القمة ، وإلى أن أوصلته إلى الطائرة وهو يغادر الموصل إلى الإمارات ... وقال لي ، فقط انتظري إلى أن

أصل الإمارات ، ولكن بعد وصوله ظهرت تصريحات في غاية السوء ليس منه ، وإنما من وزير النفط .

كذلك بعد اتفاق جدة ، وصلتنا أخبار ، أنهم يتحدثون عن أن مدة الاتفاق شهران ، وبعدها يتصلون من الاتفاق . إذن قولوا لنا ، لو أن الرئيس الأمريكي وضع في مثل هذا الموقف ماذا يفعل ؟

أنا قلت أن من أصعب الأمور علي أن أتحدث علنا ... ولكن لابد أن نقول للعراقيين الذين يجدون نقصا في أرزاقهم من هو المسؤول عن ذلك .

قالت السفارة

قضيت أربع سنوات جميلة في مصر

قال صدام

مصر شعب كريم ... طيب .. عريق . يفترض أن أهل النفط يساعدون شعب مصر ، لكن مع الأسف بعضهم بخلاء إلى الحد الذي لا يصدق ، ومن المؤلم أن بعضهم غير محبوب عند العرب بسبب بخلهم .

قالت السفارة

سيادة الرئيس يساعدنا ويكون من دواعي اهتمامنا إذا أعطينا تقيما للجهود التي يبذلها أخواتكم العرب ، وإذا كان هناك أي نجاح .

قال صدام

في هذا الموضوع ... خلاص ... اتفقنا مع الأخ الرئيس مبارك ، أن يلتقي رئيس وزراء الكويت مع نائب رئيس مجلس قيادة الثورة من عندنا في السعودية ، لأن السعودية كانت البادية في الاتصال معنا ، وجاءت جهود الأخ الرئيس مبارك تصب في الاتجاه نفسه ، وكان الآن معي على الهاتف ، وقال أن الكويتيين موافقون .

قالت السفارة

مبروك

قال صدام

سيعقدون في السعودية اجتماعا " بروتوكوليا " ثم ينتقل الاجتماع إلى بغداد ، لبحثوا أمورهم بعمق بين الكويتيين والعراقيين مباشرة ، ونأمل أن نصل إلى نتيجة . ونأمل إن النظرة البعيدة والمصلحة الحقيقية تتغلب على البخل الكويتي .

قالت السفارة

هل من الممكن أن أسألكم متى تتوقعون أن يأتي الشيخ سعد إلى بغداد .

قال صدام

يفترض السبت أو الاثنين بالكثير كما قال لي الأخ الرئيس مبارك ، وقد قلت للأخ مبارك أن الاتفاق أن يكون في بغداد السبت أو الأحد ، لكن تعرفون إن الأخ مبارك (يمون علينا) .
قالت السفارة هذه أخبار سعيدة ، وأنا أهنئكم .

قال صدام

قال لي الأخ مبارك إن الكويتيين خائفون ويقولون يوجد عسكر على بعد عشرين كيلومترا من خط الجامعة العربية . فقلت له بغض النظر عما يوجد سواء أكان الموجود شرطة أو جيشا وكم عدد الموجود وماذا يفعل ، طمئن الكويتيين ... ونحن من جانبنا لن يحصل أي شيء إلى أن نلتقي معهم ، وعندما نلتقي ونرى أن هناك أملا ، لن يحصل شيء ، وعندما نعجز عن إيجاد مخرج ، فأمر طبيعي أن لا يقبل العراق أن يموت ، ومع ذلك الحكمة هي فوق كل شيء .

فإذن الآن عندك أخبار جيدة .

قال طارق عزيز

هذه أخبار سبق صحفي

قالت السفارة

كنت قد خططت لأسافر إلى الولايات المتحدة يوم الاثنين القادم ... وأملتي أن ألتقي الأسبوع المقبل في واشنطن بالرئيس بوش ، لكن بسبب الصعوبات التي بدأنا نواجهها فكرت بتأجيل السفر ، أما الآن فأني سأسافر يوم الاثنين.

الفصل العاشر حرب الخليج الثانية الهجوم الجوي

في اليوم الثامن من شباط أعلن الحلفاء أن الطلعات الجوية على العراق بلغت أربع وخمسون ألف طلعة أُلقي فيها على العراق ستون ألف طن من القنابل .

التحالف الدولي لشن الحرب

توجه العرب إلى العراق بعد خطوة الغزو ، وفرض سيناريو القمة في القاهرة وبعد أن افاقوا من الصدمة انقسموا كعادتهم بين معاتب لصدام حسين على خطوته غير الصحيحة .

وبين راغب بتوريطه ، والعراق للتوغل أكثر في وحل الأزمة حتى آخر المطاف . وبين متفرج ينتظر النتيجة .

وآخر مؤيد لخطوات احتلال الكويت وضمها إلى العراق بقناعة .

وعلى أساسه كثف من يريد تفادي مشكلة مضافة إلى المنطقة غير المستقرة اتصالاته مع الحكومة العراقية وبالذات صدام حسين الذي امتلك وحده قرار الغزو ، ويمتلك وحده كذلك قرار حسم الموضوع مبينا ضرورة الانسحاب وبأسرع ما يمكن لأن العرب ومن معهم قليل من الأصدقاء غير قادرين جميعا على تحمل أعباء ضغوط جديدة فوق تلك السلطة عليهم بسبب واقعهم السيئ .

لكن تلك المحاولات لم تنجح جميعها عن تغيير نوايا صدام في الاستمرار بالاحتلال ، وعلى العكس من المطلوب اندفع خطوات إلى الأمام ، وأعلن ضم الكويت إلى العراق حتى يأس أولئك الذين يريدون بتحريكهم تجاوز الأزمة ، وتنحوا إلى جانب العرب الآخرين الذين تحركوا باتجاهات غير واضحة ليدفعوا صدام إلى اتخاذ قرار يمهد لتكوين أزمة ، وبتنحية الجانبين المذكورين تركوه في الميدان السياسي ، والعسكري وحيدا يشكل موقفا شائكا ، ويواجهه على انفراد ، في الوقت الذي نجحت فيه أمريكا بتكوين تحالف من ثلاث وثلاثين دولة ، أرسلت ثلاثين منها قوات عسكرية نظامية ، أو رمزية بينها دول عربية خارج منطقة الخليج مثل مصر ، وسوريا ، والمغرب للمشاركة في القتال بالضد من القوات المسلحة العراقية المتمركزة في الكويت وعلى الحدود العراقية السعودية ، وكانت لأمريكا حصة الأسد في الحشد الذي ارتفع عدد الجنود فيه لأكثر من نصف مليون جندي، وما يزيد عن خمسمائة طائرة ، تهيأت لهم جميع الاستحضارات بغية الهجوم من داخل الأراضي السعودية مع بداية العام 1991 بأيام قليلة.

الإثارة والتحدي

لقد تعاملت أمريكا قائدة التحالف بنوايا مغلفة مع صدام ، تتأسس على فكرة : الإثارة والتحدي ، وعلى أساسها تعطيه جرع من خلال الإعلام ، وبعض قنوات الاتصال غير الرسمية تشعره فيها بالقوة والعظمة .

وعندما تتأكد أنه قد أخذها كاملة ، ولمستوى الإثارة تطرح بعض المقترحات ، أو تتخذ بعض القرارات التي يفسرها هو شخصيا كنوع من التحدي لتلك القوة والعظمة . وتنتظر استجابة منه تكاد أن تكون محصورة في إطار محدد تتوقعه هي مسبقا ، وبما يشبه نظام المتاهات التي تدفع الموجود في مسالكها إلى الخروج من باب واحدة مسيطر عليها .

وفعلا كانت غالبية المواقف ، والقرارات التي اتخذها منذ الدخول إلى الكويت وحتى وقف إطلاق النار كانت تنتج عن هذه الحالة ، لأن العالم قد تلمس على سبيل المثال رغبته بالانسحاب من الكويت بعد ثلاثة أيام من دخولها حتى إن بعض الوحدات تهيأت فعلا للانسحاب⁶¹ ، وعاد ليطلب منها البقاء ، وحاول حتى قبل بدء الهجوم الجوي . وكان الحال هكذا منذ بدايات الاتصال لتكوين التحالف ، ومن ثم الشروع بتنفيذ خطوات التحشد ، وحتى يوم 1991/1/15 موعد انتهاء المهلة التي أعطيت له من أجل الانسحاب غير المشروط من الكويت بطريقة سدت الأبواب من أمامه إلا أن يقبل

⁶¹ * أعلم الملك حسين وهو في طائرته للعودة من بغداد أن القوات العراقية ستباشر الانسحاب من الكويت في 5 آب ، لكن المفاجأة جاءت من مصر التي أصدرت بيانا أدانت فيه العراق خلافا للاتفاق بينه والرئيس مبارك. بعد ذلك بثلاث ساعات توالى بيانات الإدانة من الخارجية المصرية ومؤتمر وزراء الخارجية في القاهرة. وكانت حجة الرئيس المصري أن هناك ضغوط عليه من الرأي العام لإعلان بيانا علنيا يحدد فيه موقف مصر ، هذا وتشير يوميات الحرب أن صدام قد أصدر بالساعة 1100 يوم الأحد 5 آب أمرا لانسحاب وحدات خاصة قوامها عشرة آلاف شخص على أن تعقبها بأربع وعشرين ساعة وحدات بنفس العدد ، لكنه سرعان ما عاد وألغى الأمر، كذلك عاود ذات الصيغة قبل بدء الهجوم الجوي ، وتوقف أيضا بنفس الطريقة ، ليحقق دون أن يعي نتيجة كانت مطلوبة من قبل القوى العظمى قوامها قبول واقع الحرب. بعد تلك التطورات ، التي تعززت بإصدار مجلس الأمن قرارا جديدا بالضغط على العراق ، ووصول وزير الدفاع الأمريكي دك تشيني إلى السعودية ، واجتماعه مع الملك فهد ليحصل على موافقة رسمية على انتشار القوات الأمريكية والحليفة في المنطقة ، ثم إبقاء الجنرال نورمان شوارسكوف في السعودية بصفته قائدا لعملية درع الصحراء ، ثم إلغاء اجتماع القمة الخماسي الذي كان مقررا عقده في جدة ، كلها أحداث أدت إلى إيقاف عملية الانسحاب بدوافع إذا لم تكن تحت باب التحدي فأقلها انتظار المجهول من الأحداث القادمة .

المعركة حتى نهايتها . وهذا هو التصور الأقرب إلى واقع الدفع باتجاه الحرب يؤمن به الكثير من العراقيين وغير العراقيين بعد أن أسسوا قناعاتهم على نوايا صدام ، وطبيعته الشخصية ، وتفردته بالقرار .

رغم إن البعض يرى الأمر مختلفا وطبيعة الاختلاف قناعة فحواها عند شريحة ليست قليلة من أن صدام كان واثقا تماما أن الأمريكان سوف لن يقوموا بهجوم على القوات العراقية تحاشيا للتورط في موقف يجبرهم إلى خسائر هم يتحسسون حصولها بضوء عقدة الخسارة في حرب فيتنام .

وعند شريحة أخرى قناعة أيضا أساسها أن صدام يدرك تماما أن الحشد ، والتحرك ما هو إلا استعراض خاص ، وتبادل للأدوار لتنفيذ مخطط متفق عليه بين الطرفين اللذين يرتبطان بعلاقات خاصة قبل مجيء حزب البعث إلى الحكم عام 1968 . وعند آخرين أن صدام دخل الكويت ، وخطط لأن يبقى ويخوض المعركة إلى النهاية ، ولم يكن مستعدا طوالها أن يسمع العكس⁶² على أمل أن يكسبها ولو بمجازفة عالية ويضم الكويت إلى العراق ، وتكون سابقة إلى تطبيق فكرة الوحدة العربية بالقوة .

⁶² في لقاء لضباط مديرية الاستخبارات العسكرية العامة مع صدام حسين بعد الحرب قال (للمرة الأولى التي أردت تحديدكم بعدم التدخل في الشؤون السياسية كانت قبل أم المعارك لأنني كنت استوحي من تقاريركم كأنكم تريدون أن تقولوا علينا الانسحاب من الكويت وإلا سوف تسقط الدولة وترون الآن إننا لم نسقط) .

الهجوم الجوي

لقد تعددت الآراء والقناعات الخاصة بموضوع الحرب والإصرار على عدم الانسحاب ، ومع ملابساتها جميعا شرعت القوات المتحالفة بالهجوم جوا بالساعة 0230 يوم 1991/1/17 حسب توقيت العراق باستخدام الطائرات الحربية من أنواع مختلفة ، وكذلك صواريخ توما هوك ، وقد استهدف الهجوم في ساعاته الأولى :
مقرات القيادة العامة للقوات المسلحة .

وزارة الدفاع ورئاسة الأركان العامة .

بعض القصور الرئاسية التي تستخدم كمراكز لعمل صدام حسين .
الإذاعة والتلفزيون .

الكهرباء العامة .

القواعد الجوية .

مطاري صدام الدولي ، والمثنى ، والبصرة .

قيادة القوة الجوية . وقاعدة الرشيد الجوية .

قيادة الدفاع الجوي ، وقواعد الصواريخ المضادة للطائرات .

وسائل الاتصال الهاتفي (البدالات) .

لقد بدأ الهجوم واستمرت الإذاعة العراقية في بثها حتى توقفت تماما بعد ساعة من بدأ الهجوم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الطاقة الكهربائية .

في اليوم الثاني أي 18 كانون الثاني أعلنت القيادة العامة للقوات المسلحة البيان رقم واحد الذي أشار إلى بدأ الهجوم بمقدمة إنشائية طويلة تتوعد بالعاقبة لمن قام به ومن عاون على تنفيذه ، وأعقبته بالبيان رقم اثنين الذي تطرق إلى بعض الأهداف المدنية التي دمرها القصف ، وإلى حصيلة اليوم الأول من خسائر المهاجمين :

إسقاط أربعة عشر طائرة ، لكن التحالف الذي أعلن عن قيام قوته الجوية بحوالي ألف ومائتي طلعة في اليوم الأول للهجوم، لم يعترف بفقدانهم أية طائرة ، إلا أن الأمريكان عادوا في اليوم الذي يلي ليعلنوا عن سقوط طائرة وفقدان الطيار، تبعهم الفرنسيون الذين أشاروا إلى إصابة أربعة طائرات من طائراتهم المهاجمة.

صواريخ سكود في المعركة

بدأت وتائر الحرب تتسع تدريجيا إذ إنه وفي اليوم الثاني أطلق العراق ستة صواريخ سكود⁶³ على إسرائيل تسببت في إثارة صدمة كبيرة للمجتمع الإسرائيلي الذي تعود على حصانة أجوائه طيلة أكثر من أربعين عاما صراع مع العرب ، وتسببت أيضا في إثارة الحيرة عند الرؤساء العرب المتحالفين مع الأمريكان خشية أن تتدخل إسرائيل في الحرب وتخرج مواقفهم أمام شعوبهم على أقل تقدير ، وهذا ما خطط لحدوثه صدام ، وأرادته الحكومة العراقية التي أعلن بيان لها بعد الضربة الصاروخية الثانية يوم 1/19 من أن أربع وستين طائرة إسرائيلية قد طارت من قواعد لها في إسرائيل ، وهبطت في مطارات بالسعودية للمشاركة بالهجوم على العراق ، لكن الإدارة الأمريكية التي تحسبت لكل المتغيرات نجحت من جانبها في طمأنة الإسرائيليين من خلال :

.إرسال بطاريات من صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ .
.الوعد بثمن سخي عند انتهاء الحرب إذا ما حافظوا على البقاء بعيدا عن التدخل حتى نهايتها⁶⁴ ، لأنه تدخل قد يفكك التحالف .

أربعة أيام مضت على بدأ الهجوم عندها أعلن الحلفاء أن قوتهم الجوية سجلت أكثر من سبعة آلاف طلعة فوق العراق ، في الوقت الذي عرض فيه تلفزيون بغداد الذي عاود البث من دائرة تلفزيونية تعليمية لوزارة التربية سبعة طيارين أسرى بينهم فتاة إيطالية ، دون أن يتفهم المعنيين في الحكومة أن مساحة الدمار بدأت تتسع خارج الدائرة العسكرية لتشمل وكما أعلن بيان القيادة العامة بعض معامل الطابوق ، والأسمت ، ومستوصفات صحية ، علما إن ذاك البيان لم يتطرق بطبيعة الحال إلى :
أن المدارس قد تعطلت فيها الدراسة لتفتح مقرات لدوائر عسكرية .
وإن الجوامع قد استغلت مخازن للصواريخ ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الجامعات والكنائس ، والمراكز البحثية .

⁶³. صواريخ روسية الصنع حورت وطوردت من قبل المهندسين العراقيين وأطلق عليها تسميات مختلفة تبعا لمدياتها مثل الحسين والعباس .

⁶⁴. أشارت عديد من المصادر أن الإسرائيليين قد حصلوا من العراق بعد انتهاء الحرب على أكثر من عشرة مليارات دولار في إطار التعويضات التي فرضتها الأمم المتحدة ، وهي حصتها جراء خسائر قصفتها بالصواريخ . كما بدأت بعد انتهائها أي الحرب خطوات السلام مع الجانب الإسرائيلي بقناعة وعلانية أكبر من قبل غالبية العرب .

وهذا المؤشر لتصعيد مستوى التدمير من قبل الحلفاء قابله تصعيد من قبل القيادة العسكرية العراقية إذ :

.أطلقت قوتها الصاروخية في هذا اليوم (الرابع من الهجوم) عشرة صواريخ على الرياض أعلن الحلفاء أن تسعة منها أسقطت بصواريخ باتريوت المضادة للصواريخ ، وإن واحدا فقط وقع في الصحراء ، في حين بث تلفزيون إيران فلما يبين مكان وقوع أحد الصواريخ في داخل الرياض . وزعت عشرين طيارا غربيا أسيرا على منشآت صناعية لإجبار الحلفاء على عدم تدميرها ، رغم أن الحلفاء قد اعترفوا فقط بسقوط عشرة طائرات حتى اليوم الخامس من بدا الهجوم .

مبادرات لوقف الحرب

ما زالت الأحداث ، والتطورات في تسارع إذ وفي اليوم السادس من الهجوم خفت شدة الغارات الجوية على بغداد بشكل ملحوظ بعد أن دمرت غالبية الأهداف المطلوبة ، وعندها أعلنت إيران التي تؤكد عدم انحيازها في الحرب أن لديها مبادرة لوقف القتال ، وكذلك أعلن الرئيس المصري حسني مبارك أنه وجماعة آخريين يسعون للتوصل إلى نهاية سلمية للحرب خاصة بعد أن بدأ الشارع العربي بالتحرك ضد وقائعها ، وترجمت بعض مظاهره على شكل أعمال تخريب لمصالح بريطانية ، وفرنسية في لبنان ، وانفجار في مكان صيانة للجيش الأمريكي في تركيا .

ومع ذلك فقد ضاقت الخيارات أمام القيادة العراقية ، ولم يتبق لها غير ردود الفعل الانفعالية ، وبينها المعاودة لضرب إسرائيل بالصواريخ أملا في الضغط عليها باتجاه جلبها إلى ساحة المعركة وإخراج العرب المساهمين فيها رغم عدم حصول ذلك من قبل ، إذ عاودت في يوم 23 كانون الثاني وحسبما ورد في بيانها المرقم (16) أنها قامت بتوجيه ضربة صاروخية إلى إسرائيل ذكرت مصادر غربية أنها كانت الأكثر تأثيرا من سابقاتها ، إذ قتل فيها ثلاثة فقط ، وجرح أكثر من مائة شخص .

وفي هذا اليوم أيضا بدت تأثيرات القصف الشامل واضحة على المجتمع العراقي إذ أعلنت الحكومة وقف بيع الوقود بأنواعه إلى المواطنين وتقنين توزيعه إلى دوائر الدولة فقط لتضيق معالم حصر ، وضيق أخرى على المواطنين الذين يعانون انقطاع التيار الكهربائي والاتصال الهاتفي ، وتوقف ضخ الماء ، وعودة أهل بغداد إلى ما يقارب الثمانين عاما إلى

الخلف عندما كانوا يستخدمون دجلة بشرائعه المتعددة لغسل الملابس والصحون ، وملئ الماء لأغراض الشرب ، وهم بعد كل هذا التقدم التقني يعيشون الماضي المتخلف رغم إن الحكومة قد منتهم بخيرات الكويت⁶⁵ التي لم يكن أهل العراق بحاجة لها ، ولا في تفكيرهم ميل لاغتصابها من قبل .

كذلك بدأ عرب المغرب العربي ، ومعهم اليمن بالتحرك السياسي صوب وقف الهجوم ، وحاولوا مطالبة مجلس الأمن الانعقاد بغية النظر بأمر الحرب ، لكن محاولتهم أحبطت بتحرك أمريكي بريطاني مضاد ، وعاد الجميع إلى الصمت شبه المطبق مرة أخرى ، ولم تتحرك الحكومة العراقية من جانبها للخروج من أزمة الحرب التي بدت نتائجها واضحة بشكل جلي ، ولم تعط مجالا للآخرين بغية التحرك لصالحه ، وبينهم القادة السوفيت الأصدقاء الأقرب إلى قيادته ، إذ أعلن وزير خارجيتهم وبعد كثير من الاتصالات : (أن لا فائدة من أي اجتماع ، أو تحرك في مجلس الأمن ، لأنهم لم يسمعوا من العراق أية كلمة تنويه عن انسحاب محتمل من الأرض الكويتية) .

ومع كل التطورات ، والمناورات ، والاتصالات على الساحة الدبلوماسية النشطة عاودت الطائرات الحليفة التي بلغ تعداد طلعاتها سبعة عشر ألف طلعة حتى يوم 25 كانون الثاني لقصف بعض الأهداف التي قصفت من قبل في بغداد وخارجها . وأضيفت للقائمة أهداف أخرى لم تكن قد درجت في قوائم القصف الأولى ليعم الدمار كل مرفق مهم على أرض العراق داخل المدن وخارجها .

الطيران فوق مواضع الدفاع

بعد عشرة أيام من القصف الشديد المتواصل ، ولأكثر من عشرين ألف طلعة جوية أعلن الحلفاء أنهم سيخففون من قصفهم الأهداف الاستراتيجية في عمق الأراضي العراقية .

وسيتوجهون بالتركيز على الأهداف العسكرية في جبهة القتال .

⁶⁵ خرج الدكتور سعدون حمادي رئيس الوزراء على شاشة التلفزيون العراقي بعد الغزو مسطرا الفوائد الجمة لضم الكويت إلى العراق إذ وبالإضافة إلى توسيع الإطلالة على الخليج الذي يزيد من قدرة العراق وأهميته فإن عائدات النفط التي ستتضاعف حسب جدول الأرقام التي ذكرها ستحسن وضع المواطن والدولة ، وسيؤمن مستقبل أفضل للعراقيين بزيادة الاحتياطي النفطي وتعدد منافذ التصدير .

إلا إن الواقع ، رغم ذلك التصريح الخاص بالتخفيف عن مراكز المدن العراقية فإن القصف على بغداد ، وغيرها لم يتوقف .
إذ بدأت مرحلة تدمير الجسور بين الرصافة والكرخ .
وبعض المنشآت الصناعية غير المعنية بالنشاط العسكري .
الأمر الذي تسبب في إثارة اللغط في جانب الحلفاء ، وظهور أصوات تؤكد أنهم لم يلتزموا بالأهداف المرسومة للحرب مسبقا بينها وزير الدفاع الفرنسي الذي قدم استقالته احتجاجا على تجاوز الحلفاء على قرارات مجلس الأمن بصدد الحرب مع العراق .
وفي تلك الأيام الحرجة اقتنعت القيادة استحالة الاستفادة من قوتها الجوية ولو للتخفيف من زخم الهجوم الجوي للحلفاء ، فقررت البدء بإرسال طائراتها من جميع الأنواع إلى إيران⁶⁶ .

⁶⁶ قررت القيادة إرسال طائرات القوة الجوية ، وأخرى مدنية إلى إيران كآمانة تجميعها من التدمير بضوء اتفاق قيل أنه قد تم مسبقا مسبق بين عزة الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي ، والرئيس الإيراني أثناء زيارة عزة إلى إيران قبل الحرب بأيام معدودات ، وبعد انتهائها طلبت بغداد إعادتها في حين أصرت إيران على عدها من تعويضات حربها السابقة ، والتي ينبغي على العراق تسديدها لإيران بعد الإشارة الصريحة من الأمم المتحدة باتهامه البادئ بالحرب (ذلك الاتهام الصريح الذي وجه في ملابسات حرب الخليج الثانية كُثمن قدم إلى إيران لضمان حيادها في الحرب ، رغم أنها قد طالبت به لأكثر من عشرة سنوات دون ما جدوى) .

الجهد النفسي قبل المواجهة

هذا وفي الوقت الذي لم تتوقف الأنشطة الدبلوماسية في الدهايز والغرف المغلقة ، ولم يتلأأ النشاط الفاعل للهجوم الجوي على المساحة الكلية للعراق نشط نوع آخر من الفعاليات هي النفسية بين الجانبين ، إذ أعلن الحلفاء في مجالها على سبيل المثال عن احتلالهم جزيرة كويتية في الخليج كانت القوات العراقية تحتلها ، رغم إنها في الواقع من بين الجزر التي لا يشكل الوقوف عليها قيمة عسكرية .

قابلتها الحكومة العراقية بتنفيذ خطة شاملة لتفجير آبار النفط الكويتية ومخزونها الاستراتيجي ، وتسريب ملايين البراميل منه إلى المياه القريبة من الساحل ، معلنة قيام القوات الحليفة بقصف ناقلات نفط عملاقة الأمر الذي تسبب في ذلك التسرب الهائل ، لكن ذلك لم يكن مفيدا للقيادة العراقية التي لم تكن تمتلك هامشا لإدارة الحرب النفسية، ولا وسائل لإيصالها إلى المتلقين ، بعد أن أعطت المبادءة في مجالها أيضا إلى الجانب المقابل الذي وفر الأدلة سريعا عن تعمد الحكومة العراقية التسريب لخلق ظروف تحول دون استخدام تلك السواحل للإنزال البحري من الحلفاء ، وهم يقللون من فاعليتها عسكريا ، وبالمحصلة سيروها وسيلة إثارة أخرى بالضد عندما دفعوا لتحويلها مسألة تلوث بيئية دولية ، وحققوا في ذلك مكسبا كبيرا في أكثر من اتجاه بينها :

. اشغلوا العالم لأكثر من ثلاث أيام ببقعة الزيت التي أخذت تتجه وسط الخليج ، وخلالها أعطوا فسحة للرأي العام العالمي ، والعربي نسيان شدة الدمار والاحتجاج عليه . زيدوا في داخل النفوس نسب البغض ، والعدوان على الحكومة العراقية ، وخلالها خففوا من النقد على مسار القصف ، وسعة الأهداف التي شملت كل أنحاء العراق .

وفي نفس المجال النفسي بدأ العرب الذين أخرجوا بموضوع الصواريخ العراقية ضد إسرائيل إلى التقليل من أهمية ، وفاعلية تأثيرها حيث أشار الرئيس السوري حافظ الأسد التي تشترك دولته بقوات نظامية بحدود لواء مع الحلفاء إلى عدم جدواها من الناحية الاستراتيجية، في الوقت الذي وصفها الرئيس المصري حسني مبارك أنها مجرد لعب أطفال .

لكنها في الواقع ورغم عدم فاعليتها التدميرية بعد أن لجأ المختصون العراقيون إلى التخفيف من حجم الرأس الحربي للصاروخ (المتفجرات) للحصول على المدى

المطلوب ، فإنها ومن ناحية أخرى قد أثرت كثيرا على معنى الأمن الاستراتيجي الإسرائيلي الذي كان يتأسس في بعض جوانبه على مفهوم الحدود الآمنة بعد أن جعل أي الصاروخ كل الأرض داخل حدود إسرائيل هدفاً ممكناً ، وإن ابتعدت عن حدود دولة عربية أخرى تناصبها العدا .

وهذا بحد ذاته أسهم بشكل مباشر في :

إعادة كثير من الحسابات في أسس نظرية الحرب والحدود الآمنة .

توفير نقاط مهمة للداعين إلى السلام يمكن أن يستندوا عليها في مناقشة الانسحابات الإسرائيلية المطلوبة من بعض الأراضي العربية المحتلة كضمن معقول للسلام .

معركة لرفع المعنويات

بينما كانت حمى التصريحات والاحتجاجات مستعرة أعلن الاتحاد السوفيتي من جانبه أنه على أعتاب اتخاذ قرارات مهمة بصدد مجريات الحرب . وقبل أن يفصح عن طبيعتها سدت عليه الحكومة العراقية كل منفذ محتمل بإعلانها يوم 30 كانون الثاني أن قوات من الفرقة الخامسة يقودها اللواء الركن ياسين المعيني اجتازت الحدود باتجاه مدينة الخفجي السعودية وقامت باحتلالها :

خطوة لتحرير قبر الرسول (ص) وبداية تحرير كامل الأراضي السعودية من الأجنبي . وقبل أن يستفسر الحلفاء عن طبيعة القرارات السوفيتية دعموا قوات سعودية وقطرية بقوات أمريكية قامت بالهجوم المقابل في اليوم الثاني من احتلال الخفجي وأزاحت القوات الموجودة فيها إلى خارجها لمسافة تزيد عن الستة كيلومترات حاولت فيها الفرقة الخامسة إعداد مواضع للدفاع على عجل لكنها لم تصمد وانسحبت في اليوم الثالث مع الإشارة إلى عموم العملية في البيان الذي أصدرته القيادة العامة للقوات المسلحة : أنها كانت مجرد غارة حققت فيها القيادة أهدافها الميدانية ، دون التطرق إلى التحرير المزمع لقبر الرسول (ص) والأرض السعودية التي حاولت ترسيخها في عقول المتلقين العرب ، والمسلمين لكسب مشاعرهم قبل ثلاثة أيام فقط . وذكرت بقصد التخفيف من وطأ الخسارة التي تكبدتها من العملية أن قواتها قد أسرت العشرات من جنود الحلفاء⁶⁷.

⁶⁷. تبين من تبادل الأسرى بعد وقف إطلاق النار مباشرة أن القوة التي قامت بالهجوم على منطقة الخفجي أسرت عجلة أمريكية فيها سائق ومجندة ظلوا الطريق الصحراوي في منطقة القتال.

فكانت هذه المعركة التي أرادت القيادة العراقية عاملاً لتخفيف الضغط النفسي ، ورفع المعنويات قبل الهجوم البري أصبحت نتائجها سبباً لتدمير ما تبقى من المعنويات .

الإعلام الغربي في المعركة

لم يكن القليل من الإعلام الغربي ، أو ذلك الطيف غير المتجانس مع الإعلام الأمريكي المسيطر منعزلاً عن سير المعركة وهياً نفسه أن يكون قريباً من أحداثها جهد الإمكان ، وأخذت بعض أشكال تغطيته لوقائع التجاوز فيها تأخذ مساحات معقولة عند المتلقين الغرب الذي أحتج عديد منهم ضد القصف الحاصل لبعض الأحياء السكنية ، والمدارس ، والجسور ودور العبادة التي تجري بشكل مستمر سواء عن طريق الخطأ ، أو لمعالجة بعض الأهداف مثل المقرات العسكرية ، والصواريخ بعيدة المدى التي نشرت في تلك الأماكن وبين الأحياء السكنية بشكل مقصود ، وكانت التغطية الأكثر وسعاً من قبلهم حتى اليوم الخامس من شباط هي :

التدمير الكامل لجسر الناصرية ومقتل حوالي 200 شخص بعضهم غرقاً عندما كانوا يهيمون بعبوره .

استخدام أسلحة ذات تدمير فاعل إلى ساحة الحرب الاستراتيجية (السوقية) والعملياتية مثل الطائرة القاصفة B52 التي أعلن عن اشتراكها بنفس الوقت الذي أعلن عن سقوط إحداها في المحيط الهندي لخلل فني كما أفادت القوة الجوية الأمريكية ، وبسبب إصابتها بالمقاومات الأرضية كما نوه الجانب العراقي ، وكذلك البارجة ميزوري التي شرعت بقصفها المواقع العراقية من على سواحل الخليج بقنابلها التي تزن الواحدة منها أكثر من الطن ، وبمدافعها العملاقة عيار (402) التي تصل مدياتها في الظروف القياسية إلى أربعين كيلومتراً .

لكن الإعلام كأحد أدوات الحرب النفسية التي يمتلك زمامها الحلفاء لم يتركوا فيه المجال كافياً لقليل من المحاولات التي سعى إليها الإعلام المحايد في الغرب بقصد التأثير الفاعل في الرأي العام الغربي بشكل عام ، والأمريكي على وجه الخصوص لضمان ضغط يكفي لوقف الحرب .

وفي أثنائها بادر الطرف الأقوى " الإعلام الأمريكي " خلال تلك التطورات بالإشارة إلى أن العراق قد يقوم باستعمال الأسلحة الكيماوية بقصد حرف الانتباه إلى موضوع يهم

المتلقي الغربي بمستويات تفوق كثيرا مسألة قصف جسر يموت عليه المئات في ضربة واحدة⁶⁸.

ومع هذا التحوير والتحريف والنشاط الإعلامي المكثف كانت الأعمال على جبهة القتال تسير بشكل جيد بالنسبة للحلفاء الذين حققوا بقصفهم الجوي ، والصاروخي : تدمير شبه كامل للأهداف الاستراتيجية والعسكرية في العمق العراقي . الانتقال بعد يوم 5 شباط إلى التركيز على المقدرات العسكرية في جبهة القتال ، وعلى طرق التنقل والإمداد ، وخطوط الاتصالات ، الأمر الذي زاد من عدد الخسائر بين العسكريين ، والعجلات التي بدت مشاهد احتراقها ، وكذلك تناثر جثث القتلى على الطرق وحافاتها مسألة تتكرر تفوق قابلية الجهد الطبي للإخلاء ، وفي هذه الأثناء التي تقربت فيها هالة الدمار إلى مواضع القتال الدفاعية شعر العسكر العراقي أنهم محصورين : بين الحلفاء وكثافة نارهم التي لا تقاوم . وبين قيادتهم وأوامرها بالقتال ، وعدم الانسحاب من الكويت تحت أي ظروف من الظروف .

وشعورهم بالحصر هذا زاد من نسب الكآبة وهبوط المعنويات ، والعجز عن القيام بأي فعل ، ومواضعهم تتعرض للقصف الشديد بآلاف الأطنان من القنابل مختلفة العيار . في اليوم الثامن من شباط أعلن الحلفاء ببيانهم المرقم 22 أن الطلعات الجوية على العراق بلغت أربع وخمسون ألف طلعة ألقى فيها على العراق ستون ألف طن من القنابل، وبإعلانهم هذا وفاعلية تأثير القصف ، وشموليته انتقلت مشاعر الحصر والإحساس بالعزلة من العسكر في الحافات الأمامية لجبهة القتال إلى المدنيين العراقيين في المدن ، والقرى، والقصبات خاصة الذين يعيشون في الجنوب العراقي بعد أن قطعت غالبية الطرق المؤدية للتواصل بين مدنها الرئيسية مثل البصرة ، والعمارة ، وتحول المارة الذين بدأت أعدادهم تتناقص إلى الطرق الجانبية في الهور ، والصحراء المحفوفة بالمخاطر .

⁶⁸. يبدو أن الإعلام الأمريكي قد استند في تسرياته عن الأسلحة الكيماوية على حقائق حصل عليها من القادة العسكريين مباشرة ، أو عن طريق الجهات المعنية بالحرب النفسية في جانب الحلفاء ، إذ أن أمرا قد صدر بالفعل لتحميل خمسة عشر طائرة نوع سيخوي بقنابل كيماوية ، وضعت في مخابئ لها في قاعدة البكر الجوية ، ووضع طيارها على أهبة الاستعداد بعدها بأيام وبالتحديد يوم 1/16 جاء الأمر بتفريغ الحمولة. وهذا ما أكدته حسين كامل بعد هروبه إلى الأردن .

مذبحة العامرية

إن الانتقال بالقصف إلى الجبهة لم ينس الحلفاء ضرورات التحليق فوق المدن العراقية ، وكذلك إعادة قصف بعض الأهداف المدمرة ، أو التي تظهر في الساحة حديثا بين الحين والآخر ، وكأنهم يريدون من عودتهم إبقاء القلق ، والتوتر ، والخوف انفعالات شبه مستمرة في العقل العراقي لإرهاقه تماما واستنزاف كل طاقته ، زاد الأمر سوءا قيام طائرات الحلفاء في 13 شباط بقصف ملجأ العامرية⁶⁹، ومقتل حوالي ألف شخص (حسب المصادر الحكومية) غالبيتهم من المدنيين كانوا ينامون في طوابقه المتعددة تلك الليلة المشؤومة .

كانت عملية قصف هذا الملجأ من أكثر وقائع الحرب إثارة لمشاعر الأسى، وقبل أن يتوقف العالم من الحديث عنها قصفت الطائرات البريطانية سوقا في قضاء الفلوجة غرب بغداد قالت الحكومة أن الخسائر جرائه بلغت المئات دون أن يعرف أحد من العراقيين وغيرهم تلك الدوافع الحقيقية للقيام بهذا العمل والغضب ما زال على أشده جراء حادث العامرية ، رغم أن هذا العمل قد يكون بقصد تحويل الشحن الانفعالي للرأي العام العالمي من موضوع ملجأ العامرية إلى موضوع آخر اقل تأثيرا ، وفيه المناورة لإعطاء الأسباب أكثر سهولة .

وقد يكون نتيجة خطأ في حسابات الحلفاء .

أو بسبب رصدتهم هدفا عسكريا كان موجودا في المنطقة ، أو يتحرك في محيطها .

⁶⁹ أقامت الدولة إبان فترة الحرب مع إيران ملاجئ بالضد من الضربة النووية وزعتها على بعض الأحياء السكنية في مدينة بغداد وبينها حي العامرية الذي سمي الملجئ بذات الاسم، كان موجودا في الملجأ عديد من المدنيين ، ادعى الحلفاء أنهم قصفوا الملجأ لأنه كان مستخدما كمقر قيادة عسكرية ، وهذا ادعاء عززه سكنة حي العامرية القريبون من موقعه عندما تناقلوا في أحاديثهم الخاصة حقيقة استخدام أحد طوابق الملجأ لأغراض المخابرات ، وكذلك لمبيت بعض كبار القادة العسكريين ، والمدنيين من أعضاء القيادة القطرية للحزب الحاكم. وهذا رأي قريب من الصحة لأن استخدام الملاجئ للإيواء لم يكن ميسورا لأي مدني عراقي ، وإنما وزعت موافقات خاصة على شكل كارتات لبعض العوائل ، والأشخاص المعروفين بانتمائهم للحزب وولائهم للحكومة بغية استخدام بعض طوابقها، والطوابق الأخرى بقيت مستغلة من قبل الحكومة ، وأجهزتها الأمنية ، والإدارية ، والعسكرية المهمة . ورغم ذلك فإن أحدا من بين الضحايا لم يكن من بين قيادي الصف الأول في الحكومة والحزب والقوات المسلحة.

كل تلك الاحتمالات واردة وقابلة للتصديق في غياب المعلومات إبان تلك المرحلة الصعبة من الحرب الدائرة بين حكومة العراق والعالم .

تحديد وقت الهجوم البري

كان العمل العسكري، والاستحضارات التي تجري على الجبهة منتصف شباط تؤشر جميعها قرب الشروع بالهجوم البري الذي أرادت الحكومة العراقية جر الحلفاء إلى الشروع به قبل هذا التاريخ بفترة تقترب مع بدء الهجوم الجوي يوم كانت الإمكانيات العسكرية، والمعنوية في جانبها ميسورة بدرجة مقبولة تعينها على الصمود لفترة تعتقدها أطول في ظروف قتال غير متكافئة بعد قصف مستمر لفترة من الزمن زادت عن الشهر. لكن الحلفاء الذي مسكوا زمام المبادرة كأحد أهم مبادئ الحرب، قد حددوا بداية الهجوم برا بضوء عدة اعتبارات بينها:

. العامل المعنوي الذي يتطلب الهجوم بأقل الخسائر إيصال مستوياته في الجانب العراقي إلى أقل ما يمكن، وهذا ما بدأ يحصل بالفعل مع ديمومة القصف واستمراره، إذ أشرت القياسات التقليدية للمعنويات:

هبوطا سريعا في مستوياتها بين العسكريين العراقيين .
تناقصا ملحوظا لطاقتهم النفسية والعضوية بعد أن قل التموين، وشحت المياه، ونضب خزين الغذاء المدفون في حفر بين رمال الصحراء.

. عامل الطقس حيث الحاجة إلى ملائمة للتحرك الفاعل على ساحة المعركة .
. عامل الخسارة لأكبر عدد ممكن من الأسلحة العراقية في المواضع الدفاعية بينها الدروع، والمدفعية لتقليل فاعليتها على المقاومة، ومن ثم تقليل خسائر المهاجم جهد الإمكان. . العامل النفسي الخاص بالقيادة حيث التهيئة اللازمة لأعضائها قبول شروط وقف الحرب لاحقا بضوء قياسها للخسائر، والتهديد المباشر لمستقبلها السياسي.

. استعراض فاعلية سلاح الطيران، والصواريخ الموجهة عن بعد في التدخل لحسم المعركة في أي مكان من العالم، وتهيئة الفرص المناسبة للقوات البرية على حسم الموقف العام على الأرض بأقل الخسائر.

لقد حان وقت الهجوم البري ومؤشراته على جبهة القتال :
. التركيز المكثف للقصف الجوي على مواضع الجنود والمقرات العسكرية لمستوى الوحدات، والوحدات الفرعية .

. الشروع بفتح الثغرات في حقول الألغام أمام المواضع الدفاعية العراقية باستخدام قنابل حرارية لأول مرة في تاريخ الحروب الحديثة .

لقد أعلنت القوات الجوية الحليفة سيطرتها التامة على الأجواء العراقية ، حتى أنها لم تشهد نشاطا قتالي للطيران العراقي بعد تلك المحاولات التي جرت في الأيام الأولى للحرب ، والتي تكبدت فيها القوة الجوية العراقية خسائر اضطرتها إلى عدم الخوض في هكذا معارك تغطيتها من جانب الحلفاء الأقمار الصناعية.

وسائل الاتصال والسيطرة المتطورة .

بينما لا يمتلك فيها الطيار العراقي غير الاعتماد على :

شجاعته الفائقة .

مهارته الفنية الجيدة .

قدراته الخاصة للرصد ، والمتابعة التي أكتسبها من ثماني سنوات حرب مع إيران ، بعد أن توقفت الرادارات عن العمل ، وكذلك وسائل الاتصال.

تنامي الشعور بالخسارة لقد شعرت القيادة العراقية بهول الخسارة ، خاصة وإن القيادة العامة للقوات المسلحة التي فتحت لها مقرا متقدما في أحد الدور السكنية في البصرة كانت تستلم من المركز النفسي المتقدم تقارير يومية تؤكد غالبيتها :

ارتفاع نسب الخسائر بالأرواح ، والمعدات بشكل كبير .

الهبوط التصاعدي للمعنويات ، والتدني المتواتر لدافعية للقتال .

ازدياد نسب الغياب ، والهروب بين منتسبي القطعات الأمامية بينهم ضباط برتب صغيرة (غالبيتهم من الممنوحين رتب ومن الاحتياط والمجندين) .

فقدان السيطرة ، والضبط لعدد من الوحدات نتيجة القصف المستمر على مقراتها ومواضعها الأمامية .

الشروع بعملية تسرب من المواضع الأمامية إلى الخلف غير مسبوقه كثافتها بالنسبة للعسكر العراقي المعروف بشجاعة مقاتليه .

إنها تقارير كانت القيادة العامة في الأيام الأخيرة للهجوم الجوي مضطرة إلى إيصال غالبيتها إلى القائد العام (صدام حسين) تفاديا لتحمل مسؤولية النكبة التي باتت معالمها واضحة للجميع، وكان يطلع عليها بمضض دفعه إلى إعلان موافقته على التعامل مع قرار مجلس الأمن (660) الخاص بالانسحاب من الكويت بأسلوب يوحى بأن نواياه كانت

لكسب الوقت ، وشق الصف المتحالف أكثر منه موافقة جادة للتخلص من مأزق الكارثة ، لأنه أعلن الموافقة على التعامل وليس الموافقة التامة على القرار . وهذا ما دفع الأمريكيان ، والبريطانيين ، والفرنسيين إلى أن يردون بمجرد إطلاعهم على صيغة الموافقة أنها لا تعدو مناورة عراقية .

لكن الروس استدعوا طارق عزيز نائب رئيس الوزراء على عجل لمناقشته حول أسلوب تنفيذ القرار عليها تقنع الحلفاء لوقف إطلاق النار .

أما الشارع العراقي فقد تنفس الصعداء ، وخرج من حصره إلى أعلى السطوح ليعلن عن فرحته الغامرة بطريقة إطلاق النار في الهواء من الأسلحة الخفيفة التي لا يخلوا بيت في العراق من قطعة واحدة منها أو أكثر .

لكن الوقائع على الجبهة لا تشير إلى نوايا لوقف إطلاق النار من قبل الحلفاء ، أو تغير في خططهم ، ولم تكن تؤشر نوايا تراجع للقيادة العراقية والانسحاب من الكويت ، فالعد التنازلي للهجوم البري تزداد مؤشرات العسكرية :

إذ أن هناك مناوشات بالمدفعية بدأت بين الجانبين .

بدأ الحلفاء تنفيذ خطط الاستطلاع بالقوة ، وعمليات جس النبض على الحدود الفاصلة بين وحداتهم التي أخذت وضع الهجوم ، وبين الوحدات العراقية التي تعاني أعلى درجات الإرهاق .

استحضارات ملموسة للهجوم لم يثنهم القيام بها ذهاب طارق عزيز وعودته مستعجلا للعراق ، ومحاولات الروس بتقديم مشروع يرضي الطرفين عله يوفر لهم فرصة تعيد لهم هيبته ومكانتهم دولة عظمى ، دون أن يدركوا أن مستقبل دولتهم أحد العملاقين كانت من بين الأهداف غير المعلنة لهذه الحرب حيث تناثرت بشكل غير معهود بعد انتهاء الحرب بقليل .

لقد نصح الروس القيادة العراقية من خلال طارق عزيز بالموافقة على الانسحاب الفوري وغير المشروط ، لكن صدام الذي لم يتعود قبول الخسارة بالطريقة التي فرضها الحلفاء بات يفتش عن صيغة تشعره بعدم الخسارة ، أو كما تسمى أحيانا بالمحافظة على ماء الوجه الذي لم يقبل الحلفاء منحه ولو بالقدر القليل ، لأن سيناريو الحرب يتطلب دفعه نفسيا لتنفيذ خطواتها إلى النهاية دون التوقف منتصف الطريق .

وبذا لم يمثل إلى تلك النصيحة التي فسرهما مسا بكرامته قائدا للأمة .

أو لاعتقاده أن بعض أوراق المناورة ما زالت في يده .

قرار الانسحاب غير الكامل

على وفق تلك التطورات وتنامي الشعور بالخسارة واحتمالات التهديد المباشر لوضعه الخاص ألقى خطابا يوم 21 شباط من مخبأ له غير معروف أعلن موافقته على الانسحاب من الكويت على أن تقابل كل خطوة انسحاب عراقية بخطوة من جانب الحلفاء . وعاد طارق عزيز بنفس هذا اليوم إلى موسكو ليسلمهم الموافقة ، أو بالأحرى المشروع العراقي ، وفي طريقه إليها :

سمع رفض الإسرائيليين الذين يريدون المضي بالحرب حتى التدمير الكامل للقوات والبنى التحتية العراقية .

وعلم برفض البريطانيين .

أما الأمريكان فقد تصرفوا بهدوء ليهيئوا أجواء أكثر مناسبة لخطوتهم القادمة في الحرب أي الهجوم البري ودخول الأراضي العراقية ، وعلى وفق تصورهم هذا لم يرفضوا المشروع بأكمله ، وإنما اعترضوا على بعض فقراته ، وأعطوا لأنفسهم فترة مناسبة لاتخاذ إجراءات محددة .

أما العراقيون المدنيون فكانوا يتجمعون في البيوت حول أجهزة الراديو ، وكذلك كان العسكريون في مواضعهم يتابعون نتائج المشروع وكلهم أمل أن ينصفهم العالم بحل الأزمة ، دون أن يلتفتوا لحلول حكومتهم ، ومشاريعها التي يؤسوا من إمكانية إنصافها لمعاناتهم ، لأنهم الأعرف بنواياها البعيدة والقريبة على حد سواء ، وكانت كل دقيقة في تجمعهم بانتظار خبر من إذاعة مونتكارلو ، وصوت أمريكا ، والإذاعة البريطانية التي تعودوا سماعها تمر وكأنها سنين وقعها ثقيل على حالهم المتعبة .

وفي المساء وهم كعادتهم يحللون ، ويتأملون خيم عليهم الاكتئاب وفقدان الأمل من شدة التناقضات في الحال الدولية ، وغموض الموقف الأمريكي الذي لا يفسر إلا في إطار الرفض المبطن ، والسعي الجاد للاستمرار بالحرب إلى النهاية .

مشروع الفرصة الأخيرة

كان توقع العراقيين وقلقهم في محله إذ وفي اليوم الثاني عاد الأمريكيان إلى نفس نواياهم للتعامل مع صدام (الإثارة والتحدي) وبمستوى من الوضوح ، والعلن أكثر من بداية الأزمة بعد أن ملكهم أي صدام بسلوكه الخطأ كل الأوراق على أرض الجبهة ، وفي العمق العراقي ، وعلى المستوى العالمي .

إذ ظهر الرئيس الأمريكي جورج بوش بالساعة 2030 يوم 22 شباط ليعلن رده على المشروع الروسي والعراقي وذلك بدعوة العراق إلى : الانسحاب الفوري من الكويت دون شروط . الالتزام بكل قرارات الأمم المتحدة .

التقيد بموعد محدد للتنفيذ لا يتعدى الساعة الخامسة من مساء اليوم الذي يلي . وبعد أن أنهى الرئيس إنذاره للعراق خرج الناطق الرسمي للبيت الأبيض مارتن فولتر وولتر بالساعة 2045 أمام الصحفيين المتجمهرين ليعلن تفاصيل المشروع ، أو الإنذار الأمريكي لحل الأزمة بشكل لا يحتمل اللبس :

. القرار على البدء بالانسحاب خلال يوم حتى الساعة 2000 يوم 23 شباط الجاري . أن ينتهي الانسحاب من مدينة الكويت خلال 48 ساعة ، ومن باقي المناطق ، والأراضي الكويتية خلال أسبوع .

تعود القطعات العراقية إلى مواقعها في 1 آب 1990 . رفع حقول الألغام ، أو تأشيرها .

إطلاق سراح أسرى الحرب ، والمحتجزين المدنيين .

إنه مشروع تناقلته كل وسائل الإعلام بعده مشروع الفرصة الأخيرة ، وفقراته المعلنة من الناحية المنطقية معقولة قدمها الطرف الذي كسب الجولة حتى وقت صدورها إلى الطرف الذي خسرها من أول ساعات بدئها .

لكن المشكلة في التعامل ليست طبيعة المشروع ، وإنما الطريقة التي يصاغ بها المشروع ليصل إلى صدام حسين ، وماهية فهم صدام حسين لمعطيات ذلك المشروع ، ونتأجه المباشرة ، وغير المباشرة على وضعه الشخصي دون الشعب العراقي .

لذا فإن الأمريكيان الذين كانوا ينوون دفع الحرب إلى النهاية قدموا المشروع بخاتمة قوامها إعطاء مهلة إلى العراق للإجابة خلال 24 ساعة فسرّها صدام تحدّ آخر لشخصه قائد حرب بالضد من ثلاث ، وثلاثين دولة بينها ثلاث عظمى .

لكن صدام الذي تحجج بعدم كفاية الوقت لانسحاب قواته ، وطلب ضمانات لعدم تدخل قوات الحلفاء بالانسحاب ومهاجمة العراق ، لم يكن راضيا بصيغة التهديد التي تضمنها أسلوب عرض المشروع ، وعدم رضاه هذا دفع روسيا أن تطرح هي مشروع من جانبها قريب من المشروع الأمريكي ، وبلغة أخف يمكن أن يقبلها صدام من حلفائه الروس ، وبنفس وقت تقديم مشروعها نصحت العراق أن يوافق فورا على المشروع الأمريكي ، وكأنها تحكم على مشروعها مسبقا بعدم موافقة الحلفاء .

عندها سكت الأمريكيان بانتظار المهلة المحددة التي أعطوها إلى العراق كما كان سكوتهم خلال الإنذار الذي أعطي إليه قبل شن الهجوم الجوي .

انتهى يوم المهلة ، وبانتهائه شن الحلفاء الحرب ، ونواياها بطبيعة الحال الحصول على الحجة المنطقية أمام شعبها والعالم من أن العراق أعطي فرصة لتجنب الدمار لكنه لم يستثمرها ، خاصة وإن وزير خارجيتها قد سلم طارق عزيز في آخر اجتماع بينهما قبل الشروع بالهجوم الجوي بحوالي أسبوع قائمة بالأهداف المنوي تدميرها ، وذكره على هامش الاجتماع في حالة عدم إذعان العراق للإنذار والانسحاب قبل يوم 15 كانون الثاني سيعيده الدمار إلى القرون الوسطى رسالة تهديد لم يستطع طارق عزيز الذي امتنع عن استلام الملف أن يدرك أبعادها ، ولم يحاول صدام التوقف عندها ، وبدلا عنه أسس قناعاته على الأرقام ، والحسابات الشخصية ، وعلى الدفع غير المباشر للمتزلفين ، وطالبي المكرمات بتقارير صاغها بعضهم بطريقة وقائع وتصورات وقدرات للاستمرار بالقتال يريدونها هو ويرغبها حجج مع الذات والآخرين لخوض الحرب قائدا عظيما لأمة العرب.

وتلك كانت فرصة للمناورة على نوايا الأمريكيان وأسلوبهم في الإثارة ، والتحدي ، لكنه لم يتقرب إليها ، ولم يناقش الربح ، والخسارة للعراق ، ولم يقبل بنصفها ، بل واتجه إلى الأمام معلنا عن السير في الطريق المجهول حتى نهاية المطاف .

عندها تقابلت الإرادتان الأمريكية ، والعراقية الحكومية سير في ذات الطريق حتى النهاية .

وعندها أصدر أوامره إلى القوات العراقية في المنطقة أن تفجر آبار النفط الكويتية لأسباب قال عنها عسكرية تتعلق بإضافة عوامل لصالح الدفاع من خلال إيجاد حازنار ودخان في مواجهة الهاجمين ، معتقدا أن الحرب كما كانت هي في الحرب العالمية الأولى والثانية، ليضيف إلى جملة وقائع الحرب ، والاحتلال إضافة جديدة ملؤها التجاوز والخطأ .

أما الآخرون فقد فسروها من زاوية أخرى تنبع من روح الانتقام من الكويت ، وحكومتها ، وشعبها بعض أدلتهم تلك الأوامر التي أشار إليه اللواء الركن كامل ساجت قائد قوات الخليج⁷⁰ أنه قد استلمها من القائد العام بتدمير الجسور ، ونسف برج الاتصالات في مدينة الكويت ، وتفجير الأرصفة البحرية ، ومحطة تكرير المياه ، وأهداف أخرى استراتيجية داخل المدينة بالإضافة إلى آبار النفط التي لغمت بوقت سابق ، لكن البعض من تلك الأوامر لم تنفذ بسبب قلة المتفجرات ، وضيق الوقت كما حصل مع برج الاتصالات الذي سلم على سبيل المثال .

⁷⁰ الفريق الركن كامل ساجت أحيل بعد الحرب إلى مستشار في الرئاسة ، ومن ثم عين محافظا في ميسان ، وأعدم من قبل قصي صدام حسين في مكتبه لأسباب مجهولة تهم أمن الحكومة ، والعائلة على الأغلب .

ساعات الانتظار الأخيرة

بإصدار القائد العام لتلك الأوامر ، وتنفيذ بعضها خاصة في مجال النفط قطع كل خيوط الأمل من تفادي مزيدا من الدمار لعموم العراق وأهله ، وكذلك للجار الشقيق .

أما الجانب الآخر الذي سيطر على الموقف قد هيئ المسرح السياسي ، والنفسي ، والعسكري بشكل جيد ودفع إلى توفير فرصة لسيناريو هجوم بري يقبله الرأي العام الأمريكي ، ولا يرفضه الآخرين يشبه ذلك الذي حصل قبل بدء الهجوم الجوي :

إذ أطل الرئيس الأمريكي على الملأ بعد الساعة 2000 يوم 23 شباط ليعلن اسفه عن عدم انصياع العراق إلى الإنذار الأمريكي خطوة كانت الأخيرة قبل التوجه صوب مدينة الكويت ، وكذلك الحدود العراقية ، وعرض مسرحي مهد أبطاله من كلا الطرفين إلى إخراجهم عملا متقنا إلى العالم بصيغة هجوم كاسح لتحرير أرض الكويت ، لن يتم إلا بالدخول إلى أرض العراق بقوات برية من دول التحالف ، وبقيادة أمريكية .

لقد انتهت صفحة الهجوم الجوي ، وكانت نتيجتها إنجاز أكثر من المتوقع لكل الأهداف المنيوي تحقيقها ومنها على سبيل المثال :

- . خلخلة الدفاعات العراقية عسكريا من خلال تكبيها خسائر كبيرة بالأرواح والمعدات ، وكذلك في الخزين السوقي ، والعملياتي للعتاد والأرزاق .
- . خسائر فادحة في المعنويات التي هبطت إلى أدنى مستوياتها .
- . التجريد الكامل للطرق ، والمسالك المخصصة للدعم ، والإسناد الإداري ، والعملياتي ، الأمر الذي أشعر القطعات المدافعة بالعزلة شبه التامة عن القوات المخصصة للاحتياط ، والهجوم المقابل .
- . التقليل من قدرة وكفاءة سلاح الدروع ، والمدفعية العراقية بتكبيدها خسائر كبيرة قبل الشروع بالمعركة .
- . قطع غالبية الاتصالات السلوكية واللاسلكية بين الوحدات والتشكيلات ومقرات الفرق والفيالق ، وكذلك مع القيادة العامة بشكل يربك القيادة والسيطرة اللازمة لإدارة المعركة البرية .

. إثارة التوتر ، والاضطراب بين القادة الميدانيين الذين يتوجسون دائما من تفسير إجراءاتهم التي باتوا يتخذون بعضها بسبب عدم وجود الاتصال مع الأعلى كونها خطأ متعمد يدفعون حياتهم ثمنا له في ظروف قاسية .

. قلق الضباط بشكل خاص والمراتب بالدرجة الثانية على الأهل في العمق خارج الجبهة بعد توقف الاتصال ، والاعتماد على المعلومات التي ينشرها الإعلام بشكل مبالغ فيه أحيانا لتأمين غاية الإثارة .

لقد تأمن كل شيء أمام المهاجم لأن يقوم بهجومه البري المرتقب .

وسدت جميع المنافذ أمام المدافع في أن يدير معركته الدفاعية بقدر مقبول وفي أقل القياسات العسكرية ، والنفسية المعروفة تطبيقا.

وتهيئ الجنود في الجانب الحليف إلى القفز على المواضع العراقية بعد بقائهم في الصحراء عدة أشهر ملوا حالة الانتظار وهم في أعلى درجات الاستعداد . وترقب الجنود العراقيون قبول النتيجة خسارة أدركوا طبيعتها قبل حدوثها . وتهيئ كثير منهم للقتال درءا لخطر السلطة .

أو دفاعا عن صفة العسكرية العراقية وهم أبعد ما يكون عن الاستعداد ، وأدواتهم في القتال غير مناسبة تماما لمعدات وأدوات الخصم في الميدان .

لقد عاش الطرفان بعد إعلان بوش وأسفه حالة انفعال شديدة ، كانت الأكثر تأثيرا على العراقيين ، وهم بانتظار الكارثة العسكرية التي تحققت بوادرها مع ساعات الهجوم البري . فكانت أقسى ساعات الانتظار .

الفصل الحادي عشر حرب الخليج الثانية القتال بعيدا عن أهداف الحرب المعلنة

حرب الخليج الثانية فعل تضافرت عوامل دولية ، وإقليمية ، ومحلية
في حدوثه كان العراق بضوء تركيبة حكومته الفردية الأداة المنفذة .

حالة الترقب

كان يوم 23 شباط ثقيلًا قاسيًا بالنسبة للعراقيين الذين تلمسوا كل لحظة مرت في ساعاته سنوات تحت ضغط الانتظار لمهلة أمريكية أعطيت لحكومتهم بغية الانسحاب من الكويت لا تتجاوز الأربع وعشرين ساعة . ولرد صدام حسين الذي تعودوه انفعالياً ، سريعاً ، يبتعد في كثير من الأحيان عن المنطق .

يتبادلون الحديث تارة ، ويصمتون مع كل نشرة أخبار ، أو توقف للبث الإذاعي لإعلان خبر جديد تارة أخرى .

يتقربون الفرج بطريقة الاستجداء في داخلهم المتعب ، دون التوقف عن الدعاء لأن يجنبهم الله الخسائر التي لم يعد الجسم العراقي يتحملها بعد أن أثخنت جراحه في العشر سنوات الماضية .

تمر الساعات ببطء، ولا أحد من العراقيين يدري ماذا يجري بضمنهم كبار القوم ، ومسؤولي الدولة ، والحزب الحاكم⁷¹ ، لكن الملاحظ أن جميعهم في ذلك اليوم كانوا بأعلى درجات التوتر واليأس ، الذي نتج عن :

قناعات ترسخت لديهم من أن الأمريكان يسيرون وفقاً لأهداف محددة يسعون إلى تحقيقها بمعزل عن ردود الفعل العراقية وحال العراقيين ، وكل ما يطرحونه أي الأمريكان من مشاريع ، أو مبادرات تصب نتائجها في صالح الهدف البعيد ، وفي مجالها أصبح واضحاً أنهم وإن طرحوا مشروعا بنقاط واضحة ، وتأخر العراق بالرد عليه يوماً واحداً ، يعاودون طرح أمور مضافة في اليوم الثاني ، أو يعلنون أن ما طرحوه قبل يومين يصبح غير ملائم لهذا اليوم ، وغير جدير الأخذ به ، وهذه وإن كانت تمثل سياسة عامة للطرف

⁷¹ . سأل الفريق الركن حسين رشيد رئيس أركان الجيش ضابطاً يزور مقر القيادة العامة في البصرة ، قبل أسبوع من الهجوم البري لأمر يتعلق بتقارير الحالة المعنوية من باب التحليل وتوقع الخطوات القادمة للجانب الأمريكي ، لكنه لم يستطع أن يخفي رغبته بالتعرف ، ومن باب التحليل أيضاً عن ردود فعل القائد العام ، رغم أن التحليل التي تأتي من أصحاب المشكلة الذين يعيشون ضغوطها لن تكون دقيقة، أو قريبة من الواقع ، لأن العواطف ، والانفعالات ، والإسقاطات تلعب دوراً في ذلك ، وكذلك الحال بالنسبة لما يورده الإعلام ووسائل الحرب النفسية التي لم تهدأ أبداً في التلاعب بالألفاظ بغية التأثير على المشاعر ، والاتجاهات في وقت بات العراقيون بأسرهم منشدين إلى أجهزتها يسمعون تطورات الموقف ساعة بساعة رغم انزعاجهم منها وكأنهم أصبحوا في عداد المدمنين .

الرابح في الحرب ، لكنها لا تلائم التعامل سليم النية مع صدام حسين في هذا الوقت ، وقد تثيره بالضد نفسيا .
وعن قناعات تكونت أن صدام يعمل لوحده بعيدا عن المستشارين ، والأخصائيين وهو في تصرفه هذا :
يحسب الأمور من جوانبه الشخصية فقط .
ولا وجود لمصلحة الشعب العراقي في قراراته .
لا يدرك نتائج الحرب وطبيعة خسائرها ، لأن الخسارة من وجهة نظرة تلك التي تكون قريبة من مركزه .
لا يعي فروض الحرب ، واستحقاقات الرابحين فيها على الخاسرين إبان كل حروب الكون عبر التاريخ .
هكذا كان الحال توتر ، واضطراب ويأس مطبق حتى الساعة 2000 يوم 23 شباط حيث قطعت إذاعة مونتكارلو بثها لتعلن خبرا عاجلا على ذمة وكالة الأنباء الفرنسية مفاده
أن العراق وافق على شروط أمريكا لوقف إطلاق النار .
لكن الرئيس الأمريكي بوش لم يعط الفرصة لأن يخرج العراقيون إلى السطوح تعبيراً عن فرحتهم بطريقة إطلاق النار من أسلحتهم في الهواء كما كانوا يفعلون كل مرة ، إذ ظهر على شاشات التلفزيون في مؤتمر صحفي أمام البيت الأبيض ليعلن عن اسفه عدم موافقة العراق على (الانصياع) للإنذار الأمريكي .
عندها عاد من كان متجها لحمل بندقيته إلى السطح محبطا إلى مكانه يتابع الخطوة الثانية ، وحواسه هذه المرة ليست باتجاه الموافقة على المشاريع .
ولا على المساومات التي تجري في الغرف الخاصة .
ولا على القيادة العراقية التي لم يعرف أحد مخاطبها حتى الأمريكان .
وإنما تركيز بكل الحواس على جبهة القتال ثانية .
وعلى ساعة الشروع بالهجوم البري التي لم تعد بعيدة من الوقت الذي أعلن فيه الرئيس الأمريكي عدم الانصياع .
وفي الجبهة التي توجهت نحوها الأنظار كان القصف شديدا على كافة قواطعها التي تمتد الدفاعات فيها من نقطة التقاء الحدود الكويتية السعودية على الخليج العربي حتى المنطقة المواجهة إلى محافظة كربلاء لأربعة فيالق :

هي الأول ، والثالث ، والرابع ، السابع ، زائدا قيادة قوات الخليج (تنظيم يعادل قوة فيلق) التي تدافع عن مدينة الكويت توقع المدافعون عن غير أرضهم أن الهجوم سيكون ليلة 23 / 24 شباط ، ليس بتحذير من الاستخبارات العسكرية كما كان الحال في الحرب مع إيران عندما كانت تتوقع غالبية الهجمات الإيرانية ، وتعطي القوات العراقية كافة التفاصيل عنها ، وإنما عن طريق الحدس ، والتحليل الذين لم يتبق غيرهما عوامل للتقدير في جانب القيادة العسكرية الميدانية التي طلب القادة ، والأميرين فيها الحيلة والحذر في ظروف يعرفون أن لا قيمة للحذر مع عدو يتفوق عليهم بعشرات المرات ، ومن هجوم يدرك الجميع أنه بات ، وشيكا تلك الليلة حسب رؤياهم الخاصة .

الهجوم برا

كان الجميع بالانتظار حتى الساعة 0400 يوم 24 شباط ليتلمسوا أن الهجوم البري لقوات الحلفاء (الأمريكية ، والبريطانية ، والفرنسية ، والتنازانية من الأجانب . والمصرية ، السورية ، والسعودية ، والقطرية ، بالإضافة إلى الكويتية من العرب) قد بدأ شاملا على كافة محاور القتال .

حصيلة اليوم الأول قتال

بعد ساعات من الشروع أعلن الحلفاء أنهم قد حققوا خرقا في عمق الدفاعات العراقية يصل إلى حوالي 40 كيلومترا دون أن يحددوا مكانه ، وبدأت أجهزة الإعلام تتناقل وقائعه فور التنويه عن ساعة الشروع .

بعد منتصف اليوم الأول من الهجوم أردف مصدر مسؤول من الحلفاء الذين تكتموا على تحركهم ، وقيّدوا حركة الصحفيين أنهم :

وبالإضافة إلى الخرق المذكور في الدفاعات العراقية فإن طلائعهم الهاجمة قريبة من الجهراء .

كما احتلت بعض قواتهم جزيرة فيلكة .

وإن هناك إنزالا بحريا قريبا من السواحل العراقية .

وانتشرت تلك الأخبار سريعا على مستوى العالم ، وتناقلتها جميع وكالات الأنباء حتى المساء عندما أعلن بيان القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية المرقم (60) :

إن الفيالق المذكورة التي تدافع في مواضعها قد استوعبت الهجوم .

لا صحة لاحتلال جزيرة فيلكة التي لا يزال يقاتل فيها لواء مغاوير .

لا أساس لإنزال بحري على الشواطئ العراقية .

وإن مواطني القدم التي حققها الحلفاء قد تم التعامل معها بنجاح .

وكانت بعض فقرات بيان القيادة العامة صحيحة نسبيا حيث أيدت قسم منها وسائل

الإعلام الغربية ، وذكرت أيضا أي وكالات الأنباء أن تلك القوات لم تدخل مدينة الكويت

التي تضطر فيها السيارات إلى إضاءة مصابيحها في وضوح النهار بسبب كثافة الدخان

المتصاعد من آبار النفط الملتهبة .

وبعد ذلك البيان عادت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية تأكيد سيطرتها على الموقف إذ بينت في بيانها المرقم (62) يوم 25 شباط أن الفيلق الثالث قد قام بهجوم مقابل على بعض ما تبقى من مواطئ القدم التي حققها الحلفاء بداية هجومهم ، وتمكن من تطهيرها ، وبذا يصبح الموقف (حسب رأي القيادة العامة للقوات المسلحة) مسيطرا عليه تماما .

أما المطلعين على الموقف من الضباط ، وفي تهامسهم الخاص قد أكدوا في تحاليلهم أن البعض مما أشارت إليه القيادة العامة قد يكون معقولا فيما يتعلق بالفيلق التي تدافع عن الكويت إذا لم تكن نوايا الحلفاء في قواطعها مجرد مهارشة ، وتحويل الانتباه لتأمين فاعلية أكثر لهجوم رئيسي في قاطع الفيلق الأول الذي يشغل دفاعات تمتد على الحدود السعودية المواجهة إلى مدينة الناصرية ، ودفاعاته هذه هي الثغرة الأوسع في عموم الدفاعات العراقية لأنه : قد شغلها قبل ما يقارب العشرين يوما من بدء الهجوم حتى أنه لم يكمل العمل على تحصينها كما يجب .

لم يتكيف منتسبيه على الظروف المحيطة بها كما هو حال زملائهم في الفيلق الأخرى . بالإضافة إلى كون فرقه موزعة على مساحة شاسعة في الصحراء التي تصلح لعمليات الخرق ، والإحاطة من أسلحة الدروع بشكل مثالي .

إن الخرق من منطقته يؤمن الوصول إلى الناصرية ، ومن ثم إلى حافات نهر الفرات ، وتطويق الجيش العراقي في الجنوب بشكل شبه كامل بعد أن دمرت المعابر ، والجسور في المنطقة ، وسيطرت القوة الجوية الحليفة على سماء العراق .

وبذلك فإن الخرق الذي أعلن عنه الحلفاء لا بد وأن يكون في قاطع الفيلق الأول وتبين لاحقا صحة الأنباء التي أكدت أن فرقتين فرنسية ، وأمريكية محمولتين قامتتا بالإنزال في قاطعه ، وتقدمتا سريعا بين فاصل فرقتين عراقيتين تحت غطاء جوي كثيف ، وإسناد مباشر من الطيران السمتي .

لقد كرر بيان الحلفاء بعد نهاية يوم قتال أنهم قد اسروا في عملية الخرق المذكورة عشرون ألفا من العراقيين ، وأن قواتهم باتت على مشارف مدينة الكويت ، وهي في ساعة إعداد البيان تتقدم بسرعة حسب الخطة الموضوعة ، بينما أكدت كافة الفيلق العراقية عدا الأول أنها ما زالت تسيطر على الموقف حتى الضياء الأخير ليوم 25 شباط اليوم الثاني للهجوم البري .

التحول المفاجئ

لقد أخطأ من تصور أن النتائج تقاس على ضوء الساعات الأولى للحرب كما كانت تتصور القيادة العراقية .

وأخطأ من اعتقد أن التأثير السلبي للحرب سيتوقف عند الحافات الأمامية لجبهة القتال كما كانت تعتقد الحكومة العراقية .

وقد أخطأ كذلك من حاول تطبيق قياسات حرب الخليج الأولى مع إيران على الحرب الثانية مع الحلفاء كما حاول البعض من القادة الميدانيين ، وأعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية .

حيث أثبتت وقائعها أن الأمر مختلف تماما في كثير من المجالات . وأثبتت أن التوقعات فيها ليست مستقرة ، ويمكن أن تتبدل بين ساعة وأخرى ، وقد حصل ما لم يكن متوقعا من صدام حسين⁷² الذي يدير دفعة الحرب حيث اصدر أوامره بالانسحاب الفوري من كافة المواضع الدفاعية على الأرض الكويتية :

كان الأمر تحولا مفاجئا ، وصدمه عنيفة ، وأمر يناقض أمرا سبقه بشهر واحد ، ولا يتفق مع رفض بالانسحاب من مدينة الكويت في ثمان وأربعين ساعة ، ومن عموم المنطقة خلال أسبوع قدمه الأمريكان مشروعا قبيل بدأ الهجوم بيوم واحد .

الانسحاب في الظروف غير المناسبة

لقد أمر القائد العام قواته جميعا بالانسحاب الفوري ، وإلحاح من قبله ، والقيادة العامة من بعده بمستوى أربك الموقف ، وأثار حمى الاضطراب في ظروف عسكرية غير مواتية لم تتيسر فيها أبسط مستلزمات الدفاع .

⁷². قبل بدأ الهجوم البري بحوالي الشهر ظهر صدام حسين على شاشة التلفزيون والإذاعة العراقية مصدرا أوامره بعدم الانسحاب من الكويت بأية حال من الأحوال ، وإن جاء على لسانه من وسائل الإعلام بينها التلفزيون . وبرر أمره الغريب هذا باحتمال قيام الأمريكان بفبركة أمرا من هذا القبيل عن طريق وسائلهم الفنية يربكوا به الدفاعات الأمامية . لكن الموقف الذي لم يكن بتحسبه في القتال وآثاره المباشرة وغير المباشرة قد فرض عليه إصدار أمر الانسحاب بعيدا عن فبركة الأمريكان ، وإنما تحصيلا حاصلا لضغوطهم والحلفاء في القتال على طول الجبهة ، وجاء بصيغة التنفيذ الفوري خلال أربع وعشرين ساعة ليثير الفوضى ، والارتباك تسببت في كارثة للقوات العراقية .

ولم يكن فيها تكافؤ مع الخصم في الميدان ، حيث الفارق التقني الهائل ، وحيث الدمار الحاصل لكثير من أسلحة العراق ، ونقص التموين الكافي لديمومة القتال . وفي ظروف نفسية حرجة أحس فيها مقاتلو الحافات الأمامية بعزلتهم عن تدخل الاحتياطي التعبوي ، والسوقي ، وبهبوط معنوياتهم ، وتدني مستويات دافعيتهم ، وبعد تجانس نواياهم من موضوع القتال : إذ كان البعض قد كيف نواياه استمرارا في القتال مهنيا وأيا تكون النتائج . وحسم البعض الآخر نيته بالتهيؤ للتسليم إلى قوات الحلفاء حال وصولها . بينما بقي البعض يتحين الفرص للتسرب إلى الخلف رغم مخاطر الطريق من ناحية ، وإجراءات النظام للتعامل مع هكذا حالات إعداما في الميدان من ناحية أخرى . في خضم ذلك اليأس ، والضغط ، والإحباط وصل أمر الانسحاب إلى المقر المتقدم للقيادة العامة للقوات المسلحة في البصرة قبل الساعة 1800 يوم 25 شباط بقليل ، وبنقاط موجزة وواضحة لا تقبل التأويل :

. تبدأ القطعات بالانسحاب إلى داخل الحدود العراقية بالساعة 1800 هذا اليوم حتما .

. تكمل كافة الفيالق انسحابها مع الضياء الأخير ليوم 26 شباط .

. تقوم الوحدات بسحب أسلحتها ، وتدمر الأخرى التي لا تقوى على سحبها .

وفي تلك النقاط لم تحدد القيادة العامة أسلوب الانسحاب ، ولا تسلسل الوحدات المنسحبة على المحاور ، والطرق المحدودة تركت كل شيء على مسؤولية القادة الميدانيين الذين لا يملكون معظمهم وسائل الضبط والسيطرة ، ولا الأجهزة المناسبة للاتصال .

إن أمر الانسحاب الذي انتظرته القطعات قبل هذا الوقت للتخلص من الأزمة كان صدوره هذا اليوم وفي ظروف الاشتباك السلبي مع قوة متفوقة بمراحل كثيرة خطأ كبيرا تسبب في حصول كارثة مدمرة للجيش العراقي وذلك لعدة أسباب من بينها :

. أنه أمر لم يصل إلى كافة الوحدات والوحدات الفرعية تبعا لسلسلة الأوامر والذي جرى في الغالب تبليغ للأمر من القيادة العامة إلى قيادات الفيلق عن طريق الساعة ، وقسم منها بالتلفون وبقي القادة الميدانيين في حيرة من أمرهم لأن أوامر القائد العام السابقة صريحة وحازمة بعدم الانسحاب ، بينما يستلمون أمرا بتنفيذه فورا بعد أن تحقق التماس مع الحلفاء .

. غياب السياقات الصحيحة لعملية الانسحاب ، إذ أن قادة الفيالق وهم يصدرن أوامره إلى فرقهم بدأت مقراتهم بالانسحاب ، قبل الانتظار لمعالجة المواقف الطارئة ، وهكذا كان الحال بالنسبة لمقرات الفرق التي مرت بنفس الحيرة ، وتعاملت مع ألويتها بنفس الصيغ .

. إن الأوامر بالانسحاب لم تعبر إلى جميع الوحدات ، والتشكيلات بنفس الوقت إذ أن وحدات على سبيل المثال من فرقة المشاة الثانية وصلها الأمر قبل الفرقة السابعة المجاورة لها في الموضع الدفاعي . وهذا دفع جنود الفرقة الأخيرة إلى أن يخرجون من مواضعهم للاستفسار عن منظر الانسحاب بطريقة تثير الدهشة ، والاستغراب ، وزاد الأمر سوء هو الرد الغالب بكلمة واحدة (انسحاب) كان الظرف القلق لا يحتمل زيادة عليها فهرع البعض إلى ضباطهم ، وأمريهم يطالبون بأمر الانسحاب . وتوجه آخرون إلى مواضعهم يرزمون حوائجهم كسبا للوقت .

بينما أخذ البعض الآخر ما خف حمله واختلط مع جنود الوحدة الجارة لتيقنه أن أمر الانسحاب بهذه الطريقة ينذر بكارثة لا يود أن يكون طرفا فيها .

. إن أمر الانسحاب وبسبب عدم انتظام سبل الاتصال مع بعض الوحدات الأمامية تغيرت صيغته أثناء تعبيره من مستوى قيادي أعلى إلى أدنى ، ومن وحدة إلى أخرى خاصة عن طريق الساعة شفويا وكون الأمرين يحملون نفس صيغ القلق من موضوع الانسحاب الذي حسمه صدام في السابق ، وللتأكد أخذ البعض منهم يسأل أسئلة حول الأمر ، وطبيعته قبل الشروع بالتنفيذ وهذه مسألة أخذت وقتا لا مجال للجنود تحمله وهم يشاهدون أرتال المنسحبين قريبة منهم ، وعليه سارع كثير منهم إلى تنفيذ الأمر قبل استلامه من الأمر المباشر.

وبالتالي عندما حصل الأمر المعني على الإجابة المقنعة من قائده بعد دقائق (إذا ما تيسر الاتصال) خرج من موضعه ليجد أنه بقي وحيدا في الميدان وإن سائقه قد وضع كل مستلزماته في سيارة القيادة ينتظر خروجه بقلق ليلبغه أن عسكره قد سبقه في الانسحاب.

. إن حالة الارتباك ، ومشاعر العدوان في نفوس المدافعين التي تغيرت اتجاهاتها من الأمريكيان إلى السلطة العراقية وصدام حسين بوجه خاص ، قد أشاعت حمى التندر على الوضع القائم في ظروف صعبة يحاول فيها العقل التخلص من الضغوط بأية طريقة

كانت ، وهذه المشاعر ساهمت بالتدريج في تشويه صيغة أمر الانسحاب خاصة عند الإجابة على استفسارات الوحدات التي لم يصلها الأمر ، حتى وصل إلى عديد منها بصيغة (أمر انسحاب مستعجل ... خلصوا أنفسكم اخلصوا بالعزيمة ... اتركوا كل شيء واخلصوا الخ) من العبارات ، والصياغات التي انتشرت سريعا تحت ضغط التوتر ، والقلق ، والرغبة بالتنفيس عن المكبوتات المؤلمة .
هذا ولعدم وجود الوقت والطاقة النفسية اللازمة لتقديم الشرح والتفسير كانت الإجابات أعلاه على وجه العموم :
سهلة ومثيرة .

فيها لمسات عدائية على القيادة وفي ثناياها نوع من التعاطف مع السائلين . عباراتها الدارجة سهلت تداولها بين الجنود وهم يندفعون جميعا نحو طرق الانسحاب دون سيطرة من الأمرين أغلب الأحيان .

. إن عديد من الوحدات والوحدات الفرعية بسبب عزلتها ، أو بعدها عن مقرات قيادتها وانقطاع وسيلة الاتصال معها تماما ، وعدم وصول السعاة الذين كلفوا بإيصال أمر الانسحاب إليها سواء لتعرضهم لقصف العدو في الطريق ، أو لفقدانهم الاتجاه الصحيح وسط الصحراء ، وتلبد السماء بسحب الدخان الكثيفة ، أو بسبب خوف البعض منهم إثر مشاهدتهم وضع المنسحبين ، والخسائر التي تكبدوها فأقنعوا أنفسهم أن الوحدات التي كلفوا بالوصول إليها وتبليغ أمرها بالانسحاب قد بلغت بوسائل أخرى فعادوا مثل غيرهم من المنسحبين. وهذه الحالة أي عدم التبليغ كانت من أكثر الحالات صعوبة ، وحرجا لأولئك الأمرين إذ أنهم وجدوا أنفسهم بين تملل منتسبيهم الذين بدءوا يرزمون معداتهم على مرأى منهم إيذانا بترك الموضع ، وبين منظر الوحدات المجاورة لمواضعهم التي تبين الصورة انسحابها دون وجود أي دلائل للعدو في مواجهتها. وفي مجالها حاول البعض من الأمرين فرض السيطرة والانتظار بعض الوقت حتى انجلاء الموقف فوجدوا أن ردود فعل المراتب لا تتحمل الضغط في ظروف الشد ، والتوتر العصبي منقطع النظير ، فتركوا لهم الأمر ، وركبوا عجالاتهم ، وساروا مع الركب باتجاه الشرق أملا في الوصول ، وتفهم موقفهم الذي كانت فيه الخسارة متعادلة بين احتمالات الموت على يد جندي منفعل وصل التوتر في داخله حدا لا يمكن السيطرة عليه ، وبين التعرض للمحاكمة العسكرية تحت اتهام مخالفة الأوامر والانسحاب .

إن البعض من الأمرين خاصة في المواضع الأمامية ، وشبه المعزولة وقفوا مشدوهين أمام أمر الانسحاب ، وصيغته غير المنطقية إذ وقبل ساعات كان الأمر الأعلى قد بعث لهم ضابط التوجيه السياسي يحثهم على الصمود ومقاتلة الكفار. وقبلها بقليل بعث لهم ضابط الأمن يراقب أدائهم ويقيس مستويات الالتزام ، ويسجل نقاط التجاوز . ولم يكن الفارق الزمني إلا دقائق معدودات ليتلق نداء عن طريق الجهاز، يأمره بالانسحاب بصوت كثيب متقطع يكاد لم يفهم منه شيئاً بسبب هول المفاجئة، أو عن طريق ساعي أرسل على عجل ، لم يملك من الإجابة أكثر من ضرورة تنفيذ أمر الانسحاب فكانت الحالة صعبة أنتجت أنواعاً من القرارات ، وأشكالا من السلوك أدت جميعها إلى مزيد من الفوضى على طريق الانسحاب بينها الميل إلى تحمل مسؤولية عدم الوضوح التي رافقت موضوع أمر الانسحاب شخصياً⁷³ وإعطاء الفرصة للغير إلى التخلص من الحالة. وبينها الابتئاس من الموقف الحاصل الذي انفرط فيه عقد الضبط والتهكم على أمر الانسحاب بقصد أو بدونه⁷⁴.

⁷³ أرسل الرائد محمد عبد القادر أمر فوج مشاة في الفيلق السابع بعد تبينه الموقف بطلب آمري سراياه ، وأصدر لهم أمراً بالانسحاب الفوري ، وحدد لهم جهته، والطريق الملائم للتنقل عليه، بعد ذلك بقي منتظراً في موضعه حتى وصلت إليه قوات التحالف ، وأخذته أسيراً. وعندما سأل بعد عودته من الأسر عن أسباب قيامه بذلك السلوك. قال كنت في حيرة بين أمرين صدرتا من الجهات العليا ، وعلى الرغم من أن الأمر الثاني هو الأحدث ، والذي ينبغي أن ينفذ عسكرياً لكن الأمر الأول كان من القائد العام يحدد عدم الامتثال للأمر الثاني منطقياً ، ولكي لا أخرج أمام جنودي ، وضباطي تحملت المسؤولية ، وأصدرت أمر الانسحاب ، وبقيت في موضعي أدير الأمر بنفسني وعن نفسي حتى فوجئت صباح اليوم الثاني أن ناقلة أشخاص أمريكية تتوقف على مقربة من موضعي بخطوات فلم يكن أمامي بد سوى الوقوع بالأسر .

⁷⁴ كان المقدم سمير الزبيدي آمر كتيبة مدفعية ميدان ، خرج من موضعه بقصد تفقد مواضع مدفعيته فوجد الفوضى قد عمت منتسبيه ، وعندما سأل مراسله تبين له أن أمراً بالانسحاب بلغ به الساعي مراتب الكتيبة وهو في طريقه إلى المساعد ، وعند توجهه إلى الملجأ الذي فيه المساعد تقابلا في الطريق وأخبره بالأمر ، فطلب منه إحضار آمري البطريات ، عندها رد المساعد لقد اتصلت بهم ولم أجد أحداً إنهم جميعاً قد انسحبوا ، ولم يبق في الموضع سوانا ومراسلك الشخصي ، وأحد ضباط الرصد ، عندها أمرهم أن يركبوا سيارته معلقاً بعبارة موجزة (أي مجنون أصدر أمر الانسحاب). كان المراسل الذي بقي مع أمره في ساعات الشدة قريباً منه... وبعد شهرين من انتهاء الكارثة ، وتجميع منتسبي الكتيبة ثانية في معسكر الديوانية لإعادة التنظيم فوجئ الأمر بضابط من الأمن العسكري يأمره بالذهاب معه إلى بغداد وبعد التحقيق والتوقيف لما يقارب السنة في سجن الاستخبارات العسكرية العامة في الكاظمية ، وسجن رقم واحد في معسكر الرشيد حكم عليه من قبل المحكمة العسكرية الخاصة بالسجن لمدة خمسة عشرة عاماً ما زال يدفعها ثمن الاعتراض على فوضى الانسحاب الذي عززه صدام حسين في عقول العسكر أمراً مستحيلاً ، وعاد ليطلبه منهم أمراً ممكناً في لحظات ، وكأنهم آلات يحركها متى يشاء... فكانت كارثة للجيش العراقي سوف تذكرها الأجيال مئات السنين .

الموت على الطريق العام

لقد استلمت قيادة عمليات الحلفاء أمر الانسحاب قبل كثير من الوحدات العراقية واستعدت لاستثمار الموقف الذي رصدت أجهزتها مستويات اضطرابه بدقة ، واتخذت كافة الإجراءات السريعة :

للتدخل في عملية الانسحاب ، وتدمير أكبر قدر من الأسلحة الثقيلة . وكانت الفرصة متاحة لها في الفيلق الأول الذي تسبب الخرق في تبعثر وحداته وأسر بعضها بشكل شبه كامل ، وانسحاب الباقي بصورة غير منظمة على عدة طرق في الصحراء باتجاه مدينة الناصرية ، كانت جميعها سهلة للقنص من قبل الطائرات الحليفة .

ومع ذلك فلا مجال لمقارنة الخسائر ، والإصابات التي تكبدها الفيلق في عملية انسحابه بسبب تعدد طرق الانسحاب في الصحراء المفتوحة مع تلك الخسائر المربعة التي تكبدتها باقي الفيالق ، وقيادة قوات الخليج التي تحتم انسحابها على طريقين رئيسيين الأول : الكويت . المطلاع . صفوان . البصرة .

الثاني : الكويت . أم قصر . الفاو . البصرة .

كانت مدفعية الحلفاء قد نشطت بشكل ملحوظ بعد الساعة 1800 موعد بدأ الانسحاب للرعي على المقرات ، ومثابات تجمع الجنود المهينين للانسحاب بغية الإرباك في أسلوب تنفيذه . وعندما أنهت مهمتها انتقلت بنيرانها معقبة القطعات المنسحبة على الطرق الرئيسية المذكورة تساندها الطائرات السمتية التي بدأت تطير على ارتفاعات واطئة حد قيام طيارها :

بالتقرب من بعض أطقم الدبابات ، وناقلات الأشخاص المدرعة ، والجنود الموجودين في العجلات التي تنتقل على الطرق .

التلويح لهم بالترجل منها بإشارات مفهومة من قبلهم .

القيام بأخذ دورة حول الهدف المذكور ، والتسديد عليه بصاروخ وتدميره .

في حين لا يجهد طيارون آخرون أنفسهم ، وهم في حرب غير ملزمين بالتعامل مع طرفها المقابل إنسانيا فيتوجهون بالتسديد على الهدف ومن فيه حتى باتت هذه الطرق :

مقبرة لآلاف الآليات بمختلف الأنواع .

ساحة موت لآلاف الأشخاص تناثرت جثثهم على حافاتها .

أرض عذاب لمئات الجرحى ، يؤسوا وهم ينزفون من أن يخليهم أحدا فأداروا أجسادهم صوب القبلة يطلبون من الله الرحمة وهم في الرمي الخير⁷⁵.
لكن الطائرات السمتية للحلفاء وحدها لم تكن مسؤولة عن ترجل الجنود والضباط ، والتنقل على طريق الموت مشيا على الأقدام ، بل وبسبب قلة العجلات المخصصة للإركاب .
وكثرة الأعطال التي أصابت الموجود منها نتيجة للقصف المدفعي ، وبعض الألغام الموقوتة على الطريق ، والشظايا المتناثرة .
وبسببها أصبح مألوفاً لمشاهد الجنود ، وبين صفوفهم ضباط برتب كبيرة يسرون سوية باتجاه البصرة ، ومن ثم إلى بغداد .
ومألوفاً خلع الكثير منهم أحذيته العسكرية ، والسير حافيا بسبب تورم كفوف الأرجل لاستمرار المشي وعدم التوقف على الطريق .
كان المنظر بائساً يؤشر حصول الكارثة التي بدأت تتسع بسبب :
. هول الخسارة ، واضطراب السلوك أثناء الانسحاب .
. مشاهد الطريق المثيرة الذي تسببه من الجانبين العجلات العسكرية المحترقة والدبابات المدمرة ، والسيارات المدنية العاطلة التي استخدمها البعض من العسكر وسيلة للتخلص من مأزق التنقل .

75. * إن الجهد الطبي لعموم الفيالق قد تعرض لفوضى الانسحاب مثل غيره من وحدات وصنوف الجيش .
وكان بسببها عاجزا تماما عن القيام بمهام الإخلاء والتطبيب ، لمستوى ترك العديد من المرضى الراقدين في مستشفيات الميدان ، والمراكز الصحية في الكويت على أسرتههم لعدم وجود سيارات إسعاف أو عجلات عسكرية لنقلهم ، وإن الأطباء قد عادوا كل بطريقته الخاصة بينهم جراح برتبة مقدم ذكر لأصدقائه أطباء في مستشفى الرشيد العسكري أنه كان ومعه مضمّد صحي تأخروا لإسعاف الجرحى الذين بدأت أعدادهم في تزايد ومعه طبيب كويتي ، وبعد أن تبين للأخير أن أمر الانسحاب قد حصل ، وتحرير مدينته بات وشيكا قلق كثيرا على زميله الطبيب العراقي من عواقب البقاء فألح عليه أن ينقله ، والمضمّد بسيارته الخاصة خارج الطريق العام حتى العبدلي المركز الحدودي الكويتي ، وتم ذلك بالفعل وأثناء توديعه زميل مهنة إنسانية والسعي للعودة في السيارة التي تفجرت اثنان من عجلاتها بفعل الشظايا المتناثرة قريبا من الطريق شاهد طائرة سمتية للحلفاء مؤشر على جنبها إشارة الصليب الأحمر تحط قريبا منه لتنزل مجموعة من الجرحى العراقيين فلوح لقائدها وتوجه نحوه معرّفا بهويته طبيبا كويتيا ، فأشّر له الطيار بالصعود ، وبعد إقلاعها لوح إلى زميله متمنيا بقليل من الكلمات ، وبجسن من النوايا اللقاء بعيدا عن مصيبة الحرب وأحوال هذا الطريق الذي كني بطريق الموت شاهدا على تدمير جيش كان الخامس في العالم قبل أيام .

عدوى الكارثة

كان السير على الطريق مجازفة تقرب المعني من الموت بنسب عالية ، والابتعاد عنه لا تقل المجازفة في مجاله عن الاقتراب منه .

لأن الانفجارات في كل مكان ، والصيد سهل في كل مكان .

ثم إن القلق تزداد شدته كلما تم الابتعاد عن الطريق ، لأن الإنسان ومهما وصل حاله من اليأس يبقى متشبثا بقليل من الأمل ، والأمل قرب الطريق في السير مع عسكري آخر لتوزيع البؤس مناصفة ، أو لتحمله وصية إخبار الأهل عند الموت أمر ممكن . واحتمال التعلق بسيارة قد تخلصت من سميتية حليفة كذلك ممكن .

والحصول على جرعة ماء مما تبقى في زمزية شهيد مسألة ميسورة .

عندها تقربت الجموع للسير على جانبي الطريق وكأنه مسحور يجلب ضحاياه إلى الموت على حافاته دون وعي .

كانت تلك الخسائر ، والمشاهد المثيرة دفعت المنسحبين الذين عاشوا وقتا عصيبا على طريق المطلاع صفوان على وجه الخصوص بوصفه طريق الموت .

وكانت معالم الفوضى ، والاضطراب ، وفقدان السيطرة لعموم المنسحبين على الطريقين المذكورين دفعتهم لوصف ما جرى عليهما بالكارثة التي لم تنته عند نقطة صفوان الحدودية ، ولا عند أم قصر المجاورة ، بل وامتدت لتدخل البصرة المدينة الثانية بعد بغداد :

. حيث انشر العسكر المنسحبون على غير هدى في شوارعها وأزقتها .

. توقفت أمام كل محل من محالها عجلة عسكرية يفتش سائقها ومن معه عن مطعم يعينه على سد رمقه ، أو سقف يأويه من مطر قد انغمر غزيرا تلك الليلة .

. تركت أمام عديد من بيوتها ناقلة أشخاص مدرعة ، أو ساحة مدفع ثقيل تخلصا من تدمير الحلفاء بالصدفة ، بعد أن أصبحا عبئا على طوائفهما بسبب ملاحقة الطيران الحليف ، ومصاعب العبور إلى الضفة الثانية من شط العرب ، وقطع الاتصال بالوحدة.

. امتلأت الثلجات المحدودة في مراكز تجميع وإخلاء الشهداء بجثث المغدورين⁷⁶ وفاحت رائحة الموت من أجسادهم بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، وعجز الطبابة ، والوحدات الخاصة بالإخلاء عن القيام بمهامها بعد أن قصفت الجسور ، وقطعت العديد من الطرق ، ونضب الوقود ، وتعطلت العجلات .
. عجز القيادة العامة للقوات المسلحة تماما عن اتخاذ أي إجراء في هذا الجانب الحيوي من الناحية الشرعية والمعنوية حتى قبل يوم الانسحاب الذي اختلطت فيه الأمور ، وتعقدت أكثر من قابليتها على التصرف⁷⁷.

⁷⁶. قدم ضابط من المركز النفسي المتقدم تقريرا عن حالة أحد مراكز تجميع وإخلاء الشهداء الواقع قريبا من ساحة سعد في البصرة مبينا فيه أن أعداد الجثث المستلمة ، والموجودة في المركز حتى يوم تقديم التقرير في 26 شباط بلغت خمسة عشر ألف جثة ، مؤكدا امتناع المركز عن قبول جثث جديدة الأمر الذي دفع المأمورين الذين يحضرون المزيد منها إلى تركها في الممرات الداخلية وبعد أن امتلأت تلك الممرات اتجه المعنيون إلى وضعها أمام باب المركز الخارجية.
⁷⁷. إن حجم الخسائر ، وعدم القدرة على الإخلاء باتت مشكلة لا تتعلق بطريق الموت فقط ، وإنما امتدت إلى الطرق المؤدية إلى البصرة والخارجة منها حيث قامت الطائرات الحليفة بضرب الآليات والأرتال التي تنتقل عليها ، وهي مشكلة لم يقتصر عسر حلها على القوات المسلحة فقط ، وإنما على الأهالي الذين يجدون أنفسهم غير قادرين على التعامل مع بعض حالاتها في أحيان كثيرة ، بينها حالة عبر عنها شيخ مسن كان قد أوقف سيارة صالون عسكرية كان فيها ضابطين برتب كبيرة من المركز النفسي ، وتكلم معهما عن حالة أمامه لعجلة عسكرية ما زالت تحترق إثر قصفها من الطائرات الحليفة يوم 25 شباط على طريق التنمية . السويب ، وتناثرت جثث من فيها على الطريق ، والكلاب السائبة تنهشها بوحشية قائلا : لا نعرف ماذا نعمل . هل ندفن الموتى ؟ . وإن دفنناهم ماذا يقول أهلهم الذين ينتظرون أخبارهم ؟ كيف نخلص المسلمين الموتى من هجمات الكلاب الجائعة ؟ إنها مشكلة لنا نحن القريبين من الطرق . دون أن يعي أن العسكر جميعهم في وحل الكارثة عاجزين من أن يعطوه حلا . ومع ذلك وعده الضابطون بالتوجه لأصحاب الحل ، وفعلا توجهوا إلى القيادة العامة ، وعند مقابلتهم أحد ضباطها وجدا أنها تعلم بالتفاصيل ، ووجدا أيضا أنها غير قادرة على تقديم الحل . فعادا من يؤسهما إلى الشيخ ليخبراه أن يتصرف بما يراه مناسبا ، مؤكدين أن الكارثة : في تخلي القيادة العامة عن عسكرها في الشدة ، وأخيرا تركها ، والجثث في أماكنها ، وفي داخلهم سؤال عن كم شيئا تحتاج هذه الطرق لحراسة الجثث التي تناثرت لآلاف العسكريين على حافاتها ، والمعابر ، والجسور ، فلم يجدا جوابا سوى التلفظ بعبارة : إنها كارثة وأمر سائقهما بالتوجه إلى مقر المركز .

الكارثة وسط العسكر

إن صورة الكارثة لم تتوقف عند الحدود الإنسانية ذات الصلة بعدد الموتى من بين العسكريين العراقيين ، وأعداد الجثث التي تنهشها الكلاب ، ولا عند كم السيارات ، والدبابات ، والأسلحة المحترقة على طول الطريق فحسب ، بل وامتدت إلى كثير من مفاصل العمل والتعامل العسكري ، لتكون وبالإضافة إلى الكارثة الإنسانية كارثة عسكرية حقيقية بكل المقاييس :

. إذ انتهى الضبط في محيط كثير من الوحدات والمقرات ، وفقدت السيطرة تماما على المنتسبين .

. يتنقل أغلب قادة الفيالق والفرق لوحدهم ، لا يعلمون ما حل بهيئات ركنهم ولا بالفرق التي تعد من نظام معركتهم .

. تؤشر القيادة العامة مكانا ، أو مثابة لتجميع فرقة مشاة معينة ، وعند وصول تلك الفرقة إليها تجد أن موقعها المؤشر قد أشر أيضا لفرقة أخرى قد سبقتها في الوصول .

. ما تبقى من الوحدات التي سيطر الأمرين على تنقلها بشكل مقبول ملأت بساتين أبو الخصيب وأحياء البصرة تنتظر دورها في العبور على الجسر الوحيد الذي يربط جهة العشار في البصرة بالتنومة حيث الطريق الوحيد الصالح للتنقل باتجاه العمارة . الكوت . بغداد ، وهذا يتطلب ساعات الليل دون إنارة المصابيح لعبور الجسر العسكري العائم الذي يتعرض هو الآخر لقصف الحلفاء ، ويتبين لبعضها مع ساعات الصباح أن الدور لم يصل إليها في العبور ، فيعود منتسبها إلى أماكنهم السابقة ليجدوا أنها قد احتلت من وحدات ثانية ، وعليها التفتيش عن مكان آخر .

. أما العسكر الذين فقدت السيطرة عليهم فقد ملئوا شوارع البصرة مئات الآليات ، توجهوا إلى الجسر فوجدوه مغلقا في النهار ومزدحما في الليل ، وبدلا من الانتظار وجد البعض أن الوسيلة الأسلم هي التخلص من العجلة ، أو الناقلة التي كانت بذمتة ليسهل له العبور راجلا فقام بحرقها في أحد أزقة البصرة تحت حجة القصف المعادي ، وتوجه صوب شط العرب وفي نيته العبور بأية وسيلة متاحة .

. من لم يجد في جيبه مبلغ ربع دينار أجرة العبور في الزورق ، أو (البلم ، والشختور) عاد ببندقيته ، أو مسدسه ليعرضهما في سوق السلاح الذي نشأ نتيجة للتطور السلبي

للأحداث في ساحة سعد حيث وصل السعر السائد بحدود الدينار لكل قطعة سلاح ، يحتاج المعني ربعه من أجل العبور ويحتفظ بما تبقى لأغراض الطريق ، ومن كان مستعجلاً وقل صبره عرض سلاحه على صاحب الزورق الذي لم يتردد بقبوله زيادة في الربح ، أو لغاية لم يكن أحد يدركها في تلك اللحظات الحرجة .

. بدأ بعض الجنود على طرق التنقل خاصة التنومة السويب يقيمون سيطرات عسكرية لغرض إجبار السيارات المدنية ، وحتى العسكرية بالقوة على نقلهم إلى المحافظات الأخرى ، وكذلك فعل البعض من الضباط⁷⁸.

. تكسب آلاف العسكريين الذين تمكنوا من العبور في شوارع التنومة الموحلة بسبب المطر الشديد .

نام بعضهم على الأرصفة بعد أن امتلأت المساجد بمن دخل إليها في المراحل الأولى ، وكذلك بعض البيوت التي فتحها أهلها لمجرد الإيواء .

ينتظر الجميع سيارة حمل مدنية ، أو ناقلة عسكرية يركبون فيها إلى المحافظات الأخرى للتخلص من البصرة وأجوائها التي تنذر بالشؤم ، وعندما تأتي إحداها بالصدفة ، أو من أجل النقل لقاء ثمن يقفز إلى داخلها المئات في لحظات معدودة ، ويتعلق بجوانبها العشرات ، ويجلس على مقدمتها آخرين حتى أن الواحد لا يستطيع أن يميز شكل أو لون العجلة التي تسير كتلة بشرية ، وإذا ما امتنع سائقها من السير يهدد بالقتل فوراً دون ما تأخير لأن الموت أصبح مألوفاً ، ولا قيمة للحياة .

العجز عسكرياً

تلك وغيرها معالم أخرى للكارثة عرضت تفاصيلها على القيادة العامة للقوات المسلحة من أجل الوصول إلى حل ينقذ العسكر من محنتهم ، إذ وفي مناقشة خاصة بها مع عضوي القيادة العامة الفريق سعدي طعمة الجبوري وزير الدفاع ، والفريق الركن حسين رشيد التكريتي رئيس أركان الجيش آنذاك ، وبعد عرض التفاصيل الخاصة بالوضع السائد بين العسكر وفقدان القيادة والسيطرة ، وانهايار الضبط والمعنويات ، وتوجه البعض من

⁷⁸. تناقل الضباط في محيط البصرة أن ضابطين برتبة عقيد أوقفوا يوم 26 شباط سيارة لانكروزر للاستخبارات العسكرية فيها ضابط برتبة نقيب وأجبروه بالتهديد للنزول من السيارة ، وتوجهوا بها إلى بغداد .

العسكر لانتقاد القيادة في العلن دون توجس ، وملئ النفوس بانفعال الغضب ، وهي في مجملها غير طبيعية ، وتنذر بخطر يضر القوات المسلحة .

رد رئيس الأركان على المناقشين من المركز النفسي المتقدم (أن كل ما قيل وما يكتب من قبلكم هو نظري وغير قابل للتطبيق ، ومطلوب منكم فقط اقتراح ما هو عملي أستطيع تنفيذه) ، ولما قدم له اقتراح أن يسعى بأية وسيلة لنقل العسكر الذي ملأت أعدادهم شوارع البصرة إلى محافظاتهم لتخليصهم من انفعال القلق ، والتوتر ، والغضب هز يده قائلاً ومن أين لي بالعجلات ، وكان هو محق إذ لا توجد سيطرة له على السرايا النقلية الخاصة بالجيش .

ولا حسابات له مسبقاً لاستثمار جهد الدولة في هذا المجال . كذلك لا سيطرة له على الدوائر المدنية التي خصص جهدها لدعم الجيش بعد أن فقد الجيش سيطرته على منتسبيه .

وقبل أن تنتهي المناقشة مع المختصين دخل ضابط برتبة لواء ركن إلى الغرفة التي يتواجد فيها أعضاء القيادة العامة المذكورين ، ويبدو أن له علاقة خاصة برئيس الأركان إذ بدأ بالحديث دون استئذان وبصيغة العتاب دون أن ينطق بكلمة سيدي المعتادة للتخاطب بين العسكر في المستوى الأقل للأعلى بادئاً بعبارة قاسية قبلها الجميع في الظروف الصعبة (لماذا كل هذا ، لو أبقيتمونا في مواضعنا نقاتل لكان أحسن لنا ولجنبتهم الجيش العراقي كل هذه الخسائر لأن الحلفاء طيلة فترة القصف التمهيدي ، وكذلك أثناء هجومهم في يومه الأول لم يكبدونا خسائر تذكر بينما تمزقت وحداتنا ، وتناثرت جثث منتسبينا بعد الشروع بالانسحاب الذي تحول إلى فوضى لا مثيل لها ، ثم التفت إلى الفريق سلطان هاشم معاون رئيس أركان الجيش للعمليات عضو القيادة العامة⁷⁹ الذي دخل الغرفة بعد مجيء العميد بلحظات قائلاً أعلمون :

أن وحدات تركت دباباتها ومدافعها في مواضعها . وأخرى تركت أكداس من العتاد بسبب الطلب منها سرعة إخلاء مواضعها . وإن أرتال المنسحبين لا تستطيع في النظر إليها أن تفرق بين الضابط ، والجندي .

⁷⁹ رأس الفريق العسكري العراقي للتفاوض مع الحلفاء على وقف إطلاق النار في خيمة صفوان ، شغل بعدها بقليل منصب وزير الدفاع .

كثير منهم حفاة لا يعون ما يفعلون من شدة التعب .
وكثير منهم يتوجهون بالدعاء إلى الله أن يستشهدون في أول إصابة لهم على الطريق بدلا
من أن يجرحوا جرحا بسيطا يبقون خلاله يعانون عذاب النزف حتى الممات .
إنه الانكسار ما كان يتم لو استمرينا في القتال) .
كان اللواء المذكور محق تماما في عتابه عن أسلوب تنفيذ الانسحاب ، لكن أعضاء
القيادة العامة جميعا لا يملكون صلاحية ذكر دوافع إصداره ، كذلك لا يملكون شيئا من
وسائل السيطرة ، والضبط وتصريف الأمور ، وهم مثل غيرهم ينتظرون ما سيسفر عنه
الغد المجهول وما سيأتي عن القائد العام من جديد وهم يضعون كل ثقتهم به إلى أبعد
الحدود .

الموقف العسكري في جانب الحلفاء

في الوقت الذي كانت القيادة العامة للقوات المسلحة في حيرة من أمرها لتدارك تداعيات الانسحاب والموقف المضطرب ، ظهر الجنرال شوارسكوف القائد العام لعمليات عاصفة الصحراء في مؤتمر صحفي استعرض فيه سير عملياته في المنطقة بعد أن تأكد له حسم الموقف عسكريا مبينا :

أن هناك عملية تطويق إلى كافة القطاعات العراقية في الجنوب باتجاه الناصرية .
وإنهم قد وصلوا قاعدة علي ابن أبي طالب الجوية .

وخسائرهم حتى لحظة المؤتمر الصحفي (140) قتيل بينهم (79) قتيلا أمريكيا .
وإن عدد الأسرى العراقيين بلغ بحدود خمسين ألف أسير .
وإن قوات التحالف دخلت الكويت .

هناك مقاومة مدرعة في المطار ، ومقاومات متفرقة في المدينة لوحداث ، ووحدات فرعية يبدو أنها لم تبلغ بأمر الانسحاب .

بعد هذا المؤتمر أعلن في واشنطن أن الرئيس الأمريكي يشعر بالارتياح من أداء قوات التحالف ومن النتائج المتحققة .

وتبين على الأرض أن القصف الجوي على الطرق والمعابر ، وعقد المواصلات قد زادت شدته ووصل عدد الطلعات الجوية للحلفاء حتى الآن مائة ألف طلعة .

وفي هذا المجال بينت القيادة العامة العراقية التي تتحسس حجم المأساة في بيان مقتضب :

أن قوة للعدو نزلت قرب قاعدة علي بن أبي طالب والجيش العراقي وأهالي المنطقة وأفراد الجيش الشعبي تقاتلهم⁸⁰.

كذلك أعلن ناطق عسكري عراقي أن معركة بالدبابات قد وقعت بين قوات للحرس الجمهوري ، وقوات مدرعة للحلفاء بالساعة 2100 يوم 27 شباط وإن قوات الحرس

⁸⁰. إن بيانات القيادة العامة التي يكتبها مدير التوجيه السياسي أو مجموعته في القيادة العامة ، ليست بالضرورة أن تنقل الموقف العسكري كما هو ، وتضطر في بعض المواقف أن تكتب ما تتمنى أن يكون إرضاء للقائد العام ، وتجنباً لغضبه ، أو اعتقاداً من أن الإشارة إلى تلك التمنيات الوطنية إحياء يمكن أن يدفع إلى تنفيذ ما ينبغي أن يكون .

قامت بتطويق القوة الحليفة لولا تدخل الطيران الحربي والسمتيات التي فكت الطوق ، ومن بعدها انسحبت تلك القوة إلى الخلف لتقطع التماس مع القوات العراقية . لقد أثبتت تجارب التعامل مع الحالة أعلاه ومثيلاتها صعوبة التأكد من مديات صحتها حتى في الظروف الأقل اضطرابا من الناحية النفسية ، والعسكرية ، لأن العديد من الأمرين اكتسبوا عادة التضخيم والتهويل بالمواقف ، والمعارك التي يخوضونها لحسابات الحصول على تكريم القائد العام ، أو لتجنب زعله .

كما إن مصادر المعلومات في ظروف الكارثة التي حصلت لم تكن دقيقة ومحايدة : إذ أن الذين قاتلوا بالفعل ، وحققوا تماسا مع الحلفاء ، واستطاعوا الانسحاب بالأسلوب العسكري المعهود ، وفرضوا سيطرة معقولة على وحداتهم يدعون أن مثل هكذا أعمال بطولية عظيمة ، وعظمتها منطقيا لم تأت من المقارنة بالسياقات العسكرية التقليدية للقتال في صفحة الانسحاب بمثل تلك الظروف بل لأنهم يقارنون بين فعلهم القتالي الذي يعد نادرا ، وعجز الآخرين من الأقران عن تقديم مثله في القتال ، وفرض أبسط معالم السيطرة في الانسحاب ، وهذه المقارنات أعطتهم هامشا واسعا للانتقال بالخيال الخصب لتسجيل البطولات التي وردت في أعلاه قتالا مع الحلفاء الذين اضطروا للانسحاب بسببه وقطع التماس مع قواتهم التي قامت بالتطويق حيث نقلت سريعا إلى القيادة العامة ، والقائد العام التي كان يحتاجها هو في ظروف الشدة .

وعموما قد أشارت مصادر من هيئة ركن الحرس الجمهوري حيث أسس مقرا له في جامعة البصرة أن إحدى فرق الحرس قد حقق الحلفاء معها تماسا ، وقد تمكنت من التملص ، وقطعه دون الخوض بمعركة تعتقد أنها غير متكافئة ، وقد أستغرب ضابط الركن أن الحلفاء لم يقوموا بتعقب تلك الفرقة المدرعة مما أثار لديهم بعض علامات الاستفهام (فسرهما البعض لاحقا مع وقائع أخرى في إطار ضرورة إبقاء قوات للحرس الجمهوري بمستوى سليم قادر على التعامل مع الموقف الداخلي المتأزم التي بدأت بعض بواده أعمال عنف عسكرية بالضد من القطعات المتواجدة في الأهوار وبعض المناطق العشائرية ، ولو بشكل خفيف) .

وقف إطلاق النار

مع تلك التطورات المقلقة عسكريا ، وأمنيا على الجانب العراقي أعلن الرئيس الأمريكي يوم 28 شباط أن القوات الحليفة ستوقف العمليات الهجومية على الجيش العراقي اعتبارا من الساعة 0800 صباح هذا اليوم بتوقيت بغداد على أن يجري اتصال عسكريين عراقيين بآخرين من الحلفاء ميدانيا خلال 48 ساعة لإجراء ترتيبات وقف إطلاق النار يبدو أن هذا الأمر قد اتخذ في ظرف خاص حسبه الأمريكيون بدقة يتعلق في معظمه بالآتي :
ضرورة المحافظة على نظام الحكم القائم في بغداد لئلا تتحمل الخسارة كاملة .
أن تكون نتيجته الحالية ، والمستقبلية درسا للعالم يمهد لتطبيقات النظام الدولي الجديد.

إعطاء تصور للعرب المتحالفين معهم أن القوات المهاجمة غير معنية بالتوغل في عمق العراق ، وإنها على استعداد لتسوية ما يتعلق بوقف إطلاق النار والانسحاب فورا ، خاصة وإن الدول العربية التي قبلت التحالف تتحسس جميعها من عبور الحدود العراقية ، ومقاتلة العراقيين على أرضهم ، وأشارت إلى هذا الموضوع في سياقات تبريرها المشاركة مثل سوريا .

لقد وافق القائد العام على إعلان بوش دون نقاش ، ودون الإشارة إلى أية شروط اعتادها في السابق ، أو المناورة ببعضها لحفظ ماء الوجه كان يحتاجها . وهي موافقة من جانبه اتخذت لظرف طارئ حسبه صدام بدقة متناهية تتعلق بحماية نظام حكمه من السقوط . وفي سياقها أعلن ناطق عسكري عراقي أن الأوامر صدرت إلى القوات العراقية للامتناع بوقف إطلاق النار ، لكنه إعلان لم يحول دون تنفيذ الحلفاء آخر غارة لهم بالساعة 0730 أي قبل نصف ساعة من تطبيق وقف إطلاق النار على طريق التنمية العمارة الذي ما زال سالكا لتنقل السابلة العسكرية فتسببت في حرق مئات العجلات ومقتل عشرات الجنود منهم من كان في سيارات مدنية يقصد أهله في بغداد ، والمحافظات الأخرى .

جهود السيطرة على الموقف

استمرت القيادة العامة في مقرها المتقدم داخل مدينة البصرة بأداء مهامها تحت ضغط الشعور بالكارثة من جهة ، وتهديدات القائد العام من جهة أخرى ، ولم يجدوا في طريق

تنفيسهم تلك المشاعر ، ومحاولة الإحياء بالقيام بفعل ما للتخفيف من حجم الكارثة سوى التوجيه السياسي الذي أسهم أدائه في العشرين سنة الأخيرة بتدمير الجانب الفكري ، والنفسي للقوات المسلحة فأرسلوا على ضابطين من المركز النفسي المتقدم وطلبوا منه والتوجيه السياسي وطلبوا بإلحاح شديد وقف سيل الانهيار ، بإثارة الروح الوطنية عن طريق المحاضرات⁸¹.

إعادة المعنويات ، والضبط ، والروح الوطنية إلى مستوياتها السابقة .

مساعدة الآمرين للسيطرة على وحداتهم المبعثرة .

إفهام الآمرين بخطورة الموقف وإن توقف القتال .

لكن رئيس الأركان الذي أكمل إصدار أوامر ه العسكرية في قسمها الأول توقف قليلا ليؤكد حالة الانكسار معترفا على غير عادته بهول الكارثة على الجيش العراقي ، وبدلا من أن يطلب المناقشة المنطقية لأساليب التقليل من آثارها نسي فعلها المستمر ، ونسي الحال الذي هو فيه ، وما ينتظره من مفاجئات وتذكر فقط أنه رئيس للأركان عليه أن يملئ الأوامر فقط ، فوجه كلامه إلى اللواء منذر قائلا عليكم :

. التبليغ الفوري لكافة القوات العسكرية العراقية عن طريق الآمرين ، وهيئات التوجيه المعنوي من أن الأمريكان هم الذين طلبوا وقف إطلاق النار ، وليس العراق الذي ما زال قويا ، قادرا على قتال الأعداء .

. أن تتوزعوا زمرا على عموم قيادات ، ومقرات الجيش لتنفيذ خطة التوعية ، والشرع بالعمل الميداني من الآن .

⁸¹. إن طلب وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش بإثارة الروح الوطنية عن طريق المحاضرات ينم عن عدم معرفتهم خطورة الوضع المزري لقواتهم وكيفية التعامل معه ، أو أنهم يريدون تسجيل نقاط تحسب لهم تحركا للسيطرة على الانهيار تفيدهم في الدفاع عن أنفسهم عند القائد العام يوم يجري الحساب ، والاحتمال الأخير هو الأكثر ترجيحاً لأن الضابطين المذكورين لديهم خبرة قيادية جيدة ، وتدرجوا بالمناصب بشكل يؤهلهم فهم الواقع وظروف القتال . وهو طلب غير منطقي إذ الكلام عن الوطن مع جندي انسحب من الكويت مشيا على الأقدام في تلك الساعات المؤلمة جرحا لمشاعره الوطنية ، وإن التحاور مع ضابط سار طوال طريق الانسحاب حافي القدمين في أي موقف غير المعاونة في منحه الراحة قريبا من الأهل يعد تجاوزا لقيمه العسكرية . ثم كيف يطلب من عسكر يعاني الإعياء والغضب الجلوس ليسمع محاضرة عن الوطنية التي مزقتها القيادة ؟. ومن يجرأ أن يتكلم عن الحاضر الذي شوه ، والمستقبل المجهول ، والحكومة التي تسببت في الكارثة ؟ .

وختم الرئيس الأركان الذي يتكلم بعصبية على غير طبيعته الهادئة بعبارة أنه سيضطر إلى إلغاء التوجيه السياسي إذا ما تم الإخفاق في تنفيذ المهمة .
لقد اختزل رئيس الأركان خسارة العراق ونكبة الجيش العراقي بمحاضرة عن الاقتدار ، وسعى إلى التخلص من مشاعر البغض ، والكره ، والإحباط في نفوس المنتسبين بكلمات للتوعية .

لكنه ووزير الدفاع الجالس قربيه قد فاتهم أن العسكر العراقي في حالته هذه يعي أن الذي أوصلهم إلى هذه الكارثة هي توجيهات القيادة التي لم يعد مجالاً لسماعها وسط زحمة الأفكار .

وإن مشاعر آلاف الضباط ، ومئات آلاف من الجنود التي تكونت بالصد من أساليبهم في القيادة لا يمكن وقفها بمحاضرة أو طلب رسمي .

لكن الجو العام لا يتحمل المناقشة ، والجدال وإن كانت منطقية ، عندها تيقن الموجودين أن الموقف لا يسمح سوى الاستجابة بكلمة نعم سيدي وخرجوا من غرفة القيادة مذهولين ليس بسبب طبيعة الأمر غير المنطقي لأنهم تعودوا في سياق خدمتهم الطويلة أن يسمعوا ويتسلموا الكثير على شاكلته ، ولكن هول دهشتهم من حالة الانكسار ، وعمق الكارثة في نفوس أعضاء القيادة العامة .

نقص المعلومات

لقد زاد الارتباك بمرور الوقت وتبين أن الوحدات العسكرية العراقية التي خاضت المعركة مع الحلفاء المتفوقين دون وجود المعلومات اللازمة لديمومة القتال ، تنتقل بعد أمر الانسحاب بدونها أيضا :

. إذ أصدرت القيادة العامة أوامرها على سبيل المثال إلى الفيلق السابع بالتنقل على الطريق السريع بصره . ناصرية . ديوانية . إلى كربلاء وبعد الشروع بمسافة تبين أن قوات التحالف تحتل جزء من الطريق في منطقة الناصرية وإن هناك سيطرات عسكرية لقواتهم عليه .

. وكان الأمر كذلك في الفيلق الثاني الذي كان قائده اللواء الركن إبراهيم عبد الستار في أعلى درجات القلق ، وهو يفتش مع ضباط ركنه عن قائد الفرقة المدرعة العاشرة الذي خصه القائد العام بتبليغ محدد ، وتبين أنه قد وصل الحبانية وهيئة ركنه في الديوانية ، وما تزال بعض وحداته موجودة في البصرة .

. وصلت بعض الفيالق إلى أماكنها مثل الفيلق السادس في قلعة صالح ، ولقائده اللواء الركن عبد الواحد شنان رأي يكاد لا يختلف عن الآخرين في مجال التيه المعلوماتي ، وبؤس الواقع السائد إذ أكد أن وحدات الفيلق التي تصل إلى أماكنها المطلوبة حسب توجيهات القيادة العامة مجرد هياكل وحدات ، وبعضها يتكون من آمرين فقط ، أو من ضباط ، ومراتب لا تزيد أعدادهم عن عدد أصابع اليد ، واحسن مستوى تشكيل (لواء) وصل الفيلق لا يتعدى المائة شخص ، وغالبية فرق الفيلق لا يعرف قادتها أين تقيم هيئات ركنهم ، وأين هي وحداتهم .

. تصل بعض الوحدات والتشكيلات إلى مكان ما حسب الأوامر التي بلغت بها ، وحال وصولها تبلغ بالانتقال إلى مكان آخر وهي تعاني من التعب ، ونقص الأفراد ، وشحة الوقود ، والأرزاق ، بالإضافة إلى التناقص المستمر لموجودها مع كل حالة تنقل من مكان إلى آخر .

. في مدينة العمارة التي يفترض أن يكون فيها مقر الفيلق الرابع ، لم يكن في هذا المقر حتى يوم 2 شباط سوى ضابطي ركن أحدهم العميد الركن سمير، للاستخبارات ، وكلاهما لا يعرف شيئاً عن قائدهم وباقي هيئة ركن الفيلق غير أنهم يتوقعون وجوده في كربلاء ، وهم سيعودون إلى العمارة بعد أن صدرت أوامر جديدة بهذا الصدد .

نظرة إلى بعض الخسائر

لقد كان موضوع الانسحاب هو الشاغل الكبير لجميع الضباط في هيئات الركن والقيادات وكذلك الضباط بالرتب الصغيرة في تلك الظروف الصعبة ، وانشغالهم به ليس من باب الفرض الحتمي لوجوده أمر كان ينبغي أن يتم قبل حين وفي ظروف ، وفرص تيسرت مناسبة لتحقيقه بأقل الخسائر ، لكن المشكلة التي يتداول في تفاصيلها الضباط في جلساتهم تحت سقوف غرفهم في المقرات الثابتة ، أو تحت خيم نصبت مؤقتا في العراء ، أو في الطريق الطويل إلى بغداد تتمحور حول توقيت إصدار أوامر تنفيذه في ظرف : كان الحلفاء يضغطون باتجاه الموضع الدفاعي بقوة ، ويمهدون لاجتياحه بكثافة نارية هائلة ، وسيادة جوية مطلقة .

كان الشحن الانفجالي لعموم المقاتلين العراقيين يتركز على ضرورة القتال ، وعدم الانسحاب تحت أي ظرف من الظروف .
شعر فيه المدافعون أنهم محصورين تماما ، يفتشون عن مخرج لهم من ذلك الوضع المؤلم .

ضعفت فيه المعنويات إلى أدنى مستوياتها وكذلك كانت الدافعية .
عندها وفر أمر الانسحاب ، انطلاقة غير منتظمة لمئات الآلاف للتخلص من حالة الحصر، والتوتر ، والقلق ، وفرصة للتحرك السريع بكل الاتجاهات ، ومناسبة للتخلص من الضغوط بأسرع ما يمكن .

هكذا كان أمر الانسحاب كارثة من الناحية المعنوية والنفسية ، وهو كذلك من الناحية العسكرية إذ إن الجيش العراقي ومنذ مجيء صدام إلى الحكم في الموقع الأول قد ألغى التدريب على صفحة الانسحاب من نشرات التدريب ، مؤكدا أن العراقي الجديد لا ينسحب ، بل ويتقدم إلى الأمام باستمرار .

وكان الانسحاب يمكن أن يكون ورغم كونه قسريا بشكل آخر تقاتل فيه القوات المنسحبة حسب الظروف التعبوية المحيطة بها لتقلل من حجم الخسائر جهد الإمكان .

لكن عدم التدريب ، وصدور أوامر الانسحاب بشكل سريع خارج السياقات الصحيحة لتطبيقه ، جعله يفضي إلى الفوضى ، وتعدد الاجتهادات ، وتبعثر القوات ، وتشتت

المقرات ، فكان كارثة بكل المقاييس ، والمعايير النفسية والعسكرية أنهى بها صدام غزوه الكويت .

لكن أولئك الضباط ، وفي تلك الساعات الحرجة لم يتطرقوا إلى الخسائر الإجمالية لتلك الحرب التي اتخذت بقرار فردي وانتهت كذلك بمثله ، لكنهم جميعا عادوا إلى تذكرها فيما بعد ليجزموا أن الكارثة لم تصب الجيش العراقي وحده إثر حالة الانكسار بين 25 و28 شباط 1991 ، بل وشملت كل معالم الحياة العراقية ، بينها الاقتصاد في جوانبه التقريبية :

. تدمير ما تبقى من الاقتصاد العراقي ، حيث ازدياد نسب التضخم إلى مئات المرات وانخفاض قيمة الدينار ليصل إلى أدنى مستوياته (الدولار = 4000 دينار) ويتراوح عند متوسط (2000) دينار في النصف الثاني من التسعينات وحتى الوقت الراهن .

. تكبيل العراق بديون وتعويضات تصل قيمتها إلى أكثر من 700 مليار دولار ، وهي إجمالا خارج قدرته الاقتصادية التي تكونت بعد الحرب على سداد فوائدها .

. انخفاض مستوى معيشة الفرد العراقي إلى دون مستوى الفقر إذ لا يتجاوز متوسط دخله (5 \$ شهريا) .

. تدمير مرتكزات الاقتصاد العراقي ، والبنى التحتية بصورة تفوق إمكاناته لإعادتها في القريب المنظور .

. بيع الحكومة إنتاجها من النفط (كاستثمارات خارجية لعشرات السنوات القادمة) .
. تدمير الصناعة العراقية الثقيلة ، والمتقدمة التي يعتمد عليها الاقتصاد في نموه التقليدي ، مع عدم إتاحة الزراعة فرصة التعويض عن هذا الدمار لتضرر وسائلها التقنية .
تلك كانت الخسائر ، أو بعض منها في الجانب الاقتصادي العام ، وفي الجانب السياسي كانت للعراق خسارة لا تقل أهميتها عن الاقتصاد منها :

. خروج العراق من كفة التوازن العربي الإسرائيلي للفترة الحالية ، والمستقبل القريب والمتوسط ، وهو أمر قد يدفع إلى تهيمشه ، والاستمرار على إضعافه حتى بعد التغيير إلى النظام البديل .

. الانكفاء إلى الداخل والانشغال بمشاكل تهم الحاكم ، وتثبيت سلطته قبل التغيير ، والانشغال بالإنسان العراقي ومستوى عيشه بعد التغيير ، الأمر الذي سيقبل من فرص قيام العراق بدور استراتيجي في المنطقة .

. توقيعها اتفاقات ، ومعاهدات ، وقبوله شروط أخلت بسيادته ، وأضعفت حكومته أمام العرب ، والعالم ، وأمام العراقيين بشكل عام .

. تحميله المسؤولية القانونية لبدأ الحرب مع إيران ، وبالتالي كل التبعات المترتبة عليها .

. وفرت نتيجة الحرب أوراق كثيرة ومهمة للأمريكان ، يسهل استخدامها ضد العراق للحصول منه على استجابات لا يمكن تقديمها في ظروف أخرى .

. أبقت نتيجة الحرب العراق في وضع قلق من الناحية السياسية ، حيث الحماية التامة لقوات الأمم المتحدة في الشمال ، والحماية الجوية الأمريكية البريطانية في الجنوب ، وضوابط الحصار ، ولجان التفتيش وغيرها .

كذلك كانت للحرب نتائجها السلبية ذات الأبعاد القريبة ، والبعيدة على المستوى الاجتماعي منها :

. تصاعد وتأثر التفكك الاجتماعي ، وظهور ميول جادة لهجرة شبه جماعية إلى خارج العراق خاصة من الشباب ، والعقول العلمية ، والتخصصية ، بلغت أعدادها المعلنة (صحافيا) بحدود أربعة ملايين عراقي .

. تزايد الفوارق الطبقة باختفاء الطبقة الوسطى ، واتساع الهوة بين الطبقة الفقيرة " التي تزداد فقرا وعددا " والغنية " التي تزداد غنا " .

. مغالاة السلطة في إجراءات التفرقة ، والتمييز وخرق حقوق الإنسان لغرض الردع والحيولة دون القيام بعمل يهدد وجودها .

. التوجه الطائفي ، والعشائري ، والقومي ، والإقليمي لعموم المجتمع العراقي كتعويض للشعور بالتهديد شبه المستمر .

. الخرق الفاضح للنظام القيمي العراقي حيث الغياب الملموس لقيم مثل التكافل ، والتعاون ، والتضحية وغيرها ، وحلول أخرى بديلة مثل الذاتية ، والرشوة ، والمحابة ، وغيرها .

وختاما يمكن القول :

إن حرب الخليج الثانية فعل تضافرت عدة عوامل في حدوثه على المستويات الدولية ، والإقليمية ، والمحلية ، كان العراق بضوء تركيبة حكومته الفردية التسلطية الأداة المنفذة.

وكان حاكمه صدام بخصائصه الشخصية الطرف الرئيس في حدوثها إذ مهد بافتعاله أزمة مع الكويت ولجوئه إلى استخدام القوة للتعامل معها إلى تدخل أمريكي تحت مظلة الأمم المتحدة ، طالما انتظرت حدوثه لتطبق نظريتها في التواجد الفعلي بالمنطقة بأقل ما يمكن من الخسائر ، وبقبول معقول من دول المنطقة وشعوبها .

وهذا ما حصل ليكون من بين أهم نتائج الحرب في جانب الحلفاء .

تقابله خسائر عديدة لعرب الخليج من اقتصادهم ، ونموهم ، واستقرارهم الاجتماعي ، وكذلك خسائر للعراق سياسية واجتماعية واقتصادية تعبوية واستراتيجية سوف لن يقوى على استمرار تحملها في المديات البعيدة .

أما بالنسبة إلى خسائر العسكر فقد تكتمت الحكومة عليها .

لكن آخر إعلان للحلفاء أكدوا فيه أنهم قد اسروا 62,400 في حين أشار العراق أنه أسر خمس وأربعون عسكريا بدأت خطوات تبادلهم يوم 4 آذار .

أما القتلى ، والإصابات بأنواعها المختلفة التي لم يذكرها العراق في جانبه فقد قدرتها مصادر أخرى بما يزيد عن مائة ألف ضحية .

القسم الثاني عشر انتفاضة شعب

الانتفاضة من وجهة النظر النفسية سلوك بالضد من القهر والاضطهاد ومن الناحية العسكرية قتال من أجل التغيير ومن جانب الحكومة تمرد ، وأعمال غوغاء ، وصفحة غدر وخيانة .

إرهاصات حرب الخليج

قليل من العراقيين قد تنبه في حينه إلى نوايا صدام حسين ، ودوافعه لإصدار أمر الانسحاب المفاجئ من الكويت مساء يوم 25 شباط 1991 في أخرج ساعات المواجهة القلقة بين الجيش العراقي بفيالقه الخمسة ، وقوات الحلفاء الذي تسبب في حدوث الكارثة عسكريا وإنسانيا. وقليل منهم قد أدرك نوايا الأمريكان ودوافعهم في قطع التماس مع فرقة مدرعة للحرس الجمهوري كانت قد حققت اشتباكا مع قوة مدرعة حليفة في قاطع الفيلق الأول قال الإعلام الحكومي العراقي أنها قد خاضت قتال دروع مثالي ، وسكت عنها القادة الحلفاء .

ولم يجد أحد في وقتها تفسيراً لاستثنائها فرقة للحرس جاهزة أن تكون درسا في التدمير . ولم يتوقف الذين يفتشون عن الحقيقة عند هذه الفرقة ، بل وسألوا عن أسباب التفريق الذي سلكه الحلفاء بين الجيش العراقي ، والحرس الجمهوري في جانبي الخسائر إبان مرحلة القصف التمهيدي قبل الهجوم البري التي دمرت الجيش ، وأخرجت الحرس بالقليل منها ، أو أثناء التملص من الطوق الذي فرضته قواتهم في وصولها ضفة نهر الفرات في الناصرية وسماح طائراتها وهي تسود السماء العراقية لفرق الحرس الجمهوري أن تنسحب على طريق واحد تحيط به المياه مسافة طويلة في أهوار الجنوب برتل طويل في الوقت الذي قصفت وحدة من الفيلق الرابع كانت تتنقل على الطرق من التنومة إلى العمارة ، ولم تسمح لقوات الفيلق الأول التنقل على الطريق السريع بصرة . ناصرية . ديوانية بقصد الوصول إلى كربلاء .

آراء في النتائج الجانبية للحرب

أسئلة كثيرة أثرت في حينها ، لم يجد لها العراقيون إجابة مناسبة عند العسكريين أداة الحرب المثلومة ، ولا عند السياسيين المصابين بالصدمة ، لأن الإجابة عنها جميعا كانت محصورة عند صدام الذي أدار دفتها من الجانب العراقي ، وعند الرئيس بوش الذي قاد ركبها من جانب الحلفاء . لكن مثل تلك النوايا ، والأسئلة التي تحفظ الطرفان على البوح بها ، أو الإجابة عنها ، ألقي تطور الأحداث فيما بعد قليل من الضوء على مساحاتها بمستوى أسهم في توضيح بعض جوانبها نسبيا .

إذ أن أمر الانسحاب الذي عده صدام قبل شهر من إصداره كفرا لا ينبغي التفكير به قد اتخذه في وقت كان من أكثر الأوقات حرجا للمدافعين المتعيين ، واستعجل في تنفيذه بطريقة أوحث للجنود المنهكين أن أمرا يحصل في الأفق أكثر خطورة من كسر صدام لأمره السابق . وتبين أنه قرار قد اتخذه وجازف بمصير الجيش العراقي ليحتفظ بالحرس الجمهوري أداة سليمة قادرة على التعامل مع تمرد شعبي داخلي وشيك الوقوع ، رصدت الأجهزة الأمنية ، والحزبية مؤشرات له بعد الهجوم البري للحلفاء مباشرة كانت بدايته :

. هجمات بسيطة على بعض النقاط العسكرية في منطقة الأهوار ، والأماكن المعزولة .
. أعمال تحد لسلطة الدولة من بعض العشائر الجنوبية .
. هجمات متكررة على الربايا العسكرية في أقصى الشمال العراقي في كردستان .
وتلك مؤشرات يمكن أن يكون الحلفاء قد حسبوها ، وتحسبوا لها يوم:
توقفوا عن مطاردة فرقة الحرس الجمهوري المذكورة أعلاه ثاني يوم الهجوم، وسمحوا لها أن تنسحب بطريقة أثارت استغراب قائدها وهيئة ركن الحرس الجمهوري .
ركزوا على تدمير هيكلية الفرق العسكرية الأخرى للجيش النظامي في الموضع الدفاعي ، وعلى باقي أسلحتها ، ومعداتها على طريقي الانسحاب إلى البصرة دون التأثير على هيكلية ، وفاعلية الحرس الجمهوري ، ودروعه. التوقف المفاجئ لطلائع قوات الحلفاء عند مدينة السماوة (250 كم) جنوب بغداد وهي في الطريق إليها كأحد أهداف الحرب رغم عدم وجود مقاومة ، بل وبالعكس كانت هناك رغبة لدى الشارع العراقي ، وأمنيات بوصولها إلى العاصمة ، ومساعدتهم من أجل التغيير .
السماح غير المشروط في خيمة صفوان للطائرات السمتية العراقية للطيران في جميع الأجواء العراقية (إذ بدأ أول تحليق لها يوم 6 آذار مع بدا الشروع في الهجوم المقابل على المنتفضين في البصرة وغالبية مدن الجنوب) .
عندها وقف العراقيون ، وغيرهم في العالم مشدوهين أمام حالة التحول المفاجئ ، وغير المعهود في سير الحرب على حافات الخليج بعد أن تبين أنها لم تستهدف من تسبب بها ، مثل باقي الحروب ، بل وعلى العكس من ذلك تحولت فجأة لدعم بقاءه حاكما على شعبه المظلوم ، ونمرا ورقيا على الجيران القريبين .
وبدلا من معاقبته استهدفت ما تبقى من العراق .

عندها أدرك الكثيرون أن لذاك التحول أسبابه العديدة :

يتعلق بعضها بالتوازنات الطائفية في المنطقة بعد أن توقعوا أن التمرد الشعبي على الحكومة قد يقود إلى حكومة شيعية في العراق ، تجاور إيران من الشرق وسوريا ذات التأثير العلوي من الغرب ، وتمتد إلى الجنوب اللبناني الشيعي . ويتعلق بعضها أيضا بنوايا تكوين هوة كبيرة في التوازن لصالح إسرائيل تعتمد على إخراج العراق قوة عسكرية كبيرة ، وقوة نووية محتملة تمهيدا لفرض واقع معين للسلام ترتضيه إسرائيل ، ويضطر إلى قبوله العرب وهم في حالة الوهن والكسران .

وتلك نوايا لن تتحقق إلا في حالة التدمير المنظم للقوة العسكرية العراقية الرئيسية ، وكذلك لبناء التحتية والإبقاء على الحكومة التي تسير في إدارتها على تدمير ما لم يستطع الحلفاء تدميره في الجوانب النفسية ، والمعنوية . ويتعلق بعضها الآخر بضرورة الإبقاء على صدام حسين في سدة حكم العراق لتحمله أوزار الحرب ، وآثارها ، وغراماتها بطريقة تفي بتسديد كلفها من ناحية ، وتعطي وقائعها درسا للآخرين في العالم المتخلف (النامي) لأن يتجنبوا السير على طريقته غير الموزونة من ناحية ثانية .

تصدع السلطة الضابطة

كل تلك الاحتمالات الواردة موجودة ، ومعها حال العراقيين الذين تعرضوا إلى القصف المتواصل قرابة الأربعين يوما كونت في نفوسهم مشاعر اليأس من حاضر مؤلم ، ومستقبل غير مضمون ، وأشعرتهم بالتدريج ضعف السلطة الضابطة التي : اختفت وسائل إعلامها بشكل شبه كامل .

انتقلت أجهزتها الأمنية من مقراتها المرعبة إلى دهاليزها المخفية . اعتكف وكلائها ومخبريها في بيوتهم مشغولين باجتراح الأفكار ، والتحسب من الانتقام . أغلقت غالبية الفرق الحزبية أبوابها بعد أن أرعبت العراقيين أكثر من عقدين من الزمان . غاب الجيش الشعبي وقواعده عن الشوارع ، والأزقة وعن المدهامات منتصف الليل . انسحبت دوريات الشرطة ، والمكافحة من الساحات العامة .

دمرت أجهزة المراقبة الإلكترونية في البدالات الخاصة بالاتصالات. ومع ذلك الإحساس بضعف السلطة الذي قلل من شدة الخوف منها ، أطلق العسكر الناجون من النكبة العنان لألسنتهم في التجاوز على رموزها الضابطة التي غابت سريعا عن مسرح الأحداث .

وبدأ الذين ملئوا الشوارع يكيلون السب ، والشتم لمن تسبب بحصول هذه النكبة وينتقد الضباط بشكل معلن أمر الانسحاب ، وأسلوب تنفيذه . وأخذ الكثير يلوم الحكومة على غزوها الكويت ، وعلى عدم انسحابها من أرضه قبل الكارثة ، وعلى عدم تعاملها مع الأزمة بعقلانية .

لقد تطورت كل تلك الأحاسيس ، والمشاعر ، والنوايا ، والاتجاهات لتفتح ثغرات في طوق الوعي العراقي المقيد بمساحات تنسجم سعتها طرديا ، والقرب من مركز الكارثة .

ثغرات في الوعي المحاصر

لقد فتحت الثغرات في جدار الوعي المحاصر بسعة سمحت للانفعالات العدائية المكبوتة أن تخرج سلوكا تدميريا بالضد من الحكومة ، وأجهزتها ، ورموزها ، وأدواتها بسرعة هائلة أفقدت أصحابها القدرة على كبحها ، أو السيطرة عليها .

وبسببها بدأت عند العسكر تجاوز على معايير الضبط والانتظام: إذ ترك غالبية المنسحبين من جبهة القتال في الكويت وبمواجهة السعودية وحداتهم ،

وتوجه كل واحد منهم على انفراد صوب أهله ، أو معارف له منتصف الطريق لا يقبل سماع خبرا عنها ، أو نصيحة بالالتحاق إليها.

. بادر البعض بترك عجلته العسكرية في طريق الانسحاب عندما شعر أنها أصبحت هدفا لملاحقة الطيران السمتي للحلفاء .

. وسارع آخرون أكثر عدوانية لحرقها أينما توقفت ، أو تخلصوا منها في زحمة العبور على شط العرب ، ومن نجح منهم في العبور بها استخدمها وهو في طريقه إلى المحافظات الأخرى لنقل الجنود مقابل ثمن .

. كذلك تبرع بها بعضهم لمن أعترض سبيل سيره على الطريق . توجه آخرون لترك دباباتهم ومدافعهم في شوارع البصرة لعدم قناعتهم بفائدتها يوم الشدة .

بدأت كذلك حالات من التمرد على مهنية العسكر وقيمهم السائدة تطورت سريعا إلى مستوى الرغبة الفردية للقيام بأعمال ضد الدولة ورموز سلطتها ، بدأها صباح يوم 2 آذار جندي باع بندقيته إلى رجل يشتري السلاح ويضعه في سيارة نقل صغيرة (بيكب) قرب ساحة سعد في البصرة ثم عاود واستردها والعتاد وتوجه بها صوب صورة لصدام على الجدارية المنصوبة وسط الساحة وهو بالزي العسكري يلوح بعلامة النصر ليمطرها بوابل رصاصه ، أمام المارة والقرييين .

الذين تسمر بعضهم في مكانه . واذهل البعض الآخر فكانت لحظة صمت ، صفق بعدها المتسمرون ، وهتف المذهولون بأعلى صوتهم هذه نهاية الظلم .

وبذا فتح الطريق أمام الآخرين ليتجاوزوا حاجز الخوف . أعقبه سائق دبابة (تي 62) استطاع الانسحاب بها من أبعد نقطة للمواضع الدفاعية العراقية في نقطة الحدود السعودية الكويتية على الخليج العربي ، وجد نفسه بعد رصاصات زميله جندي المشاة بمواجهة فكرة تكونت في مخيلته بشكل مفاجئ قبل أن يهم بالنزول منها بعد ليلتين من السياقة المتواصلة تحت ضغط التهديد بالموت ، ومشاهده المتكررة على الطريق هي :

أن يقوم بعمل ما يثني به على ما قام به زميله في الرمي على رمز الظلم والاضطهاد ، وبدأت تلك الفكرة تتكرر في سياقات تفكيره بشكل تسلطي لا يستطيع إبعادها وهو في أشد

حالات التعب والإعياء ، عندها أدار محرك دبابته وتوجه صوب الجدارية التي لم تترك إطلاقاً البندقية سوى خدوش ، وتشوهات على الصورة الماثلة عليها زاد من سرعته ليطيحها أمام نفس الحضور الذي انفتحت كل أساريه ، وبات الكثير يهتف بسقوط الحاكم ، فكانت تلك اللحظات أو مثلت الإيدان بانطلاق الانتفاضة .

تحرك المضطهدين

لقد انتشرت أحداث ساحة سعد على شكل إشاعات زاد من صياغتها ، وضخم من صورتها وبطولة القائمين بها في الطريق من قاموا بنقلها في عموم البصرة ، وأكدت وكالات أنباء أجنبية بعد أن صور مراسلوها بعض جوانبها عندما تصادف وجودهم قريباً من الساحة ، وأبرقوا بها خبراً إلى وكالاتهم يعد من تطور الأحداث بالضد من الحكومة . وبدأت خارج إطار العسكر ومحيطهم :

. هجمات متفرقة من سياسيين معارضين ، وعسكريين تركوا الخدمة عمداً وتوجهوا إلى الهور كملاذ بعيد عن عيون السلطة .

قاموا بعد تحسّسهم وقوع الكارثة أثناء الانسحاب بتنظيم تحرّشات ليلية على الأغلب بالضد من بعض المقرات ، ونقاط الحراسة على الطرق التي تتخلل الهور ، وتشجعوا لتكرارها لعدم وجود رغبة بمقاتلتهم من قبل القائمين عليها من الجنود المحبطين .

. أعمال مثيلة من بعض رجال العشائر التي تنتشر في المنطقة ، بدأت تتسع بالتدريج إلى عشائر أخرى في مناطق ثانية وثالثة .

. وكانت القشة الأخيرة في مجالها تلك العصا التي حملتها عجز من أهل الحيانية في البصرة تجاوزت السبعين من العمر متجهة تنادي طالبة الثأر من صدام الذي تسبب في مقتل اثنان من أولادها في القادسية ، وثالث في أم المعارك لتهجم بها على أفراد مركز الشرطة في منطقتها ، معطية إشارة البدء الرسمي للانتفاضة على السلطة بحدود الساعة التاسعة يوم 2 آذار رغم أن أفعال للتمرد ، والتجاوز قد سبقتها متزامنة مع تنفيذ الانسحاب من الكويت وتطوراتها .

بعد تلك الحادثة وحوادث أخرى قريبة من معانيها توجه الشباب ببنادق كانت معهم من قبل ، وأخرى اشتروها من العسكر ، وبعصي وسكاكين ، وكانت وجهتهم بالإضافة إلى مركز الشرطة مقر الجيش الشعبي ، ومن ثم الفرقة الحزبية .

ومن فوق سطوح المنازل المحيطة تزغرد نسوة فرحا لهمة الرجال لتتسع ظهر نفس اليوم أعمال مشابهة في منطقة الجمهورية ، والعشار ، وأبو الخصيب ، والهائلة وغيرها .

عدوى السلوك الجمعي

بات التمرد ضد معالم السلطة كرة ثلج تتدحرج سريعا باتجاه ما يمثل الحكومة من مراكز ومواقع ، وما يمثل الحزب من مقرات ، وأخذت تلك الكرة تكبر بتقادم الوقت حتى زاد عدد المساهمين ، وفقدت السيطرة على الجموع التي توجهت مندفعة بسبب :
. الرغبة الوطنية في القضاء على سلطة النظام البعثي الحاكم ، وصدام حسين قبل التفكير بنوع ، وماهية السلطة البديلة .

. الانتقام من الأجهزة الأمنية التي تمثل مقراتها رموزا للقهر ، والقتل ، والتعذيب ، لأناس مروا في غرفها الانفرادية ، وسرايها تحت الأرض 0 وآخرين سمعوا قصصا مخيفة عن أساليبها في الموت والتشويه .

ومجاميع ثالثة مرعوبين من احتمالات المرور بها التقوا جميعا في الطريق إليها .
اقتحموا أبوابها .

قتلوا من تبقى في داخلها من المنتسبين .

كسروا أقفال سجونها الحصينة ، وأطلقوا سراح من فيها ، ليضيفوا بعملهم هذا أرقاما أخرى ، وأنواعا من المندفعين بالصد من الحكومة بمشاعر مقت لحاكمها الأعلى ، ورموزها الكثيرين .

. أخذ الثار من بعثيين قاموا بكتابة التقارير التي أوقعت أحد الأخوة ، والأقرباء في شرك الأجهزة الأمنية .

ومن بعثيين تبرعوا لإلقاء القبض على هارين من الخدمة ، وساهموا في إعدامهم بحضور عوائلهم ، وأبناء المحلة والعشيرة .

وبعثيين تجاوزوا على أرض ، أو محل تجاري ، أو قبلوا دارا ، أو سيارة كرشوة لتسوية حال ابن هرب من ساحة قتال لا يؤمن بأهدافها المعلنة ، أو أخ اتهم جزافا بموضوع ضد الحكومة لا أساس له .

. استثمار الوضع المضطرب ، والتحرك سريعا بغية الحصول على مكاسب مادية تعوض جهد الإمكان حالة الجوع ، والعوز التي يعانون منه. جمع غفير التقى فيه المدفوعين بالتعويض السريع عن الحاجة الناقصة ، وتجاوز العوز مع الراغبين بالتعويض عن

الإحساس بالحيث من حكم الحزب من سكنة المناطق الجنوبية ، والشمالية الكوردية الذين عاشوا وضعاً مضطرباً قوامه التفرقة ، والتميز على أساس طائفي ، وقومي بعض مؤشرات على سبيل المثال :

جميع محافظي المحافظات الجنوبية من غير أبنائها ، وجميع محافظي المحافظات الشمالية الكوردية من غير الكورد .

أكثر من 97 % من قادة الفيلق ، والفرق في الجيش ، و 100% من قادة الحرس الجمهوري ، والحرس الخاص ليسوا من أبناء الجنوب ، وكذلك ليسوا من الكورد ، أو التركمان ، أو الآشوريين .

بحدود 90 % من الضباط القادة للجيش العراقي ، و 90 % من عموم ضباط الحرس الجمهوري ، و 100 % من ضباط الحرس الخاص ليسوا من أبناء الجنوب ، ولا من الكورد ، أو التركمان ، أو الآشوريين (بينما يشكل أبناء هذه الطوائف ، والقوميات حوالي 90 % من جنود ، وضباط صف الجيش العراقي بكافة صنفه ووحداته .

حوالي 80 % من الوزراء ، والمدراء العامين ، وأعضاء القيادة القطرية للحزب الحاكم هم من غير الكورد ، ولا من أبناء الجنوب ، بينما يشكل سكنة تكريت غالبيتهم .

أكثر من 90 % من ضباط الأجهزة الأمنية " الرتب العليا " ، والموظفين الكبار في الرئاسة ودوائرها هم كذلك من غير الكورد ، والتركمان ، والمسيحيين ، ولا من أبناء الجنوب .

وبالإضافة إلى ذلك التمييز الذي أشعر أكثر من 80% من الشعب العراقي بالاضطهاد ركزت حكومة البعث جهودها للتنمية ، والتطوير ، والبناء طيلة عشرين سنة قبل الانتفاضة على بغداد ، وصلاح الدين أسبقية أولى ، ومن ثم الموصل ، والأنبار أسبقية ثانية ، وباقي محافظات العراق الجنوبية ، والشمالية الكوردية أسبقيات ثالثة ، ورابعة تبعا للاعتبارات المذكورة .

هذا بالإضافة إلى استمرار غالبية محافظات الجنوب (البصرة ، ميسان ، ذي قار ، واسط) ساحة حركات عسكرية طيلة ثماني سنوات الحرب مع إيران ، وحرب الخليج الثانية ، ومحافظات الشمال (السليمانية ، أربيل ، دهوك) ساحة حركات شبه مستمرة منذ الستينات وحتى انتهاء حرب الخليج الثانية ، وبدء مرحلة الحماية الدولية لها .

وهو أمر تسبب بالإضافة إلى الضرر في بعض البنى التحتية إلغاء أية مشاريع لتطويرها ، وإن كانت بأسبقيات متأخرة .

هذا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن 65 % من سكان العراق على وجه التقريب هم من الوسط ، وجنوب الوسط ، وإن معظم نفط العراق يستخرج من حقول الجنوب وكركوك ، وأن غالبية الأرض الزراعية تقع في الوسط ، والجنوب . منها يتبين :

أن العدالة في التعامل لعموم المناطق العراقية غير موجودة .
وإن هناك تدميرا متعمدا للتوازن الاجتماعي العراقي ، وتغيرا مقصودا لجغرافية السكان ، والبيئة بما يخدم أهداف الاستمرار بالحكم . وإن صدام ، وحكومته قاما بخرق واضح ، ومصادرة مقصودة لحقوق العراقيين بكافة أديانهم ، وقومياتهم ، وطوائفهم ، واتجاهاتهم السياسية ، وانتماءاتهم القبلية الأمر الذي انعكس على دوافع نفسية مضافة للقيام بفعل الانتفاض غير مباشرة بينها :

. التوجه إلى إشباع حاجات الاستمرار على البقاء " الطعام ، الشراب ، الدواء ، الوقود ... الخ " التي أحسوا تقصير الحكومة في تأمينها وبأي شكل من الأشكال .
. الأمل في المشاركة بإدارة مؤسسات الدولة سواسية مع باقي العراقيين .
. العيش بمستوى معقول من الاستقرار ، والأمان في بيئتهم الاجتماعية ومناطقهم الجغرافية.

. الرغبة في التغيير إلى نظام فيه قدر من العدالة ، والمساواة ، وحرية التعبير عن الرأي ، والمعتقد للعموم .

. الحصول على حق تقرير المصير بالنسبة لكورد الشمال العراقي .
. التخلص من رموز الحكومة المتسلطة التي تثير النفور مثل دوائر الأمن ، والمخابرات ، والاستخبارات ، والمسؤولين الحزبيين .

كل تلك العوامل كانت دوافع لحدوث تحد قوي ضد السلطة ، والانتفاض على ضوابطها تفاعلت مع بعضها تفاعلا كان كافيا في ظل ظروف فقدان القيادة ، والسيطرة لأن :
يقلل من شدة الإحساس بالخوف الذي كونته في النفوس لعقدين من الزمن .
ينتج عنفا وجهته السلطة ورموزها غايته تدميرها بأي شكل من الأشكال .

تصاعد مستويات الإثارة

إن النظر إلى الانتفاضة (فعل العنف ضد السلطة) من وجهة نظر نفسية نراه فعل قد تأسس في العقول أفكارا سرعان ما تحولت إلى سلوك لفظي ثم ومن بعده سلوك حركي عنيف يمكن تصور تسلسله المنطقي في تطورات تصاعدت تدرجيا قوامها :

انتقادات علنية إلى صدام ، وحكومته .
انفراط الضبط العسكري لعموم الوحدات العسكرية المنسحبة باستثناء قوات الحرس الجمهوري والحرس الخاص .
إطلاق النار في الهواء بشكل غير منضبط لثلاثة أيام متصلة قبل 1 آذار .
توجيه النيران على صور صدام ، وجدارياته الموجودة في الشوارع بعد 2 آذار .
مهاجمة سيارات عسكرية متفرقة للحصول على الوقود ، وبعض أنواع الأسلحة الخفيفة .
قيام بعض سواق السيارات العسكرية بتعطيلها عمدا للتخلص من مسئولية تواجدهم فيها ، والانسحاب منفردا .
ظهور جماعات مسلحة من خارج هرم السلطة في بعض شوارع البصرة ، ومدن أخرى في الجنوب صباح يوم 2 آذار ، وقيامهم ببعض الأعمال بالضد من السلطة .
توجه كثير من المدنيين " نساء ورجالا " بدون تنظيم إلى الشوارع يحملون العصي ، والأسلحة الخفيفة ، والهجوم على نقاط الأرزاق ، والتموين ، ومخازن الدولة الاستراتيجية بعد 2 آذار .
نشاط بعض المرجعيات الدينية للسيطرة ، وتوجيه ، وقيادة الجموع البشرية غير المنظمة في أغلب المناطق الجنوبية .
انتشار الإشاعات ذات الصلة بانهيار الحكومة⁸² ، وبالتمرد ، والعصيان ، والهجوم على رموز الحكومة بسرعة كبيرة ، وبتأثير فاعل على طرفي الصراع " جمهور الانتفاضة ومسؤولي الحكومة " .
اتساع الأعمال العسكرية للبعض القليل جدا من فصائل المعارضة ، وأبناء العشائر في الأهوار ، والريف لغالبية المحافظات الجنوبية بعد يوم 2 آذار 1991 .

⁸² . من بين الإشاعات التي انتشرت آنذاك (طلب صدام وعائلته اللجوء إلى الجزائر) .

هروب المسؤولين الحزبيين ، والحكوميين ، والأمنيين من مقراتهم في المدن إلى خارجها ، والتوجه إلى المقرات العسكرية ، وإلى بغداد ، ومحافظات أخرى .
انتقال معالم الانتفاضة إلى جميع محافظات الجنوب ، ومن بعدها جنوب الوسط لتشمل ثلاثة عشرة محافظة ، بالإضافة إلى بعض أقضية ، ونواحي ، وقرى محافظة ديالى المحافظة الرابعة عشرة .
إن الدوافع في الجو الانفعالي كثيرة ، ومتشعبة يصعب حصرها في تلك الظروف التي وجد العديد أنهم في موقف القيام بعمل ما ضد الحكومة .

التحرك غريزيا

كان اليوم الأول للانتفاضة في البصرة متميزا ، انتهت فيه مقرات مديرية أمن البصرة .
مديرية مخبرات الجنوب .

منظومة استخبارات المنطقة الجنوبية .

التي قاتل المتبقين في جميعها بكفاءة عالية بعد أن تيقنوا أن حياتهم مطلوبة ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المقرات العسكرية الخدمية التي انفتحت في المدارس والمؤسسات ، وتركت القيادة العامة للقوات المسلحة البيت الذي كانت تدير منه المعركة وتوجه أعضائها إلى مقر إحدى القيادات العسكرية خارج المدينة ، وكذلك فعل العديد من منتسبي الجهد العسكري الخدمي خاصة من الضباط .

وسقطت البصرة بشكل كامل في يد المنتفضين في اليوم الثاني ، ولا أحد يعلم فيما إذا كانت هناك قيادة لهذا الجمع الثائر .

وتبين لا حقا أن الغالبية تتحرك بغريزتها التقليدية ، لكنهم وبعد أن أخرجوا ما بداخلهم من إنفعالات نفسوا جزء من الانفعال بدأ البعض يفتش عن الرأس ، وسعى البعض الآخر لأن ينتج قيادة ، فلم يكن بالساحة مع المنتفضين غير علماء الدين ، وبعض شيوخ العشائر الذين وجدوا الفرصة سانحة أن يوسعوا بخبرتهم الجيدة في التعامل مع الجمهور هامش المشاركة التي غاب عنها السياسيون المحترفون. وانعزل على جانبيها الأساتذة الجامعيون ، والباحثون المختصون .

وابتعد وأبعد عنها المثقفون والإعلاميون (إلا في حالات قليلة لم تكن إعدادها مؤثرة على سير العمل ، ونتائجه) .

وأستهدف في بدايتها البعض من الضباط⁸³.

⁸³ . * قتل في اليوم الأول للانتفاضة اللواء الركن حميد شاغي الكناني آمر صنف الهندسة العسكرية وهو يشرف على نصب جسر لمرور السابلة المدنية والعسكرية بعد تدمير كافة الجسور المؤدية إلى البصرة . وأعدم ضباط آخرين في الناصرية من قبل المنتفضين منهم العميد زهير السامرائي والعميد وعد الله والعقيد الركن عبد الكريم السمار وآخرون ، حتى تملك الضباط هاجس الخوف الممزوج بالدهشة والحيرة من احتمالات التهام الانتفاضة المؤسسة العسكرية وأفراها.

لكنها استمرت وزادت فاعليتها تحت زخم الانفعال لتنتقل أخبارها سريعا إلى محافظات الجنوب الأخرى التي هيأت الدوافع ، والظروف المشابه أهلها للقيام بنفس الفعل .

تتابع السقوط

عصر يوم 2 آذار اندلعت بعض الأعمال بالضد من رموز السلطة داخل مدينة العمارة ، وامتدت سريعا لتسقط المدينة في اليوم الثاني ، وكذلك الحال في مدينة الناصرية التي دخلها في ذلك اليوم بحدود عشرين شخصا (من المعارضين الموجودين في الأهوار) توجهوا إلى مقرات الحزب ، والأمن واندفع الجمهور من خلفهم ألقي القبض على المحافظ طه الهيبي وأركب في سيارة حمل صغيرة ليلف المحافظة ، كذلك أخذ مدير الأمن أسيرا وقتل في الهجوم المقابل .

أما في الكوت فقد امتدت إليها الانتفاضة في ذات الوقت ، وامتدت إليها إجراءات الحرس الجمهوري لاقتحامها سريعا لأهميتها .

في مدينة النجف حاولت الحكومة التحسب مسبقا إذ أرسلت لها قواعد جيش شعبي من الحلة ، ومدن أخرى وعززتها بمفارز أمن من بغداد ، ونسبت الفريق ماهر عبد الرشيد ، وعضو القيادة القطرية عبد الرحمن الدوري للإشراف على الجهد الحكومي فيها ، حيث دعي الناس يوم 3 آذار عن طريق مكبرات صوت للتظاهر سرعان ما توسعت مظاهرتهم تدريجيا لتتحول إلى انتفاضة أسقطت المدينة جميعها ، وامتدت من بعدها إلى كربلاء . أما في بابل فقد سقطت غالبية المدينة (الصوب الكبير) فجر يوم 3 آذار ، وكذلك الحال لمدينة الديوانية والسماوة التي بقيت بيد المنتفضين لحولي خمس وعشرين يوما . وفي ديالى لم يتمكن المنتفضون من الدخول إلى المدينة وفرضوا سيطرتهم على ما يحيط بها من أقضيه ونواحي .

في يوم 5 آذار أشيع بين أهالي محافظة بغداد أن أعمال الانتفاضة قد امتدت إلى مدينتي الثورة ، والشعلة داخل العاصمة ، وإن الأجواء في داخلهما غير طبيعية ، حيث من الصعب لغير أهالي المنطقة التجوال في الشوارع .

وكانت هذه في الواقع حقائق⁸⁴ لتحرك فعلي لأهل تلك المدن الشعبية المحيطة ببغداد ، والمرتبطة جذورها بالجنوب عشائريا ، واجتماعيا ، ودينيا ، وعاطفيا على إثرها بدأت الحكومة بتسيير دوريات عسكرية في عموم شوارع بغداد تأمر السيارات للتوقف بقصد التفتيش عن السلاح ، والمارة بهدف التدقيق في هوياتهم ، وأنزلت قوات خاصة ، ومفارز من الأمن والمخابرات غطت كل شوارع المدينتين المذكورتين .

أما في كردستان فكان الأمر مختلفا إذ أن الانتفاضة قد قادتها في أربيل ، والسليمانية ، ودهوك قوى البيشمركة شبه العسكرية المنظمة للحزبين الكورديين الرئيسيين (الديمقراطي الكوردستاني بزعامة مسعود البارزاني والاتحاد الوطني الكوردستاني بزعامة جلال الطالباني) وتمكنت يوم 9 شباط من إسقاط سلطة الحكومة في عموم تلك المحافظات ثم توجهت جنوبا باتجاه كركوك يوم 10 منه لتسقطها هي الأخرى بذات السهولة في اليوم الثاني للهجوم

والأمر مختلف في كردستان أيضا من ناحية السيطرة على الشارع حيث لم تسجل أعمال تجاوز على المال العام الذي حاول الحزبان فرض السيطرة عليه كل في منطقة نفوذه .

وبذا تسجل سقوط سلطة الحكومة في أربعة عشر محافظة عراقية، بقيت حتى ذلك الوقت أربع فقط فيها سلطة الدولة قائمة هي بغداد ، وصلاح الدين ، ونيوى ، ومركز مدينة ديالى .

مركز إدارة العمليات الخاصة

لقد تحركت الحكومة بسرعة فشكت مع بدايات التملل للتمرد على الدولة مركزا لإدارة العمليات الخاصة في مقر مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ، واجبه الرئيسي إدارة جهد الدولة العسكري ، والأمني لقمع الانتفاضة ، وبضوء هذا الواجب وزع المركز

⁸⁴. حضر إلى داري بالساعة العاشرة مساء يوم 4 آذار ضابط زميل لي ، مبينا أن جندي من دائرته قد حضر إلى بيته قبل نصف ساعة ليخبره أن هناك نوايا لشباب مدينة الثورة في الهجوم على مراكز الدولة ومؤسساتها ، وهناك تنسيق بينهم وشباب آخرين في مدن وأحياء بغداد ، وإن الضباط بالرتب العالية قد يكونوا من بين أهدافهم ، ونصح ذلك الجندي بأن يغلق الضابط داره ، وينتقل إلى أخرى غير معروف هو فيها بعد أن أنهى الصديق روايته أكد صحتها بالتأسيس على اعتراف الجندي (ثقة بالضابط) مشاركته في الاستعدادات الجارية ، وطلب مني ذات الطلب الذي جاءه الجندي من أجله .

زمر لضباط الاستخبارات بالرتب العالية (من مقدم فما فوق) على جميع المحافظات وزودهم بأجهزة اتصالات وسيارات ملائمة للتنقل ، وكلفهم بمهام :
ضباط ارتباط مع المركز لنقل المعلومات ، واستلام التوجيهات ، وتعبيرها إلى الجهات الأخرى القريبة من الحكومة وجهدها .
تنسيق الجهود والأوامر بين المحافظين و المركز .
كذلك أرسل ضباطا من الأجهزة الأمنية برتب صغيرة⁸⁵ (ملازم / ملازم أول نقيب) إلى المحافظات المنتفضة بواجبات :
جمع المعلومات عن الأحداث التي تجري ، وتزويد المركز بها حال تيسر الوسيلة المناسبة .
توثيق التحرك الذي يقوم به المسئولين في الانتفاضة ، والعسكريين المشاركين بها فوتوغرافيا .
التغلغل بين المنتفضين ومحاولة قيادة جموعهم ميدانيا ، والسعي من خلال وضعهم هذا إلى حرف الانتفاضة بالاتجاه الديني الطائفي .
حيث وصل عديد من الضباط المذكورين إلى المحافظات المعنية بالتنقل الاعتيادي .
أو مشيا على الأقدام أحيانا .
وقامت طائرات سميتة بنقل آخرين ليلا إلى المدن البعيدة خاصة البصرة ، والعمارة ، والناصرية ، والسماوة .

⁸⁵ كان لأولئك الضباط السبق بإعطاء تصور عن طائفية الانتفاضة استثمارته الحكومة لاستثارة البعض من عشائر العراق في مثلث الجزيرة ودفعتها للمشاركة في قمع الانتفاضة بعد أن استنجد بها صدام بلغة تحذير علنية من حكم شيعي محتمل إذا ما نجح أبناء الوسط والجنوب في تحركهم ، إذ بين أحد الضباط المكلفين بتلك المهمة أنه أول من هتف بعبارة (ماكو ولي إلا علي ونريد حاكم جعفري) في مدينة العمارة . وكان لجهد أولئك الضباط أهمية كبيرة في التحقيق مع المنتفضين في الرضوانية وسجن رقم واحد في معسكر الرشيد إذ تهيأت للقائمين بالتحقيق وثائق ، وصور لتحركات ونشاط الكثيرين ممن أسهموا في الانتفاضة ، أو كانوا مؤيدين لها في حضور تجمع ، أو توزيع مواد ، وغيرها ، وبسببها أعدم الآلاف دون الحاجة لبذل الجهد الكبير في التحقيق معهم ، وإنما الاكتفاء بالتعرف على أحدهم من قبل أولئك الضباط لاحقا ، أو بوجوده في صورة من الصور .

حيث أكتشف أمر بعضهم في الساعات الأولى وأعدمو فوراً .
بينما أدى البعض الآخر مهامه بكفاءة عالية ، وانتظر في موقعه حتى وصول قوات الحرس الجمهوري ليكون دليلها في عملية التطهير .
وانسحب القليل منهم مع الأهالي بعد انتكاسة الانتفاضة ليصل، وإياهم إلى السعودية .
عاش في مخيم رفحة مثل غيره من المنتفضين .
حصل على حق اللجوء السياسي إلى دولة أخرى عن طريق بعثات الأمم المتحدة .
المساهمة باللجان التحقيقية التي تشكلت بعد انتهاء الانتفاضة مباشرة .
من ممثلين عن جميع الأجهزة ، وبينهم ضباط ممن اشترك في الواجبات الاستخبارية المذكورة⁸⁶ وقد كانوا جميعاً من أقسى وأعنف المحققين .
إن الحكومة التي تعيش حالة قلق فعلية تحركت بسرعة وكفاءة .
وناورت على كافة المجالات إذ لم تكتف بإرسال الزمر، وحرف الانتفاضة .
وتسريب بعض الهاتفات إلى الإعلام العالمي لنشرها بصيغة دعوة للمنتفضين إلى إقامة نظام حكم إسلامي على غرار الحكم في إيران .
وإنما توجهت كذلك إلى :
التحسب عسكرياً نشر القوات المدرعة للحرس الجمهوري طوقاً للدفاع عن العاصمة إزاء أي هجوم يأتي من المحافظات الأخرى .
وسيرت دوريات من الحرس الخاص في شوارعها الرئيسية ، وطرقها المهمة .
ووزعت دوريات من الأجهزة الأمنية في مفارق الطرق ، والشوارع ، والساحات .

⁸⁶. كان طابع التحقيق مع المتهمين بالاشتراك في الانتفاضة قاسياً إلى أبعد الحدود ، وكانت النتيجة مذبحه لآلاف الضحايا بطريقة تنم عن إن اللذين عادوا من ضباط الأجهزة الأمنية بعد مشاركتهم الاستخبارية في أحداث الانتفاضة قد تشبعوا بمشاعر العدوان بالصد من أهل العراق في تلك المحافظات المنتفضة . وإن المشرفين عليه قد عبثوا نفسياً بالحقد ، والبغض المضاد لسكان الوسط والجنوب وإن أوامر قد صدرت إليهم بالتطرف في استخدام العنف مع المنكوبين . إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن غالبية من ألقي عليه القبض لم يكن مساهماً بفعل الانتفاضة عملياً ، أو إن مساهمته غير مباشرة ، لأن العراقيين يعرفون جيداً من يتلفظ بعبارة ضد النظام يحكم بالإعدام فما بال المشاركة في رفع السلاح بوجهه ، والسعي لإسقاطه ، وعلى ضوء معرفتهم هذه توجه معظمهم إلى السعودية ، والكويت وإلى قوات التحالف طلباً للأمان ، وبقي القليل الذي أخذ على حين غرة ، أو جرح ولم يجد من يخليه .

في نفس الوقت الذي سارعت للعمل على التضييل السياسي ، والأمني للحلفاء ، والعرب بقصد سحبهم إلى دائرة القلق من المستقبل المجهول لفعل الانتفاضة⁸⁷، وكلفت ما تبقى من الجهاز الحزبي بتنظيم حملات تفتيش ومداهمة إلى كافة الأحياء دون استثناء لجمع الأسلحة ، واعتقال بعض الأسماء التي يشك في عدم ولائها للحكومة كنوع من أنواع الاحتراز .

التحرك خارج العاصمة

مع انشغال الحكومة بالتحسب في بغداد ، وتحركها الدبلوماسي والمخابراتي في الخارج ، أعادت الطاقة الكهربائية إلى معظم الأحياء البغدادية ليلا ، وبسرعة عالية ، إذ بدأت هذه المرة وعلى غير عاداتها بالأحياء الفقيرة أسبقية أولى تلتها الأحياء المترفة أسبقية ثانية لأسباب أمنية ، وعندما تأكدت من فرض سيطرتها على كامل العاصمة بدأت بالتحرك خارجها ، إذ أرسلت علي حسن المجيد قائدا للجهد العسكري في البصرة الذي بدأ العمل بعد تقسيم البصرة إلى قاطعين : الأول قوات الفيلق الثاني بقيادة اللواء الركن إبراهيم عبد الستار ومسئوليته . تحرير مركز البصرة وما حولها حتى ناحية الهارثة .

⁸⁷ تسرب عن أجهزة الدولة الأمنية أن صدام حسين أرسل الفريق الطيار الركن الحكم حسن علي التكريتي مدير طيران الجيش آنذاك أحد الأعضاء البارزين في مركز العمليات الخاصة المنوه عنه في أعلاه بالتوجه إلى الأردن سرا ، وطلب اللقاء فورا مع مسؤولين سعوديين ، على أن يخبرهم أنه ومجموعة معه من الضباط القريبين منه قد تهيئوا تماما لقلب نظام حكم صدام حسين ، وأنجزوا كافة الاستحضارات ، وكل ما يطلبونه التدخل غير المباشر للقضاء على الانتفاضة لتتاح الفرصة لهم تنفيذ هذه المهمة، لكن هذا التسريب لم يتم تأكيده من مصادر أخرى ، رغم أنه قد يعطي تفسيراً لتغير الموقف السعودي المفاجئ من مشروع التغيير الذي سبق وإن أبلغت بعض تفاصيله وفدا وصل السعودية ، طلبت منه التهيؤ للسفر إلى العراق لتحمل مسؤولياتهم الوطنية في إدارة شؤونه بينهم :

الأستاذ سعد صالح جبر .

الدكتور أياد علاوي .

الأستاذ صلاح عمر العلي .

الأستاذ جواهر السورجي .

العقيد المظلي الركن عدنان محمد نوري .

وكذلك عراقيين آخرين مدنيين وعسكريين وصلوا إليها مع بداية الأحداث .

حيث تغير الموقف فجأة ، وأبلغ أولئك السياسيين المستعدين للعودة أن كل شيء قد توقف ، وهناك تغير في الموقف الدولي لا يسمح لمساعدتهم على التغيير ، وأن الخيار متروك لغيرهم ممن وصل أرضها من العراقيين للعودة إلى العراق، أو البقاء في ضيافة السعودية .

الفيلق الثالث بقيادة اللواء الركن صلاح عبود ومسئوليته من ناحية الهارثة داخل إلى حدود محافظة ميسان .

شرع الفيلقان بالعمل يوم 6 آذار ، إذ أشارت مصادر إخبارية خارجية إلى :
تمكن القوات من دخول بعض أحياء البصرة ذلك اليوم .

إن القتال مع الأهالي غير المنظمين عسكريا يشمل عموم المدينة .
وإن علي حسن المجيد يطلب مزيدا من القسوة والتدمير⁸⁸. أما وسائل الإعلام العراقية فلم تذكر شيئا عن عموم الأحداث ، واكتفت كل هذه الأيام بتوجيه النداءات التي تعبر عن ضرورة التضامن لحماية وحدة العراق وأمنه ، وسيادته .

لقد كان قليل من الثوار هم من الضباط ، ومعظمهم من الشباب المدنيين ، والمسرحين (الخارجين) من الخدمة العسكرية يفهمون جيدا استخدام السلاح بعد خبرة عديد من السنوات في الحرب، لكنهم لا يدركون فن التعبئة وقيادة الرجال. ولا يعون ما يقوم به صدام من حولهم وقريبا منهم.

اندفعوا تحت ضغط الغضب ، والرغبة في التخلص من الظلم بجميع الاتجاهها، واندفع معهم البعض من الراغبين في استغلال الفرص لسد حاجاته في الأزمات ، وعندما حققوا في صفحة الهجوم المقابل عليهم تماسا مباشرا مع قوات الحرس الجمهوري التي لم تكن قد عانت كارثة الانسحاب من الكويت ، بدأ البعض منهم يسأل عن الحاجة إلى الضباط القادة للتعامل مع الموقف ، لكن الوقت كان متأخرا بعد أن تغاضى المنتفضون في غالبيتهم عن التقرب من الضباط⁸⁹، أو تعمد تهميش الملحقين بهم ، ورفض بعض الذين سيطروا على الموقف في قسم من المحافظات الاتصال بالوحدات العسكرية ، وآمرها سعيًا لدفعهم إلى المشاركة الوطنية في التغيير ، معتقدين أن الأمر قد حسم وبات

⁸⁸. نقل عن مشاركين في الانتفاضة أن امرأة في أحد أحياء البصرة بقيت تنظر إلى جثة ابنها القتيل قريبا من منزلها ليومين مستمرين لا تستطيع تأكيد أمومتها له خشية قتلها من قبل القوات المهاجمة .

⁸⁹. يشير العميد توفيق الياسري أحد قادة الانتفاضة في الديوانية ، والحلة أن أحدا لم يتصل به ، والضباط الآخرين المساهمين في الانتفاضة في مدينته طلبا للمشاركة ، بل بادر وغيره من الضباط القلائل مبادرة شخصية وطنية ، كما يؤكد أنه لم يلمس وجود نوايا وخطط عند المنتفضين للاتصال بآمري الوحدات العسكرية بغية إقناعهم للاشتراك ووحداتهم ، وإن الحالات القليلة التي تأمن فيها اتصال كان بشكل فردي عن طريق المعارف والأقرباء .

الحكم لهم دون الحاجة إلى العسكر الذين تركوا في العقل العراقي إحياء مضادا لوجودهم في أعلى سدة الحكم .

لقد حدث ذلك وكان خطأ قاتلا ، وحدوثه بسبب إصابة البعض من المنتفضين ، أو القائمين على مفاصلها بوهم السيطرة ، وغرور الانتصار حتى إن قسما منهم لم يعد يسمع الحقائق من حوله ، ولم يقبل مناقشة الأخطاء، والتجاوزات قريبا منه ، وتصرف كما يتصرف البعثيين في التعامل مع غير البعثيين ، بينما ذهب آخرون أبعد من ذلك بكثير⁹⁰.

90. * أصر الشخصية الإسلامية التي حضرت مؤتمر المعارضة العراقية في بيروت مع بدايات الانتفاضة على سبيل المثال على عدم مناقشة المؤتمرين لأمر التدخل لدعم الانتفاضة سياسيا وعسكريا ، لأنها من وجهة نظر تنظيمه الذي يمتلك تواجدا على الأرض في الداخل... انتفاضة مخطط لها ، وقيادتها موجودة في الداخل تؤدي دورها على أتم وجه . وإن الأمر قد حسمه الثوار محذرا من أن أي تدخل من الخارج في الوقت الحاضر سيؤدي إلى فشلها . عندها اقتنع البعض من المؤتمرين بما جاءت به تلك الشخصية التي تتكلم بثقة وإصرار منقطع النظير وحاول البعض أن يستفسر عن التفاصيل ليطمئن إلى النتائج ، فلم يحصل على فرصة وسط انبهار الجميع بما جاء عن الانتفاضة التي ستخلصهم من بؤس السنين. بينما لم يقتنع البعض الآخر بالعملية كلها وعدها استعراضا ، وإصابة بذات الوهم القاتل للسيطرة وغرور الانتصار. لكنهم جميعا خارج دائرة الانتفاضة لا يملكون في ضل تفاعل الأحداث سوى الانتظار ، وتبين بعد قليل من أيامه أن ما قيل وهم ، وسعي للتفرد بالحكم لم يحن أوانه بعد .

الشخصية البدوية وسط المنتفضين

كان سلوك التفرد ، والاعتداد بصحة الرأي ، والميل للاستفراد من بين أكثر العوامل النفسية تأثيرا سلبيا على نتائج الانتفاضة ، وهي وإن كانت كذلك ، ورغم أهميتها في حال تكرار أعمال شبيهة للانتفاضة مستقبلا لكن الاعتراف بها كان محدودا ، والإشارة إليها في العلن نادرة جدا .

إنها من بين الخصائص الموجودة في الشخصية العراقية يعود بعضها إلى هامش البداوة في داخلها ، ويعود بعضها الآخر إلى كبت مشاعر الخوف من أدوات الحاكم عبر مئات السنين التي أتاحت الانتفاضة فرصة إثارتها، أو التخلص من انفعالاتها على شكل رغبات وميول للزعامة بمستوى من الشدة دفع إلى سلوك عند البعض يتمحور بالآتي :
. عند من حمل السلاح بوجه الحكومة في هذا اليوم اعتقد وهو في الطريق مع جماعته أنه الأولى بقيادتها من ضابط يدعى للاشتراك في القتال الذي تبين تباشيره الأولى أن الحكومة قد انتهت ولا حاجة لعسكر النظام ، فلم يكتف بعدم الدعوة لتشجيع الاتصال بالضباط بل حال دون حصوله .

. ومن دفع من حريته عدة سنوات سجن ثمنا لمواقفه الوطنية يرى أنه الأولى بقيادة الجماعة من ضابط كان بالأمس غارقا بخيرات النظام ، أو من شيخ عشيرة تنعم بمكارم النظام .

وكذلك يرى من أعدم والده ، وفقد شقيقه ، ومن صودرت أملاك عائلته . فكانت رؤى أثارت جميعها خاصة الزعامة .

وضيقت في ذات الوقت هامش التصور لرد الحكومة عسكريا على فعل الانتفاض .
ودفعت العديد من المعنيين إلى الحيلولة دون مساهمة العسكر المنظم في إدارة القتال وتنظيمه أصوليا .

وجعلت العديد من العراقيين المؤثرين في نفس الوقت يفضلون البقاء في موقف الترقب وقياس النتائج ، أو التفرج على ما يجري في الساحة من عمل أجمعوا أن نجاحه بعيدا عن المهنية العسكرية محفوف بالمخاطر .

العسكر في الوقت الحرج

إن تلك التوجهات ، والاستنتاجات لم تمنع القليل من الضباط من المشاركة بالانتفاضة بصفتهم الشخصية ، وفي مناطق سكناهم بعيدا عن وحداتهم. إذ حاولوا الدخول بعملية شبه عسكرية في الحلة ، ودخلوا بأعمال فردية لتقديم العون في محافظات أخرى ، وكانوا أكثر تنظيما في مدينة الديوانية ، التي جرت فيها محاولات من بعض الضباط بالرتب الكبيرة ورؤساء عشائر ، ورجال دين ، لتشكيل مجاميع قتال شبه عسكرية ، وفرض بعض الضوابط العسكرية على إدارة الأحداث ، حتى أنهم تمكنوا من السيطرة سريعا على الديوانية ، وسارعوا لتلبية نجدة أهالي مدينة الحلة لتقديم العون إليهم في تحريرها ، وفعلا وصلت طلائعهم إليها بانتظار وصول قوة مدرعة تم الاتفاق مع العميد الركن عبد الأمير عبيس من صنف الدروع على تشكيلها بالاستفادة من : الدبابات ، وناقلات الأشخاص المدرعة الخزين الاستراتيجي للجيش في معسكر الديوانية .

ومن المتطوعين الذين سبق لهم الخدمة في هذا الصنف .
وعندما لم تصل تلك القوة (لأسباب غير معروفة) قامت المجموعة التي يقودها العميد توفيق الياسري ، وبوجود العميد جعفر وتوت ، والنقيب حيدر وتوت ، وبمعاونة ضباط من قيادة القاسم مثل العقيد الركن عامر الجبوري بالهجوم مع أهالي الحلة ، وأسهموا في إسقاط الصوب الكبير من المدينة. لكن قوات الحرس الجمهوري كانت قريبة ومدفعتها وصواريخها كانت منفتحة في آثار بابل ، وطه ياسين رمضان الحاكم العسكري وبعض أعضاء فرع بابل للحزب جاهزون للتدخل والقيام بهجوم مضاد سريع تكبد فيه المنتفضون القادمون من الديوانية ، وكذلك أهالي الحلة خسائر ليست قليلة ، وأجبرتها على الانسحاب باتجاه الديوانية مركز انطلاقها ، واستشهد جرائها العميد جعفر وتوت وجرح العميد توفيق قائد العملية .

حمى الانتقام

في الوقت الذي انتهت فيه المعركة في الحلة سريعا وقبل أن يحقق المنتفضون هدف تقديم العون لأهلها كانت هناك قوات من الحرس الجمهوري بقيادة الفريق حسين كامل حسن وزير الصناعة والتصنيع العسكري تخوض قتال شوارع ضاري مع المنتفضين في مدينة كربلاء الذين سبق لهم وإن سيطروا عليها بشكل كامل لأكثر من أسبوع ، وكذلك كان الأمر في مدينة النجف التي تعرضت إلى القصف الصاروخي ، والمدفعي بشكل كثيف حتى تكبد الأهالي خسائر هي الأعلى من بين باقي المدن ، وبمستوى انتشرت الجثث في أغلب شوارعها ، وخاف الناس أن يبادروا إلى دفن الموتى خشية التعرض للقصف ، وخوفا من الحكومة التي لم تأذن به ، وأنتهي الأمر باحتلال هاتين المدينتين بوحشية وتدمير شامل .

لقد كان الهجوم مرعبا ، لا يفرق المهاجمون بين امرأة عجوز ، وطفل رضيع الجميع أهداف مشروعة لصواريخهم ، وقنابل مدفيعتهم ، والدبابات القتل هو الهدف الأساس ، الذي لا يتوقف عنده المهاجمون ، وإنما يعلنون بلسان حاكم المدينة العسكري بعد اكتمال احتلالها عن طريق مضخمت الصوت ضرورة تجمع الأهالي في أماكن محدودة ، وعند تجمعهم :

يبدأ العزل لأعمار الشباب بين الخامسة عشر وحتى الخامسة والأربعين . يرسلون إلى مراكز تجمع معلومة وسط المدينة أو خارجها .

ومن بعدها يساقون إلى الرضوانية التي كانت تنتظرهم فيها لجان تحقيق خاصة خولت تنفيذ الإعدام مباشرة دون محاكمة في كل :

من يشك بمشاركته المباشرة ، أو غير المباشرة لمساعدة المنتفضين .

ومن يعتقد باحتمال مشاركته بأعمال مشابهة في المستقبل .

حفرت لهم قبور جماعية دفنوا فيها آلاف من الشباب ، لم يعرف أحد من ذويهم شيئا عن مصيرهم حتى وقتنا الراهن .

إثارة الرعب في الجنوب

انتهت معركة كربلاء بمذبحة في شوارعها وداخل الأضرحة المقدسة⁹¹ ومن بعدها النجف، حيث فعل أفراد الحرس الجمهوري بالأهل ما لم يفعله السابقون الذين مروا غزاة محتلين لأرض العراق .

عندها تنفست الحكومة الصعداء ووزعت أعضاء القيادة القطرية ، وقادة فيالق سابقين (مستشارين في الرئاسة) على المحافظات الجنوبية كقادة للجهد وحكام عسكريين في التعامل مع الأحداث ، ودفعت بينهم أبناء عمومة الرئيس ، وأفراد عشيرته ، وبقرتهم ضباط الارتباط من الاستخبارات العسكرية .

فكان مجتمعا وحشيا لفرض العنف..... يتبادل فيه الجميع أدوار سحق المنتفضين بكل ما أوتوا من قوة ، والتباري في مغالاتهم الإطاحة بالرؤوس⁹² والأجساد المنهكة ترضية لمشاعر الرئيس التي كانت في اشد حالات الغضب . لتنتهي تلك الأعمال بجانبها العسكري غير المعلن لجميع محافظات الوسط والجنوب بحدود يوم 1991/4/1 الذي عاد فيه جميع أعضاء القيادة القطرية إلى بغداد يحضرون اجتماع النصر على الأهل . يحتفلون بقهر الأعداء من الأهل الذين تمردوا على السلطان .

⁹¹ . تناقل عسكريون أسهموا في الهجوم على كربلاء أن حسين كامل الذي كان يقود عملية الهجوم أمر طاقم دبابه أن يطلق قذيفة مباشرة من مدفع دبابته على ضريح الإمام الحسين (ع) الذي يضع له العراقيون منزلة خاصة في نفوسهم ، وكان في وقت إصداره الأمر يكرر عبارة (أنت حسين ، وأنا حسين لنرى من هو الذي يكسب المعركة) ، وبغض النظر عن صحة القول من عدمه فقد انتظر العراقيون ما يتوقعونه كارتة ستصيب حسين كامل بسبب عملته هذه ، أو باللهجة العراقية (يشور به الإمام) وعندما قيل أن حسين كامل يعاني تورم بالدماع أرسل على أثره للعلاج في الأردن ، تقاطر آلاف العراقيين لزيارة الإمام الحسين في كربلاء ، لكنهم وبعد أن أعلن أن الورم ليس من النوع الخبيث وقد تم استئصاله ، قل توجههم للزيارة بشكل ملموس ، كنوع من العتب اللا إرادي ، لكنهم وبعد هروب حسين كامل إلى الأردن ، ومن ثم عودته ، ومقتله بوحشية على يد بن عمه علي حسن المجيد ، والعشيرة بدفع من الرئيس شخصيا ، عاود العراقيون من الوسط والجنوب زيارة الإمام ثانية وبنسب كبيرة جدا ، وتناقلوا أقاويل فيما بينهم عن مصير من يحاول التجاوز على آل بيت رسول الله ، وإن حسين كامل الذي لم يميت بالسرطان بطلا ، (شوّر) به الإمام ليموت خائنا يسحل بسببها جثة مزقها الرصاص .

⁹² . * تفاخر اللواء الركن كمال مصطفى التكريتي (من أقارب الرئيس) وبعض ضباط من الحرس الجمهوري اشتركوا في القضاء على انتفاضة العمارة من أنهم قدموا غذاء لأسماك الهور من جثث المنتفضين تكفيها عدة سنوات . وتفاخر ضباط الأمن في مقر الفيلق الثالث أنهم ملئوا شط العرب بجثث المعدومين من قبلهم أثناء التحقيق مع المنتفضين .

يقص كل منهم تجربته في سحق الرؤوس .
يعلن بقاء كيانه مشروعا جاهزا لذبح المزيد عندما يأمر الرئيس .
يزايد على القرييين منه في ذكر أرقام الضحايا الذين قتلهم بمسدسه ، والذين أمر بدفنهم
أحياء يأمل رضا الرئيس ومكارمه ثمنا لفعلته الشنعاء⁹³.

التحرك في كردستان

كانت الانتفاضة في كردستان مختلفة تماما في بداياتها ، وفي نتائج التعامل معها من قبل
الحكومة ، والدول الكبرى في التحالف ، إذ وبعد أن استطاعت الحكومة من استرجاع
مدينة كركوك من القوى الكردية التي أسقطتها كامتداد لانتفاضة الكورد في الشمال ، فقد
توجهت نحو المحافظات الأخرى ، عندها تدخلت الأمم المتحدة لتفرض منطقة
كوردستان منطقة آمنة حتى خط العرض (36) ، وبداخلها تحركت القوات الأمريكية
التي نزلت في المنطقة لتجبر القوات العراقية على الانسحاب من عمومها ، حيث أصدر
صدام أوامره بالتراجع وعدم المقاومة ، ومن ثم التوقف في حالة دفاع عند حدود :
فايدة من جهة دهوك .

جمجمال من جهة غرب السليمانية .

شمال جلولا جنوب السليمانية .

ولم تدرج كركوك ، وكذلك خانقين في موضوع الحماية ، لاعتبارات سياسية وتاريخية
خاصة .

ورحب الكورد بقرار الحماية الذي أعطاهم فرصة إدارة أنفسهم لأول مرة عبر التاريخ
العراقي بعيدا عن تدخل الحكومة المركزية التي أذعنت تماما للقرار لمعرفتها الجيدة بعدم
قدرتها على تحديه في ظروف الانكسار آنذاك.

⁹³ * كان أكثر الحاضرين مزايده هو حمزة الزبيدي الذي تداول عنه فلم فديوي يبين كيف كان يدوس بجذائه على
رؤوس الشباب في مدينة العمارة ، ويطلق عليهم النار ، تسرب من بين عديد من الأفلام كانت تعد يوميا لمثل تلك
المشاهد لعرضها على الرئيس ، وحصل بسببها المذكور على منصب رئاسة الوزراء ، وكان أقلهم حدة راهي حسن
فرعون الذي أوقف بعد الاجتماع ، وعزل من القيادة القطرية ، ومن ثم حجز في سجن رقم واحد بمعسكر الرشيد
بتهمة عدم استخدام القسوة ضد المنتفضين في الحلة ، إذ بينت الأفلام في منطقتة أنه كان يأمر بإطلاق النار أولا فوق
الرؤوس ، مما أغضب الرئيس ، وعاقبه ذاك العقاب .

كانت الانتفاضة من وجهة النظر النفسية سلوك بالصد من القهر والاضطهاد . ومن الناحية العسكرية قتال من أجل إطاحة النظام . وكانت من وجهة النظر الحكومية تمرد ، وأعمال غوغاء ، وصفحة غدر وخيانة . وكانت قد كلفت الشعب العراقي خسائر : . ما يزيد عن المائة ألف قتيل وقع في ظروف الانتفاضة هجوما على سلطة الحكومة ، أو ردا منها على المنتفضين مات . . آلاف الشباب اغتيلوا من قبل القوات الحكومية ، وأجهزتها الأمنية تحسبا من احتمالات اشتراكهم في انتفاضات مثيلة مستقبلا . . إزالة بعض القرى العربية في الجنوب ، والكوردية في الشمال من على الخريطة لاشتراك مواطنيها في الانتفاضة . . تهديم مئات البيوت التي تركها أهلها خشية بطش السلطة ، أو لشك الأجهزة الأمنية باشتراك أحد من ساكنيها في الانتفاضة . . تهجير آلاف العوائل من قرى نائية ، وتسكينها في مناطق أخرى للشك بدعمها الشباب المنتفضين ، وللتقليل من احتمالات الدعم الإداري ، والمعنوي لمعارضين عراقيين مستقبلا . . البدء بتنشيف الأهوار ، وتغيير معالم الطبيعة الجغرافية في المنطقة الجنوبية . حرق ، وتخريب بعض المصانع ، والمنشآت الأهلية على وجه الخصوص ، والمزارع ، والبساتين في المحافظات المنتفضة⁹⁴ . هجرة أكثر من نصف مليون عراقي إلى السعودية ، وإيران خوفا من انتقام السلطة ، واستمرار بطشها دون توقف . استمرار وتائر الهجرة إلى الخارج بسبب عدم الاستقرار ، وخاصة من قبل العقول ، والكفاءات العلمية ، والمهنية . ليصل مجموع العراقيين في الخارج عدة ملايين .

⁹⁴ حسين محمد علي يملك فندقا في الحلة أكد أن فندقه بقي سليما طيلة الفترة التي سيطر فيها المنتفضون على الجزء الذي يقع فيه الفندق من المدينة ، وبعد أن شرعت قوات الحرس الجمهوري بالهجوم المقابل ودخل الجنود الفندق القوا في غرفه قنابل يدوية ، وكسرت الخزائن لتسرق منها النقود والأمانات ، وحرقت الفرش والأغطية في باحة الفندق .

الانتفاضة في الميزان السياسي

البعد الإقليمي

لقد حدثت الانتفاضة داخل حدود الدولة العراقية إثر الحرب التي اشتركت بها دول كبرى، وأخرى تجاوز العراق، وكان نجاحها المحتمل ينعكس آثارا على أولئك المشاركين، والجيران، وبمستويات فسرهما كل منهم تبعا لمعلومات وأفكار سابقة، ولأخرى سربت له عمدا في ظروف الترقب، وعلى إثرها تكونت مواقف كان أصحابها قرييين من كل خطوات الانتفاضة، راصدين لوقائعها، متابعين لتطوراتها، أو مساهمين في رسم نهاياتها، وهي بوجه العموم ليست في صالح نجاحها :

الموقف السعودي الكويتي

تعرضت دولة الكويت لغزو من حكومة صدام، فتوجه أميرها إلى السعودية خطوة أولى لتجاوز آثار أزمة من نوع خاص كونت ظروفها المحيطة استجابة للتعامل معها من كلا البلدين شبه موحدة، هذا وإذا ما أضيفت عوامل التركيبة السكانية، والدينية، والطائفية المتشابهة نوعا ما يمكن القول أن استجابتهما للأحداث ذات الصلة بتلك الأزمة بينها الانتفاضة، وأحداثها، وما قد تؤول إليه من احتمالات لتغير شكل نظام الحكم في العراق متشابه أيضا، وهي استجابة واستجابتهما نحوها اعتمدت في غالبية أسسها على إعلام الحلفاء، ومعلوماتهم وعلى نتائج التضليل الذي نجحت الحكومة العراقية في إخراجه تصورا أن الانتفاضة :

تمرد طائفي (كما ورد في أعلاه) تدعم تأكيده الوقائع، والأعمال، والتهافتات والمطالب لإحدى عشرة محافظة ذو غالبية شيعية انتهت فيها السلطة الإدارية للدولة، وقد تسلمت الدولتان الرسالة، واستوعبا الانتفاضة :

هياج شعبي في محافظات الجنوب، وجنوب الوسط، والشمال الكوردي قد يفضي إلى تغيير نظام الحكم العربي الطائفي في العراق، أو التقسيم إلى دولة كردية في الشمال، وسنية في الوسط وشماله، وشيعية في الجنوب يؤدي وجودها المجاور لإيران الجمهورية الإسلامية إلى تشكيل قوة قد تخل بالتفوق المطلوب لميزان القوى الطائفي في المنطقة، وتثير الكثير من معالم التوتر، وعدم الاستقرار. وهذا ما ترفضه السعودية، والكويت بشدة .

ونظرا لعدم نضج الجهد السياسي العراقي المعارض ، وغياب البديل المضمون سياسيا ، وطائفا من وجهة النظر السعودية الكويتية وجدت الدولتان موقفهما بعيد عن إمكانية دعم الانتفاضة ، أو حتى تأييدها في القضاء على عدوهما الأول صدام حسين الذي يفترض وفق استراتيجية الحروب أن تكون حياته أعلى قائمة أهدافهما ، خاصة وانهم يعرفون جيدا طبيعته الشخصية ، وشكل إدارته الفردية الدكتاتورية ، ويعرفون أن القضاء على شخصه يعني توقف الحرب ، وانتهاء حالة العداء ، وتمتعهم ، وشعوبهم بالاستقرار المستمر. فتوصلنا إلى استنتاجات ليست في صالح المنتفضين ، كانت من بين أهم المتغيرات المؤثرة في انحسار الدعم المعنوي ، والعسكري المتوقع من قبل الدولتين ، والحلفاء للانتفاضة في أشد الظروف حرجا .

الموقف الأردني

كان للأردن موقفا خاصا في حرب الخليج الثانية ، فُسر كدعم للقيادة العراقية ، واستمر على نفس الوتيرة حتى انتهائها ، وعلى أساسه لم يكن مؤيدا للقيام بأية أعمال ضد سلطتها المركزية في ظروف يعتقد أن الحاجة فيها ماسة إلى تضافر الجهود للتعامل مع تطورات الموقف العسكري ، والسياسي ، وهذا ما عبرت عنه وسائل الإعلام الأردنية في حينه .

الموقف السوري

إن الموقف السوري يختلف نسبيا عن المواقف الأخرى لتأثره بجملة متغيرات بينها :
للسوريا تاريخ عدائي طويل مع صدام حسين وحزب البعث العراقي الحاكم .
لها وجهة نظر مضادة للتواجد الأجنبي في المنطقة لكنها اشتركت بقوات محدودة مع الحلفاء لتحرير الكويت .
تقيم على أراضيها بعض من الفصائل المعارضة العراقية .
دعمت فصائل المعارضة الكردية في صراعها مع صدام حسين لفترات ليست قصيرة .
ترابطها مع إيران روابط قوية منذ حرب الخليج الأولى دفعتها إلى تقديم العون السياسي بالضد من حكومة العراق .
لا تعاني مشكلة تتعلق بالشيعة ، والسنة ، ولم يكن على حدودها مع العراق تواجد شيعي .

وتبعا لهذه المتغيرات كان الموقف السوري من الانتفاضة يتمحور حول التعاطف ، والتأييد الإعلامي ، وفتح منافذ الحدود بشكل غير رسمي أمام اللاجئين العراقيين بسببها ،

مع عدم التورط بتقديم أي نوع من الدعم المادي ، أو البشري ، رغم التواجد العراقي الملموس لمسافرين بتهمة الأصول الإيرانية مقيمين فيها منذ السبعينات ، والثمانينات يتمتعون باستعداد نفسي في المشاركة بأي فعل ضد صدام حسين وحكومته . هذا وقد يكون لموقع سوريا البعيد نسبيا عن ساحة حركات الانتفاضة أثر غير مباشر على موقفها العملي من تطوراتها .

الموقف التركي

تركيا التي اشتركت في حرب الخليج الثانية ، عضو في الحلف الأطلسي ، تجاور العراق من شماله ، ولها معه تاريخ ، وروابط ، ومعالم صراع متعددة ، بدءاً من حكم العثمانيين له ، ومرورا بالثورة العربية المضادة لحكمهم ، والمطالبة بمحافظة الموصل ، والتواجد الكوردي عبر حدود البلدين ، وانتهاءً بمشكلة المياه ، ومن بين هذه المعطيات تحدد موقفها بالنسبة للانتفاضة الذي يتمثل في :

عدم الارتياح من حدوثها ، ومن ثم عدم المجازفة في الموافقة على أي من نتائجها المحتملة ، إذ أن تغيير طبيعة نظام الحكم الطائفية الحالية في العراق لا تتماشى مع الموروث الديني الطائفي الذي حكمت به الدولة العثمانية خمسة قرون رغم علمانية الدولة التركية الحالية .

كما أن تقسيم العراق إلى دولة سنية ، وأخرى شيعية قد يفضي إلى دولة ثالثة كوردية ، وهذه نتيجة لا تكتف تركيا بمعارضتها ، بل وستقاتل مع صدام بالضد من احتمالات حدوثها ، لتأثيرها المباشر على توجهات الكورد الأتراك في المطالبة بالاستقلال . وتعني أيضا تحالف محتمل للنظام الذي ينجم عن الانتفاضة ، أو الدولة المستقلة في الجنوب مع الدولة الإيرانية ، تحالف يزيد من أرجحية توازنها غير المستقر معها أي تركيا ، وهذا أمر غير مقبول أيضا .

وبموقف تركيا هذا زاد الجناح المعارض للانتفاضة أرجحية ، وتأثيرا على الحلفاء ، أو بالمعنى الأدق على الأمريكان للتعامل معها ، باتجاه إنهاؤها بأسرع ما يمكن .

الموقف الإيراني

إيران جمهورية إسلامية غالبية سكانها من الشيعة ، ترتبط مع العراق بحدود مشتركة من الشمال إلى الجنوب .

شهد تاريخها مع حكام العراق صراعا مسلحا مرات عديدة ، كان آخرها حرب الثماني سنوات (1980 - 1988) .

تقيم على أرضها فصائل للمعارضة العراقية المسلحة في الوقت الذي تقيم فيه معارضة إيرانية مسلحة على الأراضي العراقية ، وكلاهما مدعومة من حكومتي البلدين بشكل مباشر، وقوي .

وإيران التي تدعو لإقامة نظام حكم إسلامي تفهمت جيدا موقف الغرب ، وأمريكا المناوئ لدعوتها ، وتعلمت من حربها مع حكومة صدام ، وكذلك حرب الخليج الثانية درسا في البقاء على الحياد ، وعدم التدخل ، والابتعاد عن مناطق النفوذ الأمريكي جهد الإمكان . وأدركت جيدا أن أي تجاوز سيكون ثمنه قدرا لا يمكن لحكومتها الفتية أن تتحمله حاضرا، ومستقبلا.

وبذا كان موقفها من الانتفاضة صراعا بين اتجاهين :

يتمثل الأول بوجوب الدعم ، والتأييد بحكم متغيرات :

الأصول الطائفية لغالبية المنتفضين .

الرغبة في الاقتصاص من صدام حسين السبب المباشر في حربها مع العراق.

مجاراة بعض فصائل المعارضة العراقية التي وقفت معها إبان حرب الثماني سنوات .

التغيير لنظام حكم يمكن التفاهم ، أو التحالف معه لتعديل ميزان القوى الطائفي غير الملائم لها في المنطقة .

ويتمثل الثاني بضرورات الحياد بحكم :

الدعم المباشر يعني تماس مع قوات الحلفاء ، وأمريكا الموجودة على مقربة من حدودها ، وهو تماس ليس في صالحها .

التغيير قد يفضي إلى وضع خاص لكورد العراق ، أو دولة لهم ، لم تكن إيران مستعدة لقبولها مع وجود أقلية كردية داخل بلدها تطالب بمزيد من الحقوق .

ونتيجة للصراع الحاصل بين الاتجاهين المذكورين كان الموقف الإيراني : تأييد معنوي ، وإعلامي للانتفاضة ، وفتح للحدود أمام المنتفضين الجرحى ، ومن ثم المنسحبين من ساحتها بعد تمكن حكومة صدام من إعادة احتلال جميع المحافظات المنتفضة .

وبالعودة إلى مجمل المواقف المتفردة للدول المذكورة يمكننا عدّ الموقف الإقليمي من الانتفاضة موقفا غير ملائما لتحقيق مكاسب شعبية في التغيير بعد أن فسر البعض نتائجها المحتملة تهديدا لأمنه القومي .

وتصورها البعض حدثا في الضد من مصالحه . وأدركها البعض الآخر ساحة لمنازلة خاسرة ، أو حتى فخا لتوريطه في صراع جديد لا يقدر على إدارته .

وبهذا الموقف لم تخسر الانتفاضة الدعم ، والإسناد القريب منها فقط ، بل وفرصة تحقيق مكاسب مكفولة بالدعم الدولي الذي وقف ضد نظام الحكم قبل أيام من حدوثها.

البعد العربي

إن مواقف العرب من الانتفاضة تأسست على ضوء انقسام دولهم من حرب الخليج فريقين عندما كانوا يصطفون في جانبيين :

يؤيد الأول الحلفاء حد مشاركته بقوات معهما لتحرير الكويت .

ويعارض الثاني ذلك حد التسامح مع صدام ، والاحتجاج على صيغة الحل الدولي في التعامل مع فعله .

لكنهما ومن الناحية العملية توحدتا في النظرة إلى الانتفاضة ، وأسلوب التعامل معها ستراتيجيا.

إذ أن الفريق الأول بات رأيه مرهونا برأي القيادة السياسية للتحالف " أمريكا " والدول الداعمة للتحالف " السعودية ، الكويت ، باقي دول الخليج " وبالتالي وجد نفسه وإياهم بالضد من الانتفاضة ، ومشارك معهم أحيانا في بعض إجراءات تهميشها .

بينما استمر الفريق الثاني في موقفه غير المعارض لصدام رغم الإحساس بالخسارة المادية بعد تغيبه عن الساحة في مرحلة توزيع الغنائم ، وكذلك الخسارة المعنوية إثر تكرار الاتهام بتأييد الطرف المعتدي ، ومحاولات العزل عربيا .

وهذا الموقف انعكس بطبيعة الحال بالضد من الانتفاضة التي تهدف علنا لإطاحة بصدام الذي يأمل منتسبوا هذا الفريق بقاءه ورقة لتعويض الخسائر ، وتعديل ميزان القوى في العلاقات العربية الذي اختل كثيرا لصالح الفريق الأول .

وتأسيسا على هذا خسرت الانتفاضة مجالا آخر يمكن أن يحقق لها البقاء في الذاكرة العربية ، ويؤمن لها ساحة عمل مستقبلية بعد تكشف الموقف ، وانتهاء مرحلة تصفية الحسابات مع صدام حسين على أقل تقدير .

البعد الدولي

إن الإشارة إلى البعد الدولي في موضوع الانتفاضة تتطلب العودة إلى سيناريو حرب الخليج الثانية ، وإلى الأهداف المأمول تحقيقها من هذه الحرب ، وهي أهداف لو استعرضنا بعضها نصل إلى استنتاج مفاده أن الكثير منها "الأهداف " يصعب تحقيقه بعيدا عن الوجود الفعلي لصدام حسين ، أهمها التواجد المستمر لقوات أجنبية . وفي مجاله يعني نجاح الانتفاضة والقضاء على صدام حسين :

سقوط لذريعة التهديد .

انتفاء الحاجة إلى استمرار التواجد .

وكذلك الحال بالنسبة إلى التحكم نسبيا بسوق النفط الذي يدفع باتجاه تهميش الانتفاضة ، أو حتى المساعدة غير المباشرة في القضاء عليها ، لإبقاء حالة عدم الاستقرار التي تقتضي إبقاء قواتها قريبة من منابع النفط ، وبقائها هذا يوفر لقادتها السياسيين بطبيعة الحال فرص لإبداء الرأي ، والمشورة في كثير من الشؤون المحلية " بينها إنتاج وتسعير النفط " مشورة لا بد وأن يأخذها سياسيو المنطقة بنظر الاعتبار .

وغيرها أهداف كان لبقاء صدام حسين أعلى السلطة في العراق لمرحلة ما بعد حرب الخليج أهمية في تحقيقها .

وكان القضاء على الانتفاضة ثمن هذا البقاء .

تأسيسا على المعطيات أعلاه تُحدد الموقف الدولي من الانتفاضة في الاتجاه المضاد لها . وضرورة الانتهاء منها بأسرع ما يمكن .

كذلك تفادي حصول القائمين عليها أية مكاسب قد تغير من طبيعة الحكم في العراق . ثم تجنب الحلفاء واقع على الأرض قد يثير الرأي العام العالمي في الضغط عليهم للتعامل معها .

وعلى أساسها سمحوا بانسحاب قوات الحرس الجمهوري المطوقة في الجنوب .

وقبلوا استخدام الطيران السمتي ، والأسلحة الأخرى .

وأوحوا للإعلام العالمي وهم المسيطرون في المنطقة أن وجهة الانتفاضة طائفية ،
فساهموا في القضاء عليها .
وساهموا في الإبقاء على صدام حسين متهما بارتكاب أعمال ضد الإنسانية ، بعد أن كانت
فرصة محاكمته ميسورة بيدهم والعراقيين .

الانتفاضة في الميزان النفسي

إن الانتفاضة ذلك الحدث الكبير في التاريخ العراقي الحديث كانت لها أسبابها المشروعة ، وكانت لكثير من القائمين عليها دوافعهم الوطنية الأصيلة . لكن الانتفاضة التي سيطر فيها المنتفضون على أربعة عشر محافظة . وصفق لها ، وتمنى نجاحها غالبية الشعب العراقي قد فشلت في تحقيق أهدافها . وفشلها لا تقتصر أسبابه على النوايا غير الحسنة في الموقف الإقليمي فقط ، ولا على قصور الرؤية في الموقف العربي فحسب . ولا على المصالح الدولية . وإنما لجميعها متفاعلة مع الأخطاء الفنية للانتفاضة ، التي عجز المعنيين بها على حشد الجهد ، وعلى تحديد هويتها . وهي أخطاء ليست قليلة يتطلب المنطق العلمي تسطيرها ، ليس بهدف التسطير المجرد، وإنما عملاً بحقيقة أن الشعوب لا بد وأن تتعلم من أخطائها ، والتعلم يقتضي معرفة الخطأ وأهم تلك الأخطاء كانت :

. شيوع سلوك الفردية ، والارتجال ، والانفعال السريع في داخل المنتفضين للتعامل مع واقع الدولة ، والجيش ، والحزب ، والأجهزة الأمنية المنظمة ، وغيرها . الأمر الذي زاد من الاختلاف في ردود الفعل الموجهة لتعطيلها ، وضاعف من كم الاجتهاد بصدها ، وبالتالي قلل من تأثير ذلك الفعل من جانب ، وشجع القريبين من الحكومة ، وأجهزتها لمعاودة المقاومة من جانب آخر .

غياب العنصر القيادي المقتدر على المستويين السياسي ، والعسكري ، لأن أحزاب المعارضة العراقية القليلة إبان تلك الفترة لم تكن تدرك مقدار الغضب الجماهيري . ولم تع جيداً تأثيرات الإحباط من حرب الخليج الثانية على السلوك الجمعي ، ولأنها تفاجئت مثل غيرها فلم تستطع أن تخطط للقيام بما هو مؤثر على المستوى الشعبي تسهم من خلاله في توجيه الانتفاضة عدا بعض الأعمال المتفرقة التي لم تلق الدعم الإعلامي اللازم لتضخيمها في عقول المتلقين .

كما أن العسكريين الذين شاركوا في الانتفاضة بعد حدوثها لم يشاركوا بقواتهم وتنظيماتهم العسكرية ، بل وبصفتهم الشخصية ف خسرت الانتفاضة عنصر التوجيه ، والقيادة ، في

ظروف استطاع فيها خصمهم " صدام " المحافظة على عنصر القيادة في قواته من الحرس الجمهوري ، والحرس الخاص ، والأجهزة الأمنية . مقرات ، وأفراد ، وقدرة قتالية تفوق الخمسين في المائة .

. غياب العنصر الفكري في الانتفاضة ، إذ أن أحداثها السريعة لم تعط الفرصة كافية للمثقفين ، والأدباء ، والفنانين ، والكتاب ، ومحترفي السياسة أن يتخلصوا من غبار الماضي ، ويسهموا في الدعم الروحي والفكري لها .

. لم يكن للانتفاضة إعلامها الخاص ، وهو الجانب الأكثر تأثيرا في أحداثها . ولم تستطع أن تستقطب عطف بعض الجهات الإعلامية العربية ، والأجنبية عدا القليل غير المؤهل للتحرك في الساحة بحرية ، وكفاءة ، بينما استطاع صدام بخبرته ، وعلاقاته القديمة ، ورصيده من المال ، واستعداداته لتلبية المصالح أن يسخر الكثير منها لصالحه . وقع البعض من المشاركين في الانتفاضة في الفخ الطائفي الذي نصبتة الحكومة بسهولة . حيث السير وراء منتسبيها " الحكومة " الذين أقحموا الدين طرفا في الأزمة ، ليس حبا في العدالة السماوية ، بل تشويها لتوجهات الانتفاضة ، ورغبة في استثارة باقي العراقيين غير المدركين لطبيعتها في الضد من أهدافها⁹⁵.

إن الظروف ، والملابسات التي أملت بالانتفاضة ، وتلك الأخطاء التي ارتكبت بقصد ، أو بنوايا حسنة قد أدت إلى نتائج أفشلت الانتفاضة أهمها :

. نجاح صدام في استثمار ورقة الطائفية للقضاء على الانتفاضة ، داخليا في حصوله على دعم مهم من عراقيين آخرين خارج محيطها وخارجيا في إسناد الحلفاء ، ودول الخليج له ، سواء في السماح لقواته في التحرك ، أو في التغاضي عن أعماله غير الإنسانية في القضاء عليها .

والاستناد عليها مسألة شبه شرعية في إدارته للدولة ، والحزب ، والقوات المسلحة لمرحلة ما بعد الانتفاضة .

⁹⁵. أرسل صدام حسين شقيقه سبعاوي ، ووضبان إلى عشائر مثلث الجزيرة شمال بغداد لشرح تطورات الأحداث بالجنوب ، واحتمالات أن تفضي في حالة نجاحها إلى قيام حكومة شيعية ، الأمر الذي دفع البعض من شيوخ تلك العشائر مداه بالرجال المسلحين ليكونوا أحد أدوات قمع الانتفاضة .

. الانطلاقة غير المحدودة لتوجهات الانتقام في نفس صدام ، ونقلها سريعا للقريين منه كي يستخدموا كل أساليب العنف ، والتشريد ، والتهجير ، والقتل ، والاغتصاب بشكل متطرف ضد أبناء المحافظات المنتفضة ، فعاودت مشاعر

الخوف كثير من العراقيين بعد أن تخلص منها الغالبية إبان الانتفاضة .

. التمهيد لتقسيم المجتمع العراقي على أساس طائفي قومي ، بعد أن حاول صدام إفهام سكة المحافظات العراقية غير المشتركة في الانتفاضة أن قرار اقتصار القبول في الكليات العسكرية ، وإسناد المناصب العسكرية ، والسياسية ، والدبلوماسية ، وتوزيع الأراضي ، والهبات ، والمقاولات الربحة ، والصفقات التجارية على سكنتها فقط قد أتخذ مكافأة لموقفهم في الضد من الانتفاضة . فخلق بفعلته هذه واقعا طائفيا جديدا ، ووهما فكريا جديدا ستكون آثاره مدمرة لعموم العراق ، والعراقيين مستقبلا .

. القبول ببعض الإجراءات الدولية ، أو عدم التحرك الجاد للتخلص منها ، مثل الحصار كنوع من العقوبة التي يتمناها صدام ضد عموم الشعب العراقي الذي انتفض ضده في آذار ، وحجة أرادها للرد على الأصوات المنادية للإصلاح ، والديمقراطية داخليا ، وخارجيا .

إن الانتفاضة ، هذا الحدث الكبير ، ومهما تكن الآثار الجانبية السلبية التي حاول صدام أن يتركها على حاضر العراقيين ، ومستقبلهم مستندا على تطوراتها فإن أحداثها ، وسبل التعامل معها ، والمواقف منها أكدت حقائق سوف يكون لها شأن في التعامل معه مستقبلا أهمها :

. إن صدام ، وجميع قواته ، وحرسه ، وأجهزته الأمنية التي انهارت أمام الشعب الثائر إبان الانتفاضة يمكن أن تنهار أيضا عندما يكون الشعب موحدا متجاوزا لمفاهيم طائفية التي عززها الحكم في مجالات تفكيره .

. إن الخوف الذي قيّد سلوك العراقيين في الضد من ظلم صدام أزيل فجأة طيلة أحداث الانتفاضة ، وبالتالي يمكن أن يزال ثانية بوقت قصير يصبح فيه غالبيتهم مقاتلين في الصفوف الأولى لإطاحته .

. إن العمل الفردي بين الجمع المنفعل غير الموحد لم تكن له أية فائدة ، أو قدرة لمقارعة حاكم مناوئ ، أو تغيير نظام حكم له خبرة متقدمة في حماية المكاسب ، وقمع المعارضين .

. إن القيادة ، والعمل الجماعي مهمان لإنجاح أي عمل مضاد لحكومة تسلطية ، وكذلك ضروريان لحشد الجهد اللازم ، وتنظيم إمكانياته المتاحة لمقاومتها ، وكسب النتيجة .
. إن صدام شخصية مناورة تؤمن إيماناً مطلقاً بالغاية لتبرير الوسيلة ، ولديه كل الاستعداد للتعامل مع من يحقق غاياته ، وبكل الوسائل ، والأساليب الممكنة لإدامة حكمه ، وعلى الراغبين في العمل ضده أن يؤمنوا هم أيضاً بالمناورة ، والتعاون ، وتبادل الأدوار على كافة المستويات .

. إن سلاح الطائفية الذي استخدمه صدام باستثارته موروث اجتماعي في نفوس البعض من أفراد العشائر العراقية لم يكن كافياً لحمايتهم من عدوانيته بعد تفرغه من الجنوب ، والشمال ، ودورانه باتجاههم ، فدفعوا هم أيضاً ثمناً من حياة أبنائهم ، ما كان يحدث لو امتنعوا عن مشاركته في قمع الانتفاضة ، أو تعاونوا مع أبناء الشمال ، والجنوب لإطاحته ، وبناء العراق الديمقراطي الذي ينعم في ربوعه الجميع بالأمن ، والاستقرار .
إن العراق بلد له حضارته ، وله تاريخه الطويل ، وله تجربته الخاصة في التعامل مع الظلم ، والقمع ، وكان آخرها أحداث الانتفاضة التي أثبتت أن العراقيين هم في الضد من صدام حسين ، وإنهم قاتلوه في ساحة لم تكن ملائمة تماماً لأسلحتهم ، وفي ظروف لم تكن مواتية لتحركهم ، فوقعوا ضحية ليس لبطشه ، وعدوانيته ، بل ولعدم عدالة العالم الغربي الذي وجد في ظلمهم الفرصة المناسبة لتأمين مصالحه .
فكانت النهاية فشل عسكري للانتفاضة ، ونجاح لها في البقاء شاخصة في عقول العراقيين فعل قام به عراقيون غاضبون لم تنهي له فرص النجاح .

الفصل الثالث عشر الأنفال

لقد انتهت الأنفال، وأعلن الجانب الكوردي أن خسائرها
من جانبهم تجاوزت المائة والثمانين ألف قتيل ومفقود

ثبات النوايا

لم يصادف أن تغيرت النوايا التي كانت تبثها حكومة البعث في بغداد ضد مواطني كردستان العراق منذ استلامها الحكم عام 1968 ، ولم يصادف أن تبدلت طبيعتها العدوانية كل تلك السنين بقيت على حالها تتجسد بصورة تحرك عسكري مرة . وفعل استخباري مرة أخرى، وقد تتغير إلى تطبيق لمفردات حصار اقتصادي مرة ثالثة . هكذا كانت النوايا تجاه الشعب العراقي الكوردي في العقل الحكومي العراقي لعقدين من الزمن سبقت كارثة الأنفال ، وكذلك كانت تحركاتها العسكرية، حشد للقوة المناسبة بهدف مهاجمة أحد القواطع التي ترى في تحرك الكورد فيها خطرا على وجودها في المنطقة، وسعي إلى تغييب العديد من الكورد في عموم المنطقة الشمالية الذين تعتقد أنهم يحولون دون تطبيق سياستها في التبعية ، والتعريب في تلك المنطقة، وعمل دؤوب لشراء الذمم بغية زيادة الفرقة بين الكورد أبناء المنطقة، ترغيب لبعض العشائر الكوردية ، وترهيب لأخرى بقصد الإخلال بالنظام القيمي للمنطقة، ومحاولات لم تنقطع لرفع مقام من لا يستحقون ، وانزال مقام آخرين هم الأولى والأحق في أن يكونوا في الصدارة ، لتعميم الشعور بالقهر ، والدونية لعموم المجتمع في المنطقة، وغيرها أعمال كثيرة لم تبادر إلى إيقافها حتى في أيام الصلح والتهادن ، أو في الأيام الحرجة خلال المفاوضات التي تتطلب أبسط قواعد إبداء الاحترام والتودد ، وإظهار حسن النية . إذ أنها وعلى العكس من المنطق المألوف تركز جهدها للقيام بأعمال استخبارية سرية لتعويض الفعل العسكري المعلن ، من خلال الاغتيال المنظم للشخصيات غير الموالية لها، والاختطاف والإخفاء في ظروف غامضة لمن لا يستجيب لمآربها، والتجنيد القسري للعملاء ، والمعتمدين، ثم نشر الفوضى ، والفساد عمدا في كل المناطق المسيطر عليها حكوميا⁹⁶.

⁹⁶. قدمت مديرية الاستخبارات العسكرية العامة عام 1973 مقترحات إلى لجنة شؤون الشمال حول التعامل مع الوضع في المنطقة الشمالية كان من بينها التوسع في فتح الملاهي ، ومحال بيع وشرب الكحول ، وصالات لعب القمار ، بهدف جذب المقاتلين الكورد إلى ارتيادها ، والتعود على حياة الترف بعيدا عن حياة القتال أعالي الجبال .

الهدوء القلق

لقد استمر حال التوتر والهجمات المحدودة ، والواسعة على المنطقة كما هو حتى بداية الحرب مع إيران عام 1980 التي حاولت فيها أي الحكومة حشد كل القوى بالضد منها ، واضطرت بضوء هذا التصور إلى تخفيف الضغط ، وتأجيل استمرار الأعمال العسكرية في الشمال ، عندما حتم الموقف عدم تشتيت الجهد العسكري المحدد ، وكذا عدم الانسحاق إلى الحرب على أكثر من جبهة ، وبما لا تسمح به القدرات .

لكنها وفي مرحلة التأجيل هذه لم تتوقف عن رصد ، ومتابعة ، وتسجيل الأنشطة الدائرة في هذه المنطقة العسيرة المجاورة إلى إيران العدو الأول لها تلك الأيام ، ولم تتأخر عن توجيه الاتهام بخيانة الوطن للقيادات الكوردية الرئيسة (الاتحاد الوطني الكوردستاني، والحزب الديمقراطي الكوردستاني) والعمالة للأجنبي أي إيران ، وكذلك لم تتوان عن مساعدتها في تثقيف جهازها الحزبي ، والعسكري ، والأمني بمفردات تلك الخيانة ، والتجاوز على الوطن بطريقة تزيد من شدة البغض في أنفسهم لأبناء وطنهم من الكورد في الشمال.

لكن ذلك التأجيل من الناحية العملية كان مجرد تهدئة لبعض الأنشطة العسكرية الواسعة ، واقتصار التحرك في مجاله لعموم المنطقة على :
بعض المناوشات ذات الطابع الدفاعي على الأغلب .

.عمليات محدود لأغراض ديمومة السيطرة على المدن⁹⁷ والمناطق الرئيسية .
.أعمال استعراضية لفرض هيبة الدولة في المحافظات المعنية مثل أربيل ، والسليمانية على وجه الخصوص .

وكان هذا الحال مرتبط بشكل مباشر بالوضع العسكري على الجبهة الذي كان سجلاً بينها والإيرانيين تعدل فيه ميزان القوى بين الجانبين لصالح العراق بعد عام 1987، إثر اقتناع

⁹⁷. قامت قوات من الفيلق الأول ، والخامس ، والحرس الجمهوري يشرف عليها علي حسن المجيد أكثر من مرة بتطويق أربيل ، والسليمانية من الخارج وزج منتسبها بأعداد كبيرة إلى شوارعها وأحيائها بقصد التفتيش عن السلاح في البيوت ، وإلقاء القبض على المطلوبين ، واختطاف البعض من المشتبه بهم ، وكانت الوحدات المشاركة قد تلقت أمراً من المذكور بتفجير البيت الذي يعثر فيه على قطعة سلاح أي كان نوعها.

الدول العظمى صاحبة النفوذ أن الحرب قد أدت غايتها في تدمير البلدين الجارين ، وان النتائج التي تمت في ساحة المعركة مقبولة بالنسبة لهم .
وبتعديل هذا الميزان الذي نتج عنه حصول العراق على دعم قوامه :
.زيادة كم المعلومات المتتالية من التنسيق الاستخباري مع الولايات المتحدة الأمريكية .
. طائرات مقاتلة حديثة ، وبتجهيزات ملاحية متقدمة ، وأجهزة تسديد بالليزر ، وأنواع من العتاد الفاعل في التأثير .
. تسهيلات مالية في تغطية الاستيرادات الخاصة بالمجهود الحربي.

العودة إلى الشمال

كانت تلك المفردات الخاصة بالدعم غير المحدود أشعرت الحكومة العراقية أنها باتت قوية ، وإن العالم الغربي يدعم موقفها في حسم الحرب الدائرة مع إيران ، وهذا الإحساس بالقوة لم يتوقف عند حدود التعامل مع تلك الدولة الجار فحسب ، وامتد ليشمل الوضع في كوردستان العراق الذي تحملت فيه الحكومة كثيرا من مشاعر الإحباط بعدم اقتدارها توجيه ضربة قاصمة للحركة الكوردية طيلة الفترة منذ بداية الحرب مع إيران وحتى عام 1988 ، وهذا الشعور بالقوة دفع الحكومة إلى التحرك في المنطقة المذكورة بشكل نشط أسوة بتحركاتها على جبهة القتال الممتدة طويلا مع إيران ، خاصة وأنها أفردت فيلقين عسكريين قوين في المنطقة هما :

الفيلق الأول الذي يتخذ من كركوك مقرا له .

الفيلق الخامس الذي يتمركز في أربيل .

وقبل أن تتحرك في العمل العسكري المباشر في الشمال العراقي بدأت المناورة على الشعب الكوردي حيث :

. أصدرت عفوا عاما عن أبناء المنطقة المتعاونين مع الحركات المقاتلة المناوئة لها ،
والهاربين من الخدمة ، وغيرهم بقرار واضح ، وصريح من مجلس قيادة الثورة (السلطة الأعلى في البلد) وبتوقيع صدام حسين القائد العام للقوات المسلحة رئيس الجمهورية .
. سخرت وسائل إعلامها جميعا لأغراض إيصال هذا العفو إلى أدراك المعنيين ، ودفعهم باتجاه الوثوق بجدية الحكومة على فتح صفحة جديدة للتعامل مع مواطنين عراقيين كورد لا يختلفون عن باقي أبناء العراق من القوميات والطوائف الأخرى .

لكنها وفي داخل تفكير أعلى المسؤولين في حكومتها كانت ومع قرارها المذكور تسعى إلى سحب الشباب الكورد إلى المصيدة ، واحتجازهم لأغراض التحقيق والتطبيق القانوني لقرار العفو ، وبالتالي عزلهم عن المساهمة بالقتال ضدها في معركة قادمة كانت تعد لها إعدادا جيدا ، وقد حققت ما أرادته حيث سلم لدوائرها الأمنية ، والاستخبارية ، والعسكرية أعداد ليست قليلة ، توجهت أي الحكومة ، وبعد أن انتهت فترة العفو المحددة بإصدار أوامرها إلى المسؤولين في مراكز التسليم ، والحجز لإعدام 1800 كوردي من الشباب في سن القتال ، ولم يكن أمام المسؤولين في تلك المعسكرات خيار إلا التنفيذ يوم 21 كانون الأول من العام 1988 ذلك العام الذي اعتقدت فيه الحكومة أنها قد حصلت فعلا على الضوء الأخضر للتصرف كما تراه مناسبا لحل مشكلة الحرب ، ومشاكل الداخل في الشمال التي أوحى في مجالها إلى الغرب أن حلها مهم لحل أزمة الحرب مع إيران المستمرة منذ ثمان سنوات .

التحرك بنوايا القتال

إن تسلسل الأحداث ، وصمت الغرب على ما يجري في تلك المنطقة المنكوبة يؤكد أن الحكومة ربما استطاعت أن تقنع المعنيين في حكوماته بتصورها المذكور ، وبدأت بالتحرك في المنطقة بشكل سافر وبنوايا حرب إبادة لا مثيل لها في السابق . شرعت بتنفيذها خطوات متصاعدة كانت أولاها منح على حسن المجيد عضو القيادة القطرية كافة الصلاحيات للتصرف بما يراه مناسباً في عموم المنطقة باعتباره : من الناحية العسكرية : المسؤول المباشر للجنة شؤون الشمال التي ترتبط برئيس الدولة مباشرة⁹⁸.

. من الناحية السياسية : أمين سر مكتب تنظيم الشمال في القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي تكون المحافظات الكوردية ضمن مسؤوليته المباشرة . من الناحية الاعتبارية العسكرية : إنه ضابط برتبة فريق أول ركن،⁹⁹ وهو بالتالي أقدم عسكرياً من قادة الفيلق ، والفرق المعنيين بالعمل العسكري . وهو فوق ذلك كله مؤهل للحصول على دعم صدام المباشر ، والفرصة أمامه متاحة لأن يتصل به في أوقات لا يستطيع الغير تحقيق ذلك لاعتبارات القربة ، وإجراءات الأمن . من الناحية النفسية : كان المومى إليه من أكثر البعثيين عدوانية ، ورغبة بالانتقام من العراقيين كوردا كانوا أم عرباً ، أو من قوميات أخرى (حتى لقب بسبب قسوته هذه بعلي كيماي بعد أن استخدم هذا السلاح بكثافة على حلبجة القريبة من الحدود مع إيران) .

الاستعداد

لقد صدرت التوجيهات إلى المشرف العام علي حسن المجيد للتنسيق مع القيادة العامة للقوات المسلحة في بغداد ، ومع قائد الفيلق الأول في كركوك ، والثاني في منصورية

⁹⁸. لجنة تختص بإدارة المشكلة الكوردية مع حكومة المركز تتكون من أعضاء يمثلون الاستخبارات العسكرية العامة ، وجهاز المخابرات ، ومديرية الأمن العامة ، والتنظيم الحزبي بشكل رئيسي .

⁹⁹. كان علي حسن المجيد عريف في القوة الجوية العراقية قبل عام 1968 ، وقد منح رتبة فريق ركن ، أسوة ببعض أقرباء الرئيس ، وأفراد حمايته بعد انقلابه على البكر .

الجبيل ، والخامس في أربيل لوضع خطة الهجوم الشامل على : المناطق الكوردية المهمة بموقعها الجغرافي .

التي يتمركز فيها أكبر عدد ممكن من مقاتلي البيشمركة المطلوبين من قبل الحكومة . وقد وضعت الخطط اللازمة ، وتمت تهيئة الاستعدادات العسكرية ، والإدارية ، والنفسية المطلوبة لأغراض تنفيذ الهجوم .

بدأ التحرك الفعلي نهاية شباط 1988 لكنه تحرك لم يكن شاملا حتى أواخر آذار نفس العام إذ تم التقدم على المنطقة بثلاث محاور رئيسية وبعملية تمت تسميتها بعمليات الأنفال ، ومحاورها الرئيسية الفاعلة هي :

محور قادر كرم

محور سورداس

محور رانية . قلعة دزة

وكانت قطعات الفيلق الأول ، والثاني تقود تلك المحاور .

بينما أسند إلى الفيلق الخامس التقدم على محور بهدينان .

وكان الهدف العام هو اجتياح المنطقة من جمجمال ، وبازيان ، وقرة داغ ، ودريندخان حتى حدود كلار والمناطق القريبة منها .

لقد شرعت تلك الفيلق الثلاثة بالتقدم الجارف باتجاه أهدافها من المشاة . تتقدمهم

الدبابات ، وناقلات الأشخاص المدرعة على الطرق الرئيسة والأراضي المحاذية لها .

بإسناد مباشر من طائرات القوة الجوية المقاتلة للإسناد القريب ، والقاصفات لأعمال

الهدم وزيادة حجم التدمير حيث خصص الجهد الجوي لقاعدة كركوك ، والموصل ،

والبكر لأغراض هذه العملية . كما دعمت تلك القواعد بأسراب طائرات أخرى من قواعد

خارج المنطقة ، وخصصت بعض الطائرات لأغراض الضربة الكيماوية التي تنفذ

مهامها في هذا المجال :

بطلب من علي حسن المجيد المشرف العام على العمليات .

الموافقة المباشرة من صدام حسين القائد العام .

الإشراف على التنفيذ ، والمتابعة من قبل قائد القوة الجوية .

كذلك خصص لدعم هذه العملية جهد طيران الجيش برمته حيث كلفت طائراته السمتية

بأعمال :

الإسناد القريب لقوى الهجوم .
معالجة البيشمركة المدافعين باستخدام صواريخ ضد المشاة .
ضرب البيوت ، والأماكن التي يشك بوجود مقاتلين فيها باستخدام صواريخ موجهة¹⁰⁰ .

¹⁰⁰. كان الطيران السمتي من أكثر الأسلحة تأثيراً على المقاتلين ، والمدنيين في المنطقة في مجال تكبيدهم الخسائر ، وفي إثارة الخوف داخلهم نتيجة لقدرة الطائرة على الرصد والمتابعة ، وامتلاكها صواريخ قادرة على إصابة أهدافها بدقة ، وكفاءة ، ولمرونتها العالية في ساحة قتال لا يمتلك الخصم فيها أسلحة قادرة على التأثير في مرونتها .

قتال الإبادة

لقد توغلت القوات الهاجمة ، وتقدمت الفيالق على المحاور المذكورة حسب الخطة التي أقرتها القيادة العامة للقوات المسلحة ، لكن تقدمها هذا لم يكن مباغتة بالنسبة لقوات البيشمركة من حيث التوقيت .

ولم تكن اتجاهات الهجوم غير معروفة بالنسبة لهم .

إلا إن المباغت وغير المعروف هذه المرة ضخامة القوات التي تقدمت نحوهم ، إذ أن تاريخ المعارك التي دارت بين الحكومة والكورد خلال نصف قرن مضى لم يشهد هجوما بمستوى ثلاث فيالق ، ولم يشهد كذلك مثل هذا الجهد الجوي ، والمدفعي المخصص لدعم ، وإسناد الهجوم الذي شكل بداية لمعركة فيها الجانب الحكومي قد حقق التفوق على الطرف المقابل بمستوى لا يقل عن (1.50) ، رغم أن القياسات ، أو الحسابات بين الأطراف المتقاتلة في الحروب الجبلية ، هي غيرها في الحروب التقليدية التي وضعت الموازنة تفوقا بحدود (1.3) مقبولا في الظروف القياسية للمهاجم في أن يقوم بهجومه، ويمكن أن تكون كذلك للمدافع في أن يقبل المعركة الدفاعية .

لكن الكورد في عموم المنطقة لم يكونوا في موقف القبول ، أو الرفض للمعركة التي فرضت عليهم ، وبذا توجهوا إلى القتال بصيغة دفاع عن المكان ولتقوية قدراتهم في مجاله جهد الإمكان سارعوا إلى :

المناورات بنقل بعض المقاتلين من قواطع دفاعية أخرى خارج المنطقة المستهدفة إلى ساحة القتال .

تعبئة بعض المتطوعين من أهل المنطقة ، والمناطق المجاورة لأغراض المساهمة بالقتال .

دفع المدنيين إلى التخلّص من مناطق القصف والاشتباك ، بالاستفادة من الجبال ، والمرتفعات القريبة لهذا الغرض .

حققوا قليلا من النجاح في مجالها ، لأن حسابات الحكومة كانت قد أخذت بالاعتبار مثل هكذا محاولات ، وبادرت إلى التعامل المسبق معها وذلك من خلال :

. مشاغلة باقي قواطع القتال بأعمال قصف كثيف ، وهجمات بالطائرات المقاتلة .

. تحرك ميداني محدود في مناطق أخرى لإيهام البيشمركة باحتمالات التقدم فيها كأحد الأهداف الموضوعة ضمن عمليات الأنفال أيضا .

ولأن إمكانات البيشمركة للدفاع إزاء هكذا هجمات محدودة ، ووسائلهم للنقل من أجل المعركة غير ملائمة إذ لا تتعدى السيارات الخفيفة ، والجرارات ، وبعض الحيوانات آنذاك التي أثرت القوة الجوية على تحركها نهارا ، الأمر الذي زاد من صعوبة إعادة حشد القوة للبشمركة ، وقلل من فاعليتهم للدعم والتعويض في العنصر البشري (بعد ارتفاع نسب الخسائر بالأرواح) وفي السلاح حسب متطلبات المعركة ، أو كما يتمنوه قادتهم رغم إن تقارير الاستخبارات العسكرية الخاصة بالمعركة كانت تشير إلى وصول تعزيزات من مناطق أخرى ، ومتطوعين من المناطق القريبة كان موجودا بدرجة أدت إلى وجود مقاومة ، واستمرار المعارك فترة أكثر مما كان متوقعا لها أن تستمر.

سياسة الأرض المحروقة

لقد تقدمت القوات الحكومية في المنطقة ، وعند قادة الفيالق ، والفرق جميعا أوامر صريحة باستخدام سياسة الأرض المحروقة .

وعلي حسن المجيد يتنقل بطائرة سميّة بين قادة الأرتال ، وآمري التشكيلات يحثهم على تدمير كل شيء في طريقهم ، ويثمن جهودهم ميدانيا بضوء ما يسجلونه من خسائر للطرف المقابل لهم ، وكأنه يريد ضغط الثماني سنوات التي لم يتفرغ لها الحزب الحاكم لعمليات القتل ، والإبادة ، والتشريد في المنطقة كما كان ينوي منذ استلامه السلطة في العراق .

كان يريد لها انتقاما من عدم قبول قادة الحركات الكوردية التورط في الحرب مع إيران ، ذلك الموقف الذي تصورته الحكومة انحيازاً إلى إيران ، وتجاوزاً على الوطن ، وخيانة للمبادئ التي وضعها حزب البعث ، وقيس عليها مواقف الآخرين كما يريد .

لقد اختلفت المعركة هذه المرة عن المعارك التي كانت تجري مع الكورد قبل مجيء البعثيين التي كانت تتميز بقتال فيه قوات الجيش :

تقاتل المسلحين الذين يرفعون البندقية فقط .

تستهدف المواضع التي يتواجد فيها المقاتلين المدافعون حصرا .

تقدم المساعدة الطبية لمن يحتاجها جريحا من الأهالي بالصدفة ، أو مريضاً عرضياً في المنطقة التي يدور فيها القتال .

يقيم الضابط الأعلى رتبة في المنطقة علاقات صداقة مع شيخ القرية ، ووجهائها . يحس العسكر أنهم يقاتلون تنفيذا لأوامر ، وبصيغ قتال مهنية بعيدا عن الحقد القومي والطائفي .

يحس المقاتلون الكورد البيشمركة أنهم يقاتلون عن قضية لهم في ساحة معركة فيها ، ولو قليل من المعايير ، والقيم التي حددتها البشرية عبر معاركها التي دارت منذ مئات السنين . يتحاشى دخول القرى ، والقصبات جهد الإمكان ، وإن دخل قرية بالصدفة ، أو لضرورات محددة يصدر القادة ، والأميرين في أغلب الأحيان أوامر بتجنب إيذاء المدنيين ، والعوائل ، وعدم دخول البيوت غير المشكوك بوجود مقاتلين فيها ، ومن يخالف من الضباط وضباط الصف والجنود¹⁰¹ يحاسب بشدة .

لكن المعركة هذه المرة تختلف عن المعارك السابقة ، والمشاعر والأحاسيس فيها لكلا الطرفين قد اختلفت أيضا : . فالأوامر صريحة عند سائق الدبابة أن يتوجه إلى البيت الذي يقع بمواجهته لهدمه دون أن يتوقف .

. والأمر واضح إلى قائد الطائرة السمتية أن يرمي صواريخه على تجمع للأهالي المدنيين في مرمى طائرته دون أن يتأكد من طبيعتهم أطفالا كانوا لا ذنب لهم ، أو نساء ثكلات بأولادهن الشباب وأزواجهن وآبائهن ، أو شيوخ لم يعودوا قادرين على المسير فتوقفوا مع النسوة ، والأطفال لطمأننتهم بقبول الموت حقيقة لا مفر منها وسط الجبال . والمشكلة في معارك الأنفال هذه المرة تعامل خارج الصيغ ، والمعايير العسكرية ، والإنسانية للقتال لا تنحصر بالطرف الكوردي بعد أن امتدت إلى الطرف العسكري الحكومي الذي ينفذ مهمة الهجوم إذ بات واضحا من خلال الأوامر وسير المعارك : . إن لم يطلق قائد الطائرة السمتية حزمة صواريخه على الهدف الذي يحدد له ، وينادي بإتمام تنفيذ الأمر سيعد خائنا يعدمه الرفاق في الرف الذي ينتسب إليه.

¹⁰¹. إن سلوك القتال هذا لا يمكن أن يميز كل فترات الحروب التي دارت بين الكورد والحكومة المركزية منذ ثلاثينيات القرن الماضي ، إذ من المنطقي أن يجري تجاوزا للمعايير ، والقيم في ساحة المعركة يتعلق معظمها بطبيعة القادة والأميرين الشخصية ، ولا علاقة له بطبيعة الحكومة كطرف في الحرب ، وفي تاريخ تلك الحروب ما زال الكورد يتذكرون قسوة بعض الضباط مثل المقدم الركن طه نوري الشكرجي في حقبة الستينيات ، وما زالوا يقيمون علاقات ودية جيدة مع ضباط قاتلوهم في الميدان بروح المهنية العسكرية .

. ومن يخطئ التصويب يكمل زميل له في الطائرة الثانية للتشكيل تنفيذ المهمة التي لا مناص من تنفيذها إبادة هذا الجمع الموجود على الطريق ، أو على حافة القرية التي يتقدم نحوها العسكر أرتالا جرارة .

. وإن لم يرم قائد الطائرة المقاتلة حمولتها من المواد الكيماوية على إحداثيات تقع في محيطها القرية ، أو فكر برميها خارج الأماكن المحددة فإن العدد رقم (2) في التشكيل ، وأحيانا الرقم (3) أو (4) سيكمل المهمة ، وسيجد قائد الطائرة الرقم (1) أن التصوير الفني داخل الطائرة قد سجل فديويا وفوتوغرافيا كافة التفاصيل ، وإن تقارير الرصد الأرضي ستصل إلى قاعدته قبل عودته إليها ليجد أن الشك ، والالتهام بالخيانة أمرا يحمله ضابط أمن القاعدة وهو واقف في المكان الذي درجت إليه الطائرة للتجهيز إلى مهمة أخرى مشابهة .

والنتيجة حجز لأغراض إكمال التحقيق الفوري ، ومن كان حظه عاثرا ، وقد انحدر من أصول تسكن وسط العراق وجنوبه كان مقدار الشك (على أساس النوايا) بافتعاله رمي القنابل خارج الهدف عاليا يدفع ضابط الأمن التكريتي أن يكيف التحقيق ، ونتائجه باتجاه تعمد الفعل ، والمطالبة بالإعدام ميدانيا ، وإن كان الضابط الطيار لم يقصد ذلك حقا .

. والأوامر محددة إلى جنود المشاة أن يتقدموا على جثث الضحايا .
أن لا يفرقوا في الرمي عشوائيا بين الموجودين في مرمى بنادقهم ورشاشاتهم المتوسطة والثقيلة .

أن يرموا بكل أسلحتهم بلا توقف .
أن ينتجوا حزمة نار كثيفة تزيد من خسارة الموجودين بالمواجهة وتنفس عن مكبوت عدواني في نفس القائد الأعلى للعملية .

لقد كانت الأوامر التي صدرت إلى قادة الفيالق ، والفرق صريحة وواضحة بالتقدم الجارف.

عدم التوقف لمجرد مقاومات جانبية هنا ، أو هناك حيث أفرزت قوات أخرى مدربة جيدا للتعامل معها .

عدم الانشغال بالتعامل مع البقايا من السكان الذين لم يصابوا في المعركة ، أو الذين جرحوا فيها ، فهناك آخرون كلفوا بجمع السكان من كافة الأعمار ، وإرسالهم إلى مناطق خلفية مؤشرة مسبقا لهذا الغرض .

وفي خضم تلك الأحداث ، وهول المعركة ، وكثرة الإصابات لم ينس علي حسن المجيد توجيه القادة الميدانيين لترك الجرحى التي كانت جراحهم شديدة في أماكنهم ينزفون حتى الموت ، وسوق الآخرين التي تؤثر جروحهم خفيفة وهم قادرين على التحرك لأن يتحركوا مع مجموعاتهم من السكان سوقهم بالعنف ، والقوة حتى بات أغلبهم يتمنون أن تكون معاملتهم أسرى حرب ، وهم مواطنون عراقيون .

الأوامر واضحة بالتقدم سريعا لاحتلال المنطقة المعنية ، وإفراغها من الحياة ، لكن الموقف لم يكن هينا رغم :

كثافة النار الشديدة ، وضخامة القوات التي تتقدم من أكثر من محور ومن أكثر من اتجاه. وكذلك السيطرة الجوية المطلقة على أرض المعركة ، وكم النيران التي تقدمها للإسناد القريب ، وتنفيذها الضربة الكيماوية .

وكان تقدم القوات أبطأ مما هو مطلوب حيث واجهت الفيالق الثلاثة مقاومة شديدة من قبل المدافعين المستمرين على القتال التعويقي ، وشن الغارات الليلية ، وحرب العصابات حتى منتصف نيسان حيث خفت المقاومة بسبب كثرة الخسائر بين المقاتلين الكورد وانتهت بعدها ببلوغ الفيالق المذكورة أهدافها المرسومة .

وبانتهائها تدافع القادة المعنيين بتقديم بشرى النصر المؤزر على إخوانهم العراقيين على الأرض العراقية ، يتقدمهم بالعودة الفورية إلى بغداد الفريق الأول الركن علي حسن المجيد ليحصدوا الثمن المخصص لنتيجة المعركة الحاسمة على أهل العراق : نياشين ، وأوسمة وأنواط شجاعة .

قطع أراض سكنية وأخرى زراعية تضاف إلى الرصيد السابق .
والأهم منها جميعا رضا القائد ومباركته عملا شجاعا قام به أبطال ميامين .

الوجه الآخر

إن المعركة لم تنته على الأرض في اليوم الذي عاد به قادة الفيالق متجهين إلى القصر الجمهوري ليقابلوا الرئيس ، واستمرت بصيغ مكملة لما تم في بدايتها وخلال مراحل تنفيذها :

. إذ تركوا من يدفن الضحايا بقبور جماعية لم تؤشر على أرض كوردستان العراق ليس خوفا من العالم المتحضر ، ولجان حقوق الإنسان ، ولكن لمنع الكورد من إعادة حفرها ثانية ، ودفن موتاهم في قبور منفردة وفق شعائر وطقوس إسلامية معروفة .
. وكلفوا من يجمع الباقين على قيد الحياة من السكان بعدالة مطلقة لا تميز بين الجنس امرأة كانت أم رجل .

ولا تفريق بين الأعمار شيئا في الثمانين حاله حال الرضيع الذي لم يتجاوز الستة أشهر من العمر.

. تكليف مفارز خاصة للتعامل مع الشباب المأسورين ميدانيا (أي إعدامهم موقعا) ، ومن يتركه الأمر رحمة به ، أو انصياعا لتوسل والدته يتلقفه الرفاق في مراكز التجميع ليصفوه على ضوء ذات الأوامر بالتعامل الميداني الذي يسري حتى آخر نقطة تجميع .
لقد عمل المكلفين بالصفحة الأخيرة من المعركة عملا متواصلا ، ونفذوا الأوامر بشكل دقيق حيث جاءوا بأهل القرى ، والقصبات التي تعرضت لمباشرة للهجوم ، من اللذين لم يستطيعوا الفرار من هول المعركة ، وجمعوهم في أماكن حجز خاصة ، وعندما وجدوا الأعداد في تزايد حركوا آليات الحفر (الشفلات) لعمل ساتر ترابي بارتفاع يزيد على ثلاث أمتار من الجهات الأربعة ، ووضعوا له باب ، ونقاط رصد في كل زاوية من زواياه الأربعة ، وتركوا الجمع فيه تحت رحمة السماء التي لم تتوقف عن المطر في تلك الأيام من السنة .

حيث ألحق به من استطاع الفرار ، وسلك طرق بقصد الذهاب إلى مراكز المدن ، أو لأقاربه في قرى أخرى بعيدة وتم إلقاء القبض عليه من قبل الكمائن التي أرسلت لهذا

الغرض ، وتوزعت على عديد من الطرق ، والنياسم في المناطق المجاورة إلى ساحة المعركة .

أما الذين تمكنوا من تجاوز الطوق المفروض من قبل القوات المهاجمة ، ونجوا في التخلص من الكمائن الخاصة ، ووصلوا بعض القصابات وجدوا بمواجهتهم عملاء للسلطة من بين الكورد أنفسهم ، قاموا بتسليمهم إلى السلطات العسكرية والأمنية¹⁰². بعد عدة أيام أنتهي التجميع في أكثر من مركز وحضرت سيارات شحن عسكرية أغلبها من النوع الشائع في الجيش (إيفا) وتم إركاب المأسورين فيها ليرسلوا إلى مثابات معينة ينقلوا منها ثانية إلى نقطة التجميع الرئيسة في (طوبزاوا) قرب كركوك .

السوق إلى المجهول

كان الجميع في مراكز الحجز وأثناء التنقل بالعجلات العسكرية بحالة يرثى لها إذ لم يذق البعض طعاما لعدة أيام ، ومنهم من لم يشرب الماء أيضا لأكثر من يوم . اختلطت النسوة بالشيوخ ، ولم يسكت الصغار عن البكاء رغم شعورهم بالجوع والإعياء. تلطخت مصاطب العجلات التي نقلتهم ، وأرضيتها بدماء الجرحى التي ما زالت تنزف وما زال الأمر الذي أصدره علي حسن المجيد بعدم مداواتهم ساريا حتى لفظ البعض منهم أنفاسه في الطريق إلى المجهول ، وما زال الأطباء حتى في مراكز التجميع يتجنبون التقرب من الجريح رغم قسم (أبو قراط) الذي أدوه عند تخرجهم من كلية الطب الذي يلزمهم قيميا بالتعامل مع الإنسان إنسانيا لأنهم يخشون من أن يرفع عنهم جندي الأمن ، أو الرفيق الحزبي تقرير يؤكد الشك بولائهم للحزب ، والثورة يقدمون أرواحهم ثمنا لقيم لم تعد موجودة في العراق .

لقد سارت العجلات التي تحمل المنكوبين بوجبات عديدة باتجاه كركوك لتفرغ حمولتها من البشر المرهق في المنطقة المذكورة في أعلاه . لكن المعركة ، أو الصفحة الأخيرة منها لم تنته بعد ، وكانت بعض فقراتها في المعسكر الذي تجمع فيه الآلاف هي الخطوات قبل الأخيرة .

¹⁰². توجهت جماعة كبيرة من قرية هزاركاني نحو قرية (كول جو حاجي) ومن ثم إلى قصبة كلار حيث قام أحد العملاء وجماعته بحجزهم وتسليمهم إلى الوحدة العسكرية الموجودة في المنطقة التي بادرت بإرسالهم أسوة بالآخرين إلى مراكز التجميع .

وكان علي حسن المجيد الذي لم يشغله التواجد في بغداد ، والاحتفال بالنصر المؤزر عن الإشراف المباشر على تفاصيلها ، والاتصال الدائم مع آمر المعسكر ، واللجنة الخاصة التي تشكلت من ذلك الأمر وممثلين من منظومة استخبارات المنطقة الشمالية ، ومديرية أمن الشمال ، والمخابرات ، وعضو من مكتب تنظيم الشمال ، والطلب منها أن تنفذ أوامر :

. عزل ما تبقى من الأعمار التي تقع بين الرابعة عشرة ، والخامسة والأربعين ، وتصفيتهم على الفور ثم نقل جثثهم لتدفن جماعيا بحفر جاهزة خارج المعسكر .
. فصل النسوة ، والأطفال الرضع على حدة ، والرجال ما بعد الخمسين على حدة ، وكذلك الشيوخ للبت بأمرهم .

بدأت عمليات العزل ، والتصفية درجات تبعا للعمر والمرض والنتيجة كانت :
. الحجز المؤقت لبعض النسوة العجائز ، والأطفال في الأعمار الصغيرة لعدة أيام ومن ثم إطلاق سراحهن لاحقا .

. إرسال الأخريات من الأعمار فوق الوسط إلى معتقل في منطقة الدبس .
. التخلص من الفتيات في عمر الشباب بتصفية البعض ، وحجز البعض الآخر في أماكن خاصة غير معروفة .

نقرة السلطان

كان الأمر بالنسبة إلى كبار السن ، والمرضى من الرجال ، أو المتبقين منهم تسفير فوري إلى معتقل نقرة السلطان ذلك المعتقل الذي حفر في الذاكرة العراقية آثارا سلبية ، وقصص عن وجوده محجرا للسياسيين العراقيين منذ الزمن الملكي ، وتغنى البعث بقرار غلقه بعد العام 1968 عندما أشار وأعلن أن ثورته بيضاء جاءت بروح جديدة ، وأساليب تعامل جديدة مع الإنسان العراقي غاية الثورة وهدفها .

وصل البائسون هذا المحجر الذي يتوسط الصحراء بين العربية السعودية ، والسماء من الجانب العراقي بعد ليلتين من السفر المتواصل المضني ليشهدوا الصفحة الأخيرة من معارك الأنفال :

بؤسا في العيش وسط الصحراء .

مأساة بالتعامل من المشرفين على المحجر .

فقدانا كاملا للاتصال بالغير في العالم المحيط بهم .

يأسا من الانتظار لغد كانت نسبة السواد فيه هي الغالبة .

خضع الجميع لإجراءات التفتيش الروتينية التي لم تكن الأولى منذ أول يوم ألقى القبض عليهم فيه .

وزعوا على غرف المعتقل التي شهدت في السابق استضافة سياسيين عراقيين مرموقين عرفوا بتاريخهم النضالي الطويل ضد الظلم ، ومساعدتهم في الدعوة للتحرر والحرية دخلوا هذه الغرف التي تشهد لأول مرة معتقلين من نوع خاص ، ومن أعمار متقدمة : أناس جيء بهم من أقاصي العراق ، لا تهمة موجهة إليهم سوى إنهم من أهل المنطقة التي دار فيها القتال .

كورد عاش البعض منهم جل عمره على سفح جبل لم يعرف عن وحشة الصحراء معلومة تفيده في وضعه الحالي وسطها .

شيوخ لا ذنب لهم سوى أنهم بشر لا ترى الحكومة أحقية لهم في العيش بأمان بين أبناء قومهم .

دخلوا الغرف بالرتل المفرد ، شعر البعض منذ الوهلة الأولى بالكرب والاحتصار ، لأن العدد الذي أدخل لكل غرفة بلغ بحدود الستين شخصا ، وهي مصممة أصلا لما لا يزيد عن خمسة أشخاص .

وشعر البعض الآخر بضيق النفس حد الاختناق .
جلس الجميع القرفصاء في أماكنهم دون حراك لأن الزحمة لا تساعد على ذلك .
سلموا أمرهم إلى الله العلي القدير .

حتى جاء الصيف الذي زاد من مأساتهم بعد أن ارتفعت درجة الحرارة حدا لم يشهده طيلة حياتهم في أجواء الجبال معتدلة الحرارة ، وبات البقاء في الغرف لا يطاق ينتظر الجميع حلول الليل لا لأن يناموا ساعاته المحدودة ، وإنما ليتنفسوا هواء باردا تقل فيه الروائح المنبعثة عن تعرق الأجسام المتعبة في النهار .

لقد قل عدد الجرحى الذين وصلوا المعتقل بشكل ملحوظ لأن غالبية من كان جرحه بدرجة الوسط زاد الالتهاب فيه مما تسبب في تسممه والوفاة بعد أيام من الوصول ، لأن الأوامر في المعتقل صريحة تنص على عدم تقديم العلاج لمثل هؤلاء رغم قلتهم .
وقد انتشرت الأمراض الجلدية بينهم بشكل مثير ومرعب وكذلك أمراض الربو وضيق التنفس .

وبدأت نسبة الوفيات تزيد بشكل مطرد مع تقادم الزمن ، وشدة الوهن ، والإعياء ، وهزال الجسم الذي لا تفيده التغذية التي تعتمد على رغيف خبز واحد وقليل من الماء ، وبعض من التمر في أيام محددة حتى تجاوز العدد في بعض أيام الصيف الحارة على ما يزيد عن عشرة أموات يوميا ، لا يستجيب لحالة موتها أحد من القربيين ، والزملاء ولا حتى بالحزن عليهم لأن الجميع يتمنى الموت خلاصا من عذاب الحياة ، لكن حزنهم يكون فقط عندما لا يستطيعون دفن رفاق المحنة أصوليا كغيرهم من المسلمين .

لأنهم منعوا من حفر القبور لمن يفارق الحياة كما تعودوا ذلك .
ولم يسمح لهم بتغسيلهم لأن الماء لا يكاد يكفي للشرب .

ولم يكن الظرف يساعد على تكفينهم ، لأن العزلة في الصحراء تامة ، والعيش اليومي فقط على ما يقدمه المعتقل من خبز وماء ، ولم يملك أحد نقودا لشراء الكفن بعد أن تناقص ما كان الواحد قد ادخره لعاديات الزمن بعد أن أخرجها من مكانها يوم الهجوم ، وهرب بها معتقدا أنها ستفيده ، وعائلته في هذه الأيام العجاف ، لكن ذلك لم يتحقق

لكثرة هذه الأيام العجاف ، وكثرة ما سلب منها في كل دورة تفتيش حتى انتهى ما تبقى القليل منها في جعبة آخر جماعة تفتيش في نقرة السلطان قبل التوزيع إلى الغرف . وبذا لا يملك الزملاء غير حمل المتوفى خارج السور وتركه على الأرض إلا بقليل من الرمال تغطي به جثته سرعان ما تزيها الرياح لتتكشف بعد ساعات وتكون طعاما للكلاب السائبة في المنطقة .

لماذا السلوك العدواني

إنها المعركة الكارثة على شعب العراق بعربيه وكورده ، والنتيجة المأساة التي لم يجد المتابعون لأساليب التعامل التي تخللتها من تبريرات مقنعة لدوافع القيام بها سواء بالنسبة إلى ما جرى من قسوة غريبة لمن تبقى على قيد الحياة ، أو لمن فقدوها لاحقا ، وتابع المسير إلى نقرة السلطان بعيدا عن ساحة القتال ، ولو إن البعض قدم تفسيراً لعموم سلوك العدوان ولكافة المراحل ذات الصلة بالمعركة تأسس على المعطيات النفسية ، والاجتماعية من بينها :

. إن كم العدوان في النفس التي أمرت بشن هذه المعركة عالي الدرجة ، ودرجته العالية هذه هي التي دفعته إلى الأمر بالقسوة على الضحايا ، أو قبولها كنوع من التنفيس لذلك العدوان .

. إن مستوى الحقد ، والبغض في النفس التي قادت المعركة كان عاليا جدا ، ومستواه العالي هذا دفعه أي قائد المعركة أن يأمر بكل تلك الإجراءات القسرية غير الإنسانية كنوع من الترويح عن النفس المليئة بالأحقاد .

. إن الخوف من عقاب القائد العام عند المستويات القيادية التي نفذت صفحات المعركة كان شديدا جدا ، وشدته هذه دفعتهم إلى التنفيذ الحرفي لما أمروا به ، وربما زاد البعض قليلا لتقليل درجة الخوف ، والحصول على قدر من الاطمئنان .

وإن البعض الآخر وضع لها تصورات ، وتفسيرات من زاوية أخرى إدارية ، لكنها ، ومن الناحية المنطقية لا تبتعد كثيرا عن التفسيرات النفسية المذكورة ، خاصة عند النظر إليها من منظار الطبيعة البشرية السوية التي لا تتخيل ذلك الدفع المقنن لمن بقي حيا من المعركة إلى الموت الحتمي بتقليل الطعام عنهم ، ومنع معالجة أمراضهم ، ولا يمكن أن تتصور بشاعة المنع القسري لدفن الأموات أصوليا ، وعموما هي تفسيرات للسلوك الذي كان سائدا في معسكرات التجميع والاعتقال يعتقد أصحابه أنه :

. يتعلق باحتمالات وجود أوامر من الجهات العليا بهذا الصدد لا يستطيع المعنيين في آلية تنفيذ الأوامر المعروفة في العراق التجاوز عليها .
. ويتعلق بعضها الآخر باحتمالات خوف آمر المركز ، أو المعتقل من رجال الأمن القريبين من أن يفسروا أي إجراء إنساني يتخذه بصدد معتقليه تعاطف مع حالهم ، وشك بولائه لقيادة الحزب يمكن أن يعاقب عليه بشدة .
. وقد يكون بعضها صيغة عقوبة اقترحها أحد المعنيين بأمن المعسكر، والمعتقل وحصلت موافقة القيادة العليا على تطبيقها حتى بات تنفيذها لزاما على الجميع في المعتقل ، والتجاوز على وقائعها مخالفة لا يجرؤ أحد ارتكابها ، وإن كانت ذات طابع إنساني .
. وربما تكون مبادرة من المبادرات التي كثرت أنواعها في الإدارات العراقية خلال العشر سنوات الأخيرة بقصد تحسين من بادر بها لسمعته ، أو للتقرب أكثر من المسؤولين في سلطة القرار ، أو سعي منه للحصول على مكافئة سخية اعتادت الحكومة منحها في كثير من المواقف المشابهة . ومع ذلك وأي كان التفسير لا يمكن تبرير تلك العدوانية التي يعجز العقل عن تصورها .

التيه في طريق العودة

لقد استمر الحال للمسنين المعتقلين في نقرة السلطان لأكثر من ستة أشهر جاءت بعدها مكرمة من الرئيس القائد بالتخفيف من عددهم ، وأن يتم البدء بالمسنين الأكبر عمرا ، والمرضى الميئوس من حالهم .

وبدأ البعض يغادر نقرة السلطان وفي مخيلته مئات الأفكار لا يستطيع التخلص من تكرارها ، وإن تيسرت له فرصة النوم بعمق خارج المعتقل ، وتوفرت له فسحة لتنفس الهواء غير الملوث بعيدا عن غرف المعتقل .

لقد عادت كل الأفكار التي كانت مؤجلة بحكم اليأس ، وبدأ التفتيش في ثنايا الذاكرة المشتتة عن إجابات لأسئلة مقلقة :

. عن الأحفاد الصغار الذين قتل أبيهم أمام عتبة الدار في قريتهم النائية ؟

. عن أطفال الابنة الأصغر التي تركتهم بعهدة الجد يوم فرت من القرية برضيعها تجنبا للاعتداء عليها وفقدتهم منتصف الطريق ؟.

. عن الزوجة التي فصلت عنه ، وهي على أعتاب السبعين لا تقوى على المسير ؟

. عن صديق قضى معه قرابة الستين عاما من العلاقة الحميمة في تلك القرية النائية ؟.

. عن بيته وبيوت القرية التي بنيت تحت سفح الجبل منذ مئات السنين ، وهدمت جميعها في ساعات قليلة ؟

كثير من الأسئلة التي لم يجد لها مجالا للإجابة سوى العودة إلى المكان القديم ، إلى قريته ليرى بعينه ، ويتأكد بنفسه عسى أن يجد من يساعده في الإجابة عن بعض أسئلته ، أو يرشده على ما تبقى من أحفاده ، أو أن يدفن في مقابر أهله ، والأجداد التي لم يأمر علي حسن المجيد عسكره بدخولها ، وهدم قبورها لأنه كان مشغولا بقتل الأحياء .

وقد توجه العائدون من المعتقل إلى قراهم .

لم يجدوا أثرا لها .

لم يجدوا من يجيب على أسئلتهم .

صعقوا من منظر الأطلال .

انتهت في وعيهم الحائر تلك التمنيات وهم في الطريق ، وبقي منها فقط رغبة في الموت القريب ، والدفن في مقبرة القرية مع الذين غادروا من الأهل والأقرباء ، لكن هذه أمنية رغم عدم علاقتها بنوايا السلطة المركزية في بغداد فإنها لن تتحقق لأن العائدين لم يجدوا من يعينهم على تنفيذها بعد الممات .

وبدلاً من انتظار الموت على أطلال القرية التي أزيحت من على الخارطة ، أبدل العديد من أولئك الشيوخ نهج تفكيرهم ، وحاولوا تذكر أقارب لهم في مراكز المدن ، والقرى التي لم تتضرر بالأنفال فتوجهوا إليهم طالبين فقط السماح لهم بانتظار الموت في وجودهم ، والدفن بمقابرهم كأمنيات جديدة لم تكلف الحكومة في بغداد أي ثمن .

ولم ترهق التفكير المريض للقائمين عليها ، لأنهم جميعاً يغطون في وحل المتعة الغريزية بينهم المشرف العام على تلك المأساة البشرية الذي كان في أوقات حلم المفجوعين بأهلهم وقراهم يقضي جل وقته في مزرعته الخاصة على دجلة كما كان يفعل سلاطين أيام زمان ، يزوره البعض من المشاركين في الأنفال .

يذكرون له تلك الحكايا بأسلوب ساخر ينعشه حد الطلب من الرواة تكرارها مع كل نخب يشربه بصحة الأبطال ، وعلى حساب المنكوبين .

لقد انتهت الأنفال ، وأعلن الجانب الكوردي أن خسائرها من جانبهم زادت عن المائة والثمانين ألف قتيل¹⁰³ ، ومفقود لم يتبن مصيرهم حتى هذا الوقت .

ولم تعلن الحكومة من جانبها رقماً لخسائر الطرف الكردي ، ولا خسائر العسكر القائمين بالهجوم ، رغم إن أرقامها في جانبهم قليلة جداً بالمقارنة مع خسائر الكورد ، لأنهم هذه المرة :

قد استخدموا كثافة نار هائلة جداً .

استخدموا السلاح الكيماوي بتركيز أكثر زاد من نسبة الخسائر في الطرف المقابل وضمن تقليل خسائرهم .

¹⁰³ في رواية بين الكورد أن وفداً قيادياً كوردياً زار بغداد في فترة من فترات المهادنة بعد الأنفال وسأل في اجتماع عن مصير المائة والثمانين ألف مفقود في الأنفال ، فتدخل علي حسن المجيد الذي كان حاضراً هذا الاجتماع ليقاطع المتكلم (لماذا هذه المبالغة وهم لا يتجاوزون المائة ألف) ورغم هذا الرقم الذي عده المذكور من سياق مداخلته طبيعياً لكنه لم يجب عن مصيره وأبقاه مجهولاً يخضع للتكهنات .

قدموا للمعركة بجاهزية عالية لثلاث فيالق تمتلك خبرة جيدة في القتال .
وعموما فإن طبيعة المعركة بين طرفين يتفوق الأول على الثاني بدرجة كبيرة ستكون
خسائرها كبيرة جدا بالأرواح ، وكذلك بالنفوس ، فكانت كذلك معارك الأنفال آلاف
الضحايا وجرح لن يندمل عشرات السنين .

الفصل الرابع عشر قتل الذات العراقية

إن ثلاثين سنة من التطويق الفكري تؤشر أن الخزين في مجالات
الوعي العراقي بشكل عام تم انتقاءه انتقاءً محدداً وبطريقة شبه قصدية .

أجهزة الدولة الضابطة

لم تتوقف حكومة العراق الحالية يوما عن التفكير في السيطرة على الإنسان العراقي وتسخيره لمصالحها آلة طيعة يؤدي فقط ما تطلبه من أعمال تصب في ديمومة بقائها ، وينفذ ما تصدره من أوامر في حروبها العدائية ضد الآخرين خارج محيطها ، وسيطرة مطلقة من هذا النوع تتطلب وسائل ضبط صارمة ، كانت قد أعدتها منذ بدايات استلامها الحكم عام 1968 حيث :

التوجه السريع لتعزيز الأجهزة الأمنية الموجودة في الأصل مثل مديرية الأمن العامة ومديرية الاستخبارات العسكرية العامة بالضباط البعثيين ، والاختصاصيين ، ومضاعفة ميزانياتها ، وتطوير أداء كوادرها.

تأسيس أخرى مثل جهاز المخابرات في السبعينات ومن بعده جهاز الأمن الخاص منتصف الثمانينات .

دفعت تلك الأجهزة بقوة لأن تتبادل الأدوار مع الجهاز الحزبي ، وقوى الأمن الداخلي (الشرطة ، المكافحة ، الجنائية ، النجدة) لغرض : فرض السيطرة المطلقة على كل مقاليد الأمور .

تعميم سلوك القمع على كل أساليب التعامل مع الفرد ، والجماعة . الاستمرار بفرض السيطرة ، وتعميم مشاعر الخوف في إجراءات لم يتوقف العمل بها يوما في أشد الظروف حرجا ، وكأنها حرب من نوع آخر كانت تستهدف هذه المرة الذات العراقية .

وبدأت تلك الأجهزة والمؤسسات (الضابطة) أعمالها بعد تولي البعث للسلطة بطريقة خرقت فيها مواد القانون ، وتجاوزت على حصانة الإنسان العراقي وإنسانيته ، تطورت بعد عام 1979 لتدمير إنسانية الإنسان ، وتفتيت المعايير والضوابط التي تعودَ عليها الشعب العراقي منذ عشرات السنين ، إذ توجهت لاستخدام القهر، والتعذيب ، والاضطهاد كمثيرات شبه مستمرة لأكثر من ثلاثين عاما كونت استجابات ذات طابع سلبي ، وعادات في الشخصية العراقية ، عديد منها يقترب من عدم القبول حتى تركت في ذاكرة الإنسان العراقي بكافة شرائحه الاجتماعية ، ومستوياته الثقافية ، وتعدداته القومية ، والدينية ، والطائفية أثرا لمفردات الكره ، والبغض ، وكذلك الحقد ، والعدوان على تلك

الأجهزة ومنتسبيها ، وعلى سلطة الدولة في الضبط الاجتماعي ، وكانت في مجملها أعمال
تسببت في إثارة الاضطراب في مجالات :
الوعي الجمعي
السلوك الجمعي
الأداء السياسي
المعايير الوطنية

اضطراب الوعي الجمعي

العراق مجتمع تبين النظرة المتفحصة لواقعه الحالي أن نسبة ليست قليلة من أبنائه ، وبسبب شدة الضغوط ، والتسلط القسري يعانون من هواجس زرعته في نفوسهم إجراءات الأمن المتكررة ، وأصيبوا كذلك نتيجة لها ، باليأس الذي أخل بطبيعة إدراكهم لما يحيط بهم ، أو ما مطلوب منهم ، بالإضافة إلى شتى أنواع المخاوف التي تعززت ، وكبلت حركتهم وحورت معالم تفكيرهم ، ودفعتهم لأن يعيشوا حالة تناقض ترسبت مكوناتها في دواخلهم فأصبحت جزءاً من الثوابت العصبية على التغيير الطوعي ، وهي على وجه العموم موزعة :

بين ما يؤمنون به ، وبين ما يطبقونه .

بين ما يحسون به ، وبين ما يعبرون عنه .

بين خبرات تعلموها طيلة حياتهم ، وبين الأساليب التي يطبقونها في واقعهم .

بين معايير وقيم تلقوها من الذين سبقوهم ، وبين الآراء التي يعبرون عنها في العلن .
بين الالتزام ، والحق ، وفروض شرعتها الأديان السماوية ، وبين تجاوزات حتمتها الظروف القائمة .

بين الرغبة في تغيير النظام من جهة ، وبين اتجاهات التهرب من المساهمة فيه بشكل مباشر ، أو غير مباشر من جهة أخرى .

... الخ من التناقضات الكثيرة ، والمتشعبة التي لم تدفع المواطنين العراقيين إلى الحيرة فقط ، بل ووضعتهم بمواجهة اضطراب اجتماعي ، لأنها تناقضات تحولت بالتدريج إلى تقييدات غابت بين ثناياها القياسات التقليدية التي كان ينبغي أن تكون موجودة في المجتمع العراقي ، وأي مجتمع آخر ، كمعايير ، أو محكات :
يرجع إليها الناس في تقييم أعمالهم .

يعودون إليها في النظرة إلى واقعهم وتأمل مستقبلهم .

وعلى أساسها يكون الضمير فاعلاً لمحاسبة النفس على أخطائها .

وبضوئها يبقى الأب قدوة للأبناء ، وأداة لمنعهم من ارتكاب الزلل في التجاوز على المنطق المألوف .

وفي إطارها يبقى احتجاج الإنسان على ظلم أخيه الإنسان مسموعاً، والرغبة في تقويم الخطأ قائمة .

وغيرها معالم للحياة تشكل على وجه العموم مجالات الوعي المجتمعي الصحيح الذي :
يجمع رؤية الأغلبية .

تتسق فيه التوجهات بين الإدراك ، والإرادة .

تتجانس فيه النتائج بين النظرية ، والممارسة.

هذا ولو تم النظر إلى تأثير أساليب ، وممارسات الحكومة وأجهزتها الأمنية على المجتمع العراقي من زوايا مختلفة نجده مشكلة قد تجاوزت حدوده الخلل إلى مستوى الاضطراب لعدة أسباب منها :

. إن مجالات وعي الجميع قد طوقت من قبل الأجهزة الأمنية ، وباقي دوائر الحكومة ومؤسساتها الضابطة ، بطريقة لا يستطيعون فيها (العراقيون) التعبير بتلقائية عن ما يودون التعبير عنه وإن كان ذا صلة بمسألة عامة .

. إن هوامش حركتها كموجهات للسلوك الفاعل قد تقيدت ، أو كبلت بمفاهيم جديدة لها قدرة هائلة على الكف (إذ أن مجالات الوعي من الأفكار ، والآراء ، والقيم ، والمعتقدات ، والمفاهيم هي الأساس في توجه السلوك باتجاه المعنى الموجود في المجال القائم) .
. إن التقييد المفروض قد خرج من دائرة الفرد ، أو القلة في المجتمع إلى محيط الجماعة ، أو الغالبية فيه .

. إن القيود المفروضة بات وجودها محكماً (وصل حد اكتسابه ثبوت العادة) والتخلص منه ليس سهلاً .

. إن التأثيرات الجانبية لم تتوقف عند حدود الدفع باتجاه القيام بالفعل الخطأ ، بل تجاوزته إلى امتناع الكثيرين من فعل الصبح الذي يمكن أن ينجيهم من القهر ، ويخرجهم من السجن الذي انحبست فيه نفوسهم ، وشلت حركتهم ، ومن الوهم الذي عاشوه ، أو عيشوهم فيه منذ ما يقارب الثلاث عقود ، وما زال كذلك ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين .

لقد تم ذلك بخطى تدريجية ، ووفقاً لشعارات ومفاهيم في دائرة وعي سارعت الحكومة وأجهزتها الأمنية ، والأخرى الضابطة إلى إغلاقها ، أو تقييدها بصورة شبه تامة بالاعتماد على جملة إجراءات بينها :

الرقابة الأمنية الفكرية الصارمة

التوجيه الإعلامي المقنن

شمولية التحوير الفكري

تحديد مجالات الوعي

الرقابة الأمنية الفكرية الصارمة

لقد شكلت الأجهزة الأمنية المذكورة آلية للرقابة على الطبع ، والنشر، والتوزيع ، والتداول لم تكن موجودة في العراق سابقا :

إذ أن كتابا لن يستورد إلا من خلال دائرة الرقابة على المطبوعات في وزارة الإعلام ، وخبرائها البعثيين وممثلي الأجهزة الأمنية ، وان نزل إلى السوق واحد منها عن طريق الخطأ في التقدير سحب على الفور وان كلف خزينة الدولة مبالغ طائلة ، ويعاقب الرقيب أشد عقاب .

ولا تطرح مجلة في المكتبات إلا من ساهمت في إعانتها وزارة الإعلام ، وقدمت لرئيس تحريرها الرشوة بسخاء .

ولا يطبع كتاب لمؤلف عراقي إلا ويمر بنفس تلك الدهاليز حتى وان تأخر طبعه عدة سنوات .

ولا تناقش رسالة ماجستير ، أو دكتوراه وان كانت في الطب والهندسة ، أو في علوم الحياة إلا بعد أن تجتاز عتبة الخير " اللغوي ، والفكري ، أي البعثي " .

ولم يكتفوا بذلك بعد عام 1979 واشتروا إرسالها إلى رئاسة الجمهورية قبل المناقشة بعشرين يوما على أقل تقدير لأغراض تتعلق بالأمن .

ولا يلق شاعر قصيدته في مؤتمر ، أو حفل ، وان كان معروفاً بانتهازيته إلا بعد تمريرها على لجنة الاحتفال التي يتمثل فيها الأمن ، وإذا ما كانت القصيدة قد أعدت للإلقاء في احتفالات الميلاد ، أو بذكرى الانتصارات التي يمكن أن يحضرها الرئيس تسحب من منشدها وان كان مزكى بتاريخه الوصولي الطويل ، وتسلم إليه مع دخوله المكان المخصص للإلقاء.

والسينما هي الأخرى خاضعة إلى نفس المعايير بأفلامها المستوردة ، إذ لا يعرض واحد منها في دور العرض العامة إلا بعد مشاهدته من لجنة مشكّلة في دائرة الرقابة من مديرها وأحد موظفيه سكرتيرا للجنة وممثلين عن مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ،

ومديرية الأمن العامة ، والتعليم العالي ، واتحاد الشباب ، ولجنة أخرى للاستئناف ممثلة فيها المخابرات ، وأحد مدراء الوزارة ، وجهاز الأمن الخاص أخيراً .

وينطبق هذا السياق على ما ينتج منها في العراق رغم قلته ، وضعف مستوياته الفنية ، وافتقاره إلى الموضوعية في كثير من الأحيان ، إذ لا يبدأ بتصوير الفلم إلا بعد عرض السيناريو على الرقابة كموضوع مكتوب ، وبعد حصول الموافقة ، واكتمال الإنتاج يعرض ثانية على لجنة الفحص كفلم سينمائي ، وهكذا بالنسبة إلى أشرطة الفيديو المستوردة من الخارج ، أو المنتجة في الداخل .

وما ينطبق على السينما يعمم على المسرح التي تخضع فيه عبارات الممثلين على خشبته إلى التفسيرات ، والتأويلات الأمنية التي تلغي العبارة وتغير النص ، وتوقف عرض المسرحية في بعض الأحيان .

وتأسيساً على ذلك يمكن القول :

إن ثلاثين سنة من الحصار والتطويق الفكري ، وكُم الموانع الموجودة في طريق الإطلاع على الحقائق من الداخل والخارج تؤثر أن الخزين في مجالات الوعي العراقي بشكل عام تم انتقائه انتقاءً محدداً ، وبطريقة شبه قصدية .

التوجيه الإعلامي المقنن

إن الصحف الصادرة في بغداد على قلتها مملوكة للدولة بشكل مباشر مثل الثورة ، والجمهورية ، والقادسية ، وغير المباشر مثل بابل ، والعراق . ورؤساء تحريرها موظفون بدرجات خاصة يعينون بمراسيم جمهورية ، وكذلك المجلات التي لا تزيد أنواعها عن عدد أصابع اليد ، وإن أضفنا إليها المهنية والاختصاصية .

وما ينشر في تلك الصحف ، والمجلات رغم طبيعته الغالبة مدحاً وتملقاً للنظام ، مصدره توجيهات الرئاسة اليومية على وفق آلية أخرى للتوجيه الإعلامي أعدت لتبدأ من الأعلى ، وتنتهي بكاتب المقال ، أو محرر نشرة الأخبار في الإذاعة والتلفزيون التي إذا ما أخذنا في مجالها بنظر الاعتبار أن البث المباشر ، أو على الهواء مسألة لم تعد مطروحة في الإعلام إلا استثناءً محدوداً وبصلاحيات ضيقة تحددها رئاسة الجمهورية في كثير من الأحيان ، ووضعنا بالاعتبار أيضاً القيود المفروضة على وسائل وأدوات الإعلام الخارجي مثل :

التشويش على الإذاعات الأجنبية .

. مراقبة الأشخاص ، والعوائل التي تستمع إلى محطات الإذاعة العربية والأجنبية ، أو التي تشاهد بعض محطات التلفزيون العربية ، والإيرانية لسكنة المدن الحدودية ، وكتابة التقارير عنهم ، والتلويح بمعاقبتهم أشد عقاب .
. منع استخدام أجهزة استلام البث الفضائي - الستلايت - ومعاقبة المخالف بالحجز ستة اشهر وغرامة فورية مقدارها 300 ألف دينار مع مصادرة الجهاز .
. عدم السماح باستيراد وتداول أجهزة الراديو ، والتلفزيون ذات القدرات الخاصة بسحب المحطات الأجنبية .

إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار كل ذلك ووضعناه مع إجراءات منع السفر إلى الخارج ، أو تقنينه بأقل ما يمكن لفترة طويلة منها يمكن القول :
إن النظام يعتمد بإجراءاته الأمنية إفقار الوعي العراقي ، ويتعمد استخدام أجهزته الأمنية أدوات لتحديد مجالات ذلك الوعي بأضيق الحدود .

شمولية التحوير الفكري

انشغل حزب البعث بموضوع الفكر منذ تأسيسه عام 1947 وقد بذل مؤسسه ميشيل عفلق وزملاؤه آنذاك جهودا كبيرة لصياغة فكره بالاستفادة من الفلسفة الماركسية ، والحركات القومية ، والخبرات الغربية فنجحوا بتمريره تطلعات لأجيال الخمسينات ، والستينات ، وكانت خطوته الأولى عندما استلم السلطة في العراق للمرة الثانية تبعث المجتمع العراقي فكرياً وسلوكياً ، وأدواته لذلك أجهزة أمنية لفرض التطبيق بالقوة ، ووسائل تعليمية موجهة تبدأ من دور الحضانة ورياض الأطفال التي يديرها الاتحاد العام لنساء العراق ، مروراً بالجامعات التي أغلقت أبواب القبول فيها لبعض الاختصاصات ، والكليات بوجه العموم إلا للبعثيين ، فتخرجت أجيال منهم أخذت على عاتقها إدارة المدارس التي تغيرت مناهجها أكثر من مرة ، وانتهاء بالدراسات العليا التي لم يبعث لها طالب خارج العراق إلا من يوافق عليه أمنياً ، ولم يقبل للدراسة فيها داخل القطر إلا ومن مرت أضرارته على الأمن ، علماً أن صلاحية البت في القبول أخيراً كانت لرئاسة الجمهورية ومن موظف يكون على الأقل من أقارب الرئيس ، أو من أبناء منطقة " تكريت أو ما جاورها " على الأغلب ، بقصد التدقيق ليس على أساس الانتماء الحزبي فحسب ، بل وعلى ضوء الأصول الإقليمية ، والطائفية ، والسلامة الأمنية ، والسياسية في كثير من الأحيان .

فتخرج آلاف البعثيين مدرسين ، ومدراء ، وأساتذة جامعات ، وباحثين مرعويين أمنياً قادوا العملية التربوية التي توجهها الرئاسة ويشرف على كافة مستوياتها أعضاء البعث غير المتخصصين ، ويراقب مناهجها ضباط أمن توزعوا على الجامعات بمكاتب أصبحت معلنة ورسمية في السنوات الأخيرة .

هذا وعند النظر إلى الشمولية من زاوية أخرى خارج أروقة المدارس ، والجامعات نجدها فلسفة وجدت في المجتمع العراقي بشكل عام :

إذ لم يبتعد عنها عسكري في القوات المسلحة اشترطت الدولة انتماءه للحزب ضابطاً كان ، أو عسكرياً متطوعاً ، أو جندياً مكلفاً ، أو احتياطاً في بعض الدوائر والوحدات المهمة ، وما داموا كذلك فانهم يحصلون على تثقيف حزبي مقنن ، بالإضافة إلى عمل التوجيه السياسي الذي يعتمد فكر الحزب أساساً لنشاطه . وفي الاتجاه نفسه لم يتخلص منها موظف في دوائر الدولة اشترطوا لترقيته إلى درجة أعلى أن يكون بعثياً .

أو عاملاً انتظم في النقابات المهنية التي يديرها الحزب .
أو شرطياً في مركز حدودي .

أو فلاحاً عرف بفطرته البسيطة أن حصوله على البذور ، والأسمدة ، ومعدات الزراعة المدعومة من الدولة لا يتم إلا من خلال الانتماء إلى الجمعيات الفلاحية المسيّرة من قبل الحزب ، وفيها تقام الندوات والتوجيهات على نفس الأسس المذكورة .

كل تلك التوجهات تقاس وتفرض من قبل الحزب ، والأجهزة الأمنية ، ولو بشكل غير منظور .

هذا وعند النظر إلى كل تلك الإجراءات الشاملة يمكن التأكيد على :

إن الخزين في مجالات الوعي العراقي بات انتقائياً تفرضه الدولة على الجميع بالقوة عن طريق أدواتها الأمنية ، ومحدداته الخارجية عند غالبية العراقيين موجودة بشكل عام ، ومتشابهة إلى حد كبير.

تحديد مجالات الوعي

إن كل تلك المفاصل ، والحلقات المذكورة في أعلاه تصب متناغمة أفكاراً محددة ، وآراءً معينة في وعي لم يسمح له الانفتاح خارج الأطر أعلاه ، فكانت أساس تشكيل حدوده ، وتبويب مجالاته ، عززتها الأجهزة المعنية بضوابط أمنية ، وأساليب قسرية تهدد كيان الفرد ، وتتحكم بمستقبله بقصد الاحتفاظ بها أفكاراً طافية على سطح الوعي ، أو بمعنى

آخر إبقائها ماثلة للعيان تدفع صاحبها كل الوقت إلى الخوف ، والتحسب من احتمالات التقصير في تطبيقها ، أو مخالفة قواعدها ، ومن بين تلك الضوابط :

. لا ينقل موظف من مكان لآخر ، ولا يحصل عراقي على وظيفة ما دون موافقة الجهاز الحزبي ، والأمني .

. لا يقبل الشباب في الكليات العسكرية ، والأمنية إلا بعد الحصول على التزكية البعثية ، والموافقة الأمنية .

. لا يرقى ضابط إلى رتبة أعلى ، أو موظف إلى مستوى أرفع ، دون مرور المعاملة بإجراءات الأمن ، والتزكية الحزبية .

. لا يتزوج العسكري ، والموظف بدرجات خاصة ، والحزبي بالمستويات القيادية إلا بموافقة الحزب ، والأمن.

. لا تمنح مقابلة لبناء عمارة حكومية ، أو تعبئة شارع ، أو إقامة سدة ترابية لمقاوم ما إلا بموافقة الأمن بغض النظر عن تاريخ نزاهته ، ومستويات كفاءته ، وإذا ما كانت المقابلة تهم الرئيس ، وعائلته ، ورئاسة الجمهورية من حوله فلا بد أن يكون المقاولون مؤتمنين ليس بالموافقات الأمنية الاعتيادية بل بشروط مضافة بينها القرابة من الرئيس والانتماء لعشيرته ، أو مدينته .

. من يشيد فندقاً ، أو يفتح محلاً تجارياً ، أو مكتبة ، أو مقهى ، أو يؤسس شركة لابد وأن يحصل مسبقاً على الموافقة الأمنية مقرونة في بعض الأحيان بأن يكون وكيلاً معتمداً لأحد الأجهزة الأمنية ، أو للفرقة الحزبية بالمنطقة .

. من يسافر خارج العراق لا يحصل على الجواز ، وتأشيرة المغادرة إلا بموافقة الأمن ، ومن يوفد للخارج لأي غرض كان يذهب إلى المخابرات ليحصل على التوجيه اللازم ، علماً إن مديرية الجوازات هي إحدى مديريات الأمن العامة .

. وفي السنوات الأخيرة لا يبيع صاحب دار داره في بغداد إلا بموافقة الأمن مع حظر على الشراء في بعض المناطق (مثل الأعظمية) وشريط الدور المحاذية إلى طريق المطار تبعاً لضوابط طائفية ، وإقليمية ، وأمنية .

إن مثل هذه الضوابط ، وأخرى غيرها مع تحريم انتقاد مفاصل السلطة والحزب ، ومنع التعبير عن الرأي المخالف لتلك التوجهات ، وقمع النوايا غير المتسقة ورغبات النظام ،

والقتل بلا محاكمة ، والإخفاء العمدي في السجون غير المؤشرة . تدفع جميعها إلى استنتاج :

أن إجراءات النظام الأمنية كانت بقصد تطويق الوعي ، الذي نتج عنه إقامة موانع ، ودفاعات ذاتية في داخل العقل العراقي(وكأن على أبواب وعي الواحد من العراقيين شرطي أمن يمثل النظام) ، وتقييده بقيود لا تسمح بخروج الأفكار غير المنسجمة وتوجهات الحزب ، أو دخول أخرى من خارجه ، وإن خرج البعض منها تحت أي ظرف من الظروف سوف لن تكون لها قوة الفعل في توجيه السلوك ، لدخولها صراع مع الأفكار الطافية على السطح من ناحية ، وصراع مع شرطي الأمن الذاتي ، أو الداخلي من ناحية أخرى ، وهما صراعان كانت نتائجهما لنسبة ليست قليلة منا خسارة للذات الإنسانية العراقية ، وبالنسبة للحاكم استمرار النظام وإن كان سيئاً .

اضطراب السلوك الجمعي

إن مسألة تقييد الوعي لعموم العراقيين الذي اعتمدته السلطة وأجهزتها الأمنية إجراءات لم تتوقف تأثيراتها على فرض السكوت ، أو ابتعادهم عن التماس بالسلطة ، بل وأثرت جانبياً على أوضاعهم الاجتماعية والنفسية ، حيث تسببت في معظمها بعدد من الآثار بينها :

إثارة القلق والتوتر
اضطراب التوقعات
عدم تحمل المسؤولية
النزوع إلى التجزئة
الانسحابية
الخوف من المجهول
الشعور بالحزن والاكتئاب
النفور الاجتماعي
الإحساس بخيبة الأمل
الشعور بالعجز
إثارة القلق والتوتر

مما ورد أعلاه يمكننا القول أن الوعي العراقي الحديث لم تقن مجالاته فقط بل وسّور بأسوار ، أو قيد بقيود أمنية ذاتية يصعب فتحها من الداخل إلى الخارج . وعلى أساسها بدأت خطوات البعض من العراقيين في اكتساب سلوك الكتمان ، أو بالمعنى الصحيح التفكير بصوت غير مسموع ، ومن جهة أخرى وان امتلاء وعاء الوعي بالمتناقضات وتكلم أحد تحت ضرورات التنفيس فيتجه إلى صديق ، أو قريب مؤتمن ليسمعه ، ورغم ذلك يعود إلى بيته (بعد أن أفرغ قليلاً مما في وعائه الممتلئ) قلقاً متوتراً يخشى من أن ما قاله قد تسرب إلى أجهزة النظام الأمنية حتى من صديقه ، ويبقى قلقه هذا ينحت في صحته لأيام معدودات ، وإن كان متوازناً بعض الشيء يقتنع بعدها أن ما قاله قد بقي بينه وبين الصديق . ومن كان حظه عاثراً ، وتكلم بين أكثر من واحد سيكون قلقه أشد حدة ، لأن فرصة وصول ما قاله إلى الأجهزة الأمنية أكثر احتمالاً:

وهذا بمجمله معاناة واستنزاف عصبي وقلق بات شاملا لشريحة واسعة من أبناء المجتمع العراقي .

اضطراب التوقعات

إن العقل العراقي الذي زود بمعلومات خاطئة ، ومحوّرة ، ومثيرة للتوتر ، بطريقة حشر قسرية أدى بالإضافة لذلك إلى اضطراب التوقعات أيضا ، إذ بات البعض خائفاً من زميل ، أو جليس يتوقع احتمالات قيامه بإيصال وقائع حظرها ، أو معلومة سمعها ، أو طرفة ضحك عليها إلى أجهزة الدولة الأمنية أو الحزب ، وإيصالها يعني احتمالات دفع حياته ثمنا لذلك إن لم يبلغ هو عنها .

الأمر الذي دفع الضعاف والموتورين ، وبسبب اضطراب توقعاتهم إلى المبادرة بإيصالها إلى الأجهزة الأمنية لتجنب شرورها ، معتقدين أن غيرهم سيوصلها إلى تلك الأجهزة حتماً ، وبعملهم المخزي هذا وجدوا تبريرا لسلوكهم غير السوي اقتنعوا به دون أن يحسبوا أنهم ساهموا بتكوين سياقات تفكير على مستوى الوعي المجتمعي قد يدفعوا هم أيضا ، أو القريبين منهم ثمناً باهظاً لتطبيقاته الآنية والمستقبلية إذ أن سيطرة العراقي على ما يحيط به من متغيرات ليست مطلقة ، وتلعب الصدفة فيها دورا كبيرا : فإن تمكن أحدهم أن لا يتكلم منتقدا السلطة فقد لا يضمن سكوت أخيه بمواجهة نفس الموقف .

وان أغلق أحد أذنيه فإنه غير قادر على غلق آذان أولاده المراهقين في سماعهم طرفة عن النظام .

وبالتالي قد يبادر ضعيف ليكتب عن الواقعة بسبب تعميم هذا السلوك الشائن وانتشاره ، فيعاقب الابن ، أو الأخ عقابا صارما لضحكه عليها ، أو لمجرد سماعه لها وإن كانت لا تثير الضحك ، عندها وقع ذلك الأب " كاتب التقرير " ضحية لعمل اعتقد في مرحلة من المراحل ، وبسبب توقعاته المضطربة أن القيام به سيجنبه شرور السلطة الذي ليس له حدود .

عدم تحمل المسؤولية

إن المشكلة لم تتوقف عند حدود تقييد الوعي ، أو توجيهه بالوجهة التي يريدها الحزب ، والأجهزة الأمنية فحسب ، بل وبالفجوة الهائلة بين الممارسة التي تعودها الكثيرون (

بسبب الوعي المقيد) وبين تحمل المسؤولية اللازمة للتخلص من هذا الواقع " التغيير " في الممارسات المطلوبة من قبل السلطة التي اعتاد عليها البعض على سبيل المثال : تقتضي الضرورة أحيانا :

أن يصفق البعض تأييداً وهم كارهون .

أن يمدحوا علناً وهم حاقدون .

أن يحابوا من في المنصب ، والسلطة وهم سئمون .

أن يسيروا في تظاهرة دعماً للظلم ، وهم مظلومون .

وقد تقتضي الضرورة أيضا :

أن يسكتوا عن الجور ، وهم بائسون.

أن يقبلوا باطلاً ، وهم متدينون .

أن يرضوا بالبؤس والجوع ، وهم شاكرون .

كل هذه الممارسات غير المنطقية التي جاءت بسبب التسلط الأمني ، كونت شعورا بالتبذل ، وعدم الإحساس بتحمل المسؤولية لم تتوقف تأثيراتها على مثل هؤلاء فحسب بل أعاقت جهود العراقيين الآخرين الذين لم يتأثر وعيهم بطوق النظام ، وكذلك الذين استطاعوا تدمير القيود ، وتحرير وعيهم مبكراً ، لأنهم تحملوا إضافة إلى نضالهم من أجل التغيير أعباء فك الطوق العام عن باقي إخوانهم العراقيين .

النزوع إلى التجزئة

إن مشكلة الوعي لم تقتصر آثارها على التقييد بل تجاوزته لتمتد إلى جوانب أخرى شائكة منها التحوير في التوجه ، إذ أنه وبعد عام 1958 اتجه الوعي العراقي على وجه العموم من الوعي الجماعي المحدود إلى الوعي المجتمعي العام ، أي من الشعور بالانتماء للعائلة ، والعشيرة ، والطائفة ، وغيرها من عناصر الفصل ، والتجزئة في المجتمع إلى الانتماء وبشكل تدريجي للمجتمع المدني الأكبر بصفته مجتمعاً إنسانياً شاملاً .

وبعد أن حققوا خطوات ملموسة بهذا الاتجاه ، وتحولوا إلى الكلية في التفكير ، والسلوك ، واقتربوا على ضوئها من العالم الأكثر تحضراً عادوا ثانية بسبب الإجراءات الأمنية لفرض الضبط ، والانضباط القسري إلى نقطة الصفر ، أو ما قبلها بقليل ، ليتمحوروا حول الجماعة الأصغر ، عندها بات وعي العديد مفصلاً مجزأً ، يفتش عن انتماء يشبع حاجته إلى الأمن ، وانتمائهم الحصري هذا إلى الجزء دون الكل ، والنكوص في مجال

الوعي إلى الماضي لنصف قرن نزع عنهم كليتهم ، وجعلهم أجزاءً متناثرة ، تجاوزت آثارها السلبية كثيرا وجهات نظر الفرد ودوره في المجتمع ، وأصابت الغالبية بقصور الرؤية العامة لما يتعلق بمشكلاتهم جميعا ، مشكلة الواقع الحالي للعراق ، ومستقبله بعد أن عادوا من جديد يفكرون بالعشيرة وحقوقها ، والطائفة واستحقاقاتها ، قبل التفكير بدولة العراق كحضر آمن للجميع .

إن النظام بإجراءاته الأمنية لفرض الانصياع دفع إلى أن يكون أهل العراق (بنسب ليست قليلة) متجهين إلى التفوق جماعات صغيرة ، أو مجرد تراكم بشري ، وليس جماعة فاعلة لها قوانينها ، وضوابطها ، وعاداتها ، وطقوسها ، وأفعالها ، ووقائعها التي تمتلك مرجعية تسمح بحصر الأفكار ، والكلام ، والأفعال باتجاه تحقيق أهدافها ، وطموحاتها المشتركة للغالبية .

وبعد إجراءات الفصل ، والتحويل لم يترك هذا النظام الجماعة الصغيرة على سجيتها العراقية الأصيلة ، وتقاليدها الشائعة التي يدفع كثير منها إلى ضبط السلوك وتوجيهه طوعيا ، بل وتدخل في عديد من خصوصياتها ، وأول عمل له في هذا المجال أن جعل اهتمامات الجماعة ورغباتها وحتى همومها وأساليب إشباع حاجاتها تتضارب . فتمزقت الجماعة .

وانغلق البعض من أفرادها على أنفسهم .

وامتنعوا من التفاعل مع الأحداث المروعة للعراق .

فأصبحت الجماعة كئيبة ، فاترة الشعور ، ولفظية في عديد من توجهاتها .

وابتعدت عن المشاركة بالطاقات ، والهمم ، والقدرات ، وكذلك بالإدراكات الحسية ، والأفكار ، والمشاعر ، والإرادات كأحد مقومات وجودها ، جماعة متفاعلة كما يراها علم الاجتماع . لأن إجراءات النظام الأمنية قامت في الواقع بإبعادها عن أية مشاركة تؤكد وحدتها كجماعة ، وأصالتها كمرجعية وطنية ، إلا ما يتعلق بأمنه الخاص .

واللا مشاركة ، أو المشاركة المشوشة ، أو الفوضوية ، أو الصاخبة انعكست آثارها السلبية ليس على قدرة الجماعة في أن تصون وحدتها ، أو تحافظ على كيانها فقط ، بل ودفعتها أن تتجه بالتدريج إلى :

أن لا تعمل إلا بضغط خارجي (أي من النظام ، وأجهزته الأمنية ، والضابطة) ، وهذا هو المطلوب ، والذي يحصل في كثير من الأحيان ، وبنسب ليست قليلة .

الانسحابية

إن الجو الأمني التحسبي الذي صاغه حزب البعث ، ووضع العراقيين في دائرته بدءاً من المدرسة ، والجامعة ، ومن ثم المعمل ، والمزرعة ، والمنظمة الحزبية ، والوحدة العسكرية ، مروراً بالبطاقة التموينية ، والأسواق المركزية، وغيرها ضببت حركة الفرد بشكل بالغ الدقة والمردودية بطريقة قيّدت حركته ، وسهلت سبل التحكم به من قبل الحزب ، والأجهزة الأمنية كجهات ضابطة على ضوء الحاجات الرئيسية التي يبحث عن إشباع لها بين تلك المؤسسات الهرمية قيادة ، وتوجيها ، وبات في المحصلة النهائية : انسحابياً لا يميل إلى المبادرة .

ينتظر الأوامر ، والتوجيهات من الأعلى . لا يبت بمسألة ، ولا يقدم رأياً ، أو يبادر بآخر . كل شيء عنده مرهون بالأعلى ، سلسلة تمتد بالمحصلة النهائية إلى الحاكم في أعلى قمة الهرم الذي أوجد نظاماً فريداً للتبعية يعتمد عليه الجميع بغذائهم الفكري وحاجاتهم العضوية ، وبمعنى آخر أرادها بطريقة : تبقي نظام الحكم قائماً ، وتبعد عنه إمكانية توحيد الأفكار المضادة ، والتخطيط باتجاه التغيير ، أو توجّلها إلى حين .

الخوف من المجهول

إن النظام الذي أرقق الإنسان العراقي بإجراءاته دفع أجهزته الأمنية إلى المبادرة بإشغال عموم المجتمع بأنواع من الأزمات التي زيدت في مجالاته هامش المجهول ، وبسببها لم يعد العراقي مستقراً يخطط إلى الغد القريب ، بل وعلى العكس خائفاً جداً من هذا الغد الذي يحمل في طياته كثيراً من المفاجآت غير مضمونة النتائج . هذا وكون الإنسان بطبيعته يخشى المجهول متى كان يمسّه شخصياً ، أو يجرح ذاتيته ، أصبحوا أي العراقيين وعلى ضوء هذه الحقيقة أقرب إلى المحافظين في كل شيء : يقاوموا معظم الأفكار حتى المرتبطة منها بتغيير واقعهم المؤلم ، وإن توقعوا صدق النتائج بتغيير لا بديل عنه في الخلاص من مأساتهم القائمة .

الشعور بالحزن والاكتئاب

إن الوعي المقيد ، المطوق ، الموجه ، المكبل لا تقتصر آثار التعامل الأمني معه على السلوك العام باعتباره أي الوعي محرك له ، بل تسببت هذه الإجراءات غير السوية

بالتأثير على الجانب الانفعالي للفرد ، والجماعة بسبب طبيعة الخزين المأساوي الموجود في الوعي لاثنتين وثلاثين سنة من حكم البعث . وهي معاناة لم تختف من مشاعر العراقيين وأحاسيسهم ، ولم تضيع في طي النسيان رغم اتساع الفسحة الزمنية فتحوّلت بتفاعلها مع الضغوط المحيطة إلى حالة اكتئاب ، وحداد ، وسواد ، وضيق ، وعزلة وندب للحظوظ ، معاناتها أشبه بالشاملة لعموم المجتمع العراقي .

النفور الاجتماعي

لو اقتربنا إلى صورة العراق الاجتماعية في ظل التحكم الأمني شبه المطلق ، نجد ونتيجة لإجراءات الأجهزة المتعددة أن الكثير من العراقيين قد أُصيبوا بقلق وجودي ، بسببه بقي العديد منهم :

ثابتين في أماكنهم ، غائبين عن التفاعل مع الأحداث التي تهم إنسانيتهم من جهة ، ومجتمعهم من جهة أخرى .

ينتقدون في أغلبهم كل عمل مطروح على الساحة ، وإن كان معنيا بمصيريتهم ، ويتمنون الخلاص فقط في الأروقة الخاصة وفي البيوت دون التفكير بكيفية ذلك ، أو جدية المساهمة فيه .

يهرب البعض إلى الخلف ، ويهرب آخرون إلى الأمام ، ويطالب قسم ، أو يتمنى أشياء لا علاقة لها بالواقع المعاش ، أو بالأزمة الحاصلة ، ويقترح القسم الآخر أهدافاً لا تستطيع الجماعات الخيرة " المعارضة وغيرها " النهوض بها .

يسعى عديدون طرح أنفسهم بدلاء لقيادة العراق الحالية شرطاً لمشاركتهم بمساعي التغيير ، أو البقاء متفرجين راضين بالواقع المهين حتى انجلاء الموقف ليدخلوا ، أو يتدخلوا بالوقت المناسب.

وتلك جميعها معالم قلق أدت نتيجة العيش تحت وطأتها فترة طويلة أن يصاب المجتمع بحالة تشبه التيه انعكست سلباً على طبيعة سلوك ، وتفكير الكثيرين ، وهي معالم لا تقل خطورتها على الوعي ، ومستقبل العراق من بقاء النظام نفسه بينها على سبيل المثال : يتوقف البعض طويلاً حول نقاط ثانوية لمستقبل العراق ، ويتجاوزوا أخرى أكثر أهمية ، ويغالون في التدقيق بثلاثة لا علاقة لها بموضوع العراق من بعيد، أو من قريب .

. يضحكم قسم المصاعب ، والأخطار المتأتية من تعامله مع مشكلة العراق الأساسية ، وهي لم تكن كذلك لو بدأ العمل مع غيره وزاد من عدد العاملين .
. أدخل عديد من العراقيين الساحة أمام المشاركة الفاعلة بالتغيير، وجهاز نفسه لانتقاد من يحاول دخولها ، وكأنه يعبر عن عدم رغبته بافتضاح تقصيره من عدم الدخول .
. أدار البعض ظهره لما يجري من بطش ، وقتل ، وتدمير، وتعلق بمشاكل ليست من شأنه في كثير من الأحيان .
. توارى البعض الآخر عن مسؤولياته كانسان ، عليه واجبات لتقويم الخطأ ، وإعادة بناء وطنه المهدم ، وبدلاً عنها بدأ يطلق الشائعات ، ويكثر من الاقتراحات غير المنطقية ، وينسبها أحياناً إلى عراقيين آخرين أخذوا على عاتقهم البدء بالكفاح من أجل التغيير .
. يهمل قسم آخر المعلومات الأساسية التي خزنها في وعيه عن العراق ، وما أصابه من تدمير ، وعن مستقبله المجهول ، ولا يستعلم عن أخرى ناقصة عن موضوع يهمه ، وأبناء مجتمعه .
. تكاسل آخرون ، أو شعروا باليأس فتركوا مهامهم الوطنية إلى أشخاص أقل قدرة على إنجاحها في بعض الأحيان ، وجلسوا ينتقدونهم على الفشل والتقصير ، وعدم الكفاءة ، لا يعيرون أي اهتمام لكل ما يقترح عليهم ، أو يقبلوا به آناً كنوع من المجاملة لينسوه في القريب العاجل .
. خلل ، أو تيه انتقل من الفرد إلى الجماعة ليصيب البعض من الساعين إلى التخلص من الخلل القائم فتوجه قسم منهم بسببه إلى :
التفريق بين الجمع بحجج الرغبة بالتوحيد .
وإلى التسقيط بدعوى الإصلاح .
وإلى توجيه التهم ، والتقليل من الشأن بنوايا إعادة البناء .
فترك غير القليل من المقتدرين ساحة المعركة مع الحكومة سبب المشكلة دون وعي ، وانغمسوا بمعارك جانبية مع أعدائها ، فساهموا دون دراية منهم بإطالة عمر الخطأ في العراق .

الإحساس بخيبة الأمل

في العراق أخلت الإجراءات الأمنية بإنسانية الإنسان ، وانتهكت الأجهزة الأمنية روح الجماعة وفاعليتها ، إذ لو تابعنا بدقة أسلوب تلك الأجهزة في التعامل مع موضوع الجماعة لوجدنا وبما لا يقبل الشك :

أنه سعي متعمد لإضعاف وحدتها أي الجماعة ، حيث الدعم غير المحدود لعشيرة معينة بالمال والسلاح على سبيل المثال ، لكنه دعم صيغ بطريقة الرشوة العلنية ، ومشروط بقيامها أي العشيرة معاقبة من يخالف توجهاته ، عقوبة تصل حد الموت في كثير من الأحيان ، وقبولها الرشوة وقيامها بالقتل ، والتجسس على الأبناء خيارات مفروضة فقدت العشيرة بسببها أحد أهم مقومات تماسكها ، وتحول بعضها بالتدريج إلى جهاز أمني مضاف لأجهزة الحكومة بعيداً عن روح التفاني من أجل وجودها .

وبهذه الأساليب لم تستمر تلك الأجهزة في تقديم الرشوة ، وفرص الكسب ، والجاه إلى جماعة ما أو عشيرة معينة إلى أمد بعيد حتى لا تشعر بقوة موقفها فتطالب الحكومة ثمناً لقوتها ، وهو ثمن قد يخل بالتوازن الذي أرادته لها مع قريناتها .

ومن ناحية أخرى فإن الأسلوب هذا لم يقتصر على العشائر، والطوائف فقط ، بل وسعى الحاكم الأعلى إلى تطبيقه أيضاً على دوائر الدولة ، ومنها أجهزته الأمنية على وجه الخصوص ، إذ يدعم الأمن العامة بكل الإمكانيات ولفترة يتحول جهده في الدعم إلى جهاز المخابرات ، ومن ثم إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ، ومن بعدها جهاز الأمن الخاص ، وبمستوى محسوب لا يشعر فيه ذلك الجهاز ، أو تلك المديرية أنها قوية وشعورها بالقوة قد يدفعها للتآمر عليه ولو 1 % .

وكذلك أدت تلك الإجراءات إلى تجاوز صيغ التكافل ، والتعاون وتحول بسببها كل شيء لمصالح الفرد ، والمكاسب العابرة للفئة الأصغر ، فترك مجالاً في الوعي العام لظاهرة الإيماء ، والتقليد ، والخدر ، والركون للأمر الواقع ، وبالتالي الخضوع المطلق للحاكم الظالم بمستوى لم يشهد له التاريخ الحديث مثيلاً .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى استمرت تلك الأجهزة في دعم الحكومة ومساعدتها على أن تعبئ في العقل آراء ، وأفكار ، وشعارات ، وتصورات ، وتمنيات تبين وبعد أكثر من ثلاثة عقود عدم مصداقيتها :

على إثرها أصيب العقل الجمعي بطعنة قوية ولدت فيه خيبة أمل بدرجة كبيرة ، وشعور بالنقص ، وحطمت الصورة عن الذات ، وهزت الثقة بالنفس ، فكان خواء أصيب به الكثيرين ، واستفاد منه الحزب في الاستمرار بالحكم .

الشعور بالعجز

إن الإحساس بطعم الحياة ، والتصرف في محيطها يعود في بعض جوانبه إلى مجالات الوعي كمعطيات داخلية ، وإلى البيئة المحيطة كمثيرات خارجية ، وهي في حالة العراق سعت الدولة بأدواتها الأمنية إلى تشكيلها على وفق برامج ثقافية ، وإعلامية ، وتربوية ، وتهديدات قسرية أعدت بشكل دقيق ، ونفذت من مؤسسات قمع منتشرة على طول الساحة العراقية ، مكونة في ذات الوقت بيئة ضاغطة لإجبار العراقيين على تطبيقها ، ومحاسبة المخالفين لاتجاهاتها حساباً عسيراً . وبمرور الوقت تقيد الوعي ، واضطربت المفاهيم عند كثير من العراقيين ، وبسببها :

شعر العديد بالعجز عن المناداة بضرورة التغيير ، أو المساهمة به ، ولو بشكل بسيط .
بات الكثيرون غير قادرين على القيام بما هو مطلوب منهم دينياً ، ووطنياً للعراق المنكوب.

وعلى أساسها :

عاش العديد حالة صراع مؤلمة قادت إلى فقدانهم للحركة ، أو توقفها (المحافظة على الوضع الراهن) .

وبضوئها وبأمور أخرى مضافة لها ضمن ذات الحكومة استمراراً بالسلطة رغم الظروف غير المواتية للاستمرار .

اضطراب الأداء السياسي

قد تكون التأثيرات الجانبية لإجراءات الأمن والتقييد التي تفرضها السلطة على الأداء السياسي للمجتمع العراقي هي الأكثر وضوحاً وسلبية من تلك التأثيرات الأخرى على السلوك في مجالات الحياة العامة ، والسعي في مجالها كان الهدف ذو الأسبقية الأولى بين الأهداف العديدة التي سعت وما زالت الحكومة تسعى لتحقيقها ، رغم إن تفاصيل النتائج قد تكون متداخلة بعض الشيء مع المجالات الأخرى للوعي ، والسلوك الجمعي ، ومكملة لها في التحصيل العام، وهي على وجه العموم تسببت في حالة من التراخي السياسي ، والعزوف عن العمل في مجاله لنسبة تعد كبيرة من بين العراقيين بالمقارنة مع الساعين من بينهم للعمل المعارض علنا في الخارج ، أو بالسر داخل الوطن ، وهي حالة سلبية قوامها :

انعدام الاستقرار والتوازن

قصور الرؤية السياسية

العزوف عن العمل السياسي

شيوع المعارضة الصامتة

تقاطع المصالح بين الفرد والدولة

انعدام الاستقرار والتوازن

بنت الحكومة أجهزتها الأمنية ، وسخرت خرى مثل الحزب ، والحرس الجمهوري ، والحرس الخاص ، والجيش ، والشرطة ، والمكافحة ، والنجدة ، وأعدتها بالإضافة إلى واجباتها الاعتيادية لأغراض ديمومة حكمها ، وحماية خاصة لمسئوليتها ، وقد حقق نجاحاً تكتيكياً على اقل تقدير ، وبنجاحه هذا كون إحساساً بالأمن قوامه عند المواطن العراقي :

فعل تجنب واستشعار بفاعليته .

اقتناع بالقدرة الفائقة على التدمير .

جدوى مؤسساتها ورموزها ، وسلطاتها لردع الفعل غير المرغوب .

لكن الحزب وبسبب أخطائه الاستراتيجية كما في حربه مع إيران ، وغزوه الكويت ، وقبوله الحصار تسبب في تصدع النظام المؤسسي العراقي برمته ، وبينه النظام الأمني الذي تأثر

بناءه بحدود ليست قليلة مع نهاية حرب الخليج الثانية على وجه الخصوص ، تصدعا انهارت بسببه معالم الإحساس بالأمن ، وكذلك الشعور بالانتماء ، والاطمئنان ، وبات اللون الأمني في الذاكرة العراقية لونا داكنا ، وصداه محبط ، ومثير لكل أنواع التآكل ، والوهن ، وعدم الاطمئنان ، وفي إطاره غابت الشروط الأمنية الكفيلة باستقرار المواطن العراقي ، لكنه لم يؤد إلى الانفلات بالتوجه ضد السلطة بشكل مؤثر حتى وقتنا الراهن (باستثناء فترة الانتفاضة) التي استطاعت الحكومة السيطرة عليها لاعتبارات دولية وتنظيمية ، هذا من جانب ومن جانب آخر لا يعني أن الانفلات غير محتمل الحدوث ثانية إذا ما توفرت شروط تساعد على خرق الجدار ، أو الغلاف الخارجي للوعي كما حصل عام 1991 ، أو بصورة أخرى قريبة منه لكثرة الرواسب السلبية في وعيه وصلابة الطوق الذي يحاصر مجالاته .

وعلى العكس من ذلك أدى إلى حالة من التداعي ، والتراخي تكيف لها عديد من العراقيين، بأن بنوا وأنتجوا نفسيات قلقة متوترة تعيش حالة العنف ، والعدوان فيما بينها، حالة قوامها الانتقاد ، والتجاوز ، وعدم الثقة ، وسرعة الانفعال ... الخ من الخصائص والتوجهات ، بدلاً من تحويلها مشاعرا وأفعالا إلى خارجها أي باتجاه سبب المشكلة (النظام) وهذه أدت من الناحية السياسية إلى :

أن يعيش الكثيرين في المجتمع العراقي حالة مؤلمة من انعدام التوازن السياسي. أن يشعر العديد في أيامهم العادية ، وفي الأزمات وكأنهم يسرون في فراغ قاتل مدمر ، لا ربان لسفينتهم ، ولا قائد لمسيرتهم ، ولا بوصلة ترشدهم ، بل ضربات يتلقوها من الخارج ، والداخل ، لا يعرفون كيفية التعامل معها . عندها انكفأ الكثيرون على أنفسهم ، وعاشوا مشاعر الأسى والتظلمات ، وامتهان الكرامة، وشعور غامر :

كأن العراق في بعض جوانبه السياسية جسد ميت لا روح فيه ، عضو جامد لا حراك له ، فاتر لا قدرة لديه للمساعدة على أن يدافعوا عنه ، جسدا تلتهمه النيران من كل جانب ، ولم يسع لإخمادها إلا القلة الذين لم يصل عددهم حتى الوقت الحاضر بمستوى يكفي عملية الإطفاء .

لقد شوه الضغط الأمني المستمر كل شئ حتى الضربات التي تصيب في الصميم إذ يتداعى لها الخيال سريعاً لينتج فقط دفاعات لحماية الذات على شكل تفسيرات خاطئة لهذا الواقع المحبط فيقول البعض مع نفسه ، أو مع الآخرين أقاويل بينها مثلاً:

لا فائدة من أي عمل يمكن القيام به .

العراقيون ضعفاء منقسمون على أنفسهم .

النظام مدعوم من القوى الكبرى .

رموز المعارضة العراقية عملاء للأجنبي .

..... إلى ما هنالك من مواقف التبخيس والتعجيز الذاتي ، والشعور بالاكتئاب عملت الحكومة بإجراءاتها الأمنية المتعددة إلى تعزيزها سلوكاً بين العراقيين ، لم تتوقف عند حدود تعزيزه ، وإنما توجهت بكل قواها إلى دفع المجتمع للإدمان على ظاهرة التراخي ، والتقاعد ، وعدم بذل الجهد اللازم لتفعيل محاولة تغيير الواقع إلى الأحسن ، وأي كان التغيير .

قصور الرؤية السياسية

إن التأثيرات الأمنية باتت مشكلة معقدة بسبب شدة الضغوط المسلطة على العقل العراقي الذي أدى وبسبب عدم القدرة على تحمله أي الضغط المستمر إلى أن يتجه البعض في محاولة جادة لعقلنة القصور في الفعل المناسب للتعامل مع عموم الأزمة العراقية بتقديرات سياسية ، وفلسفية مختلفة أساسها ألوان من المواقف الانهزامية . وهو اتجاه أدى إلى اضطراب في قوة البصيرة التي عرف بها العراقيون على مر العصور ، كانت علاماته واضحة من خلال بعض أنواع السلوك الفردي ، والجماعي غير العقلانية مثل :

. تهافت البعض من أبناء المجتمع وإن كانوا قلة إلى التبرع ، والتباري لتلبية الرغبات الخاصة لصدام ، وتطلعاته غير المنطقية ، وكأنهم لا يدركون آثارها السلبية على الآخرين من أبناء شعبهم .

. تسارع غالبية البعثيين لتجنيد رفاقهم ، والمستقلين في الجيش الشعبي ، وفدائيو صدام ، وجيش القدس ، وكأنهم لا يتحسسون أن تجييشهم الناس قوة للحاكم الظالم ، وإدامة لها ، واستمراراً لأخطائه التي ستطال حياتهم في أية جولة يرتكبها دون تخطيط ، أو تمييز .

إن هذا القصور اضطراب في قوة البصيرة انسحبت آثاره ليس على ما يتصل بالسياسة وشؤونها ، بل وحتى في الأمور الخاصة ، وشؤون الحياة المختلفة ، وإدارة المجتمع ، وعند مستويات وعي اعتكف فيها البعض مع ذواتهم فاصبحوا شكوكيين مغالين بالتحسب .

وهو اتجاه أرادته الحكومة وعززت وجوده الأجهزة الأمنية من خلال تعميم العقاب الصارم على مرتكب الخطأ ، وامتداداته من الأهل ، والأقارب في أحيان كثيرة .

العزوف عن العمل السياسي

إن المغالاة بالتحسب المذكورة لا تقتصر آثارها على تجنب انتقاد السلطة فحسب ، بل وبالابتعاد عن أي فعل سياسي خاص بالتعامل مع واقعها في كثير من الحالات ، خاصة وأنه أي الحزب لم يكتف بتهديد الجانب الأمني من الوعي العراقي بل وضخم من حجم أدواته الخاصة بالتهديد ، وبأساليب بينها :

إعدام بعض الوطنيين العراقيين الذين لم يبايعوه ، أو يعتقد انهم سيقفون ضده يوماً من الأيام فتخلص منهم على أساس الشك ، واحتمالات المستقبل .

وظف الإعدام في إطار التضخيم لقدرة أجهزته الأمنية عندما يشيع بعد تنفيذه أنه حصل بسبب اكتشافه مؤامرة تستهدف النظام قبل بدء التنفيذ ، أو مع بدايات التخطيط ، أو أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية زودت مخابراته قائمة بأسماء عراقيين يخططون ضده .

وبخطوته هذه وسعت أجهزته الأمنية مجالات الخوف ، والتحسب في العقل العراقي الذي انعكس سلباً على الدافعية ومستويات المشاركة في العمل السياسي الوطني ، وأبقى نسب غير قليلة من العراقيين في دائرة الحيرة ، واللوم في محصلة نهائية :

قبل فيها الكثير ظلماً مستمراً ، وموتاً مؤجلاً على المجازفة بقول كلمة حق في مكانها . عزف العديد عن المساهمة بمقاومة الظلم في أوانه ، أو العمل مع زملائه الخيرين من أجل التغيير في حينه ، وهم يعون تماماً أن المجازفة باحتمالات الموت متقاربة لكلا الاتجاهين باستثناء أن الموت بالأولى مؤجل وفي الثانية أسرع وقعا ، لكن المجازفة في الحالة الأخيرة تضمن لمن يبقى منهم على قيد الحياة الكرامة ، والحرية ، ولامتداداتهم من الأبناء حياة أكثر أمناً واستقراراً .

إذ إنه وعلى سبيل المثال كثير من الإجراءات التي يقوم بها النظام وأجهزته الأمنية تعرض العراقيين لاحتمالات الموت اغتيالاً ، أو حكماً جائراً ، أو قتلاً بالخطأ . فالاستماع إلى ما يغضب الحاكم ، والحكومة مشاركة يحكم بها موتاً على السامع ، والقائل على حد سواء وان كان الضحية متواجداً بالصدفة . والذهاب إلى صلاة الفجر قد تعرض للقتل مصليين جاءوا إلى الصلاة خلف شيخ منعه السلطة من إقامتها ، فحكمت بقتله ومن معه لعدم امتثالهم لأوامرها . وقد يتعرض للقتل طفل ، أو امرأة تصادف وجودهما قرب أبطال تظاهروا احتجاجاً على الظلم ، أو استنكاراً لقيام أجهزته بتصفية أحد الرموز الوطنية¹⁰⁴ ، وعندما تقصف قوات الحكومة قرية بمدفعتها ، أو مدينة بصواريخها لا تفرق بين هذا وذاك . عندها تكون احتمالات الموت لمن ثار عليه من أبناء القرية ومن تنحى جانبا تفادياً لشره واحدة على وجه التقريب ، وهو الأمر الذي لم يتمكن غالبية العراقيين من إدراكه بسبب التقييد الذي فرضته إجراءات الأمن عليهم .

شيوع المعارضة الصامتة

في خضم الحصر الذي كونه أجهزته النظام الأمنية تبين أن العديد من العراقيين لا يريدون التعرف على قيودهم محاولين القفز من على الحقائق ذات الصلة بها ، وهذه مسألة صعبة ، تكمن صعوبتها في عملية إعادة توعيتهم بوعيهم المجزأ ، المقيد ، الموجه ، الذي لا يتم إلا من خلال الاقتراب من الحقيقة ، والإمساك بها مباشرة دون أي التواء . والحزب بأفعاله القسرية هذه كون مجالاً واسعاً للأمن في الوعي يفضي إلى حالة من القلق أمام مشاعر الانغلاق ، والانحباس داخل مجتمع الدولة الذي تحول إلى مصدر للخطر ، والاندثار بعد أن كان ملاذاً ، أو مصدراً للأمان ، والاطمئنان والحنان . كل ذلك أدى إلى أن يتحول الضجر ، والبؤس ، والكره للحكم إلى معارضة صامتة ، نتلمسها من خلال العديد من الاستجابات وردود الفعل منها على سبيل المثال :
الهمس البيني عن دكتاتورية الحاكم ، وعن فجور السلطة فقط بين المقرين جداً .

¹⁰⁴ .فتحت عام 1999 قوات الحرس الخاص ، والأمن العامة بقيادة لطيف نصيف جاسم ، النار على متظاهرين في مدينة الثورة إثر تظاهريهم بعد استشهاد الإمام محمد صادق الصدر ، فقتلت معهم عشرات الأطفال تصادف وجودهم في نفس المكان .

. دعوات الخلاص من محنة أرهقت الكاهل فقط في قلوب المصلين في صلواتهم الخمسة.

. عموم المجتمع العراقي مجتمع معارض في النوايا ، والأهداف ، والكثير يتمنى التغيير بأية وسيلة تفضي إلى الخلاص ، لكن القلة هم اللذين حسموا أمرهم ، وشرعوا بالعمل فعلاً من أجل تحقيقه ، وتحملوا العواقب المرتقبة .

. يناقش الجميع مأساة العراق ، ويشعرون ضرورة التخلص منها ، لكنه لو طلب حتى من اللذين يتواجدون خارج الخطر المباشر تحويل هذه المشاعر ، والأفكار إلى أفعال ، أو الدعوة غير المسموعة إلى دعوة علنية ، يتوقف قسم منهم ويصر على الامتناع ، وكأن قوة قد سيطرت على الواحد منهم تفوق مستوى إدراكه للمشكلة ، وتأثيراتها الحالية ، والمستقبلية .

وهذا التناقض في الخطى جعل العقل العراقي (الغالبية) محكوماً كذلك بسياسة المحاور المتبدلة ، والمتغيرة دائماً فمنهم من يؤكد هذا الرأي ثم يعود لمعارضته إن شعر أنه يهدد ذاته ، أو لا يقبل عليه الأعلى ، وكثرة المحاور تصيب الإنسان بالإعياء ، وتدخله في قناعة أن اللامعقول يصبح معقولاً ، ولكن بشكل غير عقلائي ، فيحس البؤس والخذلان .

تقاطع المصالح بين الفرد والدولة

إن طبيعة الإجراءات الأمنية المذكورة في أعلاه كونت تقاطعاً في داخل العقل لمفهوم العلاقة بين الفرد والسلطة ، أي اختلافاً وتناقضاً بين الذاتية (ما هو موجود) وبين الموضوعية (ما ينبغي أن يكون) ، وبفعلها هذا أخلت كثيراً بعملية التجانس ، والانسجام اللازمة للاستقرار ، والتناغم بين العراقي ، والسلطة .

وهذا التقاطع يعني أن النظام السياسي العراقي يخنق مجالات الوعي ويصيبها بحالات شديدة من العجز ، والتشتت بمستوى ساهم بتعزيز سلوك الفردية ، والذاتية الموجود أصلاً في الشخصية العراقية التقليدية.

اضطراب المعايير الوطنية

العراقيون معروفون بوطنيتهم العالية ، وبمقدار ارتباطهم الوثيق بالأرض التي يعيشون عليها ، مشاعر ترسخت في النفوس لمئات السنين قد تأثرت سلباً هي الأخرى بسبب أساليب الأمن ، والضغط شبه المستمرة خلال عملية إدارة المجتمع والدولة ، التي تسببت في محصلتها في :

ضعف الروح المعنوية

الميل إلى تدمير بعض المعايير الوطنية

ضعف الإرادة الوطنية

الشعور بالاغتراب والعزلة عن الوطن

اختلال النظرة إلى عناصر الوطنية ورموزها

ضعف روح المواطنة

إن تصرف ، أو سلوك الفرد مرتبط دائماً بحركة التفاعل ، والتشابك بين شخصيته ، وحاجاته الأساسية ، وتركيبه المحيط الذي يتحرك فيه ، وبمعنى آخر أن كل ما يصدر عنه ناتج عن محصلة لتفاعلات كيانه البيولوجي ، والنفسي مع البيئة التي ينتمي إليها تفاعل يظهر على شكل علاقة احتواء عنصرها الأكبر (المحيط البيئي) لعنصرها الأصغر (الفرد نفسه) .

وعندما تنتقل بالصورة من السلوك الفردي إلى السلوك المجتمعي نجدها صورة لا تختلف عملياً ، إذ أن السلوك في المواقف العامة ينتج من التفاعل بين أولئك الأفراد بخصائصهم ، وميولهم مواطنون موزعون على بقعة جغرافية معينة . وبين المقومات ، والعناصر الضابطة لمجتمعهم .

علاقة تحدد مشاعرهم تجاه المحيط ، وميولهم للتعامل مع كل المتغيرات ذات الصلة به ، دفاعاً عنه ، وتضحية من أجله ، ومساهمة في بنائه ، وتطويره ، فتشكل مع غيرها ما يسمى بالوطنية .

والوطنية بهذا المعنى تسمية لإطار ، أو بنية لعناصر متعددة ، تترابط فيما بينها ، شبكة من العلاقات متداخلة إلى حد كبير ، وهي اتجاه عام من الناحية الارتباطية التي تنظم

أسس ومحتوى تلك العلاقات التي تجمع الغالبية في بنية محددة ، بنية تتجسد من خلال القناعة ، والثقافة ، والقيم ، والمواقف ، والأحكام ، والأمان ، والطموحات : معطيات تضيف على أصحابها أفراداً ، وجماعات اللون ، والشكل ، والمنحى الفكري ، وتسمح لهم بالتالي التعاون فيما بينهم ، أو مع جماعات أخرى لتحقيق الأهداف العامة فتعبر عن وطنية عالية المستوى ، أو الانسحاب سلباً من كل المواقف ذات الصلة بتلك الأهداف فتؤثر هبوطاً بمستوياتها .

ولو عدنا إلى موضوع العلاقة بين إجراءات الأمن في مجال الوعي والإدراك لعموم العراقيين ، وعلاقته بالمشاعر الوطنية ومستوياتها ، وناقشناها بتجرد وحيادية . جهد الإمكان . نجد أن هناك الكثير من الاضطرابات ، والتناقضات غير القليلة في العناصر المكونة لها جاءت بسبب طبيعة الإدارة الأمنية القسرية وغير المتوازنة للمجتمع العراقي ، وبسبب أخطاء الحكومة ، ونواياها غير الحسنة . وعلى أساسها يمكن القول : إن الوطنية كمشاعر لعديد من العراقيين في الوقت الراهن على قدر من الفوضى ، واللاعقلانية .

لأننا لو عدنا ثانية لإجراءات الحزب في إطار الأمن ، وسياسة التبعيث ، والتعريب ، نتلمس أن جميعها قد أدت بالإضافة للاضطرابات المذكورة إلى احتواء الفرد ، أي سلب قدراته على التفكير العقلاني في أمور حيوية منها مشكلة العراق وما يتعلق بها، وتركته : جسماً بيولوجياً يتخبط في المحيط غير المضمون . يفتش عن حاجات تبقى على قيد الحياة .

يحاول إشباعها بلا انقطاع ، دون النظر إلى المحيط " الوطن " من حوله . أي إن عملية التفاعل بين عناصر الوطنية لم تحدث بالشكل الطبيعي ، وتلك كانت من أكثر التأثيرات خطورة على العراق في وقتنا الراهن ، لأنها أدت إلى أن يكون البعض من العراقيين وفي أحيان ليست قليلة :

. مواطنون موزع كثير منهم دون شعور بالانتماء العام ، أو بقليل منه ، تسيطر عليهم النوازع ، والأهواء الشخصية ، والانتماءات البينية المختلفة .
. مواطنون لا رغبة لعديد منهم بالتعاون مع أخوتهم ، ولا دافعية للعمل من أجل صيغة قد تساعدهم على الخلاص ، أو حتى التقليل من همومهم .

والدولة من حولهم فقدت كثيراً من مقوماتها فلا هيبة لها ، ولا مصداقية ، ولا قدرة لحماية السيادة ، ولا إمكانيات لتأمين العيش للغالبية من الأبناء . عندها اختل طرفا المعادلة واختلت النتيجة (الوطنية) المتأتية من تفاعلها ، واضطرب الشعور بها ، وباتت صفة يحاول البعض الابتعاد عنها بعدما كان يتفاخر بها ، وأكثر من ذلك اندفع البعض الآخر يتهرب منها مهاجراً ، أو لاجئاً ، أو باحثاً عن جواز سفر لدولة أخرى ، أو واقفاً على الطريق لا يتجرأ البوح بعراقيته الأصلية .

الميل إلى تدمير المعايير الوطنية

هذا وبالإضافة إلى ضعف الروح الوطنية نجد أن الصورة أكثر عتمة عندما نتلمس قيام البعض بمعاداتها ، والسعي لتدميرها رمزاً اعتقدوا بسبب ضغوط الأمن ، وإجراءاتها التعسفية :

أنها وهم ، أو مشاعر ارتبط وجودها بالحاكم الفرد فتوجهوا لضربها بأماكن مختلفة ، ضربات لا تخل بطبيعة الطوق المفروض لتقييد الوعي ، ولا توقظ شرطي الأمن القابع على محيطه ، وإنما تتجه لتدمير كل ما يرتبط بها ، وكانت قسم من ضرباتهم متمثلة : عدم المحافظة على أملاك الدولة ، والمال العام ، والسعي لإتلافه وتبذيره ، وتحليل الاستحواذ عليه شرعياً .

. التقصير المتعمد في تأدية الواجبات ، وإن كان البعض منها يهمل المواطنون بشكل مباشر .
. استئثار الرشوة أسلوباً في تمشية المعاملات الرسمية ، وغير الرسمية .
. انتشار التزوير وشيوعه صفة لا تثير الدهشة ، والاستغراب .
. .. الخ من أنواع الهدم ، والتخريب في البنية العامة للمجتمع ، وبطريقة يمكن تشبيه العراق على وفقها في وقتنا الراهن :

سفينة وسط بحر متلاطم الموج كل راكب من ركابها يسعى لعمل ثقب فيها نكاية بربانها ، أو لضجره من كثرة أعطالها التي أبقتة بعيداً عن الوصول إلى البر ، دون أن يعوا أن غرقها يعني احتمالات موتهم جميعاً وبنسب كبيرة .
إنه اختلال في أطراف المعادلة أدى إلى زيادة الضبابية في تصور مصالح المجتمع العراقي ، والانصياع لها ، أو التطابق معها ، وفي مجال الوطنية يعني الانصياع ، أو الالتزام : العامل الكفيل بإضفاء صفة الاستقرار ، والأمن على الدينامية ، والجماعة .

وإذا ما فقد الاستقرار كما هو الحال في العراق يعني أن التطابق أصبح في أدنى حالاته ، وأخذ بإعطاء مكانه للتفكك إلى جماعات صغيرة تغلب على توجهاتها المصالح الذاتية ، ويحكم سلوكها التعصب ، والأنانية ، وتغيب عنها الروح الوطنية.

ضعف الإرادة الوطنية

إن الأساليب الأمنية المتبعة ، وبعد أن أبعدت العراقيين عن احتمالات التطابق كما ورد أعلاه أثرت على جوانب أخرى من الفاعلية المطلوبة لتكوين الإرادة، والإدراك اللذان يعدان جوهر الفاعلية الذاتية لعمليات الوعي ، ولب عناصر الوطنية .

الإرادة التي تعني الإصرار ، والسعي ، والفعل مجالات في عقل العراقيين تقلصت بشكل كبير ، وبتقلصها أصبح الشعور بالوطنية ، وإن وجد بمستوى معين ليس ذات جدوى لتحويل الشعور إلى فعل لصالح الوطن ، أو الحيلولة دون القيام بفعل ضد مصالحه أيضا في ظروف صعبة مثل ظروف العراق الحالية .

والإدراك الذي يرتبط مع الإرادة¹⁰⁵ ويشترك معها في نفس البنية العقلية . والنظرة إليه تبين أنه قد تعطل هو الآخر ، أو ضعف على مستوى المساعدة لفهم ما يحيط بهم أي العراقيين من وقائع ، وأخطار واتجاهات :

إذ لم يع بعضهم الأخطار البعيدة المدى لحكم البعث ، ونواياه ، وغاياته ، وارتباطاته رغم وضوح البعض منها مثل أعمال القتل ، والاغتيالات ، وافتعال الحروب ، والتدمير ، والدكتاتورية ، والطائفية ، والإقليمية ، وغيرها أعمالا كأن العقل قد تعطل ، أو تكاسل إبان حدوثها فلم يعد يدرك ماهيتها . (رغم إن هذا هو حكم لا يمكن عده حكما مطلقا من الناحية المنطقية ، إذ أن البعض من العراقيين أدركوا ذلك مبكرا وكان وعيهم عصي على التقييد رغم إجراءات النظام المشار إليها ، لكن واقع حالهم يشير إلى أن البعض منهم دفع حياته ثمنا لهذا الإدراك ، والوعي ، والبعض الآخر غادر العراق في غربة طويلة كانت هي الأخرى ثمنا لهما ، وهي إجراءات للحكومة كانت مقصودة لتقييد وعي غيرهم من العراقيين) .

105. لا إرادة دون إدراك ولا إدراك دون إرادة ، وبالتالي فإن الوعي الذاتي هو إدراك وإرادة ، فمن حيث هو حكم على الموجود أصبح إدراكا ، ومن حيث هو تحكم به أصبح إرادة .

هذا وعندما يحصل ذلك أي عدم الإدراك ستضعف الإرادة وتنخفض مستويات الشعور بالمواطنة بحدود كبيرة .

الشعور بالاغتراب والعزلة عن الوطن

إن من عناصر الوطنية التي اختلت جوانبها مسألة الانفصال الاجتماعي عن الوطن (العراق) لدى نسبة ليست قليلة بعد أن وضع النظام نفسه بديلاً رمزياً عنه ، بفسحه المجال واسعاً لتمجيد حاكمه بطلاً ، ومنقذاً ، ومخلصاً وحيداً ، وعندما فشل في أن يكون كذلك تقلص الإحساس بالوطن كحُضن آمن ، وهربت كثير من موجودات الوعي إلى اللاوعي الذي أصبح بالنسبة للكثير علبة محقونة بصور غير متجانسة ، في معظمها : بقايا ذكريات للخوف ، والهلع .

رموز للخطر ، والتهديد .

وهذه الصور المحفوظة على مستوى اللاوعي لا تلبث أن تتحول إلى عناصر اضطهاد ، وإحساس بالاغتراب يصعب على بعض المواطنين مواجهتها ، أو وضع حواجز لها ، أو موانع تحول دون قيامهم بما يخل بوطنيتهم .

إن الشعور بالاغتراب قد ترك بصماته على سلوك العراقيين بشكل قدري ، فطبع الوعي بطابع السوداوية المتشائمة ، ودفع البعض إلى أن يسخر كل حركة يقوم بها ، أو سلوك يؤديه في سبيل تعويض هذا النقص ، رغم أن نتائج هذه المحاولات لا تجدي نفعاً للتعويض ، وستبقى عملاً لا إرادياً تكمن أهميته في أدائه حركة أكثر مما تنفع في اتجاهاته لتحقيق الأهداف .

فكان تناقض دفع من ناحية أخرى إلى الشعور برغبة للشكوى يعود معظمها إلى وطن غاب ، أو حُضن آمن انتهت فاعليته ويئس من احتمال عودته قريباً ، وعلى أساسها ابتعد البعض عن الوطن بمشاعره ، محاولاً استبداله ولكن ببديل ضائع هو الآخر .

اختلال النظرة إلى عناصر الوطنية ورموزها

إذا ما أضفنا لغياب الوطن ، والشعور بالاغتراب انتهاء دور مؤسسات الدولة التي يمكن أن تلعب دور الحُضن الدافئ لعموم العراقيين كما ورد في أعلاه ، نصل إلى تفسير منطقي لغياب العاطفة ، والاطمئنان ، والتآزر ، والتعاون كعناصر للوطنية ، ونستنتج على ضوءها:

أن عدم الدفء الذي أشر ضِعْفاً لمستويات الوطنية أصبح كذلك مصدراً للقلق ، والتأزم، والارتباك ، والفوضى ، والحزن لغالبية العراقيين . وهذه على وجه العموم اضطرابات ضغطت كثيراً على العقل ، وجعلت الأمزجة :

مشبعة بالتشاؤم ، واللامبالاة ، والتباطؤ ، وتأنيب الضمير .
إحباط تحول إلى مشاعر عدوان على الذات بدلا من إسقاطها على الخارج " مصدر الإيذاء " .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر كيف أن البعض يتسابقون لانتقاد أي عراقي تجاوز ماضيه ، وحزم أمره معارضا للنظام ، ودعا الآخرين للتمرد ضده لمجرد مشاهدته على شاشات التلفاز قبل أن يسمحوا للعقل باستيعاب الموضوع المطروح ، ومحاكمته منطقيا، ومن ثم إبداء الرأي المدعوم .

وعلى أساسه نفسر أيضا تبرع البعض باتهام أي جهة معارضة بالعمالة للأجنبي لمجرد قيامها بمفاوضة دولة لها دور وحصّة بالقضية قبل أن يسمحوا للعقل بالمناقشة العلمية. ... الخ من اتجاهات العدوان الموجهة إلى تجريح الذات العراقية ، أو إلى الرغبة في تدميرها أحيانا عندما تصل الحالة إلى اتهامها بالعجز ، والقصور ، وترديد عبارات اليأس :

نحن لا نستطيع .

لا نقدر .

لا أمل لنا.

.... الخ من عبارات لو تفحصناها بشكل دقيق نجدها سموم يقدمها البعض من العراقيين للبعض الآخر دون أن يدركوا أنها ستقدم إليهم بنفس الطبق .

وعلى ضوءها نفسر أيضا توجه البعض الآخر اتجاهها معاكسا حيث التمجيد للذات المنكوبة بطريقة ينسحب فيها من المواجهة ، ويغرق ، أو يسرف في البكاء على مجد لم يستطع المحافظة عليه كالآخرين من العرب وغيرهم . وهذه أيضاً محاولة للهروب من مواجهة الواقع الحقيقي الذي يحياه على مستوى وعيه المحاصر .

أزمة فك القيد

إن التكلم عن موضوع توجه الحكومة في إجراءاتها الأمنية المتعددة لتقييد الوعي ، وإلقاء الضوء على تأثيراته الآنية والمستقبلية فيما يتعلق بالسلوك ، والأداء العراقي ، والحالة النفسية العامة التي تعد من بين أهدافها الاستراتيجية يثير عند المتابعين سؤالاً عن السبل الكفيلة لفك هذا القيد الضاغط ، والتخلص من آثار حرب مستمرة على الذات العراقية بلا هوادة .

وأمر من هذا النوع ليس أمراً يسيراً في الظروف الحالية ، ومع ذلك فإن لأولئك المتابعين فرصة أن يدركوا بعض جوانبه إذا ما تم النظر لموضوعه من زاويتين .
الأولى : الزاوية الاجتماعية النفسية التي تقتضي التحرك الآني لفك الطوق الأمني للوعي العراقي المقيد ذاتياً .

الثانية : الزاوية المهنية الإدارية الخاصة التي تتطلب النظر إلى طبيعة التعامل مع الواقع الأمني العراقي ، واستراتيجية الدولة المقبلة في التعامل مع مواطنيها ما بعد التغيير ، وإقتراح صيغ إعادة تنظيم أجهزة ، ووسائل الضبط الاجتماعي لتجاوز الآثار السلبية السابقة ، وضمان عدم تكرار الخطأ ثانية ، وهذا أمر يترك عادة للمهنيين ، والمختصين دراسته بشكل علمي .

أما ما يتعلق بالزاوية الأولى فإن أمر تناولها عرضاً في الوقت الحاضر مقبول وممكن لأن كل جوانبها تتعلق بالإنسان العراقي ، ومساغيه الذاتية للتخلص من حصر الطوق ، و بالقوى الأخرى المنظمة من خارج جسم الدولة التي يمكن أن تساعد في مشكلته المعقدة خاصة وإن الوعي والآثار السلبية لما آلت إليه إجراءات الأمن التي عرض بعضها في ثنايا هذا الموضوع مجسّم لمساحة الحياة التي يتحرك فيها العراقيون مواطنون كما يتصورونها من جهة، وكما يعيشونها من جهة ثانية ، وهي بالتالي مساحة مستوى الطموحات ، والتطلعات ، والمعانات ، والآراء ، والمعتقدات متقاطعة مع واقعهم الراهن أفراداً ، وجماعات .

وفي بداية مناقشتنا لكيفية التعامل مع واقع كونه الحزب الحاكم ، والأجهزة الأمنية علينا أن نشير إلى بعض الاختلافات الكمية لفاعلية الطوق المفروض على الوعي في حالة الفرد ، وإلى مستواه في حالة الجماعة (الجمهور) .

إذ نرى ، وعلى مستوى الفرد مع فرد آخر قريب منه ، وضمن الواقع العراقي في وقتنا الراهن ، أنه الواحد قادر أن يتمنى تغيير نظام الحكم في العراق بجلسة نقاش خاصة ، إذا ما كان المقابل صديقا حميما ، أو قريبا موثوقا¹⁰⁶.

وقادر فيها أيضا أن يتصور طبيعة الحكم الديمقراطي الملائم للعراق ، وبإمكانه مناقشة الحرية هدفاً لعموم الإنسانية ، وغيرها مساحات ، أو مجالات للوعي الفردي ، لكنه يجد نفسه مكبلاً بقيود التوجس ، والتحسب ، والخوف ، مجالات ذات فاعلية أكبر في وعيه بوجود الجماعة التي يتغير في إطارها التصرف ، أو السلوك ، وهو تغير يتناسب طرديا مع حجم الجماعة ، وعدم معرفتها بالنسبة للمتكم ، وبمعنى آخر :

إن المجالات المعنية بالثقييد تكون فاعليتها أنشط مع زيادة حجم الجماعة ، واتساع هامش عدم معرفة بعض أفرادها للبعض الآخر كمثيرات خارجية .

وعلى وفق هذا التصور فإن مناقشة كيفية التعامل ينبغي أن تأخذ المنحى المجتمعي بالاستناد على الجهد الفردي لأن تأثيرات الأخير على الواقع العراقي لا تفيد كثيرا إلا في إطار الجماهير ، أو الأغلبية المصابة بآفة ثقييد الوعي ، لأن الوعي الذي لا يتخطى الفرد إلى الجماعة ، ويتجلى فيها سبقي مشروعا في ذهن صاحبه ، ولا أهمية له من الناحية العملية إلا بتجاوزه المستويات الفردية إلى المستويات التي تقنن ضبط علاقة الفرد بجماعته ، خاصة وإن مجالات الوعي الإيجابية التي يمكن أن تعلق عليها الآمال في عمليات فك القيود لعموم العراقيين إن لم تخرج من الفرد إلى المجتمع قد تضحل ، أو تفقد فاعليتها بسبب صراعها المستمر مع مجالات اليأس ، والخوف التي تنتج مع تقادم الزمن مواقف دفاعية عكسية في بعض الأحيان .

وفي مناقشة كهذه لكيفية فك القيد ، أو تحرير الوعي علينا أن نأخذ بالاعتبار أيضا أن مسألة التعامل مع الجوانب الخاصة بالإنسان مثل المشاعر ، والأحاسيس ، والرغبات ، والميول ليست سهلة في مجتمع مغلق مثل العراق في وقتنا الراهن :
لا وسائل فيه يمكن استخدامها للتعامل الصحيح .
ولا الدولة تسمح بأية خطوة تتنافى وتوجهاتها لتقييد وعي أبنائه عشرات السنين .

¹⁰⁶. المثل ينطبق على العراقيين في الداخل .

ولا الأدوات المملوكة للحكومة ذات الصلة بمشكلة العراق مفتوحة لما يمكن أن يتقاطع ومصالحها الآنية والمستقبلية .

وتأسيساً على ذلك ستكون مناقشة مستلزمات تحرير الوعي على مستويين :

المستوى الفردي غير المنظم .

مستوى الفعل المنظم .

المستوى الفردي غير المنظم

وفي مجاله يمكن أن يأخذ جميع العراقيين في اعتبارهم أن تكون نقطة البداية لتحرير الوعي من داخلهم .

أو أن يبادر المثقفون ، والمتخصصون ، والسياسيون ، والأدباء ، والفنانون في أن يرشدوهم لأن تكون البداية :

سعي للفرد في أن يبدأ مع نفسه أولاً ، ومن ثم يوسع البداية مع الآخرين القريبين منه .

يبدأها بالانفتاح على ذاته المقيدة ليفهم طبيعة ، وآثار التقييد .

بتحدي ضوابط القيد المفروضة عليه .

أن يقتل شرطي الأمن الذي وضعه النظام في عقله قسراً (لا إرادياً) .

أن يفعل شيئاً للتحرر من هذا القيد ، لأن الفعل أساس الانطلاقة للحرية ، والتحرير في

آن معاً ، أو كما يقال (ليس على الإنسان أن يكون حراً ليبدأ بالفعل ، بل هو حر بقدر ما

هو فاعل لفعل ، وبالتالي بمقدار تحرره من خلال هذا الفعل) .

أن يقتحم الواحد نفسه من داخل نفسه ، ويزيل الطوق الموجود بشكل إرادي واع .

أن يجلس كل على انفراد في زاوية من زوايا البيت ، ومن لا بيت له يجلس على حافة

رصيف لشارع مهجور ، يفكر منطقياً :

أين كان العراق وأين أصبح ؟

لماذا يفعل النظام كل هذا الدمار ؟

هل يبقى الواحد من العراقيين معزولاً سجيناً إلى ما لا نهاية ؟

هل يقبل موت الروح ، وبقاء الجسد ؟

ألا يعني السكوت بقاء للقيد ، ودمار تدريجي للعراق ؟

أن يفكر المعني قليلا قبل الإجابة ، ويستعرض ما ترسب بالذاكرة من أحداث، وبقايا معالم تدمير ، وخراب لأكثر من ثلث قرن من الزمان ، عندها سيجد غالبية العراقيين أنهم:

. مسجونون طوعا في سجن كبير أسواره كل حدود العراق ، وحراسه الأجهزة الأمنية التي لا ترحم .

. تبلدت مشاعرهم ، واضطربت أمزجتهم ، وباتوا قلقين طوال الوقت ، حزينين معظم الأحيان .

. تغيرت معالم أهدافهم المنطقية في الحياة ، أو تلاشت إلا ما يتعلق منها باستمرار البقاء على قيد الحياة .

. لا راحة لأغلبهم ، ولا استقرار ، ولا أمان ، ولا متعة من متع الدنيا التي أرادها لهم الله سبحانه وتعالى ، ولا أمل في الانفراج بالصدفة .

أن يتوقفوا بعدها من تقلب الصفحات في مجالات وعيهم ، وقبل مغادرة المكان يفتشوا مع أنفسهم عن حلول ممكنة التطبيق ، عندها سيجدون أن الأسهل لهم ، والأقرب من إمكاناتهم الحالية هو :

خرق الطوق الذي قيد وعيهم .

تهديم أسواره النفسية .

محو المجالات التي حشرت في داخله عن الخطر ، والخوف ، والتحسب .

تلك هي بعض التصورات الممكنة التطبيق لبدايات التحرر ، يتطلب من الفرد العراقي الراغب بالتحرر بذل المحاولة في أن :

يبدأها مع نفسه لأن من لا طاقة له على الفعل مع ذاته ليس باستطاعته التمتع بالحرية ، ولا بمقدوره تحرير الغير .

أن يجربها مع أقرب الناس إليه ، والتوسع بها تدريجيا لمساعدة الآخرين على تحرير ذواتهم .

اتجاهات ، أو توجهات ينبغي أن تكون جزءاً مهماً من الحياة اليومية ، أو هي الحياة التي سيكون لها طعم جديد ، وأهداف جديدة تفوق في أهميتها مجرد إشباع البطون .

أن يتذكروا مع كل خطوة ينجحوا فيها أنها وإن كانت على مستويات ضيقة ، أو بسيطة ستوسع رقعتها بحكم التراكم الكمي للجهود ، وستتحول حتما إلى فعل وأداء يساعدان في العمل من أجل التغيير .

إن فعلوا ذلك سيكونون أحراراً ، لأن الحرية ليست بداية أولى بشكل مطلق للفعل ، ولا هي بهذه الصفة شرطاً ضرورياً له ، وحده فعل التحرر من قيود الوعي الذي يؤدي إلى الحرية وأنه وحده طريق التحرير من هذا الواقع المرير .

عندها سيعودون إلى عراقيتهم الأصلية ، ويتوقفوا عن مطالبة الغرب بتحريرهم ، أو حتى العرب المشغولين بمشاكلهم ، وهمومهم التي لن تنتهي في القريب العاجل .

إذا كانت البداية كما ورد أعلاه ، عقلية عقلانية تخضع مختلف الفعاليات لمراقبة الفكر الفذ النير الواعي ، سيجدون أنفسهم مدفوعون أفراداً يفتشوا عن الأدوات والوسائل ، عن الطرق والسبل ، التي ينظموا بها أنفسهم وحدة واحدة لها فعل التغيير ، لأن التجمع ، والإنضمام ، والائتلاف ، والتوحد ، والتحالف مع قوى منظمة تعارض الظلم ، والاستبداد ستزيد من فاعلية تحرير الوعي المجتمعي ، القادر وحده على التغيير .

مستوى الفعل المنظم

عند تناول الموضوع من جانب الجهد المبذول لتحرير الوعي العراقي لا يمكننا إلا وأن نشير ورغم عدم السهولة التي تم التنويه إليها إلى أن العراقيين الخيرين شخصيات ، وجماعات ، وتنظيمات لم يتوقفوا عن محاولة إعطاء الوعي بشكل عام سمة التماسك ، والتكامل ، والقدرة المرجعية ، وإشاعة جو الانتماء ، لكنها محاولات على وجه العموم لا تتناسب في واقع الحال مع حجم التقييد الحاصل " التخريب " من ناحية ، والجهد المخصص من قبل الحكومة لمقاومة أية محاولات لتحريره من ناحية أخرى (إذ أن الحكومة ورغم الضغوط المسلطة عليها من جوانب متعددة تعطي موضوع الأمن ، والتعامل مع القوى المضادة الأولوية الأولى مقارنة بالتعليم ، والبناء ، والإعمار ، وكذلك تخصص له المبالغ الطائلة دون ما حساب على الرغم من الأزمة التي يواجهها بالنقد الأجنبي . وأعطت أجهزتها الأمنية ، والحزب الأوامر في أن يكون هذا الموضوع أعلى سلم مسؤولياتها ، بهدف الإبقاء على الواقع المعاش وعدم إعطاء أية فرصه للمكبوتات أن تخرج إلى الوعي ، وتتحول إلى سلوك معارض) .

لذا أصبحت معظم المحاولات التي تقوم بها بعض الجماعات ، والجمعيات ، والمؤسسات ، والفصائل المعارضة في هذا الجانب ، وإن كانت نزيهة ، وخيرة ، وصادقة ، وأمينية تسير أحيانا خطوة إلى الأمام ، وتصطدم بالطوق الموجود لتتراجع خطوات إلى الخلف مكونة في بعض الأحيان :

. صراعات قوامها الفرقة ، والتباعد .

. قناعات أساسها عدم القدرة على تجاوز حالة اليأس والركود .

. تعليق الأمل على ما يأتي من الخارج .

. انتظار الفرج من الخالق .

وعلى وجه العموم فإن من المنطقي التوجه صوب المؤسسات البعيدة عن سلطة الدولة ، والصحافة المنصفة القادرة وحدها على التعامل مع هذا الواقع في الوقت الحاضر (رغم أن جسم بعضها مثل المعارضة هو الآخر مصاب بذات الاضطرابات ، التي انتقلت إليه من العراقيين الذين يشكلون هيكلتها) وفي مجالها يمكن الأخذ بالاعتبار :

. أن تعي تلك التنظيمات والهيئات أولا الأخطار المترتبة على هذا الواقع ، ومن ثم تبدأ بتنسيق جهودها في مجاله ، ويمكن أن تكون البداية استثمارا لحنين العراقيين إلى الماضي الذي لم يستطع الحزب تفكيكه بشكل كامل (لأن الماضي يعيش بعض منه في اللاوعي ، ويظهر على شكل حنين يحرك الفرد بالرموز على الأغلب) ومن خلاله يمكن خلق وعي وطني ، و صدى ، ورجع بعيد من الناحية الزمانية لمجالات معينة قامت يوما على مصالح عموم العراقيين . هذا وإذا ما تفاعل عديد من العراقيين مع الجهد المنظم الذي يبذل في هذا المجال وجرى التركيز على هذه المعطيات ، وتنشيطها في الوعي الحالي ، ومحاولة تعميمها جماعيا ستتحول مجالات الوعي بالتدريج :

من قلق الفراغ ، والتحسب ، والإحباط .

إلى الثقة ، والرغبة ، والاقتدار .

التي تنتج أمنا اجتماعيا قادرا على توجيه السلوك ضد السلطة الظالمة .

. أن تبادر تلك الجهود المنظمة في كل مجالات عملها ، وتحركها ، وإعلامها ، ومؤتمراتها لأن :

تعطي مثالا في سلوكها الهادئ المتزن بعيداً عن التناحر ، والفرقة ، والانقسام ، والتشتت .

تثبت قبولها الاختلاف بالرأي مع الغير .

تتوجه لتقدير ودعم الجهد المبذول لفك القيد مجالات إيجابية في وعيها الجمعي .
تساعد العراقيين بكل الوسائل المتاحة على الانتقال من دوامة الانفعال إلى خضم الفعل
باتجاه تحرير الوعي ، ولو بحوار مع الذات ينتقل تدريجيا إلى حوار مع الآخرين يمتد
بالتدريج إلى الوعي المجتمعي .

. أن تقوم بالدعوة إلى عدم السكوت على جريمة تقييد الوعي ، وتدفع إلى أن ينادي
الجميع بأعلى أصواتهم :

أن النظام الحالي بفعلته تقييد الوعي أصبح كارثة على الحاضر والمستقبل .
وأن تنبه في ذات الوقت إلى حقيقة أن العراقيين بسكوتهم قد خسروا أنفسهم لفترة طويلة
، وسيخسرون العالم من حولهم إذا ما استمروا بالسكوت ، وهي حقيقة تقتضي الضرورة
أن يمسكوا بها مباشرة ، ويوسعوها في مجالات الوعي المجتمعي دون أي التواء ، أو
تأجيل.

. أن يخصص هامش أوسع في الإعلام الموجه لإزالة أوهام علقت في الوعي، وساعدت
على تقييده كل الفترة السابقة منها على سبيل المثال :
قدرة الأجهزة الأمنية (للحكومة) الخارقة على معرفة كل فعل يقوم به العراقيون بالضد
من حكمها .

دعم الغرب ، وأمريكا لبقاء الحاكم .

رغبة الدول العربية ببقاء النظام ضعيفا ، وعدم تأييدها لقيام حكم ديمقراطي قوي .
... الخ من الأوهام (وإن كان لبعضها أساس من الصحة) التي ساعدت الحكومة على
توسيع رقعتها في الوعي لتقييده من جهة ، وللحد من قدرته على التفكير من جهة أخرى .
. التوسع في نشر الحقائق بكل الوسائل المتاحة لأن البعض مما يعيه أبناء العراق عن
عراقهم ليس حقيقيا ، والكثير من الحقائق الخاصة به لا تقع ضمن وعيهم أن
تبحث عنها بكل إمكاناتها حتى تنزع النقاب عن ما يسمى بالوعي الزائف ، وخداع الذات .
. أن تنسق تلك الجهود فيما بينها (جهد الإمكان) لوضع استراتيجية معلنة للتغيير إلى
الديمقراطية ، استراتيجية تسهم مع غيرها من العوامل في إخراج الوعي العراقي من حالة
الركود شبه التام إلى الفعل المؤطر باتجاه هدف يستحق المجازفة في العمل من أجله .
. سد الثغرة ، أو الفجوة التي كونها النظام في الوعي المجتمعي ، وذلك من خلال :

إعادة تمثيل ، وتجسيد ، وتحريك الماضي على مسرح الحاضر الراهن ، وبما يسمح بالحديث عن إحياء الضمير العراقي ، ورموزه ، وقادة العراق .
كتابة التراث الذي حاول النظام طمسه وتزييفه ، كتابة جديدة انتقالية ممتعة يلعب الماضي فيها دور الموجه للمستقبل .

إن التكلم عن الوعي يعني التكلم عن ذلك الجزء المفترض من النفس البشرية الذي تبقى فيه الوقائع ، والأحداث ، والذكريات ، والمعلومات معطيات قابلة للاسترجاع دون جهد قادرة في ذات الوقت على التأثير في السلوك الإنساني على مستوى الأفراد ، والجماعات في آن معا .

والتركيز عليها بهذه الطريقة جاء لعدة اعتبارات أهمها :
الاعتقاد وعلى ضوء الكثير من الحقائق أن العراقيين يواجهون مشكلة تقييد وعيهم ومن بين تلك الحقائق على سبيل المثال أنهم :

يعرفون تمام المعرفة ، أي يعون أن النظام الحاكم دمر العراق تدميرا شاملا .
يتلمسون بكل حواسهم وقائع هذا التدمير الذي ما زالت كثير من صوره عالقة في مجالات وعيهم .

يتذكرون أنه كذب في مجيئه للسلطة ، وكذب في حربه مع إيران ، وكذب في غزوه الكويت ، وكذب في تعامله مع وقائع الحصار ، وكذب في علاقاته معهم ، وما زالوا يتلمسون استمراره على الكذب عادة يصعب التخلص منها ، أو مرض عضال لا يمكن شفاؤه ، لكن عديد منهم لا يستطيعون التعبير عنها وبعضهم ينكرها في نقاشه مع الآخرين، فأصبحت مشكلة مرهقة من ناحية ، وعائق لتوجهاتهم من أجل التغيير من ناحية أخرى .

وبذا سيكون إخراجها على المستوى الجماهيري أي تحررهم من قيودها الخطوة الأولى من أجل التغيير . لأنها خطوة ستؤدي إلى :

إرباك النظام ، وتشتيت جهد أجهزته ، والإقلال من فاعليتها لفرض العقاب، لأننا لو أخذنا على ذلك مثال قيام واحد في محلة ما بانتقاد السلطة علنا ، أو قيام آخر بالتمرد عليها في قرية نائية فمن السهولة رفع التقارير عنهما ، ومن السهولة أيضا حبسهما ، وكذلك الحكم عليهما بالإعدام ، لكن شيوع الانتقاد لعموم أفراد المحلة ، وعزلهم كاتبي التقارير ، وتمرد شباب القرية وطردهم ممثلي النظام ، سيعقد الموقف وفيه تجد

السلطة نفسها عاجزة ، ولو تدريجياً عن حبس الملايين ، أو إعدام الآلاف ، أو إزالة كل قرى العراق عن خريطته الجغرافية .

. سهولة تعميمه على كافة العراقيين ، وكذلك استثماره وطنياً ، لأنه أي عملية تحرير الوعي مسألة قابلة للانتقال بالتقليد ، والعدوى ، وبسرعة كبيرة ، وسرعة انتقاله جاءت من كونه ضغطاً على الإنسان يحاول التخلص منه ، وإذا ما وجد الفرصة متاحة سيبدأ بنفسه ويساعد القريبين ، ويشجع الآخرين على تقليده ، عندها سنجد أن الغالبية قد بدأت ، وأن القيود قد انهارت ، وإن نظام الحكم قد فقد السيطرة على زمام الأمور .

. تسهيل عملية التغيير ، إذ أن التحرير بطبيعته سيدفع الكثير من العراقيين إلى التوجه لتنظيم أنفسهم ، وهو توجه يعني تجميع قواهم ، وتوحيدها لأداء فعل التغيير بشكل قوي ومؤثر لا يقوى النظام على تحمل صدمته ، وهو في أضعف مستوياته .

سيكون تحرير الوعي أكثر نفعا لكل العراقيين من الناحية الأمنية ، والاجتماعية ، وسيهيئهم للانتقال إلى مرحلة ما بعد البعث بهدوء ، وبأقل ما يمكن من الخسائر ، لأنه سيسمح بخروج الشحنات الانفعالية المكبوتة بشكل تدريجي ، ومنظم ، وباتجاه واحد هو النظام ، على العكس من الانتظار حتى وقوع فعل التغيير، الذي سيؤدي إلى خروجها حزمة واحدة ، وبسرعة كبيرة ، وباتجاهات مختلفة قد تحدث اضطراباً ، وتخريباً لا يتحمل العراق أوزارها في مثل تلك الظروف .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن خروجها التدريجي المنظم من الآن سيسمح للعقل العراقي أن يعمل بكفاءة وفاعلية أكبر وقت الأزمة ، أو عندما يحدث التغيير ، لابتعاده عن الفوضى والانفعال .

إن موضوع الوعي وتقييده في الواقع موضوعاً لا يتعلق بالعراق وحده رغم أن الوضوح فيه أكثر من باقي المجتمعات الأخرى لظروفه الحالية ، لكننا ومن باب الإنصاف يمكن الإشارة إلى أن بعض النظم في العالم النامي على وجه الخصوص تؤدي أساليبها في الإدارة إلى تقييد الوعي ، وبدرجات مختلفة تتباين تأثيراتها من مجتمع لآخر تبعاً لبعض الخصائص الشخصية لأهل تلك المجتمعات وشدة الإجراءات الأمنية التي تقوم بها الدولة ، وهي ليست قليلة في عالمنا المعاصر .

وهو من ناحية ثانية موضوع حساس سيحاول كل عراقي عند التعامل مع بعض تفصيلاته تطبيق مقاساته عليه شخصياً ، أو على القريبين منه وعلى أساسها يعطي رأياً داعماً لوجهة

النظر المطروحة ، أو مخالفا لها ، لكن إعطاء الرأي الصحيح في مثل هذه المواضيع لا يأتي بهذه الصورة ، لأنه يتجاوز الفرد إلى الجماعة ، أو بالمعنى الدقيق الغالبية منها ، وهو ما تم أخذه في الاعتبار لمناقشة جوانب هذا الموضوع وفي تحليلاته للمتغيرات المؤثرة فيه ، وكذلك في اقتراحاته للتعامل معه .

وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن موضوع قيام الحكومة التي يفترض رعايتها المجتمع بتطويق وعيه ، وتخريب قدراته بشكل منظم وكأنها في حالة حرب معه من بين المواضيع الشائكة ، وكذلك الحال بالنسبة للكيفية اللازمة للتخلص من آثاره ، لأن المعنيين بالتعامل معه من الرسميين ، وكذلك المجتمع الضحية ، وإن أتيحت لهما فرصة التخلص من ضوابط الطوق المفروض بعد التغيير فجأة سيجد الجميع أنفسهم بمواجهة واقع يبدو القرار فيه صعبا يتمثل بالتناقض الحاصل بين :

الحاجة الماسة لأداة تلك الحرب (الأجهزة الأمنية) أي المحافظة على وجودها التنظيمي كأجهزة ضبط اجتماعي في مرحلة قد تتميز بعدم الاستقرار وبين اتجاهات التخلص من هيكليتها التي اقترنت في العقل بأعمال القتل ، والاغتيال ، والحجز ، والإعدام ، والتسفير ، والتشريد ، والتخويف ، وغيرها أعمال تثير انفعال البغض والعدوان بين عموم الجمهور الضاغط في تلك المرحلة القلقة . الأمر الذي يتطلب التوفيق أو الموازنة الدقيقة بين الاتجاهين أي الرغبة في التخلص منها بغضا والحاجة إليها وجوبا وهذه مسألة مع صعوبتها فإن خبرة الثورات في العراق ، والعالم الثالث توضح إمكانية النجاح في مجالها بالاستفادة من حقيقة أن تغيرا في الاتجاهات ، والولاءات لعموم منتسبي الدولة ، وأفراد الأجهزة الضابطة من الحكم السابق إلى الحكم الجديد ، مسألة واردة ، وهي في العراق الحالي ستكون موجودة بدرجة تفوق شدتها جميع التغيرات التي حدثت في السابق ، لأن العراقيين عانوا من وطأة الضغوط لفترة زمنية طويلة ستولد لديهم القناعة بضرورة التنازل عن كثير من رغباتهم واهتماماتهم لضمان نجاح التغيير .

هذا من جهة ومن الجهة الثانية التي تتعلق بالأفراد المنتسبين للحزب والأجهزة الأمنية الذين نفذوا توجيهات الحكومة في فرض الطوق ، وتخريب المجتمع فإن صدمة التغيير المحتمل في الأيام الأولى ، والخوف من العقاب سيدفع نسبة كبيرة منهم إلى التنصل من ارتباطاتهم بالنظام السابق ، والاستعراض العلني بتوجيه النقد لمرحلته ، خاصة عند

الكادر الوسط ، الذي يأخذ عادة الدور الفاعل في قيادة ، وتوجيه العمل في المؤسسات المعنية .

كما إن هامش التزلف ، وتبديل المواقف في الشخصية الوظيفية العراقية ، ملموسا وسيجد المعنيون في المستقبل أن العديد من منتسبي الأجهزة الأمنية ، والحزب ، ومؤسسات الدولة الضابطة سيتبرعون طوعا لخدمتهم ، والوقوف إلى صفهم بدرجة كبيرة ، وهذا سلوك انتهازي رغم سلبيته ، يتيح الفرصة لاستثمار خبرات وكفاءات لا غنى عنها في الفترة الحرجة .

وعموما موضوع مثل هذا تعتمد خطوات النجاح فيه على الفرد نفسه ، وعلى المصلحين من بين العراقيين ، وهو الأمر الذي يعد المجتمع العراق بحاجة ماسة إليه في الوقت الراهن والمستقبل للتخلص من آثار حرب تقييد الوعي ، وباقي الحروب .

الفصل الخامس عشر من حصاد الحروب تصدع النظام القيمي العراقي

إن القيم التي اعتز بها العراقيون عبر الزمن باتت مهددة
بالزوال ، إذا ما استمر الحكم طويلا لذات المعتدين .

القيم موجّهات السلوك

يعيش الناس في المجتمعات البشرية وضعا يحاولون من خلاله تأمين قدرا من التوازنات المعقولة في عيشهم مع أنفسهم والآخرين في مجتمعهم . وهو وضع يمكن الوصول إلى حدوده المقبولة (نسبيا) بالاستناد على عدة معايير بينها:

. التزام العموم من أبناء المجتمع بمعاييرهم الذاتية مع أنفسهم ليحصلوا بالنتيجة على التقدير اللازم لذواتهم والرضى المطلوب عن وجودهم .

. التقيد بنوع من العلاقة بالآخرين من أبناء جنسهم أفرادا كانوا أم جماعات ليحققوا بمحصلتها قدرا من القبول ، والتفاعل اللازم لاستقرارهم .

. التعامل بصيغ من الأساليب مع أجهزة ومؤسسات المجتمع وروافده ليديموا بواسطتها أمنهم ، واستقرارهم ويكسبوا مفردات عيشهم بواقع يقبلونه بدرجات متفاوتة .

وهذه المعايير بمجملها تمثيل نفسي داخل الفرد لآثار المجتمع ، والثقافة السائدة وهو تمثيل يشكل استعداده لأن يسلك ملتزما بحدود عامة عند الآخرين ، أو معظمهم فيشكل نظامهم القيمي :

الذي يعبر عن تنظيم هرمي تتسلسل فيه المثل العليا تبعا لأهميتها .

نظام دعمت الأديان السماوية وجوده ، وعززته الأقوام ، والجماعات ، والهيئات ، والمؤسسات ، والمنظمات بمستوى قلل نسبيا احتمالات التباين ، والاختلاف ، والصراع في النفس البشرية ، سعيا لأن يعيش الإنسان بقدر معقول من الرضى ، والالتزان .

وهذا يعني أنها أي القيم موجّهات للسلوك أدركت البشرية معطياتها من خلال التفاعل الاجتماعي طويل الأمد (لعشرات أو ربما لمئات السنين) خضعت فيها للتأطير ، والتعديل ، والتحوير حتى وصلت إلى مستوى من القبول ، أو الرفض يدفع الغالبية إلى الالتزام بها ذاتيا .

وهي على هذا الأساس بقيت غير ثابتة واستمرت عرضة للتغير نتيجة التوصل إلى معلومات جديدة ، وتبعا للظروف البيئية والاجتماعية المحيطة ، وتغيرها على الأغلب لا يكون حادا ، أو سريعا ، أو سلبيا تماما في الحالات الاعتيادية وقد لا يكون ملحوظا بدرجة كبيرة لمن يعيشون مرحلتها الزمنية ، و دائرتها المكانية لأنه في الواقع :

إن كان سريعا سيكون مربكا ، ومثيرا لمقاومة العديد من أبناء المجتمع بسب طبيعتهم الإنسانية المحافظة .
وإن كان سلبيا تماما سيدفع إلى اضطراب ، وتوتر وعدم رضى العديد منهم ، كما هو الحال بالنسبة إلى المجتمع العراقي في السنوات الأخيرة .

النظام القيمي العراقي

العراق بلد تجاور فيه العرب ، وأقوام أخرى شكلوا منذ آلاف السنين سكانه الأصليين مثل الكورد والآشوريين ، وفي فترات لاحقة التركمان والأرمن بشكل ملحوظ . هذا وبالإضافة إلى استقرار تلك الأقوام على أساس المناطق اختلطوا ضمن المنطقة الواحدة في أحيان ليست قليلة ، فنرى على سبيل المثال ارتحلت عشائر عربية من جنوب العراق بسبب خلافاتها مع عشائر أخرى واستقرت بين الكورد في شماله وسكن بعض الكورد وسط العراق وجنوبه على نفس الأسس ، ولأسباب سياسية وإدارية ، وكذلك أبناء القوميات والطوائف الأخرى ، فعاشوا جميعا على أرضه بتفاهم وتقارب وتناغم معقول في الأهداف، والأمانى لفترات طويلة أوجدت معايير ، وتقاليد ، وأعراف ، ومن ثم قيما ترسّخت عبر السنين لتساعد أبناء هذا المجتمع على العيش باتزان وأمان ، وسلام مستوياتها مقبولة .

وإذا ما أردنا استعراض بعض من تلك القيم¹⁰⁷ التي نظمت سلوك العراقيين وسهلت سبل عيشهم حتى وقت قريب لابد وأن ننظر إليها من زاويتين :
الزاوية الأولى ذات الصلة بمجموعة القيم التي تنظم علاقة الفرد مع نفسه والآخرين في مجتمعه ومنها على سبيل المثال :

. التسامح بين السكان ، والقبول المتبادل بين الأهالي والأقوام التي كونت أرضية للأمن ، والاستقرار ، والعيش بمشاكل أقل ، أو بأخرى لا ترق إلى المستوى الذي يحس فيه البعض بالرغبة في الانعزال ، أو الابتعاد عن الآخرين، أو أن يحط قسم من قدر القسم الآخر ، أو أن تنظر مجموعة إلى أخرى كمواطنين من الدرجة الثانية ، فكان (التسامح) قيمة لم تسهل سبل العيش بين القوميات المختلفة فحسب بل وكذلك بين الأديان و المذاهب التي تشكل طبيعة المجتمع العراقي حيث المسلمون ، و المسيحيون ، و الصابئة ، واليزيديون . ومن ثم الشيعة ، و السنة ، و الآشوريون ، والأرمن ، وهكذا أقوام وطوائف ومذاهب متعددة ساهم التسامح ، و القبول في عيشها بمستوى من التجانس

¹⁰⁷. سيتم ولأغراض هذا الموضوع تسليط الضوء على بعض القيم وخاصة تلك التي قلت فاعليتها في ضبط وتوجيه السلوك الإيجابي في المجتمع العراقي وتصلح أن تكون مجالا للمقارنة .

حتى الثلث الأخير من القرن العشرين عندما استلم حزب البعث العربي الاشتراكي مقاليد السلطة في العراق عام 1968 وتوجه إلى التعريب على حساب القوميات الأخرى ، ومن ثم إلى المسلمين على حساب الأديان الأخرى ، تطور التطرف بها بشكل ملحوظ بعد استلام صدام حسين المركز الأول في الدولة ، والحزب حيث التفضيل لطائفة كمواطنين درجة أولى على حساب طائفة أخرى مواطنين من الدرجة الثانية والثالثة ، ومن ثم التقريب لمنطقة تكريت على حساب المناطق الأخرى ومن بعدها للعشيرة والعائلة ، حتى خلق نوعا من الخرق لكل معايير التسامح التي كانت سائدة في السابق ، وزرع بدلا عنها كثيرا من معايير البغض والأحقاد .

.وهناك العفو ، وحب الخير أنساق قيم طالما احترمها العراقيون ، ودافعوا عنها لفترة طويلة من الزمن كانت كفيلة بصيانة الحقوق ، والوفاء بالعهد ، والالتزام بالكلمة ، والإخلاص في العمل وغيرها العديد من المجالات التي ارتبطت بها عندما كان :

التاجريبيع ويشتري بالكلمة فقط .
ويلتزم الموظف بموعد دوامه الرسمي في دائرة عمله بعيدا عن تدخل رؤسائه . ويلقي المدرس محاضراته كاملة دون رقيب .

ويترك صاحب المحل محله مفتوحا وقت الصلاة .
ويتجرأ فلاح إيداع كل ثروته البسيطة نسبيا عند المختار ، أو الشيخ أو الجار الميسور .
وعندما تعود الناس تقييم الرجال على وفق التزامهم بوعدهم قطعوه ، وكلمة لم يتنازلوا عنها حتى وإن جاءت نتائجها عكس ما يريدون .
وعندما كان فعل الخير يقدم دون مقابل .

... الخ من خصائص أكسبت الفترة السابقة لمجيء البعثيين صفة الالتزام بكثير من القيم الايجابية مقارنة بالفترة الحالية .

. وهناك الصدق ، والوفاء ، والإيثار قيم ارتبطت بعض جوانبها بالأمانة ، والنزاهة ، والحكمة التي اعتز بها العديد من أبناء هذا المجتمع ، ودافعوا عن وجودها لفترات متقدمة من القرن الماضي :

عندما كانت صفة الكذب مثلبة لا يقبلها كثير من العراقيين ، وإن وصف بها أحد قل تعامل الناس معه حد الرفض .

وعندما كان الصدق قيمة لا تعني وصفا للعلاقة بالآخرين فقط بل تمتد إلى الذات البشرية (الصدق مع النفس) تلك الخاصية التي تزيد من احترام الفرد لذاته ومن ثم احترام الناس له ، وتمنع . في ذات الوقت . من أن ينزلق الفرد إلى هاوية الخيانة العمدية للآخرين ، أو الوشاية بهم ، أو التقليل من شأنهم حتى وإن كان الثمن المدفوع مغريا .

وتلك أيضا كانت موجودة وبشكل ملموس حتى مجيء حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة وتوجهه لحث منتسبيه على الكتابة عن ما يتعلق بأمن الثورة ، أو عن الأشخاص المناوئين لها مرحلة أولى أعقبتها مرحلة بدأت بعد عام 1979 بات الطلب من جميع الحزبيين فيها الكتابة حتى على الأقرباء والأصدقاء أمرا شائعا على وفق فلسفة الرقابة الثورية .

. وهناك قيم أخرى وجهت سلوك الأفراد ونظمت سبل تعاملهم مع الذين يعيشون معهم ، أو بالقرب منهم مثل التواصل ، والتواد ، و التراحم ، و التكافل وغيرها قيم ساعدتهم على اجتياز محن الحياة وأزماتها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والبيئية :
عندما كانت العائلة المعوزة في المنطقة ، أو القرية على سبيل المثال مكفول عيشها نسبيا بجهود الآخرين من أبناء العشيرة ، والمحلة رغم كون معظمهم من الفقراء بالمعنى التصنيفي للفقر والغنى في العصر الحديث .

وعندما كانت صلة الرحم على مستوى يعرف الواحد أبناء عمومته ، وأخواله حتى الدرجة السابعة ، أو أكثر أحيانا فيتنقل بينهم حرا دون توجس ، يطرح ما في جعبته ويعبر عن حاجاته دون خوف فيشعر بالأمان لمعظم الوقت .

وعندما كانت علاقات الناس متسمة بالتواد الذي لا يقتصر على الأقارب ويمتد إلى الآخرين في الشارع ، والحي ، والقرية ، و المدينة علاقة يعتز بها الإنسان و يدافع عنها الأغلبية ، يجد الواحد فيها نفسه ، و يقارن من خلالها وضعه ، وبمقتضاها يدافع ابن القرية ، أو المحلة عن ابنة محلته وقريته عند تعرضها لاعتداء ، أو تجاوز ، وفيها يسهم الجميع في عملية التقويم ، والتسيير الاجتماعي .

في المجال القيمي لا تقتصر القيم كموجهات للسلوك على الجانب الإيجابي فقط، فهناك في الجانب المقابل أي السلبي بعض السلوكيات بات البعض منها شائعا فحاول المجتمع

التقليل من الأثر الضار لها جهد الإمكان وذلك بوضع معايير قيمية لها اكتسبت صفة القبول لدى غالبية مرتكبيها¹⁰⁸.

. وبنفس هذا الاتجاه كانت هناك قيم مؤثرة يتعلق البعض منها بالحياء ، و العيب وهي ليست قليلة :

إذ من العيب أن يرتشي الموظف ، أو المسؤول أي كان موقعه .
و من العيب أن يحابي شخص شخصا آخر في السلطة أيا كانت مكانته .
ومن العار أن يشي فرد أبناء عشيرته ، أو محلته .
ومن العيب أن يتجاوز فلاح على أرض الغير ، أو على محصوله .
ومن تكثر عيوبه ترفضه المحلة ، أو القرية ، والعشيرة فيرحل عنها ، أو يجبر على الرحيل (يجلي منها كما كانت تسمى قيميا في التقاليد العراقية السائدة قديما نسبيا) .
الزاوية الثانية ذات الصلة بمجموعة القيم التي تنظم علاقة الفرد ، والجماعة بأجهزة ومؤسسات المجتمع الرسمية ، وغير الرسمية مثل :

. الشعور بالتوحد والانتماء للجماعة حيث كان التوحد مع الجماعة ، والانتماء إلى الأسرة ثم العشيرة صعودا إلى المدينة فالدولة موجودا منذ تأسيس الحكم الوطني في العراق عام 1921 ، وما قبله واستمر كذلك بنسب أقل بعد 14 تموز عام 1958 ، لكنه ورغم المغالاة بالتوحد ، والانتماء للعشيرة ، والطائفة التي أثارت بعض أنواع الصراع في النصف الأول لهذا القرن إلا أنها ساهمت من الناحية الثانية بوحدة الفعل ، والكلمة ، وشدة الإحساس بالقوة في الظروف الصعبة ، وعلى أساسها حقق العراقيون موحدين (في مرحلة ما قبل الجمهورية) مكاسب يصعب استيعابها، أو إدراك بعض جوانبها ، وملاساتها عند النظر إليها من زاوية الزمن الحاضر منها على سبيل المثال ثورة العشرين وثورة مايس 1941 والاشتراك مع الفلسطينيين في حربهم عام 1948 ، ومعارضة الاتفاقات غير المنصفة مع الغرب ، والاحتجاج على حرب السويس 1956 وغيرها .

¹⁰⁸. كانت السرقة في الخمسينيات وما قبلها عادة ليست حميدة في المدن ، وأكثر قبولا في الريف لكنها سلوك اقترن تنفيذه ببعض المعايير القيمية منها عدم تناول من يقوم بالسرقة (أي يحوف كما كانت التسمية شائعة آنذاك) على الجار ، أو على بيت في قرينته ، ولا على آخر فيه نساء فقط ، وإن حدثت وإن حاف أحدهم مادة ، أو حيوانا يمكن استرجاعها مقابل مبالغ بسيطة ، وكذلك في حال الحيافة لا يتم اللجوء إلى القتل إلا دفاعا عن النفس . ومن يخالف هذه المعايير يعزله المجتمع مع وصف له بالدونية .

. الاعتزاز بالعراقية خاصة وإن للعراق حضارة عريقة ، ومجتمع موغل بالقدم ونظام دولة لم يكن حديثا بالمعايير السائدة للنظم ، عاش على أرضه العراقيون راضين عن مستويات عيشهم بحدود معقولة ، متفاخرين بالانتماء إليه بدرجة كبيرة، متحمسين للبقاء بين حدوده لفترة من الزمن ليست قصيرة ، ساهمت جميعها في تكوين مشاعر الاعتزاز بعراقيتهم ، أو ما يسمى بالروح الوطنية قيمة ضمنت وحدة العراق واستمرار استقلاله وابتعاده عن التوتر ، والأزمات نسبيا حتى السبعينات من القرن الماضي . وهناك قيم أخرى نظمت علاقة الأفراد بالسلطة ، والمجتمع إدارة ، وقوانين ، ومؤسسات إضافة إلى الاعتزاز بالعراقية مثل :

الإخلاص بالعمل ولجهة العمل التي لو قارنا مستوياتها السابقة لمرحلة تسعينات القرن العشرين بما تلاها لوجدنا الفارق شاسعا يمكننا بضوئه وصف مستوياتها في الأولى أي الفترة السابقة بالجودة .

وعلى نفس معيار المقارنة يمكن إضافة الحرص ، والنزاهة والرغبة في الإنجاز والميل إلى التعاون والدافع إلى المبادرة معايير أعطت العمل بكافة أشكاله قيمة كان يمكن لها أن تنقل العراق خطوات عديدة إلى الأمام لو لم يحصل تعثر أعاقها في السنوات الأخيرة .

وتلك كانت من بين الأمور التي أضعفت مستويات الاعتزاز بالعراقية ، وحولت بالتدريج الكثير من العراقيين إلى التوجه للاعتزاز بتنظيمات اجتماعية متعددة .

التمهيد للانحراف القيمي

لو تتبعنا إدارة المجتمع العراقي الحديث بشكل دقيق نجد أن هناك تحولات حادة نسبياً أثرت على واقعه الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي . ولكي لا نسهب في عموم تلك التحولات ذات الصلة بالأحداث التي جرت في الساحة العراقية ، ولكي لا نعود إلى التاريخ البعيد بالنسبة للأجيال الموجودة على قيد الحياة ، ولكي نسهّل عملية الإدراك اللازمة لتصور الموضوع ، سوف نبدأ في تحليلنا لمتغيراته مع منتصف عام 1968 أي مع بداية استلام حزب البعث العربي الاشتراكي للسلطة في العراق للمرة الثانية ، و نتجاوز مرحلته الأولى عام 1963 إلا في الحالات القليلة التي تكمل الإشارة إليها موضوعاً معيناً رغم وفرة العديد من الشواهد التي تدعم وجهة النظر الخاصة بارتكابه كثير من الأخطاء في إدارة المجتمع والدولة مهدت للخرق القيمي، وهي بداية تدفعنا إلى تسليط الضوء على خطوات الحزب المذكور في تجسيد صورة الغش، والكذب ، والتآمر ، وتغليب فكرة الغاية لتبرير الوسيلة لخرق النظام القيمي وتخريبه لأغراضه الخاصة بينها :

. تعاون الحزب مع متنفذين في حكم عبد الرحمن عارف أمثال المقدم الركن عبد الرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية وكراللة ، والعقيد الركن عبد الرحمن الداود آمر لواء الحرس الجمهوري آنذاك في إطار المشاركة الجماعية لإقامة حكم ديمقراطي متعدد الاتجاهات في العراق (كما ورد في أعلاه) ، وانقلب عليهم بعد ثلاثة عشر يوماً على نجاح اتفاقهم متهماً إياهم بالعمالة للأمريكان والإنجليز ، والتخطيط لحرف خط الثورة في أول عملية غش للعراقيين على الطريق الثوري للبعث إبان فترة حكمه الثانية ، خاصة وإن هذا الاتهام يتنافى مع ما أشيع في الأوساط السياسية العراقية وبينها البعثية في السنوات الأخيرة من أن قادة البعث العراقي كانت لهم علاقات منظمة مع الغرب¹⁰⁹ فكان الأمر تناقضاً أوقع العراقيين في شرك الصراع بين الخيانة والوطنية .

109. * أكد خالد علي الصالح عضو قيادة قطرية في مرحلة قبل إنقلاب عام 1963 أن الدكتور سعدون حمادي رئيس المجلس الوطني الحالي كان عضواً في القيادة القطرية إبان تلك الفترة ، وفي اجتماعاتها آنذاك طرح أكثر من مرة رغبة الأمريكان بالتعاون مع الحزب ، واستعدادهم لتزويده بالمال والسلاح متى يودون ، لكن فؤاد الركابي أمين سرها في حينه رفض الفكرة وطلب من سعدون عدم معاودتها وقطع أية صلة له بالأمريكان . علماً أن فؤاد الركابي اغتيل في السجن بأمر من صدام حسين بعد استلام الحزب السلطة عام 1968 كذلك أشار علي صالح السعدي أمين سر القيادة القطرية

. استمر الثوار البعثيين بتأكيد ثورتهم البيضاء ونيتهم المحافظة على نقاء بياضها ، فحاوروا الشيوعيين وكسبوا بعض قاداتهم إلى الجبهة الوطنية ، والقومية التقدمية بعد قليل من نجاح إنقلابهم فأتاحوا الفرصة سانحة لتصفية البعثيين المعتدلين والعرب القوميين، والكورد الوطنيين ، ورجال الدين المسلمين والمسيحيين ثم انقلبوا على الشيوعيين في عملية تصفية لا مثيل لها بعد أقل من ستة سنوات على اتفاقهم . فأبقوا العراقيين المنصفين في حيرة من أمرهم .

. توجه البعث لمحاصرة الثوار الكورد فأرسل لهم المتفجرات مع عالم دين (الأعظمي) حملها بأجهزة خاصة لا علم له بطبيعتها وهو مبعوث للتمهيد إلى تلك الحوارات ، فتخلص البعث من شخص أراد له الموت ونجا الملا مصطفى بأعجوبة .

وبقي العراقيون مشدوهين من أمر لم يفهموا الدوافع الكامنة له ، والنوايا المبيتة من أجله . قرر الحزب منح الكورد حكماً ذاتياً في الوقت الذي توجه فيه إلى شاه إيران متنازلاً عن حدود العراق في شط العرب ثمناً لاتفاقية (الجزائر 1975) ذبح فيها الكورد على درب الوطنية البعثية . وأكد الحزب في مؤتمره القومي الحادي عشر عام 1977 وتوجيهاته بعد اتفاقية الجزائر المذكورة مع الشاه أنها قد جاءت من منطلق القوة والندية ، لكنه وبعد نكثه الاتفاقية مع بداية حربه ضد إيران أكد صدام في لقاءه بالمجلس الوطني يوم 19/9/1980 أن فعلته تلك جاءت كون الجيش العراقي لم يعد يملك من إطلاقات المدفعية عددا يتجاوز أصابع اليد .

فوضع العراقيون أمام كثير من التساؤلات التي لا إجابة لها إلا في عقل صدام حسين متخذ القرار .

للحزب بعد فؤاد الركابي ، وزير الداخلية بعد انقلاب عام 1963 في جلسة خاصة قبل وفاته أن إنقلابهم المذكور جاء بقطار أمريكي. ومن جهة أخرى بين جيمس كريستفيلد المسؤول عن نشاطات وعمليات المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط مطلع الستينات في كتاب عنوانه لغز صدام لمؤلفين بريطانيين (أن المخابرات الأمريكية هي التي لعبت الدور الرئيسي والحاسم في عملية الإطاحة بعبد الكريم قاسم عام 1963) ، وأوضح أن عناصر من سفارتهم تولت آنذاك تنظيم ، وتنسيق نشاطات وتحركات الانقلابيين البعثيين انطلاقاً من مقر السفارة في بغداد ، كما أنها زودتهم بقائمة أسماء 1700 شيوعي عراقي مطلوب تصفيتهم تمت إذاعتها أيضاً من إذاعة سرية وتم بالفعل تصفيتهم جميعاً .

. إغراق السوق المحلية بسلعة ما ولفترة محدودة ليفرغها ثانية ويظهر مسؤول بعدها يبرر ما حدث ليناقضه بتبرير آخر لا علاقة له بالتبرير الأول دون خجل (إذ أن السوق العراقي بعد 1968 كان على سبيل المثال غير مستقرا ، ففي الوقت الذي يختفي فيه البيض تتوفر اللحوم . وعندما تختفي الخضار يتوفر البيض حد التعفن . وهكذا حتى 1979 سنة التمهيد للحرب مع إيران وما بعدها ، عندما توفرت كل السلع لمستوى يفيض عن الحاجة وبأسعار رخيصة . مما يدل أنه كان عملا مقصودا) .

فيتلقى الجميع تلك التبريرات ولا فرصة لديهم للتأكد من صحتها . يظهر صدام حسين باجتماع مع أعضاء في القيادة ، أو في دعوة عشاء مع بعضهم ويسمع العراقيون في اليوم التالي أن حادثة قد أودت بحياة أحدهم ، أو أن قرارا قد اتخذ بإعفاء بعضهم ، أو نقل البعض الآخر إلى مناصب خارج العراق . كما حصل لعضو القيادة القطرية عبد الوهاب كريم الذي حضر اجتماعا للقيادة في القصر الجمهوري ، وقتل في طريق عودته إلى بابل بحادث سيارة قيل أنه مفتعل في حينه ، وكذلك للعضوين الآخرين صالح مهدي عماش وعبد الكريم الشيكلي اللذان ضهرا معه في دعوة عشاء ودية في مطعم الفاروق عرضها التلفزيون العراقي على شاشته ، في نفس الوقت الذي تقوم فيه الأجهزة الأمنية بتطويق بيتهما ، ومنع الاتصال بهما ، ومن ثم الإعلان في اليوم الذي تلا عن نقلهما إلى السلك الدبلوماسي سفراء في الخارج .

فيتابع الجميع ما حدث بتوجس . تمجد القيادة البعثية قادتها في مناسبة ما وتعود لاتهمهم بالخيانة ، أو التقصير، و الانحراف في مناسبة ثانية فتعزلهم بطريقة مهينة ، أو تسقطهم بانتخابات شكلية ، ونجد بعدها أن أحدهم قد مات بشكل مفاجئ وآخر أجبر على الانتحار وثالث وجد مقتولا بطريقة تثير الاستغراب .

كما حصل للدكتور رياض وزير الصحة الذي قتل من قبل صدام في اجتماع رسمي لمجلس الوزراء ، وطارق حمد العبد الله وزير الصناعات الخفيفة رئيس الديوان الذي وجد منتحرا في غرفة نومه ، قال القريبون منه لاحقا أنه قد أجبر على القيام به . فتوقف العراقيون أمام الحالة مشدوهين .

. تظهر قيادة البعث الجانب المشرق من عملها الثوري السياسي بينما يمتلئ جانبها الثاني بأنواع التآمر ، والصراع¹¹⁰ :
وكان مشهدا مع غيره من المشاهد أبقى العراقيين في موقف الفرجة بانتظار النتائج خائفين من احتمالات انعكاساتها عليهم .
تلك كانت أهم التناقضات والأحداث التي تسببت بشكل مباشر وغير مباشر : إرهاب العقل العراقي ودفعته إلى الحيرة والتشتت .
أوجدت في نفس الوقت خصائص جديدة ، وعززت أخرى أو زادت من فاعلية وجودها في المجتمع مثل الخداع ، والمكر ، والتنكيل ، والخيانة ، والكذب ، والمحابة ، والإذلال الخ من أمور ساعدت على تلاشي ، أو إضعاف خصائص أخرى كقوى موجهة مثل الاستقامة ، والنزاهة ، والصدق ، والإخلاص ، والإيثار وقول الحق .
..... الخ من أفعال تناقض تكررت بمستوى كان كافيا لخرق النظام القيمي وتهيئته للانحراف سلبيا حتى عام 1979 لتبدأ مرحلة جديدة تميزت في سنواتها الأخيرة بتصدع هذا النظام لمستوى يثير الريبة .

¹¹⁰. إذ تميزت فترة حكم البعث للعراق بعد 1968 بوجود اتجاهين متصارعين في القيادة يتآمر أحدهما على الآخر يمثل الأول البكر رئيس الجمهورية أمين سر القطر بشخصيته الموسومة بالضعف ، والتردد ، والمحابة ، وسرعة الانفعال . ويمثل الثاني فيه صدام حسين النائب آنذاك بشخصيته المعروفة بالقسر ، والعنف ، والمجازفة ، والشك ، والتآمر ، وسرعة الغضب ، وعدم الصفح والطائفية ، والإقليمية ، انتهى بعزل الأول في تمثيلية تنازله عن السلطة ديمقراطيا ومن ثم بمقتله بالحقنة السمية .

مرحلة الانحراف القيمي

انتهت مرحلة الصراع داخل قيادة حزب البعث عام 1979 بمجزرة ارتكبتها صدام حسين راح ضحيتها ما تبقى من قيادي الحزب المحسوبين على الاتجاه الأول ، أو الذين ما زالوا يحافظون على أعراف الحزب ، ونظامه الداخلي نسبياً أمثال عبد الخالق السامرائي ، وعدنان الحمداني ، ومحمد عايش ، وغانم عبد الجليل ، ومحيي المشهداني ، ومحمد محبوب أعضاء في القيادة القطرية وعشرات غيرهم من المستويات القيادية الأخرى ، أعضاء فروع ، وشعب في الحزب . واستلم السلطة بطريقة أذهلت العراقيين وأرعبت البعثيين أنفسهم ، فكانت بداية التوجه لحرف القيم ، والخطوة الأولى لتشكيل الإنسان العراقي الجديد من وجهة نظره ، الذي يريده :

خائفاً على طول الخط .

ساعياً لتقديس الحاكم .

لا يبادر باتخاذ قرار .

مندفعاً لتنفيذ ما يطلب منه دون نقاش .

الأناني الذاتي ذو الشخصية المزدوجة .

الجاهل بكل شيء إلا ما يتعلق بمصالحه الخاصة .

أي المنحرف قيمياً .

وقد تحقق له ذلك بنسب ليست قليلة من خلال تطبيقه الصارم لأساليب متعددة في الترغيب ، والترهيب لم يتسنّ لرئيس آخر على مستوى العالم ، والعرب إجادة تطبيقها مثله في العصرين الحديث ، والقديم على حد سواء .

ومرحلة الانحراف القيمي اقترنت بالفترة الأولى من حكم صدام ، خاصة مع بداية حربه وإيران تلك الحرب التي كان لنتائجها ، وإدارته لها النصيب الأكبر في إرساء هذا الانحراف سواء بتقليل فاعلية القيم الإيجابية ، أو بتقوية خصائص سلبية كُونت في النهاية أنساقاً قيمية لمجتمعها الجديد .

وبهدف تأشير هذا الانحراف يتطلب الأمر مناقشة فيها قدر من التفصيل لأربعة أنساق باتت على سبيل المثال ظاهرة للعيان في سلوك المجتمع العراقي إبان فترة حكمه .

المادية النفعية

يعتقد صدام أن للإنسان ثمناً يمكن تحديده مسبقاً ، وعلى أساسه منح الشهادة ، أو الاستشهاد مرتبة لمن يُقتل في حروبه العدوانية ، ومن ينالها على وفق مقاساته يعطي ورثته المنكوبين قدراً كبيراً من المال ، وسيارة خاصة ، وقطعة أرض سكنية (مكرمة) ، حتى وجدت بعض العوائل الفقيرة نفسها قد تحولت مستوياتها المعاشية إلى أخرى لم تكن تحلم في الوصول إليها حتى لو استمر الأب ، أو الأخ الأكبر منتجا من الدرجة الأولى مئات السنين ، وبسببها تناقصت قيمة الأبوة ، والأخوة ، ومعنى الشهادة ، أو حورت سلباً بالمقارنة مع قيمة المال التي تعززت بعد إنعاشها الأسرة اقتصادياً وتغيير موقعها اجتماعياً . وهي معادلة لم تتوقف تأثيراتها عند الحدود المذكورة بل تجاوزتها لتخدش إنسانية الإنسان ، وتقلل من تقديره لذاته واحترامه لها عندما اختلت كثير من الموازين وعلى أساسها :

. اندفعت بعض العوائل الفقيرة غير المتعلمة إلى التمني جدياً لاستشهاد أحد أبنائها فرصة للغنى ، وكسب المال .

سارع البعض الآخر من الأهل إلى مراجعة دوائر الدولة في سباق محموم لكسب الثمن قبل أن تنتهي مراسيم العزاء ، وهم مختلفون على تقاسم الغنائم في كثير من الأحيان . تجرأ آباء وأمهات مناشدة صدام ، والتوسط لدى الحزب لأخذ المزيد من أبنائهم إلى مطحنة الموت .

. كبرت عجوز في إخفاء معالم حزنها وتفاخرت في حضرة الرئيس باستشهاد كل أولادها متمنية عودتها إلى سني الصبا ، والشباب لتنجب آخرين تقدمهم فدية له في حربه المقدسة .

. غصت الكلية العسكرية بالمتقدمين حداً لا تستوعب فيه المزيد فلجأت الدولة إلى فتح كليتين أخريين لقبول شباب يتزاحمون على أبوابها وهم متجهين نحو الموت شبه المحقق لا يدركون سوى المكاسب المأمولة.

الدونية وضعف الحياء

يتحسب الإنسان في تعامله مع مفردات الحياة ويعيش فيها ملتزماً بضوابط تعلم من خلالها أن يؤدي عملاً لأنه مفيد ، وغير مؤذ ، ويتسم بالخير . ويمتنع عن آخر لأنه مضر ، وغير مرغوب بالنسبة له ، وكذلك للآخرين من حوله . وهي أعمال على وجه العموم تدفعه

استحياء إلى ترجيح كفة الصحيح على الخطأ ، وتغليب جانب الخير على الشر لتستقيم الحياة متوازنة مقبولة ، لكنها ومع استمرار الحرب ، وكثرة خسائرها وسوء إدارة الدولة ، وجسامة أخطائها اضطر الكثيرون إلى التجاوز على ذلك فوجدوا أنفسهم :
بعيدون عن أي التزام .

غير مكترئين بالقوانين ، والأعراف والتقاليد .
لا يحس البعض منهم ألم الإهانة ، أو بمعنى أدق يهضمها بسرعة ، ولا يعير اهتماما لانتقادات الآخرين ، وتجريحهم وبمعنى أشمل يتغاضى عنها بسهولة لم تكن معهودة في السابق .

وهي خصائص وان كان القليل من مستوياتها موجودا فقد قويت بتكرار الممارسات ، والتجاوزات الخطأ وعدم الاكتراث لها ، أو الاستحياء من نتائجها فكانت أنساقاً من القيم أخلت بالحياة العام وأشعرت العديد بالدونية منها :

. يسمع مسؤول كبير في الدولة ، والحزب شتماً من رئيسه بأسلوب لم يسبق أن سمعه في الشوارع والأزقة ، ولا يحتج أو يستقيل ، أو يترك مكانه للآخرين الضعفاء ويتنحى جانبا .
. يتسبب قائد فيلق في الجيش بخسارة فادحة في معركة يخوضها تعد نكبة بالمعايير العسكرية ، ويلصقها سريعا بغيره ليعدمه علنا أمام المنتسبين دون اعتراض ، أو مساءلة .
. يطالب وزير بدعوة عشاء دون حياة ، وبجلسة شراب مسكرة دون مواربة ، أو سهرة حمراء بعد منتصف الليل دون خجل ثمناً لنقل موظف في وزارته ، أو منح آخر ترقية لا يستحقها ، أو إفاد ثالث خارج العراق . ولا أحد يعاتبه .
. يتجرأ شخص عادي بإدخال هداياه إلى بيت المسؤول الحزبي أثناء النهار ، ولا أحد من الأهل يمنعه .

. يرسل موظفا كبيرا ، أو مسؤولا حزبيا مرموقا زوجته الجميلة إلى الرئيس لتشكي همومه ، أو تطالب بالمزيد من مكارمه السخية . دون حرج من النفس ، أو عتب من الآخرين .

الاستخفاف والاستهانة

بدأ البعثيون الثوريون خطواتهم الأولى في التعامل مع المجتمع باعتقاد مسبق أن ما يقومون به ، أو يؤدونه نابع من استقامة الثورة ورؤاها الصحيحة ، وإن أساليبهم في الرد السريع ، أو تجاوز بعض الضوابط الإدارية تأتي من منطلق حماية الثورة الفتية ، أو لتخطي مرض الروتين الذي أصاب مجتمع ما قبل الثورة . وقد يكونوا معذورين بداية

ثورتهم ، ولا شائبة كبيرة على أساليبهم تلك لأسباب نفسية وإدارية ، إلا أن المشكلة تأتي بمرور الوقت عندما بقي أولئك الثوريون محتفظين بالسلطة على ضوء نظرية صدام التي تتأسس على (أنهم ضحوا من أجلها وبذلوا جهودا جبارة في الوصول إليها فلا بد والحالة هذه من بذل المستطاع للحفاظ عليها وبأي ثمن) وبذلك اعتادوا أساليب غير سوية وتمادوا بتجاوزاتهم غير المنطقية فبدأ صراعهم مع المجتمع العراقي وفيه ازدادت عدوانيتهم على غاليته من ناحية ، وتنأى تمسكهم بالخطأ اعتزازا بثورتهم من ناحية أخرى ، وعند هذه النقطة بدءوا الاستهانة بإمكانات الآخرين وبقدراتهم وآرائهم . وهذا ما حصل فعلاً ومؤثراته هي :

. سفروا آلاف العراقيين بتهمة الأصول غير العربية مع معرفتهم الجيدة بالطبيعة السكانية ، والتداخل الحاصل فيها .

. عينوا رؤساء وزارات ووزراء لا يصلحون نوابا لملاحظين في دوائر الدولة وهم على علم أنهم سيخربون العراق بدلا من تعميره . إذ استوزر على سبيل المثال للتعليم العالي والبحث العلمي سمير الشيكلي وزيرا جاهلا متهورا لا يصلح إلا مراقبا في البلدية غاضا الطرف عن آلاف الأساتذة المختصين ، ولوزارة الصحة العميد الدكتور المهندس عبد السلام لا يعرف ما يتعلق بصحته الشخصية غير آبه بالمهنية وبآلاف الأطباء الاختصاصيين المشهود بقدراتهم العلمية والإدارية ، ولوزارة الدفاع حسين كامل جنديا بدأ حياته سائقا في أحد البيوت القريبة من الرئيس ، ثم فردا في حمايته لم تسنح له الفرصة لاستيعاب مفردات التدريب الأساسي أسوة بأقرانه الجنود ضاربا عرض الحائط معايير الضبط ، والتقاليد العسكرية ومئات الضباط القادة المعروفين بكفاءتهم ووطنيتهم، ولرئاسة الوزارة حمزة الزبيدي قاطع تذاكر في مستشفى مرجان للأمراض الصدرية في بابل دون أن يفكر بمسؤولية المنصب ، ومئات القادة السياسيين ، والأساتذة ، والعلماء ، والمختصين المقتدرين ، ولنيابة مجلس قيادة الثورة عزة الدوري أمي لم يعمل كاتبا في دائرة حكومية أو جنديا في القوات المسلحة ، وغيرهم كثيرين . هجروا مئات القرى وأزالوا مواقعها من على الخرائط ، وهم يعلمون أنها مؤشرة على خرائط الأتراك ، والإنجليز وفي ذاكرة العراقيين .

. غيروا معالم الطبيعة ، ونشفوا مياه الأهوار في الجنوب ، وهم عارفين أهميتها للثروة السمكية ، والحيوانية وتأثيراتها على البيئة ، وإمكانيات استثمارها لأغراض السياحة والترويج .

. أزالوا بساتين عامرة في بلد ، وديالى ، والبصرة ، والحلة ، ومزارع في أماكن أخرى من العراق وهم مدركين تأثيراتها على الاقتصاد الوطني .

. باع رئيسهم سوريا لأولاده ، وزوجته ، وأقاربه مزارع الدولة ، ومعامل القطاع العام ، والشركات الحكومية رغم معرفته أحقية الشعب العراقي بالاستفادة منها .

. نقش قائدهم إسمه على الطابوق المعمول لترميم الآثار في بابل ، وهو يدرك أن ما قام به إجراء مخالف لصفقتها التاريخية والعلمية .

الإحساس بالعجز واليأس

بعد خطوات الحزب ، والرئيس أعلاه عم الجهل قطاعات واسعة ، وتدنت مستويات المعرفة ، وبات القسر ، والتسلط ، والمال المكنوز ، والولاء للحاكم الأساس في التعامل مع العراقيين بشكل عام .

ومع هذا التجهيل بدء الرئيس سياسة القسر لتخويف من بداخله نوايا ضد الظلم..... والعطاء لاستعباد ، وترغيب ، وشراء ذمة من يتسم سلوكه بالطمع والانتهازية ، فجعل بفلسفته هذه لكل فعل تقديره الخاص إيجاباً لتعزيه ، وسلباً لإطفائه ، تقدير مدفوع مسبقاً ، أو مأمول بدفعه لاحقاً، يفتش عنه الكبار قبل الصغار فزاد الانتهازيون بوجهتهم صوب الرئيس طمعاً في رضاه ، وسعياً للحصول على مكارمه ، وتناقص الجادون القادرون على الفعل لكثرة ما أعدم منهم ، أو سجن ، أو سفر ، أو شرد ، أو أجبر على البقاء متفرجاً بعد إحباطات زادت شدتها .

فكان الإحساس بالعجز خلل لصالح الوصولية والانتهازية ، واليأس اضطراب في النفس البشرية بعد أن أصيب أفراد المجتمع العراقي عامة ، والشباب خاصة بنوع من خيبة الأمل ومشاعر المرارة ، وبعد أن أدركوا حجم الحسابات الخاطئة لحزب البعث ، ودولة صدام حسين فكان سلوكهم سلبياً انسحابياً بعض نماذجه متمثلة :

. تتكرر الأخطاء على مرأى من المعنيين بها ، ولا يجهدون أنفسهم بالمحاسبة عليها ، أو حتى التنبيه إليها في كثير من الأحيان .

. يقتل شخص أمام حشد من الناس ولا يرغب أحد منهم بالشهادة عما حدث

. يستغيث جار لمصيبة حصلت ولا مغيث يستجيب لمعاونته في الخلاص .
. يرى عديد من الآباء ، والأمهات أخطاء أبنائهم ، ولا قدرة لهم بالإصلاح ، ويدركون تحطم مستقبلهم ولا يميلون حتى لمناقشته .
. يعي الغالبية أن وطنهم قد دمر ، وسيادة بلدهم قد انتهكت ، واقتصادهم لا أمل قريب في إصلاحه ، والتمن مدفوع من أمنهم وصحتهم ، ولا دافعية لديهم في المساهمة مع الغير للتفتيش عن الحلول .
. طائرات تقصف ، ومنشآت تهدم ، وثروة تهرب إلى الخارج ، وعقول تهاجر مقهورة ، ولا رغبة في الاحتجاج .
. إعدام الكثير من العسكريين ، والمدنيين بسرعة لم تدع لهم مجالاً للدفاع عن أنفسهم ، وعدّهم شهداء بسرعة أكبر ولا ميل للاستفسار عن السبب مثلما جرى لكثير من الضباط القادة في ساحة القتال وموظفين كبار خارجها .
إن مشكلة العراق والعراقيين أكثر تعقيداً من التجاوز ، والتناقض ، والخلل الذي ذكر أعلاه على سبيل المناقشة والاستدلال والتي كونت بحكم التكرار والتعميم انساقاً قيمية سلبية لأنها :
لم تنته عند حدود الثراء الذي أصبح مقياساً لعلو الشأن في مجتمع الثمانينات بل لانعكاساته على الشعور بالحيث ، والعدوان من جانب الكثيرين ، بينهم المتعلمين إزاء المسؤولين ، والأثرياء الجدد .
لم يتوقف تدني مستويات المعيشة ، وغلاء الأسعار عند عدم القدرة على إشباع البطون بل ودفع الشباب إلى القنوط ، والحيرة ، والإحساس بفقدان الانتماء ، وقلة الثقة بالدولة والعدالة الاجتماعية .
عندها أصيب العديد من العراقيين باليأس والمرارة فتوقفوا عن السؤال عن جدوى العمل أكثر من الحدود التي تحفظ لهم حياتهم وتؤمن لهم عيشهم ، فتأثرت عندها المبادرة ، والإيثار ، وتحمل المسؤولية خصائص أعطت العمل والإخلاص فيه قيمة عليا في المجتمع ، ولفترة من الزمن ليست قصيرة .
ولم يقتصر التسلط ، والتهديد ، والتنكيل أسلوباً لتعامل الرئيس مع قاداته ووزرائه بل انتقل سلوكاً إلى الآخرين في تعاملهم مع الأدنى وظيفياً على وفق آلية التقمص نزولاً

حتى العتبة الأخيرة من السلم الوظيفي . فأدى إلى تكوين اتجاهات جديدة بين الناس قوامها :

التعصب ، والتفكير المغلق غير المنطقي ، والتمسك بالخرافات ، والنزوع المضاد للنقد الذاتي .

وبسببها بدأت تتلاشى الألفة ، والمودة ، والتسامح ، وحسن النية ، وروح الجماعة ، والتضحية من قواميس الإدارة العراقية تدريجيا وأحس الغالبية بالضيق ، وبدأ الانحراف باتجاه السلب واضحاً ملموساً وكان له الأثر الكبير في إثارة الفوضى ، والاضطراب ، وعدم الارتياح لشريحة ليست قليلة من المجتمع ومن ثم التمهيد للمرحلة اللاحقة الأكثر سلبيًا والأشد تأثيراً على العراق والعراقيين ، مرحلة التصدع القيمي .

مرحلة التصدع القيمي

يعد العام 1990 نقطة تحول في التاريخ العراقي وحدثٌ شملت تأثيراته كل مجالات الحياة وبينها النظام القيمي الذي تتغير أنساقه عادة بشكل تدريجي تبعا للإحداث ، والضغط ، وأساليب التعامل تغيرا يتوقف مقداره ، وسرعة حدوثه على كم تلك المتغيرات من جهة وشدتها من جهة أخرى .

وإذا كانت المرحلة الأولى لحكم صدام حسين (الحرب مع إيران) قد ساهمت بحرف القيم سلبيا فان المرحلة الثانية (غزو الكويت ، واستمرار تطبيق الحصار) قد أدت إلى تصدع نظامها لأن الأحداث ، والضغط من الكثرة ، والشدة لم يألّفه المجتمع العراقي ، وأساليب التعامل معه لا يمكن عدّها سوية بكل المعايير السائدة في المجتمعات الدولية كافة .

والبداية كانت مع الكويت احتلال وضح النهار رغم وعود أُعطيت إلى العرب والأصدقاء بعدم المساس بسيادتها .

وأمر بالتهب ، والاستيلاء ، والاستباحة للممتلكات العامة ، والخاصة رغم إعلانها محافظة عراقية خلافاً للمواثيق الدولية.

توجيهات بالقتل ، والأسر ، وهتك الأعراض رغم ادعاء الاخوة والمصير المشترك . سلوك شاذ ، ورغبة في الإيذاء ، وغطرسة خاوية .

بدأها القادة ، والأقارب سرعان ما انتقلت عن طريق الإيحاء ، والتقليد ، والحاجة ، وضعف الضمير إلى المستويات القيادية الأقل ومن ثم إلى البعض من العامة .

قبلوا مخالفة الأعراف ، والقيم بغشاوة النفس الأمانة بالسوء يصعب تفسيرها إلا في إطار هوس جماعي شجعتة الدولة كنوع من الانتقام .

مجتمع تناسى فيه البعض غير القليل مفردات الحرام ، وأصول الجيرة فاضطرب فيه الكثير من المعايير و القيم ذات الصلة بهما¹¹¹.

¹¹¹. في فترة القصف الجوي على بغداد تركت العديد من العوائل بيوتها وتوجهت إلى المحافظات ، وخلال غيابها تجاوز عديد من الجيران على بيوت جيرانهم وأخذوا خزائنهم من الوقود ، والمياه دون إذن منهم .

توالت الأحداث ، وزادت شدتها مع استمرار تطبيقات الحصار ، وازدياد نسب التضخم فتحول غالبية الشعب العراقي إلى خاوة الفقر بعد أن كان ميسورا ، واختل التوازن الطبقي المعروف عندما انقسم المجتمع إلى :

أغنياء نسبتهم أقلية... طبيعتهم الاستغلال، واستثمار الفرص، والاتجار بالمشاعر... غايتهم مزيدا من الكسب ، وإن كان فتتاً من موائد السلطان .

وفقراء نسبتهم أغلبية طبيعتهم اليأس، والاستسلام ، والشعور بالبؤس والشقاء غايتهم إشباع البطون ، وتجنب سيف السلطان .

فتناقصت درجات الرحمة ، والتواد قيما لتمامك المجتمع واستقراره .

وقويت اتجاهات القهر ، والاستغلال ، والحقد ، والعدوان .

فتدنت مستويات ذلك التماسك لمستوى يثير الخوف والتوجس .

وبذلك سجلت بدايات التصعد القيمي التي تتمثل بعض معالمه :

التجاوز على المال العام

اختلال معايير الانتماء

التغير في معايير الالتزام العام

التجاوز على المال العام

صحيح أن المال العالم في العراق لم يكن مصاناً بالمستوى المطلوب عبر النظامين الملكي بشكل أقل¹¹² ، والجمهوري بمراحله المختلفة حتى أواخر السبعينات على وجه الخصوص بسبب :

. عدم الفهم الصحيح ، والتقدير الصائب لعلاقته بنمو المجتمع ، وتطوره ، الذي انعكس

سلبا على مدى التزام المعنيين بالمحافظة عليه ، والقادرين على الوصول منه .

. عدم الرضا عن طبيعة الحكم والاقتناع به .

. ربط الحكم في العراق بالأجنبي كنوع من الاقتران يسهل تبرير التجاوز .

¹¹². لم يتبين بشكل قاطع أن للعائلة المالكة عقارات داخل العراق ، ولا أرضة بالنقد الأجنبي خارجه . ومات عبد الكريم قاسم مقتولا من قبل البعثيين ، ولم يكن له داراً يملكها ، أو حساباً في مصرف عراقي ، أو غربي . ومات عبد السلام عارف بجاذ طائرة ، ولم يملك من مال الدنيا إلا بيت من جمعية للإسكان العسكري . وانقلب البعثيون على عبد الرحمن عارف وما زال على قيد الحياة في بيت يملكه من الجمعية المذكورة وراتبه التقاعدي ، ولم تسجل أية شائبة عليه شخصياً ، أو على أحد من أفراد عائلته .

إلا أن مجموعة القوانين ، والضوابط ومستوى التزام القادة بالمحافظة على أموال الدولة آنذاك ساهمت بالحد من تجاوز غالبية المجتمع عليه بقدر معقول لكننا وبعد عام 1980 تلمسنا توجه الرئيس ، وعائلته ، وأقربائه لاقتسام وتوزيع ثروة العراق المنقولة وغير المنقولة ، والتصدق بما تبقى مكارم إلى القادة العسكريين ، والمدنيين ، وكبار الحزبيين حصصا تتناسب ومقدار ولائهم لديمومة النظام .

ولو وضعنا جنبها سيطرتهم على عوائد النفط ومفاصل التجارة الخارجية والداخلية ، وخزين الذهب في الخارج ، والحسابات السرية بالعملة الأجنبية ، منها نصل إلى تصور لمقدار السلب ، والنهب المباشر من قيادة الدولة ، والتجاوز غير المباشر لعدد من الأهالي كرد فعل منطقي لهذا السلوك من جانب ، وسعي لاستمرار حياتهم في ظروف صعبة من جانب آخر.

وعلى أساسها يمكن القول أن هذه الخاصية التي تنامت مستوياتها بشكل كبير ، واتسعت شموليتها بشكل عريض عطّلت معايير الانضباط الذاتي لشريحة ليست قليلة من المجتمع بعد أن :

سارع الأغنياء المستغلون لمزيد من الاستغلال مدفوعين بهوس الاكتناز وقلق الحفاظ على الأمن .

توجه الفقراء للسعي بكل الاتجاهات بهدف سد الحاجات في اقل مستوياتها . مال عام شيعه الحاكم سلفا ، وحارسه الدولة التي أصبحت خصما لمعظمهم .

اختلال معايير الانتماء

الوطنية شعور بالانتماء ، ورغبة بالدفاع ، وميل إلى التآلف ، وإحساس بالرضى ، واقتناع ، وأمان في وطن رموزه الأرض ، والناس ، والنظام لفترة من الزمن .

وهي على وجه العموم ليست ثابتة ، أو بمعنى آخر ثباتها نسبيا ، تتأثر مستوياته سلباً ، أو إيجاباً بالعديد من المتغيرات بينها مقدار التمتع بالحقوق ، والإحساس بالعدالة والمساواة ، ومديات تحقيق الأماني والأهداف ، وغيرها أموراً يتعلق مقدار تعزيز وجودها بالإدارة العامة للمجتمع ، وأساليبها في التعامل معه أفراداً وجماعات .

وإذا ما أردنا مناقشة طبيعة هذه الإدارة في العراق خلال الثلاثين سنة الأخيرة ومدى انعكاساتها على الروح الوطنية نجد:

أن التفرد بالسلطة وإدارة المجتمع على وفق الدكتاتورية أضعف من علاقة الفرد بالدولة كأحد معايير الانتماء لأرضها .

. دخول حرين متتاليتين أهدافهما مبهمه، ونتائجهما سلبية ، وخسائرهما المادية والبشرية فادحة أحبط عموم العراقيين ، وأثار مشاعر عدوانهم على الدولة ونظام الحكم .

. التحول في مستوى المعيشة من الجيد والوسط إلى دون مستويات الفقر أضعف من ترابط الناس فيما بينهم وكذلك من مستويات انتمائهم للدولة .

. اللجوء إلى الاختطاف ، والقتل ، والتعذيب ، والتنكيل بالإنسان العراقي أثار فيه الرعب والخوف وقلل من تقديره للدولة ومن احترامه لرموزها .

. التفريق بين عراقي وآخر على أساس القومية ، والدين ، والمذهب ومن ثم المدينة ، والعشيرة ، وكذلك مقدار الولاء للحاكم قسّم العراقيين أقساما عدة أفقدتهم الوحدة كأحد معايير الانتماء للدولة .

. لجوء الحاكم وقادته إلى الكذب ، والخيانة ، والمخاتلة ، والمراوغة أساليب للتعامل مع عموم المواطنين دفعهم إلى وسمه أي الحاكم ومن معه بتلك الخصائص السلبية ، وقللت من معايير احترامهم له ، وبالتالي أفقد الحاكم وحزبه قدراتهم في التأثير بالمشاعر المطلوبة لتوثيق عرى الانتماء .

. اقتصار التعيين في قيادات الأجهزة الأمنية ، والقوات المسلحة ، والسلك الدبلوماسي ، ورئاسة الجمهورية على أقرباء الرئيس ، وأفراد عشيرته ، وأبناء القرية ، والمدينة كون شعورا لدى الكثيرين وكأن الدولة هي صدام وعشيرته وهذا شعور يضاعف كثيرا الارتباط بجسم الدولة ومجتمعها .

. تلك أمثلة أوردناها للمزيد من الإيضاح والدقة في الاستنتاج ، وأخرى عديدة لا مجال لذكرها أثرت سلبا على معايير ، ومستويات الانتماء لمجتمع الدولة بعد أن أسقط عموم العراقيين من حساباتهم رموز تعزيزها .

. وإذا ما أضفنا لها كثرة الضغوط المسلطة على النفوس وما سببته من إعياء لها، وقلة الوعي بالأسباب والنتائج ، وما تمخض عنهما من اضطراب لمداركها ، نصل إلى استنتاج مفاده :

أن العداء الذي تكون ضد الحاكم (صدام) والدولة (البعث) تسرب أو انتقل إلى الوطن بحكم التعميم فتشوهت تلك المشاعر . وعلى أساسها نرى :

أن خبراً عن تقسيم العراق لا يثير الكثير من المشاعر .
إشارة عن مديونيته الضخمة لا تحرك السكون .
تنويه عن قصف منشآته لا يثير الاحتجاج .
رواية عن إعدام معارضين لا تثير الاستهجان بالمستوى المطلوب .
حكاية عن اختطاف البنات في شوارع بغداد ومدن العراق الأخرى لا تعير كثيراً من الاهتمام .

نقاش عن أخطار الحاضر وهول المستقبل لا يثير الرغبة بالمشاركة .
اتجاه الغرب لتحديد مصير شعب بأكمله لا يثير التوجس .
وإن بادر عراقي معارض ، أو جهة أخرى معارضة لطرح أفكارهم عن واقع معاش ،
ومستقبل مظلم ، وقدم فكرة ، أو مقترح اجتمع البعض من العراقيين على تجريمهم
بالعمالة لأمريكا ، وبريطانيا ، أو للسلطة في بغداد عاجزين أن يكونوا بدلاء ، أو شركاء لخلل
في إدراكهم وضعف في مشاعر انتمائهم .

التغير في معايير الالتزام العام

هناك العديد من المعايير التي يلتزم بها الإنسان سواء في علاقته مع نفسه والمجتمع ، أو
في تعامله مع الدولة ، نجد أن الكثير منها قد حوّر بنسب متفاوتة أثرت سلباً على النظام
القيمي حد التصدع ، خاصة في قيم :

الشرف

بدأت الحكومة عام 1968 بشكل محدود ، وبعد عام 1979 بشكل واسع إنشاء محال
صغيرة (أكشاك) قرب الكليات ، والمعاهد ، والدوائر المهمة في بغداد لغايات أمنية
استثمرت في كثير من الأحيان لإغواء البنات ، وإرسالها إلى المزارع الخاصة والقصور
الفخمة ، واستمر هذا سلوكاً بينا لدى العديد من المسؤولين والقادة انتقل إلى الأبناء
الذين غالوا بممارسته لمستوى العلن في نوادي الصيد ، والعلوية ، والفروسية ، وذلك
بتكليفهم لمرافقين لهم والوكلاء الخاصين بهم بشكل مفضوح للقيام بمهام توصيل البنات
إلى القصور والأماكن الخاصة .

وكان عدي سابقاً ومن بعده قصي (أبناء الرئيس) في هذا المجال لا هم لهم إلا الإغواء
والتوريط ، يليهم بالمرتبة الثانية أولاد خيرالله الذي لم يكن في حياته نزيها هو الآخر وآل

المجيد المتعطين إلى السطوة ، والجاه ، وكنز المال بوسائلهم المعروفة بالترغيب ، والضغط ، والإكراه .

وهذا سلوك شائن امتدت معالمه إلى الأقرباء ، وأولاد البعض من المسؤولين المسعورين الذين لا يجدون ما يتفخرون به في جلساتهم الخاصة سوى أعداد البنات التي اختطفن ، أو سقطت بين أيديهم ، أو تلك التي قتلت لامتناعها تسليم نفسها لأناس أقرب إلى الحيوانات الوحشية منها إلى البشر ، ويكون التفاهر أكثر متعة عندما تكون تلك البائسات من عوائل معروفة بأصولها الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو الدينية ، وأحيانا من بنات المسؤولين في الدولة والحزب لاعتبارات خاصة .

إن هذه الصورة في مجتمع اعتاد الالتزام بمعايير الشرف قيمة ذات صلة بالعفة، والنزاهة ، والإيمان بالشرائع السماوية ، دافع عنها الناس في الماضي بقناعة تامة ، وقبلوا تقييم الآخرين لسلوكهم على أساسها قد حرفت كثيرا وبشكل سريع ، ومربك لأن :

مقاضاة من أخل بها من أولاد الرئيس ليست جائزة .

الثأر ممن دنسها من أولاد خيرالله ليست ممكنة .

قتل من نشرها من أولاد المجيد ليست سهلة .

غسل العار بقتل البنت غير المسؤولة عما حصل لها غير منصفة .

فاتجه المنكوبون إلى الاكتفاء بالدعاء المكتوم حلاً مناسباً ، ومن خارت قواه وضعفت معالم ضميره ، وتكررت وتائر الاعتداء على عرضه اعتاد قبول المثلبة حتى وان كان من قادة البعثيين ، ورجال الدولة المعروفين¹¹³.

وجاء الحصار متغيراً زاد الأمر سوءاً بعد أن أصبح الصيد سهلاً في معادلة الغنى الفاحش ، والسلطة المطلقة لأولاد المسؤولين من جهة والفقر المتقع ، والحاجة الملحة للعيش من

¹¹³. روت شابة متزوجة حديثاً قصتها إلى زوجها بعد العودة من اختطاف لعدة شهور، مؤكدة أنها وهي تسير في أحد شوارع بغداد القريبة من بيتها اختطفها شخصان بسيارتهم الخاصة ، بعدها وجدت نفسها في بيت كبير داخل مزرعة . في الليلة الأولى اعتدى عليها شاب (من أبناء المسؤولين) وفي الثانية آخر وهكذا استمرت الحال معها وشابات أخريات لا تزيد أعمارهن عن العشرين سنة ، وبعد أن قتلوا منها افترسها جنود الحماية وأخيراً استقرت خادمة في البيت مؤكدة أنها لو امتنعت لقتلت مثل أخريات ما تزال قبورهن شاخصة في المزرعة ، وبعد أشهر وعلى إثر مرضها أمرت أن تتركب سيارة وجدت نفسها بعد ساعات في ذات الشارع الذي اختطفته منه اتجهت إلى بيتها مدعورة طالبة من الزوج أن يغفر ما حصل لها قسراً ، وبعد إخباره قصتها انتحرت في بيتها حرقاً من ألم الانتهاك الحيواني لشرفها .

جهة أخرى لمستوى تساهلت فيه عوائل مع ابنة لها أو تغاضت عن تصرفاتها بعد أن أمنت عيشها ، ويزداد التساهل أكثر عندما تساعد تلك البنت البائسة عائلتها في توفير بعض المستلزمات التي تبقىهم على قيد الحياة ، وإذا ما أضفنا لأرقام الخطيئة أعداد المخطوفات ، والمحجوزات في سجون الدولة ، والخدمات اللواتي يجلبن من دور الأيتام إلى بيوت الأقرباء المسعورين .

نتلمس عمق الأزمة ونستنتج :

أن هذه القيمة التي اعتر بها العراقيون عبر الزمن باتت مهددة بالزوال ، إذا ما استمر الحكم طويلا لذات المعتدين .

الاستقامة

يتكون الضمير الإنساني من عمليات للتعامل الصحيح مع مفردات الحياة في فترة العمر الأولى يؤكد فيها الآباء ، والأمهات ما هو حلال ، أو حرام ، صحيح ، أو خطأ ويتصرفوا على أساسها تصرفات يقلدها الأبناء فيتكون الضمير الذي يدفع إلى الخوف من ارتكاب الخطأ ، والارتياح بعمل الصبح ، وهما اتجاهان موجودان في النفس البشرية لازمان لتكوين نسق الاستقامة . هذا وعند مناقشة مقاديرهما عند العراقيين يمكن القول ومن خلال دلائل السلوك ذات الصلة بهما مثل :

عمل الخير ، التعاون ، الصدق ، الإخلاص ، الود .

...الخ أنها كانت ملموسة ، وبدأت بالتناقص في السبعينات ، والثمانينات ثم تصدعت في التسعينات عند التعرض للضغوط الشديدة المستمرة التي اضطرت فيها الآباء التجاوز على بعض مفردات الصحيح في المراحل الأولى ومن ثم بدءوا بارتكاب الخطأ المقصود في مراحل لاحقة ، وأعمال كهذه على مرأى من الأبناء تسببت في تعطيل الضمائر : بعدما وصل الأب إلى حال لا يجد فيه مبررا ، أو مجالا للتكلم عن الحق وهو غير قادر على الالتزام به .

وإلى النصح بعمل الخير وهو بعيد عن إمكانية القيام به .

أو حتى المنع من ارتكاب الخطأ الذي أخذ يكرره مرارا تحت ضغط الحاجة على مرأى ومسمع من عائلته البائسة ، وأبنائه الذين يعدونه قدوة لهم وبشيوخ هذا السلوك ، أو تعميمه بين شرائح المجتمع العراقي بنسب غير قليلة يمكن القول أن الاستقامة قد تدنت مستوياتها..... بعض مؤشراتها :

. قبول الصديق عمولة وساطة من صديقه عند طلب نجدته للمعونة في التوسط لبيع حاجة يود الحصول من بيعها على قدر من المال يسد به عوزه ، وعدّها شطارة ورزق مقسوم .

. السكوت عن الخطأ ، والابتعاد عن قول الحق حتى ، وإن كان متصلاً بالمصير والقول عنها موائمة وابتعاد عن الشر .

. خيانة الأقرب إلى النفس مثل الأخ لأخيه ، والأب لابنه ، وعدّها فرصة لا تعوض . وهذه تؤشر جميعها ، وإن كان تكرارها محدوداً تدميراً أو تصدعاً للنظام القيمي¹¹⁴.

التواصل والتواد والتراحم

نصب صدام حسين نفسه حاكماً ، وحكماً ، وقاضياً ، وواعظاً ، ومرشداً ، ومنفذاً للأحكام في كل المجالات الشرعية وغير الشرعية ، وبهذا التقليد زوج الكثير دون ما وجه حق ، وطلق الكثير دون ما مسوغ ، بادئاً الخطوة بنفسه عندما طلق زوجة من زوجها واتخذها زوجة ثانية ، مقدماً للزوج المخلوع مكراً تعينه مديراً عاماً لتنازله الهادئ. وعندما استدعى امرأة تعمل مديراً عاماً في الرئاسة بطريقة تشبه الاختطاف من بيتها في بغداد ليتخذها زوجة ثالثة مع الأمر ببقاء الزوج المطلق في بيته معزولاً تحاصره إشاعات تسببت في ابتعاده عن الأهل ، والأقرباء ، وكأنه مصاباً بالجرب ، ثم عاود بعد حوالي السنة إرسالها إلى البيت بسيارة من الرئاسة مع أمر للزوج الأول بالزواج منها ثانية وكأن شيئاً لم يكن. علماً إنه أي صدام قد شرع قانوناً إبان تلك الفترة وما قبلها يحرم بموجبه تعدد الزوجات (إلا بحدود معينة مثل المرض ، وعدم الإنجاب مقروناً بموافقة الزوجة الأولى) لكنه أول من خرّقه كما ورد أعلاه معطياً المجال لرفاقه في القيادة التوجه لتقليده في حمى تسارع فيها الكثير منهم للزواج ثانية ، وربما ثالثة ، أو رابعة بعضها بقي طي الكتمان حتى وقتنا الحاضر.

¹¹⁴. ذكر في بغداد عام 1996 أن شخصاً قد باع سيارته بعدة ملايين من الدنانير وجاء بفيلوسه أكياساً وضعها في غرفة نومه وغادر البيت لينام خارجه خفراً في أحد مقرات الجيش الشعبي ، وبعد منتصف الليل شعرت الزوجة بشخصين ملثمين داخل غرفة نومها وكان للزوج مسدساً اعتاد تركه مع الزوجة التي سحبت من شدة خوفها وأطلقت النار على الملتزمين فأردتهما قتلى ، وبعد أن حضر الشرطة واستفاقت من الصدمة ، ورفع اللثام عنهما تبين أن المقتولين هما أبيها وأخيها ، وقد جاء بدافع السرقة.

لقد حصل صدام على هذا الحق في شريعة خاصة ، وتمادى في تعميمه على باقي العراقيين حيث :

أمر العديد من الأزواج بتطليق زوجاتهم بعد مقابلة الزوجة شاكية أمرا لا يستحق الشكوى ، أو عارضة عدم رغبتها في الاستمرار بعصمة الزوج .
زوّج في ذات الوقت أخريات دون موافقة الأهل .
شطب من دفاتر السجل المدني نسب أبناء إلى آبائهم الأصليين ، ونسبهم إلى آباء ليسوا حقيقيين¹¹⁵ .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد طبق الحزب نظام الشمولية ، والتعميم للعقوبات التي يفرضها بقصد الردع ، والتخويف ، فالمعدوم لأي سبب كان يتحمل أقرباؤه حتى الدرجة السابعة بدايةً ، وحتى الدرجة الأولى في السنوات الأخيرة الآثار الجانبية للذنب الذي لم يرتكبه ، فيفصل من كان في وظيفة حساسة ، أو ينقل إلى أخرى أقل أهمية ومكسبا في أحسن الأحوال .

يسجن في بعض الحالات أقرباء شخص ترك العراق تفاديا للإعدام ، أو اختفى من بين أهله ، أو من بين قضبان السجن ، ولا يسلم من ذلك حتى الأمهات وإن كانت أعمارهن قد تجاوزت السبعين ، فبات العديد ينكر أن له أخ ، أو ابن عم مقيم في الخارج ويتبرءوا والعشيرة سريعا من ابن لهم أعلن معارضته للنظام (رغم كونها صورية بقصد التخلص من البطش) لكنها وفي هذا الجانب تؤثر حالة ضعف خرقت النظام القيمي .

وهكذا ضعف التواصل والتواد والتراحم بشكل تدريجي قاد إلى حالة التصدع الشامل .
وإن كان للحزب والحكومة الدور الأول في خرق هذه القيمة الاجتماعية فقد جاء الحصار وظروفه القاسية للإجهاد على ما تبقى منها بعد أن وجد الابن صعوبة بتلبية واجب الزيارة لوالديه وهم في محافظة أخرى بسبب عدم امتلاكه أجرة الطريق ، أو خشية ترك البيت لاحتمالات السرقة ، واعتاد تأجيلها شهريا ومن ثم سنويا ، أو في المناسبات في أحسن

¹¹⁵. قتل عدنان خير الله وزير الدفاع في حادث طيارة مفقود أشرف عليه حسين كامل ، وفي العزاء ظهرت امرأة ادعت أنها زوجته (الثانية) ولها منه ولد وأبرزت الوثائق الثبوتية التي تؤكد صحة كلامها ، رحبت بها عائلة الرئيس أولا وضمتها إلى العشيرة ، وبعد انتهاء العزاء رسميا احتجت زوجته الأولى ابنة الرئيس (السابق) أحمد حسن البكر ، فأرسل المرافقون في الرئاسة من يأمر الزوجة الثانية بالسكوت ، ويزور شهادة ميلاد الطفل ، وذلك بتحديد نسبه إلى أحد أقاربها ، وانتهى الأمر ببساطة .

الأحوال ، فابتعد عنهم واتسعت المسافة ، أو الفجوة الاجتماعية بينهم فضعت رابطة التواصل والتواد بهم بشكل ملحوظ .

وهذه قيم عندما تخرق بشكل حاد ستتشكل بدلا عنها قيم سلبية مثل القسوة ، والأنانية فبات العديد غير قادر على التفكير إلا بمصيبته هو ، وبمستقبله هو ، وبمكاسبه هو وتفكيره هذا سحبه إلى تغليب مصالحه الشخصية على المصلحة العامة أولا وعلى مصالح الآخرين حتى القريين منه ثانيا .

النخوة والتكافل

أدير العراق في الثلاثين سنة الأخيرة بطريقة تفضي إلى التجزئة والعزل والتفريق بدءا من العائلة والعشيرة مروراً بالمحلة والقرية وإنهاء بالعراق أقوام وطوائف ، وكان لفلسفة الرقابة الشعبية ، والإصرار على استمرارها الأثر الكبير في ذلك رغم إدراك البعض في الجهاز الحزبي سلبياتها الجانبية لأن تطبيقاتها تثير التوتر ، وتؤدي إلى عدم الاطمئنان بعد أن تبين أن الخطأ فيها نسبته عالية ، خاصة في ظروف العراق الحالية التي أصبح الالتزام فيها قليلا والذاتية بينها عالية للحد الذي انتقلت هذه الفلسفة ، وتطبيقاتها خارج الجهاز الحزبي إلى عراقيين آخرين يمتازون بضعف شخصيتهم ، وزيادة نسبة الانتهازية فيها فأصبحت هذه الفلسفة آفة زادت من مقادير البغض والكراهية ، وحجمت كثيرا من اتجاهات عموم العراقيين للنخوة ، والتكافل الاجتماعي ، خاصة بعد اقترانها بالمكاسب السخية التي يقدمها الحزب والرئيس في بعض الحالات دون أن يعوا أن التجسس على البعض والساق التهم البعض الآخر حتى وان كانت تحت مظلة الوطنية ، والضرورات المرحلية ستؤدي إلى تحطيم الوحدة الاجتماعية للعائلة وتسقط من حساباتها قيم النخوة والإيثار، بالإضافة إلى ما تثيره من قلق وعدم اتزان خاصة عندما يجد غالبية المجتمع أنهم متهمون من قبل النظام ، وحركتهم في معظمها تتأسس على السعي الدائب لإثبات البراءة*.

* في اجتماع لكادر حزب البعث المتقدم عام 1986 أداره طه ياسين رمضان ، سأل عضو شعبة عن جدوى قبول تقارير معلومات عن أعمال واتجاهات آخرين في الحزب وخارجه يتبين في العديد منها أن صياغتها كانت بطابع العداوة ومصادقيتها مشكوك فيها، فكان رد رمضان إننا لو افترضنا أن مائة تقرير وصلتنا وكان تسعون منها ليس صحيحا وعشرة ، أو أقل منها فيه بعض الصحة فالحزب هو الرابع لأننا في هذه الحالة ضمنا أمن الحزب ، والثورة وبالتالي نؤكد الالتزام به نهجا عاما .

إن الأمثلة المذكورة ممارسات مهدت كثيرا لتغيير اتجاهات العراقيين ، وقيمهم وجاءت أوضاعهم الاقتصادية المتدنية ، وظروفهم الأمنية غير المضمونة بعد انتفاضة عام 1991 واستمرار الحصار لتكمل ما بدأه النظام في هذا الجانب إذ أن الجوع على سبيل المثال :

لم يفسح المجال للأخ أن يعين أخاه ، والابن المتزوج أن يقدم شيئا لوالديه بعد أن يشاهد أولاده يتضورون جوعا .

وإن جاء الأخ ، أو الأب ، والقريب منتخيا لم يجد في الذين انتخاهم ما يحفظ ماء وجهه . فاعتكف الغالبية يندبون حظهم العاثر منتظرين يوم الفرج الذي لا دور لهم في التعجيل بقدمه .

وهذه أمور لم يؤد تكرارها إلى عدم قدرة الفرد إيفاء الحقوق الأساسية للعائلة ، والاخوة ، والصداقة ولم تضعف معايير النخوة اتجاه الأخ والقريب فقط وإنما وضعت العراقيين في حالة لا ينتخون فيها مجاميع متألّفة للتخلص من مصيبتهم المشتركة (نظام الحكم الحالي) التي أوصلتهم إلى حالة التردّي وحياة البؤس والعوز والشقاء .

الأمانة

لم تعد المحافظة ، أو عدم المحافظة على مال الغير مشكلة يعيرها كثير من العراقيين اهتماما في الوقت الحاضر ، وفي مجالها :

نسمع كثيرا أن فلانا قد أودع مبلغاً ضخماً عند صديق ليحافظ عليه ، أو ليشغّله ، وبعد أن احتاجه طلب من صديقه إرجاع الأمانة ، فأعذر الصديق لأنه تصرف بالمبلغ دون الرجوع إليه .

وقسّم أبو قراط في أمانة الطب المهنية وضعه البعض من الأطباء جانبا فبات من السهل أن نسمع مريضا في خطر أبقى خارج غرفة العمليات حتى يسدد أهله التأمينات اللازمة . وقسّم الضباط في الكلية العسكرية بصيانة الأمانة ، والذود عن الوطن نسيه العديد منهم في خضم الحسرة على وطن أحرقه القادة عمدا فبات من المألوف أن نرى بعضهم يتمتع بحرق قرية في الأهوار ، أو بإزالة أخرى من على حافات الجبال دون أن يجهد نفسه بالتفكير عن المخاطر الحقيقية التي تهدد وطنه ، وأهل بيته .

وميزان العدالة أراحه بعض القضاة من على مناضدهم. وصدقوا حكماً بالإعدام على قوائم أسماء أرسلت إليهم من الرئاسة¹¹⁶ وهم يعرفون أن من فيها قتل تصفية ، أو تعذيباً في أوقات سابقة، والأمانة العلمية لم يتجاوزها قسم من الأساتذة، والباحثين فحسب بل تعودوا التهكم على من يذكرها بحضورهم ، وأصبح بسببها :نجاح الطالب بمقابل مادي مقبولاً . وبيع الأسئلة في الامتحانات الوزارية ليس غريباً . وتحويل نتائج البحوث بما يرضي الحاكم دارجاً. وإذا كان الأمر كذلك فكيف لنا أن نعتب على نائب ضابط في دوائر التجنيد يخفي معاملة تسريح جندي مكلف لحين تقاضي الثمن المناسب. وعلى مفوض المرور وهو يساوم على ثمن تسوية مخالفة مرورية بفطور لم يستطع تناوله في البيت. وعلى موظف في التسجيل العقاري طلب مبلغاً ضخماً من المال لقاء تسجيل أرض سكنية مملوكة لشخص غادر العراق قبل سنين باسم آخر زوراً . وعلى ضابط في السفر والجنسية حدد مبلغاً ليس قليلاً لقاء إخراج جواز سفر لشخص ممنوع من السفر . وعلى ضابط شرطة غير إفادات المتهمين ، وأخفى الأدلة الجرمية لتبرئة مجرم من تهمة قتل لقاء ملايين من الدنانير . وعلى منتسبي مركز شرطة اتفقوا مع موقوفين بعهدتهم على الخروج ليلاً للسطو على بيت، أو محل لهم نصيب في مكاسبه. وغيرها كثير من أوجه الخلل ذات الصلة بالأمانة في كافة جوانبها ، والتي يتجاوز البعض منها مسائل الخيانة بالصيغ المذكورة في أعلاه إلى أبعد من ذلك بكثير ليصل إلى مستويات الحط من كرامة الإنسان ، والإخلال بإنسانيته.

وتؤثر في ذات الوقت هدماً لكل قيمه الإنسانية¹¹⁷.

¹¹⁶. أكد العميد عضو محكمة الثورة في جلسة خاصة أن المحكمة تتلقى باستمرار قوائم ، وتطلبوا إصدار حكم الإعدام عليهم لمجرد تشييته قانونياً ، وهم يقومون بذلك مع معرفتهم التامة إنهم قد أعدموا من قبل أجهزة الحكومة الأمنية.

¹¹⁷. وصل أمن البصرة صيف عام 1998 رجل من بغداد يسأل عن ابنه المفقود من عدة شهور ، بعد أن أعياه السؤال في دوائر الشرطة ، والمستشفيات توجه فور وصوله بالسؤال عن ضابط في أمن البصرة كان قد جلب له توصية من ضابط أمن في بغداد تعرف به عن طريق الأصدقاء ، وبعد أن التقى الضابط المقصود على موائد الطعام في أكثر من مرة كان آخرها في كازينو على شط العرب جلسوا وشخص آخر يعتقد أنه مفوض في الأمن أيضاً، وأثناء تداول الحديث مر قريبهما شاب يبدو على مظهره معاناة لمرض عقلي ، فقال الضابط إلى زميله (هذا هو صيد اليوم أتبعه) ، وبعد أكثر من نصف ساعة عاد المفوض مشيراً إلى أسم المريض ، وعنوانه في المنطقة التي تقع خلف فندق الشيراتون ، عندها استغرب الأب ، وسأل الضابط ما علاقة الأمن بالمجانين ، وهنا دخل الضابط إلى الموضوع مباشرة فقال إذا كان عندك شخص محكوم بالإعدام لأي سبب كان فثمنه خمسة وعشرون مليوناً ، فزاد استغراب الأب مستفسراً ، وما علاقة المريض بالموضوع فأجاب الضابط أن الأمن العامة تأمر في الأشهر الأخيرة أن نرسل لها جثة المعدم ، وهنا يدخل دور

نتائج لا تمحوها السنون

إن واقع العراق المأساوي من الوضوح حدا لا حاجة لإثباته عمليا ، وإن المستقبل فيه مؤلما لا يستحق تسليط الضوء عليه كثير من العناء ، لأننا وإن تجاوزنا الاقتصاد عاملاً مؤثراً في كل مفردات الحياة ، وافترضنا أن ترميمه قد يحدث بعد رفع الحصار وانتهاء الأزمة .

وإذا غضينا الطرف عن التردّي في العملية التربوية ، والتأخر الحضاري الذي حل في العراق بسببها وأقنعنا أنفسنا اللحاق بالركب ولو من بعيد بعد تحسن الموقف .
وإذا ما تركنا موضوع الجيش ومسائل انضباطه ومعنوياته ، ومستويات أدائه ، وطائفية قيادته جانباً واقتصرت ذكرياتنا على مصائب حروب افتعلها النظام ، ومشاهد القتل ، والتدمير التي تخللتها وتمنينا أن لا تكون لنا حاجة بإعادة تنظيم هذا الجيش الذي عد يوماً الخامس في العالم .

وإذا ما نسينا أفعال الشرطة والأجهزة الأمنية ، واتفقنا أغلبيةً على تحجيمها وهدم سجونها ، وتقليل ميزانيتها ، واختيار كوادرها من غير القتلة والمجرمين، وبذلنا كل الجهد جماعياً لتقييد حركتها قانونياً .

وإذا ما قللنا من أهمية الاضطراب الإداري في عموم دوائر الدولة ، وتفاءلنا بإمكانية الترميم على أساس النزاهة ، والكفاءة ، والتخصص لمرحلة ما بعد صدام حسين .
وإذا ما عاد المسفرون بعد عشرات السنين من غربه أرهقتهم إنصافاً لحقهم في أرض الوطن .

وإذا ما رجع المهجرون إلى قراهم ضماناً لحقوقهم وسعياً لاستقرارهم .
وإذا ما استرجع المسلوبون أموالهم ، وأراضيهم ، وبيوتهم من البعثيين المغتصبين.

المريض إذ أننا وعندما يأتينا طالب فدية إلى أبنه ، أو أخيه المحكوم بالإعدام نذهب ونجلب المريض من الشارع ، ونعدهم بدلا من المحكوم فنحصل على المبلغ المذكور وطبعاً لأحد يتابع موضوعه حتى أهل الذين يعتقدون أنه تاه عنهم ، أو مات خطأ ، وختم حديثه الغريب هذا بالطلب من السامع أن يطمئن على ابنه حتى وإن كان محكوماً بالإعدام لأن خروجه ممكناً إذا ما تيسر المقسوم (أي مبلغ الفدية) .

وإذا ما أعلنت أسماء المفقودين شهداء مدفونين بلا هوية في صحراء الثرثار ، وبادية النجف، وكربلاء وعلى حافات أهوار الجنوب وسفوح الجبال ، واعترفنا بفضلهم الجهادي علينا ، وأقمنا لهم النصب التذكارية وفاءً لذكراهم .

وإذا ما سددت مليارات الدولارات ديون العراق ، والتزاماته حسنة ، أو تم التنازل عنها ثمناً لذبح العراق ، والعراقيين .

وإذا ما أعيد بناء البنى التحتية سريعاً ، وعاود العراقيون مزاوله أعمالهم بعيداً عن شبح البطالة ، والتضخم والاستغلال .

وإذا ما قبل العرب عراق بلا ذنوب في مصالحة التقبيل على موائد الطعام .

وإذا ما أعيدت للعراق مكانته إقليمياً ، ودولياً في النظام العالمي الجديد .

وإذا ما افترضنا (خلافاً لمنطق العلم) أن كل ذلك قد تحقق ، وإن آثاره المادية قد انتهت بانتهائه ، أو بعده بقليل .

و نتناول فقط الجوانب الأخرى غير المادية بينها القيمية (رغم التداخل الحاصل بينهما)، وعلى أساسها نحاول الإجابة عن أسئلة صيغت من بين متن الموضوع ، وفقراته المتعددة أملاً في أن تعطي الإجابة عنها تصوراً قريباً نسبياً عن مدى التصدع الحاصل في الجانب القيمي للعراقيين ، والأخطار الناجمة عنه ، منها :

ماذا نتوقع من مجتمع جند أكثر من نصفه في الجيش والحرس الجمهوري والأجهزة الأمنية والحزب ، وهم يغالون في تنفيذ أوامر السلطات نهاراً ، وينتقدونها حد الشتيمة في جلساتهم الخاصة ليلاً ؟

والإجابة على هذا السؤال لا تتوقف عند ترسيخ وتعميق الازدواجية التي اتهمت بها الشخصية العراقية عبر القرون بل تتعداها إلى ما يحدث من تعارض ، وتضاد في النسق القيمي :

بين عنصري الاعتقاد والوجدان .

وبين الاعتقاد والسلوك .

وكذلك بين السلوك والوجدان .

أو بين كليهما الاعتقاد والوجدان من جانب والسلوك من جانب آخر .

تضاد يؤدي بمحصلته النهائية إلى لوم الذات واحتقارها حد المسخ لكيان شخصيتها .

كيف يمكن أن يستمر المجتمع منتجاً والنفوس خاوية ، خائفة ، متهمه ، تحمد الله على أن عقاب الحزب لم يطالها عن كلام قيل بغير قصد ، أو عن ابن حاول الضحك على حاله البائس ، أو ابنة لم تدع أبناء المسؤولين يتمتعون بجمالها ، أو عن أصل عريق يثير عدوانية الرعاع من أقرباء الحاكم ؟

إن حالة العراقيين الراغبين بالسفر إلى الخارج وقت وصولهم نقطة الحدود في (طربيل) وما ينتابهم من قلق ، وتوتر قبل ، وأثناء المراجعة وما يتمتعون به من نشوة وفرح بعد اجتيازها تشبه من كان متهماً بجريمة قتل وبراً منها ، أو مسجوناً سجيناً مؤبداً وأفرج عنه ، والتي لا تعطي انطبعا عن عمق المعاناة ، والرغبة في التخلص من حالة الاتهام المستمرة فقط ، بل وعلى الخواء ، ومقدار الخلل في كافة المجالات ومنها المجال القيمي . كيف يدار مجتمع مثل العراق بأساليب الخداع ، واتجاهات شراء الذمم ، والرغبة بتعميم التعود على أكل الحرام ؟

قيادة البعث الحالية في العراق لم تسجل في تاريخها اهتماما بالعوز ، وانخفاض مستويات المعيشة بالقدر الذي تتاجر بها مأساة لتحقيق أهدافها الآنية المرحلية ، كما هو الحال في منع الدواء عن الأطفال والشيخوخ حد الموت بحجة نقصه ، والكثير من أنواعه متوفرة لمستوى إتلافها بسبب انتهاء وقت صلاحيتها ، وكذلك بالنسبة إلى توزيع المبالغ شهريا على البعثيين الأعضاء والقياديين لدفعهم وهم جائعون إلى تنفيذ الأوامر في مراقبة الآخرين ، وإعدام المعارضين ، ومتابعة الهاربين ، والسكوت عن الأخطاء ، والتجاوزات ، والفضائح ، لكنها لم تضع في حساباتها أن تخريب الذمم هذه سيكون سلوكاً يعتاد المعنيون على ممارسته ليس في إطار التعامل مع معطيات أمن الدولة وخدمة القائد فقط ، وإنما ستمتد ممارسته إلى التساهل مع النفس في التجاوز على المال العام ، والتقليل من وخز الضمير عند التقرب إلى مسائل تصل حد خيانة الوطن .

كيف يمكن أن يكون الضبط ، والتوازن الاجتماعي في بلد استبدلت فيه قيم تتعلق بتحريم السرقة ، والقتل ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ... الخ بأخرى تبيح اغتصاب دار شخص ترك العراق مقهوراً ، وسرقة أموال آخر كونه من أصول غير عربية (بتقدير البعثيين العرب) ؟

للإنسان ميول واستعدادات باتجاه الشر وأخرى لعمل الخير ولدت معه ، واستمرت مرافقة لوجوده في هذه الدنيا ، وعلى أساسها جاهدت الأديان السماوية بوضع معايير

الحلال والحرام ، وكذلك المجتمعات البشرية بتعميم التقاليد والقيم التي تشكل جميعها ضوابط توجيه ، وسيطرة لغرائز الإنسان ، ونزواته ، ولتسهيل معطيات عيشه بأقل ما يمكن من المعاناة ، والخطأ الحاصل مع النفس ، أو مع الآخرين . وفي إطارهما عندما تصبح :

السرقه سلوكاً لا يتوقف عنده البعض .
الرشوة حالة مقبولة لا تثير الاستغراب .
الزنا مسألة واردة لا تؤدي إلى التحسب .
القتل رغبة أولى في الانتقام .
الكذب صفة شائعة بين الجموع .

وغيرها من معالم التجاوز على الضوابط والمعايير والمعتقدات ، عندها يمكن القول أن خلافاً في النظام القيمي قد حصل وأن معالم الفوضى والاضطراب ممكنة الحدوث في أي وقت من الأوقات .

كيف لنا أن نتصور مجتمع يعي فيه الجميع ما لحق بهم ، وبدولتهم من خراب وكثير منهم يكتمون ، وأئمة مساجد يدعون في صلاة الجمعة أن يطيل الله في عمر الرئيس وفي داخلهم يكفرونه بكل معنى الكفر ، وجموع خلفهم يرددون كلمه (آمين) وهم مقتنعون بظلمه ، ومسئوليته عن مأساتهم ؟

إذا نظرنا إلى مسألة كتم الحق من الزاوية الدينية فأنها عدت من الكبائر التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها في سورة المائدة (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) .
وان نظرنا إليها من الزاوية الاجتماعية فإنها تعني قبول الواقع الذي يفرضه الحاكم قبولاً يدفع إلى الشعور باليأس ، والابتئاس ، والاستسلام . وان استسلم مجتمع بهذه المعايير القيمة في وقتنا الراهن فان الاستعداد لاستسلامه لمعايير سلبية أخرى غدا سيكون موجوداً .

ويعني أيضاً شعور بالذنب أرهق العراقيين ، وسيزيد من إرهابهم بمرور الوقت ، وتقادم الزمن .

كيف لنا أن ننظر إلى عراق مستقبلي نسيّ فيه عديد من العراقيين عراقيتهم في خضم اليأس بالتعامل مع أزمتهام داخليا وخارجيا ، وبات فيه الكثير منهم يتخبطون بين حاضرهم المؤلم ، ومستقبلهم المجهول ؟

أدخل صدام العراق حرباً مع إيران خسر فيها الكثير من قيم الجيرة ، والعلاقات النزيهة إسلامياً ، وعاود خطاه بغزو الكويت فخسر أخرى عربياً ودولياً ، أزعجت العراقيين وزادت من همومهم ، عززتها مواقف الدول العربية ، والعالمية التي عزلت العراقيين ، وحاصرتهم بالمستوى الذي أحس العديد منهم وخاصة الذين لم يتمكنوا من أدراك الواقع أن معاقبتهم كانت لأسباب لا دخل لهم فيها ، وهذه مشاعر وأحاسيس لا يتوقف تأثيرها عند عدم الاعتزاز بالانتماء بل ستؤثر سلباً على الكثير من المبادئ ، والأهداف ذات الصلة بالوطن والأمة التي تحفظ للإنسان كرامته ، وحرية ، وأمنه في وطنه .

. كيف يمكن أن نتصور بلد فيه احترام القانون ، أوشك على الانتهاء ، وقضاته يختارون تبعاً لولائهم للحاكم ، ومقدار تنفيذهم لتوجيهاته ، وبعضهم بات مرتشياً دون تحسب ، أو وجل ؟.

إن إحساس عموم العراقيين انهم متهمون يدافعون عن أنفسهم طوال الوقت حقيقة تكفي وحدها لوصف حالتهم بالبؤس ، والشقاء ، والشعور بالإحباط الذي يولد عدواناً ضد الدولة بشكل عام ، وقضاؤها على وجه الخصوص ، وإذا ما أضفنا إليها حقائق ما يجري في المحاكم ، وسماستها ، وتجاوز بعض قضاتها لمستوى خوفهم من الحكم ببراءة بريئين أحياناً ، أو عدم تجريمهم مجرمين أحياناً أخرى ، وانفراد شخص الرئيس بالتشريع ، وعدّ كلامه وتوجيهاته قوانين قابلة للتغير بين لحظة وأخرى جعل القضاء مثقلاً ، واحترامه متدنياً وهذا سيفضي بطبيعة الحال إلى مصاعب في ضبط السلوك غير الصحيح ، ويزيد من نسب الجرائم ، ويكثر من التجاوزات التي ستتسارع وتأثرها مع ضعف السلطة ، وانشغالها بأمن الرئيس وعائلته .

. أين يمكن أن نضع مستقبل الأبناء في مجتمع تتزايد فيه حدة الخصائص السلبية مثل التزلف ، الوصولية ، الانتهازية ، المحاباة... الخ ، لمستوى بات البعض منها قيماً يتمسك بها العديد من الآباء ؟

إن الحاجة والعوز يقابلهما عطاء يشبع حد التخمّة أساليب تحرف سلوك البعض ممن تتوفر في داخلهم استعدادات معينة للانحراف انحراف تزداد سرعته ونسبة حدوثه عندما يجد تعزيزاً من السلطة الضابطة (الدولة) .

كما هو الحال في العراق عندما يبذخ الرئيس مالاً لا حدود له لمحتفلين في عيد ميلاده وكثير من العراقيين يتقاسمون وجبات الغذاء أدواراً في العائلة الواحدة ، ويعطي المكارم

أموالا طائلة لقائل شعر في مدحه وملقي خطبة لتمجيده ، وعشرات من الشعراء النزيهين ، والأدباء الخيرين ، والفنانين ، المتألقين ، والأساتذة المخلصين تتضور عوائلهم جوعاً ورواتبهم لا تتعدى الأربعة دولارات في أحسن الأحوال .

والموازنة غير المنصفة بين الاتجاهين (الجوع والتخمة) دافع في زمن الأزمة كَوْن سلوكاً للتلزف امتدت معالمه عن طريق التقليد إلى شرائح ليست قليلة من المجتمع ، وانتقلت مستويات تطبيقه إلى قادة الدولة ، والحزب نزولا إلى المدرء في السلم الوظيفي حتى أصبح قيمة يؤمن بها الكثيرون ، معتقدين أنها ضرورية لعيشهم ، وكافية لدرء خطر الحزب والدولة عنهم .

لكنها ومن الناحية الثانية ستضيع الكثير من حقوقهم وتحول العديد منهم إلى بيادق شطرنج ، أو راقصين في مسرح الدولة الكبير .

.كيف لنا أن نتصور مجتمع ضاع فيه التجانس القيمي على كافة الأصعدة والمستويات ؟ نتلمس ونحن في العراق الجديد تناقضات محيرة في سلوك العديد من رجال الدولة وحمااتها ، وآخرين يعيشون زمانها، منها على سبيل المثال :

قيام مسؤول في الدولة أو الحزب بإعدام مجموعة شباب تحسباً من معارضتهم مستقبلاً، ويتوجه لبناء جامع ، وتأسيس تكية لممارسة بعض الطقوس الدينية .

يغتال أحدهم عراقياً شريفاً في الشارع لانتمائه إلى عشيرة ، أو طائفة تناصبها الحكومة العداء ، و يغتصب آخر فتاة في مزرعته العامرة لجمالها أو لأصلها العريق ، ويؤدي بعدها صلاة الجمعة التي يدعو فيها من الله العلي القدير أن يديم عليه النعمة .

يقبل أحدهم رشوة عن تزوير يتناول فيه على حقوق البسطاء ، ويفتش بعد استلامه المبلغ عن محتاج لزكاة لازمة عليه .

يسعى جار ، أو قريب لينتفع من جاره المنكوب ، ويفتخر بفطنته ودهائه أنه قد سوق له سلعة لا تساوي ثمنها في السوق الاعتيادية ، وفي جلساته الخاصة يؤكد على أفضلية الأقارب وحقوق الجيران .

في خضم هذه التناقضات لا يمكننا القول إلا أن التجانس القيمي قد اختلت موازينه وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نتوقع تطرفاً في سلوك العراقيين سواء على المستويات العشائرية ، أو المذهبية ، أو الفكرية وهو تطرف إذا ما تنامت مستوياته في ظل الإدارة الحالية السيئة سيؤدي بالعراق إلى مستقبل أكثر إيلاماً .

. ما هو مستقبل أمة شاع بين سلوك أبنائها عدم تحمل المسؤولية ، وقلت معطيات النخوة حداثاً كادت أن تنتهي قيمة اعتز بها العراقيون طيلة قرون من الزمان ؟
لو القينا نظرة بسيطة على أداء العراقيين في وظائفهم المدنية وأسلوب إدارتهم لمؤسساتهم العسكرية نجد وبما لا يقبل الشكل أن الواحد منهم يتصرف بما يبعده عن أية احتمالات للمساءلة أمام الدولة ، والأعلى في السلم القيادي ، وعلى أساسه لا يتحمل مسؤولية أي قرار فيه شك يسحبه لذلك حتى وإن كان ضمن صلاحياته ، وجاء هذا السلوك بسبب تدخل الدولة ممثلة برئاسة الجمهورية في تفاصيل نقل موظف بدرجة ملاحظ من محافظة إلى أخرى على سبيل المثال ، وجاءت كذلك من ميل الرئيس والرئاسة إلى أسلوب العقاب السريع والارتجالي دون اكتراث لاحتمالات البراءة ، وكذلك من افتراضها النوايا السيئة عند الآخرين ، وشكها المستمر في سلوكهم ، وهذه إجراءات دفعت مع غيرها العراقيين إلى التلكؤ في اتخاذ القرار ، وعدم الميل إلى المبادرة تفادياً لتحمل المسؤولية ، وانعكست آثارها سلباً على رغبتهم ، ودافعيتهم في المطالبة بحقوقهم ، وستؤدي حتماً إلى التأخير في إعادة بناء بلدهم المدمر .

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن العراق قد مر وما زال كذلك بظروف غير طبيعية يتحمل حزب البعث الحاكم وصدام حسين المسؤولية الأكبر في حدوثها ، وهي ظروف شكل استمرارها ضغوطاً على عامة العراقيين لمستوى غير من اتجاهات إيجابية كانت موجودة لديهم ، وعزز من أخرى سلبية كان وجودها إعتيادياً ، وهذا بطبيعته يخل بالنظام القيمي ، لأن المحافظة عليها ، أي القيم ، أو اكتساب غيرها يأتي أساساً من التمسك باتجاهات ، أو التفاعل مع آخرين يتمسكون بها ، وهو خلل لم يقتصر تأثيره السلبي على الأجيال الحالية ، بل سيمتد إلى القادمة لأن القيم أنساق لها علاقة بالتنشئة الاجتماعية ، والتنشئة عملية إعداد الفرد للحياة في مجتمعه الكبير ، والخلل فيها يعني إعاقة لذلك الإعداد .

وإن نظرنا إلى المجتمع العراقي من الزاوية القيمية نظرة تحليلية دقيقة على ضوء النقاشات ، والاستنتاجات الواردة في أعلاه :

نرى وبوضوح أنه مجتمع قد تصدعت فيه أكثر مقومات التوازن القيمي ، وإذا ما وضعنا بالاعتبار أن المجتمع مرآة يرى الفرد فيها نفسه ، نصل إلى حقيقة أن صورة الفرد عن نفسه قد تصدعت هي الأخرى .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر معالم كثير من السلوك الشائع للعراقيين أخيراً الذي بدأ يبتعد عن الألفة ، والمودة ، والمشاركة ، والتضامن ، والرغبة بالتغيير والسعي للإصلاح وأخذ يقترب أكثر فأكثر إلى القسر ، والأنانية ، وعدم تحمل المسؤولية ، والشعور بالإحباط ، واليأس المستمرين ، رغم التزامنا بحقيقة أن للسلوك عوامل أخرى تقرر غير القيم ، لكننا وبنفس الوقت لا ينبغي أن نتجاوز حقيقة تؤكد أن هناك قيم لها بنیان يجعلها تدفع إلى السلوك أكثر من غيرها .

وعلى نفس الأسس يمكن أن نفسر ابتعاد البعض من العراقيين عن التفكير في الحلول المحتملة لمعضلة العراق ، وتوجه البعض الآخر للاتكاء فقط على الغير لأن يحلوا لهم مشاكلهم ، ويخلصوهم من الظالم الذي استبد بهم ، واكتفاء الآخرين بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يقيهم شره ، ويعجل بالانفراج ، ورفع الغمة عن الجميع . من كل هذا يمكن القول أن أغلب العراقيين قد وضعوا في دائرة مغلقة للأفكار ، والقيم تتفاعل معطياتها مكونة أنواعاً من السلوك ، وأنساقاً من القيم تصب في روافد بقاء الظلم ، والقهر ، والابتزاز ، وتزيد من الثمن الذي يدفعه الناس من حاضرهم البائس ، ومستقبلهم المجهول .

وقبل أن ننهي التحاور في الحصيلة التي أضرت بالنظام القيمي العراقي كنتيجة لكل الحروب التي أقامتتها الحكومة ولأساليبها الخطأ في الإدارة علينا التنويه أن ما تم تناوله ليس مسحاً لكل القيم الموجودة في المجتمع العراقي ، ولا تقديراً لنسب التحوير ، ومقادير التصدع الحاصل فيها بل جاء البعض منها أمثلة على سبيل الإيضاح ، وإشارات لغرض الاستنتاج ، لغايات بينها :

. وضع الحقائق كل الحقائق حتى المؤلمة منها أمام العالم ، والعراقيين .
. المساعدة في توضيح الصورة المرسومة للواقع المعاش جهد الإمكان .
. رغبة في أن يتحمل كل عراقي نصيبه في إعادة رسم هذه الصورة المشوهة أي تغيير الواقع ، وبحسب قدراته المتاحة .

وهو موضوع فيه من الحساسية التي قد تثير مشاعر عدم الرضا عند البعض الذي يحاول أن يستخدم ما ورد فيها مسطرة قياس على نفسه والقريين منه ، ويقرر صحة ما يقرأه في هذا العرض من عدمها ، ولهذا السبب تم الاستشهاد بكثير من الحقائق ، والأمثلة ، والتشبيهات التي صيغت بطريقة خاصة لتجاوز التعميم والتركيز بدلاً عنه على

كلمات تعبر عن مقادير قوامها (البعض ، والغالبية ، والأكثرية ، والأقلية) تناسب العرض التحليلي الوصفي ، وتحل إشكال الابتعاد عن النسب ، والأرقام التي تعد صعبة في موضوع يتعلق بنتائج عديد من الحروب التي شنها الحزب الحاكم ، وبآثارها السلبية في المجال القيمي الذي يشكل تصدعه خسارة للعراق يصعب تجاوزها في المستقبل القريب .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : السير في طريق الحرب	
الحرب أحد معالم الصراع	
العسكر والحرب	
العراق البعثي والحرب	
العسكر بعيدا عن سلطة القرار	
الدفع باتجاه تنفيذ أمر الحرب	
الإخلال بمهنية الجيش	
عسكرة الحزب خطوة إلى الحرب	
تعبئة الحرب	
الفصل الثاني : نوايا عبر الحدود الشرقية	
انقلاب القصر	
التقرب من خط الحدود	
التحرك الإيراني لصياغة الحدث	
المناورة أحد الأسلحة المتاحة	
التصادم عبر خط الحدود	
وقفة لالتقاط الأنفاس	
الفصل الثالث : الصراع الصامت في جبال كوردستان	
القضية الكوردية في المنظور الحكومي	
الحكم الذاتي صيغة حكومية	
العودة إلى الجبل	
إعادة ترتيب التحالف	

الحسم على قمم الجبال
حصيلة أوجه القتال
المعركة الاستخبارية الصامتة
الفصل الرابع : حرب تشرين المشاركة والنوايا
الحرب الرابعة
الحرب في الذاكرة العراقية
استبعاد العراق من الإعداد للحرب
قرار المشاركة في الحرب
العبور إلى الجبهة
الهجوم المقابل ووقف إطلاق النار
الانسحاب بنوايا الإحراج
التهويل الإعلامي للمشاركة
النوايا التي لم تغيرها الحرب
الفصل الخامس : معارك بين الرفاق
الحرب والسلوك الحزبي
التهيؤ إلى مرحلة العنف
اتجاهات التكتل في الميدان
صراع الأجنحة غير المعلن
تمرد الأقوياء
هدنة بين الرفاق
التوجه إلى الرفاق خارج الحدود
مذبحو في قاعة الخلد
نهاية الرفيق القائد
الفصل السادس : حرب الثماني سنوات ... الهجوم العراقي
صفحة الحرب الأولى
استعادة الموروث في الذاكرة البعيدة
إبعاد الإمام الخميني عن العراق

الدفع باتجاه الصدام المسلح
القتال على طرفي الحدود
نهاية صفحة الحرب الأولى
الفصل السابع : حرب الثماني سنوات ... الحرب نفسيا
ساحة الحرب
إطالة أمد الحرب
التعبئة النفسية الإيرانية للحرب
التعبئة النفسية العراقية للحرب
التحرك خارج ساحة القتال
تطورات الحرب في الميدان
الفصل الثامن : حرب الثماني سنوات ... النهاية الناقصة
إعادة حشد القوى
معارك لتحريك الموقف
الدعم الدولي للعراق
الفاو بداية النهاية
معارك فرض النهاية
القرار الذي تأخر ثماني سنوات
رواسب في الذاكرة
الفصل التاسع : حرب الخليج الثانية ... الغزو
رواسب حرب الثماني سنوات
النظر باتجاه الخليج
الدوافع غير المعلنة للغزو
العوامل النفسية لفعل الغزو
خطة الغزو
الغزو وفعل الصدمة
جهود الوقت الضائع
الفصل العاشر : الهجوم الجوي

التحالف الدولي لشن الحرب
الهجوم الجوي
الجهد النفسي قبل المواجهة
مذبحة العامرية
تحديد وقت الهجوم البري
تنامي الشعور بالعزلة
مشروع الفرصة الأخيرة
ساعات الانتظار
الفصل الحادي عشر : حرب الخليج الثانية ... القتال بعيدا عن أهداف الحرب المعلنة
حالة الترقب
الهجوم برا
التحول المفاجئ
الكارثة وسط العسكر
الموقف العسكري في جانب الحلفاء
وقف إطلاق النار
نظرة إلى بعض الخسائر
الفصل الثاني عشر : انتفاضة شعب
إرهابيات حرب الخليج
تصدع السلطة الضابطة
التحرك غريزيا
الشخصية البدوية وسط المنتفضين
العسكر في الوقت الحرج
حمى الانتقام
نظرة إلى موضوع الخسائر
الانتفاضة في الميزان السياسي
الانتفاضة في الميزان النفسي
الفصل الثالث عشر : الأنفال

ثبات النوايا
الهدوء القلق
التحرك بنوايا القتال
قتال الإبادة
الوجه الآخر
نقرة السلطان
التيه في طريق العودة
الفصل الرابع عشر : قتل الذات العراقية
أجهزة الدولة الضابطة
اضطراب الوعي الجمعي
اضطراب السلوك الجمعي
اضطراب الأداء السياسي
اضطراب المعايير الوطنية
أزمة فك القيد
الفصل الخامس عشر : من حصاد الحروب ... تصدع النظام القيمي
القيم موجهاً السلوك
النظام القيمي العراقي
التمهيد للانحراف القيمي
مرحلة الانحراف القيمي
مرحلة التصدع القيمي
نتائج لا تمحوها السنون